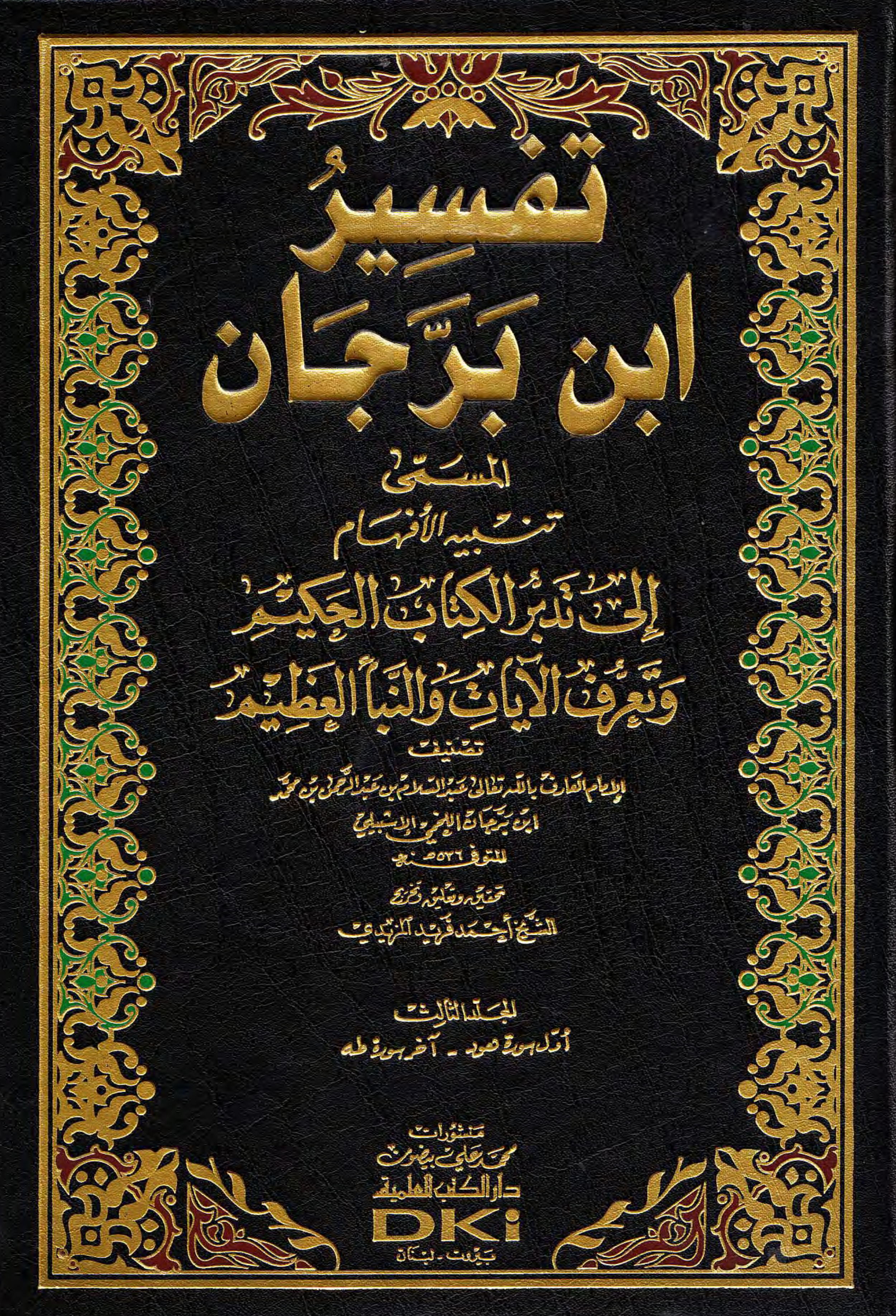

تفسير
ابن برجان
المسمى
تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم
تصنيف
الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ
تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي
المجلد الثالث
أول سورة هود - آخر سورة طه
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث

أول سورة هود - آخر سورة طه



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMĀ
TANBĪH AL-AFHĀM ILA TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

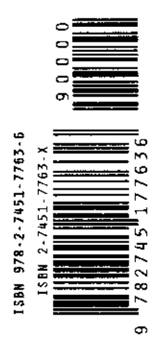
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes)	2880	عدد الصفحات (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		الطبعة : الأولى (لونان)

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة هود عليه السلام

[فيها من المنسوخ أربع آيات][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)﴾ [هود: ١ - ٦].

قوله جلَّ قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) صارت محكمة متقنة، لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم، وقيل معناه: إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، وهو المحكم الذي لم ينسخ؛ وقيل معناه: أحكمت آياته بالأمر والنهي، ثم فصلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وقيل: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام، وقيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته، وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت بالوحي، وقيل: أيّدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله؛ وقيل معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذًا من قولهم أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح، و﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ معطوف على ﴿أحكمت﴾ ومعناه ما تقدّم، والتراخي المستفاد من «ثم» إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، وإما رتبيّ إن فسر بغيره مما =

[هود:١] لفظة «لدن» تدل على خالص الخاصة، فالعلم اللدني هو العلم الخاص.

قال الله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يريد - وهو أعلم - النبوة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥] [فوصف من العلم الذي أتاه الله، فإذا هو خارج عن طاقة البشر والمعهود من علم النبوة][١].

وقال في أهل مكة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧] وإنما ذلك عن كلمة الله جلَّ ذكره في ذلك تصديقًا لدعوة إبراهيم ﵇ في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] [وهذا][٢] مصداق لقول رسول الله ﷺ: «الحج يهدم ما كان قبله»[٣].

قوله ﷻ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود:٢] [أي: إني لكم منه نذير، ويشير][٤] إلى

تقدّم، والجمل في محلٍ رفع على أنها صفة لكتاب، أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف، وفي قوله : ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أربعة أقوال: أحدها: أُحكمت فما تُنسخُ بكتاب كما نُسخت الكتب والشرائع، قاله ابن عباس، واختاره ابن قتيبة، والثاني: أُحكمت بالأمر والنهي، قاله الحسن، وأبو العالية، والثالث: أحكمت عن الباطل، أي: مُنعت، قاله قتادة، ومقاتل، والرابع: أُحكمت بمعنى جُمعت، قاله ابن زيد، فإن قيل: كيف عمَّ الآيات هاهنا بالإحكام، وخص بعضها في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾؟ فعنه جوابان، أحدهما: أن الإحكام الذي عمَّ به هاهنا، غير الذي خَصَّ به هناك، وفي معنى الإحكام العامّ خمسة أقوال، قد أسلفنا منها أربعة في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ والخامس: أنه إعجاز النظم والبلاغة وتضمين الحِكَم المعجزة، ومعنى الإحكام الخاص: زوال اللَّبس، واستواء السامعين في معرفة معنى الآية، والجواب الثاني: أن الإحكام في الموضعين بمعنى واحد، والمراد بقوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾: أُحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس، فأُوقعَ العمومُ على معنى الخصوص، كما تقول العرب: قد أكلتُ طعام زيد، يعنون: بعضَ طعامه، ويقولون: قُتلنا وربِّ الكعبة، يعنون: قُتل بعضنا، ذكر ذلك ابن الأنباري. [زاد المسير ٣/٣١٨].

(١) في النسخة (ق): «فإذًا العلم الذي قصه علينا خارج عن طاقة البشر وعن أكثر علم النبوة».

(٢) في النسخة (ق): «وذكره الشكر».

(٣) أخرجه مسلم (١٢١)، وابن خزيمة (٢٥١٥) بلفظ «الإسلام» بدل «الحج».

(٤) سقط من النسخة (ق).

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤] هذا للقرآن [العزيز][(١)] بمنزلة العنوان، وهي سبعة فصول عليها دار القرآن: **أولها**: اسم الألوهية، **وآخرها**: مقتضى اسم شديد العقاب وأليم الأخذ ونحو هذا، واسم الألوهية [بجميع][(٢)] الجميع، ثم ينفصل السبعة الفصول إلى مائة فصل، وقد مضى ذكر هذا، وأنها على عدد أسماء الله جلَّ ذكره التسعة والتسعين، تمام المائة اسم «المزيد» وهو ما لا يعلم له تناهٍ، وجاء: إن الجنة مائة إقليم.

وجاء عن رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمائة درجة ما بين كل [درجة][(٣)] منها كما بين السماء والأرض [أعدها][(٤)] الله للمجاهدين في سبيله**»[(٥)].

فصل

الذي تقرر عليه ما جاء من فحوى القرآن العزيز من مفهوم هذه الحروف المعجمة في أوائل السور أنها عن كتاب أو كتب منزلة عن حروف أم الكتاب، [وفيه][(٦)] هذه واسطة بين [حروف][(٧)] هذا القرآن وبين [أم][(٨)] الكتاب وآية عليها، أخبر بذلك القرآن العزيز نصًّا وتعريضًا، فإنه كما أنزل الله ﷻ هذه الكتب التي هي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن [إلى الأرض][(٩)]، ولا ينبغي أيضًا أن ينكر أن الله جلَّ ذكره أنزل أيضًا كتبًا إلى حيث شاء من العلو [تحت العرش لحكمة][(١٠)] له في ذلك، [مع ما جاء عن رسول الله ﷺ قال][(١١)]: «**إن الله كتب على نفسه كتابًا قبل أن**

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «يجمع».
(٣) في النسخة (ق): «درجتين».
(٤) في النسخة (ق): «أعدهن».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) في النسخة (ق): «حروفه».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «حروف».
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) في النسخة (ق): «بحكمة».
(١١) في النسخة (ق): «وقد جاء في صحيح ما بلغ إلينا».

يخلق السماوات والأرض بألفي سنة، أنزل [الله منها إلى الأرض][(١)] **آيتين ختم بهما البقرة»**[(٢)].

[وجاء عنه أيضًا أنه قال له الملك - عليهما السلام - «**إن الله أنزل عليك قرآنًا من كنز تحت العرش»**[(٣)].

والحديث الذي يذكر فيه أن ملكًا نزل عليه من السماء من باب لم يفتح قط قبل ذلك اليوم، فقال: «**أبشر يا محمد بآيات أنزلت عليك من تحت العرش لن تقرأ بواحدة منهن إلا أعطيته: أم الكتاب وخواتم سورة البقرة»**[(٤)]][(٥)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ يوم استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا هو عنده على العرش [فيه]** [(٦)]: **إن رحمتي سبقت غضبي»**[(٧)] وفي أخرى: «**تغلب غضبي»**[(٨)].

وقال الله جلَّ قوله: ﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ....**﴾ [الأنعام:٥٤] فأخبر بصدق قيله ﷻأنه كتب على نفسه الرحمة، وجاء - أن هذا القرآن أنزل ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وإنما كانت حروفه فيما هنالك هذه الحروف المعجمة، ثم نزلت عن ذلك تنزيلاً تنزيلاً إلى [حروف][(٩)] هذه فالله أعلم؛ إذ ليس من الواجب في الوجود أن يكون ذلك القرآن فيما هنالك بلسان العرب.

فبهذا البلاغ ونحوه تقرر عند من نفى الخطاب أن لله جلَّ ذكره كتبًا سوى هذا الكتاب وسوى المنزلة قبله وسوى أم الكتاب، وأم الكتاب أم لهذه الكتب [كلها

---

(١) في النسخة (ق): «منه».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/١٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ما بين[ ] يوجد تقديم وتأخير واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) تقدم تخريجه.

(٩) في النسخة (ق): «حروفنا».

كأمنا](١)، أي: [إمامها](٢) عنه فُصلت ومنه نزلت، لكل كتاب حروف استوت كلها في أنها [منيبة](٣) عن المراد بها، وأن ما هو أقرب من أم الكتاب هو أعرف في العلاء، وأسمى في صفة الإحكام كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] أي: [علا عن صفاتك](٤).

وكل كتاب مفصول مما فوقه مُفصَّل منه ما دونه كما أن الكتاب الذي قال للقلم: «اكتب» قال: وما أكتب يا رب؟ قال: «اكتب علمي في خلقي»(٥) هو أم الكتب كلها، وكلها مُفصَّلة عنه كما قال عزَّ من قائل: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت:١ - ٢] هذا [في](٦) وصف الحروف المعجمة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣] فقوله جلَّ قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:١] أي: أثبتت وأكملت، فهذا يقرب مما فصل إليه، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٢ - ٣] إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [هود:٤] أي: إن الحروف التي هي: ﴿الر﴾ أحكمت فيما هنالك أثبتت ثم فصلت إلى ما هو هذا، ثم فصلت هذه السبعة الفصول إلى ما هو القرآن كله معبر عنه .

فقول القائل: «آمنت بالله وبما أنزل من كتاب» متناول الإيمان بالله وبمن أرسل من رسول وبكل كتاب أنزل ونزل علوًا وإلى أهل الأرض [كما أن قول القائل: «آمنت بالله وبما أرسل» [.....](٧) رسالة من الإنس والجن والملائكة، ويأتي على ذلك بحكم العموم شهادة العبد بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكن

---

(١) في النسخة (ق): «قبلها».
(٢) في النسخة (ق): «إمام لها».
(٣) في النسخة (ق): «منبئة».
(٤) في النسخة (ق): «علي عن أفهامكم».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) ليس في (ف) وبياض في (غ).

بلسان العلم يرتقي في درجات اليقين إن شاء الله، وبه تتم الصالحات وتنال البركات][١].

واستظهر على ما تقدم ذكره بمفهوم قوله جلَّ من قائل: ﴿**الـمر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ**﴾ والكتاب جمعه: كتب، ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الرعد:١] المكذب لا إيمان له والغافل ناقص الإيمان وأن من [نفس][٢] الكتاب المبين قوله: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ [الرعد:٢] إلى قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:٤].

قال الله جلَّ قوله للقلم: «اكتب، **قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن [إلى يوم القيامة**»[٣] وهذا موجود الكتاب المكتوب][٤]؛ لذلك قال جل قوله: ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة:٢ - ٣] إلى آخر المعنى حيث وقع.

فصل

وكذلك الوحي وحيان:

- وحي يُوحَى إلى الرسول يأتي له الملك بالأمر.
- ووحي من عند الله جلَّ ذكره إلى سر قلب الرسول يوحي إليه به ما شاء.

قال الله ﷻ: ﴿**يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ**﴾ [النحل:٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا...**﴾ [الشورى:٥١].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى:٥٢]

---

(١) في النسخة (ق): «كما أن شهادة العموم في القول بأنه: لا إله إلا الله محمد رسول الله متناول العلم بالله وبمن أرسل من رسول وبما أنزله من كتاب، لكن بفهم العلم ونور الإيمان يترقى في درجات اليقين إن شاء الله، وبه تتم الصالحات وتنال البركات».

(٢) في النسخة (ق): «ذكر موجود».

(٣) الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٤٢).

(٤) سقط من النسخة (ق).

فهذا روح ينزله ﷻ عليه به يفهم النبي الوحي والكتاب، وبه يلقن [الأنبياء][(١)] وخطاب الملك [عن الله جلَّ ذكره][(٢)].

ثم بعد قد يهب الله ﷻ من ذلك ما يشاء [أيضًا][(٣)] لخصوص من عباده سوى النبي يجعل [الله][(٤)] في قلبه روحًا به، يكون منه الإيمان ثم اليقين، ثم به يفهم الخطاب، ثم يطلع على سر المراد [من ذلك][(٥)] ويلقن آيات الكتاب كل عبد في [منزلته، وعلى حظه لسر لله جلَّ ذكره][(٦)] في عباده في التبليغ عنه، ومعرفة [تفضيل][(٧)] الأمر والنهي، وتوصيل الخطاب وتفصيله، لولا ذلك لم [يفقه][(٨)] منزلة النبي من ليس بنبي، فكان لا يصح لنا به إيمان ولا عمل، ثم كذلك في سبيل تعرف صفات الإلهية ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

فصل

لما كان الأنبياء والرسل - عليهم السلام - في موضع الوصل بين بني آدم والملائكة - عليهم السلام - كان من الحكمة في إيجاد الله جل ذكره أيضًا الأولياء في موضع الوصل بين العامة من الؤمنين والمسلمين، وبين الأنبياء والرسل - عليهم السلام - أو أن الإيمان ليجب بوجود الأولياء لزوم اتباعهم في منزلة هي تِلْوٌ لمنزلة وجود الإيمان بالنبيين والمرسلين، فإنهم القادة والسادة.

فصل

لما [أعرضنا][(٩)] ذكر القادة وجب علينا التنبيه عليهم والإعلام بهم، ثم يرجع

(١) في النسخة (ق): «الأنباء».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «منزلة أنزله الله وحظ من فضله قسمه له الله يسر له».

(٧) في النسخة (ق): «تفصيل».

(٨) في النسخة (ق): «يفهم».

(٩) في النسخة (ق): «اعترضنا».

بنا الكلام إلى ما كنا فيه، ومما يؤيد على تعرف ما كنا بسبيله النظر في قوله ﷻ: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى:١ - ٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا لِّتُنذِرُ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧].

وقرئ هذا الحرف: «كذلك يوحَى إليك» بفتح الحاء على بناء مفعول لم يسمَّ فاعله، فيكون قوله جلَّ قوله: ﴿اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٣ - ٤] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥] من مفهوم ما ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الزمر:٦٥].

ويؤيد هذا قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢] إلى آخر المعنى.

قوله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود:٥] أي: [يطوون][١] ويخفون ما في صدورهم من بغضة رسول الله ﷺ [والإقامة][٢] على كفرهم، [فيستخفف من الله ﷻ بذلك، ويظهرون الوداد والإيمان وبواطنهم على ما يعلمه الله من نفاقهم وخلافهم، و﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:٥] كما قال جلَّ قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١] ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧]][٣].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦] [أعلم جلَّ ذكره أن كل دابة في الأرض على الله رزقها][٤] ضمان منه وهو [العلي][٥] الوفي، وكما هو رازقها هو خالقها ومدبرها وهو العالم بها، وفي مستودعاتها ومستقراتها في البطون والأصلاب،

---

(١) في النسخة (ق): «يطرونه بالمدح».

(٢) في النسخة (ق): «مع الإقامة منهم».

(٣) في النسخة (ق): «والله يعلم ذلك منهم: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:٥]».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «الملي».

[وإثبات أكوانها وسبيل][١] مسالكها في خزائن السماوات والأرض، وجميع مواد خلقها ومآل أمورها.

أخبر جلَّ ذكره في هذا الخطاب عن إحاطته بكل شيء قدرة وعلمًا ومشيئة وتدبيرًا ووحدانية إلى غير ذلك من صفاته، كما أعلم جلَّ وتعالى بما فصل إليه الكتاب المبين من القرآن [العزيز][٢]، أتبع ذلك [بذكره ووصفه][٣] بما هو أهله، وهذا من فصل الألوهية وصفاتها وهو القرآن العظيم.

وأخبر جلَّ ذكره في آية الأنعام بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] زائدًا على ما في إخباره في هذه عن [سبيل مسالك اسميه المرسل][٤] والباعث، ومدارج التفصيل بالتخصيص، وعن مضاء مشيئته والإعادة [بعد البداية][٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:٧ - ١١].

---

(١) في النسخة (ق): «وفي السماء والأرض وفي الماء والرياح وأجواء الهواء وجميع».

(٢) في النسخة (ق): «الكريم».

(٣) في النسخة (ق): «من وصفه العلي».

(٤) في النسخة (ق): «سبل مسالك اسمه الموصل».

(٥) في النسخة (ق): «والبداية».

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧] قد تقدم تفسير الستة الأيام، والله نسأله حسن المزيد من فضله، فهذه الأيام من الزمان، وخلق فيما هنا هن آيات على تلك في الدهر وآية تلك هذه الستة الأيام الزمانية والسابع الجامع لها يوم الجمعة كنا عنه باستوائه على العرش، [فهذه الأيام ها هنا من الزمان والحين هن آيات على تلك في هذه الأوقات واختلاف][1] الليل والنهار فيما ها هنا، وأما فيما دون سماء الدنيا وهو موضع جريان الأمر، وآيات ذلك هن الكواكب السيَّارة [السبعة][2] الشمس والقمر والزهرة وعطارد - وهو الكاتب - وزحل والمشترى والمريخ.

قال الله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥ - ١٦] لكل [واحد][3] من هذه الكواكب [في][4] يوم من هذه الأيام الزمانية ، فهذه من عالم الأمر آيات على تلك الأيام في الدهر، وذكر عدة الأيام [ها][5] هنا تعريضًا بذكر حلوله الآجال وقطع الآماد وجعل ذلك علمًا وآية على انقراض عمر الدنيا وحلول اليوم الآخر كحلول بالغد بعد اليوم والشهر بعد انصرام الشهر والسنة بعد انصرام السنة وأما التي ذكر في سورة الملك في قوله:﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك:١ - ٢] فهذا مما تقدم ذكره من الإعلام بقطع الآماد وحلول الآجال.

ثم قال وقوله الحق: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣] إلى آخر المعنى، فهو من باب تعليم العلم وإظهار قدرته

---

(١) في النسخة (ق): «لأمر قضاه في ذلك وفعل فعله هذا في اختلاف».

(٢) في النسخة (ق): «السبع».

(٣) في النسخة (ق): «واحدة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

لأولي الألباب كما قال جلَّ قوله في آخر سورة النساء [الصغرى][١]: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ [الطلاق:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢] [هود:٧] [هذا ينظر إلى معنى قوله جلَّ قوله: ﴿خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]][٣] يعرض جلَّ ذكره بالإعادة بعد البداية والإحياء بعد الإماتة، وينص على التكليف بل الأمر والنهي.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أين كان ربنا يا رسول الله قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «**في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء**»[٤] فأعلم صلوات الله عليه بحديثه هذا أن العماء للعرش بمنزلة العرش للماء، ويأتي من مفهوم هذا أن الله جل وتعالى خلق الماء من الهواء كما خلق من الماء كل شيء حي، كذلك فتق بالهواء فيما شاء مما هو دون العرش رتق الماء، ثم أوجد في ذلك الفتق ما شاء من خلقه، آية ذلك في الشاهد خلقه الماء في الهواء بواسطة الرياح المرسلة بأمره الدالة على الروح منه.

فصل

جاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة في السفر الأول منه قال: إن الله خلق السماء والأرض وكانت جدبة خاوية، والظلمة تعلو على الهواء، وروح الله يتقلب على المياه، فقال الله ﷻ: «ليتكون النور» فتكون النور، وأعجب الله النور وميَّزه من

---

(١) في النسخة (ق): «القصرى».

(٢) قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ اللام متعلقة بخلق؛ أي: خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملاً من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد؛ لأنه من أعمال القلب، وقيل: المراد بالأحسن عملاً: الأتمّ عقلاً. وقيل: الأزهد في الدنيا. وقيل: الأكثر شكرًا، وقيل: الأتقى لله. فتح القدير (٣/٤٢٦).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

الظلمة، وسمى النور: نهارًا، والظلمة: ليلاً، وصار النهار والليل يومًا واحدًا، فقال الله ﷻ: «يتكون السد وسط المياه لينخزل بعض المياه من بعض» فخلق الله السد، وخزل المياه التي كانت تحت السد من التي كانت فوقه، وسمى السماء: حجابًا، وصار الليل والنهار يومًا ثانيًا.

ثم قال الله جلَّ من قائل: «تجتمع المياه التي تحت السماء في موضع واحد لتظهر الأرض» وكان ذلك، وسمى الأرض: ترابًا، وجمع المياه بحرًا، واستحسن الله أمره وقال: «تنبت الأرض عشبًا أخضر يأتي بزريعته كل واحد على قدرته، وثمرة مثمرة يأتي بثمرتها على جنسها» [يكون غرسها منها في الأرض فكان ذلك وأنبت الله عشبًا أخضر كل واحد على جنسه][(١)] وأنبتت الأرض شجرًا بثمارها على قدر أجناسها، فأعجب الله ذلك، وكمل النهار بالليل يومًا ثالثًا.

وقال الله ﷻ: «يتكون سراجات في السماء لينخزل النهار من الليل، ويكونا علمًا يهتدي بها إلى الأزمنة والأيام والسنين، ولتنير في الحجاب وتضيء على الأرض» فكان ذلك، وخلق الله سراجين عظيمين جعل أعظمهما سراج النهار، والأصغر سراج الليل مع النجوم، وأثبتها في الحجاب لتضيء على الأرض وتسرف على النهار، وينخزل من سببها النور من الظلمة، واستحسن الله ذلك، وكمل بالنهار والليل اليوم الرابع.

ثم قال الله جلَّ قوله: «يتخلق في المياه الحيتان بأنفسها والطيور الساعية في الهواء» فخلق الله دواب جسمانيات، وكل نفس [مستبدلة][(٢)] من المياه في أجناسها وأعجب الله ذلك وبارك عليها، وقال: [أظهروا][(٣)] وأكثروا واحشوا مياه البحر، وقال للطير: أكثروا على الأرض، فكمل النهار والليل يومًا خامسًا.

ثم قال ﷻ: «يتخلق من الأرض أنفس حية في جنسها وبهائم [وخشاش وسباع الأرض على أنواعها» فتمَّ ذلك، وخلق الله سباع الأرض على أنواع شتى، وخشاش

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «حية مبتدأة».
(٣) في النسخة (ق): «أكبروا».

الأرض على أجناسها، واستحسن [خلقه] قال: «أخلق الله ربنا إنسانًا على شبهنا ومثالنا ليشرف على حيتان البحر وطيور الهواء وجميع دواب الأرض وخشاشها» فخلق الله إنسانًا على صورته ومثاله ذكرًا وأنثى، وبارك الله عليهما، وقال: أكثرا واملأ الأرض، واحشوا واملكا حيتان البحر وطيور الهواء، وكل ما يتحرك من ذوي الأنفس على الأرض.

وقال الله ﷻ لهما: «قد أطلقت لكما خلقًا أنبته الأرض من بُقُولها وعشبها وزروعها، وكل شجرة مثمرة في أجناسها؛ لتأكلا منها وتقتاتا بها، ويقتات معكما منها كل ذي نفس من بهائم الأرض وطيور الهواء، وكل ما يتحرك من الثرى مما فيه روح، ويصير لهم طعامًا» فكان ذلك، وأكمل الله سبحانه وله الحمد جميع خلقه، وكان أجمع صالحًا حامدًا، وكمل بالنهار والليل يوم سادس، فاستكمل الله ﷻ خلق السماوات والأرض وجميع زينتها، وأتم الله ﷻ في اليوم السادس ما كان خلق، وأمسك فيه عما قد كان خلق.

وبارك الله على اليوم السابع وقدسه؛ لأنه كان فيه، وأمسك عما قد كان خلق في اليوم الذي خلق الله السيد السماء والأرض، وجميع شجر الأرض قبل أن تنبت الأرض، وقبل أن تأتي بعشبها، ولم يكن أمطر الله السيد الأرض ولا كان بها آدمي يعمرها، ولكنها كانت بسقيها عمن يخرج منها فصور إنسانًا من حمأ الطين، وأنفس في وجهه نفس، ومنحه الحياة فصار إنسانًا بنفس حية.

تنبيه:

في هذا الحديث قوله: «أخلق بنا إنسانًا على شبهنا ومثالنا» والقرآن هو المصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، والله يقول وقوله الحق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال جلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

وفيه أيضًا: «وبارك الله على اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه كان أمسك عما قد كان خلق» يعنون بذلك يوم السبت، وهو يومهم الذي كتبه الله لهم، وتبركه جل

وعلا عليه ليس يفضل بذلك فضل يوم الجمعة؛ لأنه يوم [الخلق][(١)] السابع على الحقيقة، وأول بدء الخلق في معتقدهم هو يوم الأحد لذلك كان عندهم يوم السبت السابع، وإنما أول البدء يوم السبت فيه خلق التربة، وهي جملة الأرضين كما فيه خلق جملة السماوات دخانًا.

﴿ثُمَّ﴾ فيه ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت:١١ - ١٢] وفصل الأرضين بعضها من بعض في اليوم الثاني يوم الأحد، وفيه خلق الجبال ونصبها على الأرض، فاليوم السابع إذًا هو يوم الجمعة وهو المبارك، وعن هذه الشبهة التي شبهت عليهم كان الخلاف والاختلاف.

قال رسول الله ﷺ: «هدانا الله له واختلفوا فيه»[(٢)] وسائر ما ذكرناه في هذا الحديث قريب الموافقة غير مدافع لما هو عندنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً....﴾ [هود:٧] خلق الليل والنهار، وجعل أحدهما خلف الآخر؛ ليتسابق العباد إليه فيهما بطاعته، وليتنافس المطيعون في طلب مرضاته، وليحكموا العترة منهما إلى ما هما آية عليه في الآخرة كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم﴾ [هود:٧] هذا منتظم بما قبله من ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش يقول: هم يشاهدون اختلاف الليل والنهار وحلول الآجال، وعلى ذلك قطع مُدد الآماد، وتدوار دوائر الأفلاك عودًا بعد بدء، فلا تهتدون إلى عبرة بذلك إلى ما في الآخرة، ولا إلى وجوب قطع مدة الدنيا، ووجوب حلول اليوم الآخر إلى معرفة إحيائنا إياهم بعد الموت كما قد أحييناهم في هذه بعد أن كانوا أمواتًا قبل هذا، فكما نحن نوقظهم من النوم وننومهم بعد اليقظة.

---

(١) بياض في (غ).

(٢) لم أقف عليه.

أفلا ينظروا فيها وفيما يستمر عليهم من اختلاف الليل والنهار والشهور والسنين، سبحانه وله الحمد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش كل ذلك مفطور على الإسلام لله جل ذكره في الإذعان له والقنوت إليه، والإيمان بالرسل والأنبياء، والإسلام لله جل ذكره في الطاعة لهم فيما بلغوه عنه؛ لينظر عباده في طاعة السماوات والأرض، وما بين ذلك وثبوت ذلك على أمره ﷻ، فيقتفون آثارها ويحتذون بشرعتهم وفطرتهم شرعتها في فطرتها هذه الآية في أول هذه السورة المقصود الأول بها العمل، وقد تقدم أن الآية التي في آخر سورة النساء القصرى المقصود الأول بها العلم، فلزوم وجوب العلم والعمل في بدء الأمر معًا على سنن الفطرة.

أتبع ذلك قوله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧] قال هذا انحطاطًا لقولهم][١]، [وتعجبًا من صرفهم، وتأفيكهم وبعدهم][٢] عن الصواب، أفلا ترون أن الله يخلق الماء من الهواء، ثم يصير الماء إلى الهواء، ثم يعيده إلى الماء إذا شاء؟ أفلا ترون الأرض تكون ممحلة مجدبة، فينزل الله الماء من السماء، فيشاهدونها عن ذلك [ممرعة مخصبة][٣] ثم يمرون بها ممحلة، ثم ينزل عليها الماء من السماء فيعيدها إلى حياتها وخضرتها؟ هكذا يقول عز من قائل: [أفهم][٤] مع هذه البينات إذا قلت لهم: «إنكم مبعوثون من بعد الموت» كذبوا وكفروا بما علموه من الحق، وقرأ عيسى بن عمر: «ولئن قلتُ» بضم التاء.

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[٥]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وقهره على صرفهم وتأفيكهم عن رشدهم لبعدهم».

(٣) في النسخة (ق): «مخضرة قد ألبست أثوابًا تشبه بهجة ما جاءت عنه وأنزلت منه».

(٤) في النسخة (ق): «فهم».

(٥) مناسبته لما قبله: أن في كليهما وصف فنّ من أفانين عناد المشركين وتهكمهم بالدعوة الإسلامية، فإذا خبّرهم الرسول ﷺ بالبعث وأنّ شركهم سببٌ لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرًا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخّر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربّانيّة استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تَهكم ظنًّا أن تأخره عجز. التحرير =

[هود:٨] الأمة: الأجل والسنون.

قال الله ﷻ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد سنين.

ليقولن ما يحبسه هذا كقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] هذا كله [تعجب][(١)] من جهلهم [وعتوهم][(٢)] وعماهم كيف [يكذبون][(٣)] بما قد أحاط بهم؟ أو لا يرون أن نفسي جهنم بما فيها من سعير وزمهرير [تخلقان عليهم رواحًا ومساءً][(٤)] وبكورًا وظهيرة، [فهم في ذلك يتقلبون ومن ذلك مع فتحه لهم برحمته يعيشون ﴿أفلا يعقلون﴾ [يس:٦٨].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٢ - ١٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ وقرأها أبو حيوة: «بعشر سور» بالتنوين ﴿مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ يقول: على ما تزعمون ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ الله﴾ [هود:١٣].

يقول الله جل من قائل: ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

=

والتنوير (٩٨/٧).

(١) في النسخة (ق): «تعجيب».

(٢) في النسخة (ق): «وإنباء بعتوهم».

(٣) في النسخة (ق): «يكونون».

(٤) في النسخة (ق): «يختلفان عليهم رواحًا ومنشأً».

القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: لدعائكم إياهم على التحدي والمظاهرة على الإتيان بمثله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤] جعل هنا علة الإعجاز ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب؛ كذكره القصص المتقدمة والأخبار السالفة، وإهلاكه القرون والأحزاب وذوي المماليك والأجناد، وكإخباره عما يكون إلى يوم القيامة، وما هو كائن بعد ذلك على لسان رجل لم يقرأ الكتب، ولا عرف بمدارسة العلم ولا باختلاف إلى العلماء ومجالستهم وفي علمهم إنه إنما هو من علم الله الشهادة له بالنبوة، والإقرار بأنه رسول من رب العالمين إليهم، وفي ذلك معرفة التوحيد والإقرار بأنه لا إله إلا هو، والشهادة بهاتين معًا هو الإسلام فلذلك قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[1] [هود:١٥] أي: نوفِّ إليهم أعمالهم؛ أي: الأعمال التي تشبه البر من إطعام طعام وقول حسن وإصلاح وإحسان لمخلوق ورفق بمؤمن، يجازون عليها بأرزاق وعوافٍ ونحو ذلك، لا يبخسون من أعمالهم شيئًا.

تنبيه:

في مفهوم هذا الخطاب من زيادة اليقين أن الله جل ذكره يجازي الكافر على أعماله التي تشبه البر لا يبخسه منها شيئًا، فكيف بأعمال المؤمن؟! فالجد الجد.

---

(١) اختلف أهل التفسير في هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت في الكفار، واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ وقيل: الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم، والمعنى: إن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلك. والمراد بزينتها: ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن، والسعة في الرزق، وارتفاع الحظّ، ونفاذ القول، ونحو ذلك. وإدخال «كان» في الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم، لا يكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون في الآخرة؛ لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة. وظاهر قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي ولا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته وإن عمل لها وأرادها، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه. فتح القدير (٣/٤٣٣).

وقال في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: من الدنيا ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

ثم بيَّن في سورة الإسراء في قوله جل قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨ - ١٩].

ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠] يعطي هؤلاء ما يشاء وهؤلاء ما يشاء، ولا يمنع كلاً ما سبق له به التقدير، هذا بحكم العدل الأول حكم الربوبية الذي استأثر به في حكم اسم الألوهية.

ثم بيَّن بفحوى الخطاب على حكم العدل الثاني بمقتضى اسمه الرحمن الرحيم مع اسمه المجازي والمبتلي أن نية العبد وإرادته إحدى الدارين عليها مجزي الله لهذا العبد الحكم في رزقه وأجله، فجعله بذلك من عدوه أو من حزبه، وما بين الحكمين إلا نيته وإرادته، ثم تتقلب حركاته إلى طاعة أو إلى معصية بانقلاب نيته من إيمان وكفر طاعة أو عصيان؛ لذلك - وهو أعلم - أعقب بقوله الحق: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

أتبع ذلك بقوله جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أي: الذين أرادوا الدنيا وعملوا لها ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: حبط في أحكام الآخرة ما صنعوا في الدنيا ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] وعيد شديد لمريدي الدنيا.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟

﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٩﴾ [هود: ١٧ - ١٩].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: من ربه بالقرآن والإنباء والوحي، شاهد هذا قوله ﷻ: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ [هود:١٧] وكونه على بينة من ربه معرفته بما خلق الله به السماوات والأرض من حق، ثم بعد هذا يصعد إلى درجة من المعرفة رفيعة الذرى، علية المنتهى، سهلة المرتقى، معراجها أحكام العبرة، فمن لم يعرف ربه إلا بآثاره وأسمائه فلم يعرفه إلا بالأسماء والصفات، وأما ما يعرفه هذه المعرفة من عرفه بما اختص به لنفسه، فمن بلغها فليسأل الله جل ذكره الولاية إنه قريب مجيب.

ويحتمل بوجه أن يكون راجعًا على العبد، وهو الاسم الذي عبر عنه قوله: ﴿أَفَمَن﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ من اتصل له علم الفطرة بهداية الشرعة، وشاهد الكتاب بينات الوجود كان من أهل التحقيق إن شاء الله، والسبيلان متقاربان جدًّا يفضي أحدهما إلى الآخر وإن اختلفت على السالكين إليهما البداية، مدح الله سالكي السبيلين بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ ثم بالرسول ﴿مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[1] [هود:١٧] يمكن أن يكون المراد القرآن؛ كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ﴾ [يونس:٩٤] ويمكن أن يكون المراد له الأمر كله: الإيمان بالله والوحي، وبأنه من لم يجب داعي الله وكفر فالنار موعده، ومن آمن وعمل صالحًا فالجنة موعده.

---

(١) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله تعالى غبَّ ما شهدت به الشواهد، وظهر فضل من تمسك به، أو لا تك في شك من كون النار موعدهم، وادعى بعضهم أنه الأظهر، وليس كذلك، وأيًّا مَا كان فالخطاب إن كان عامًّا لمن يصلح له فالمراد التحريض على النظر الصحيح المزيل للشك، وإن كان للنبي ﷺ فهو بيان؛ لأنه ليس محلاً للشك تعريضًا بمن شك فيه، ولا يلزم من نهيه ﷺ عنه وقوعه ولا توقعه منه ﷺ. تفسير الألوسي (١٩٦/٨).

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود:١٧].

وصل بذلك قوله الحق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [هود:١٨] هو منتظم بما قبله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣].

﴿أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود:١٨ - ١٩] سبيله دين الإسلام، على ذلك بنى السماوات والأرض، ودحا الأرضين وأدار الدوائر، وأجرى الشمس والقمر والنجوم، وعلى ذلك أوجد اختلاف الليل والنهار والساعات والأحايين والشهور والسنين، أجرى ذلك في كل ما اتصف بالخلق وأحاط به الأمر، جرى الماء في العود الناضر وأسلكه من الجملة مسلك الروح في الجسد، وسبيله هو الحق، وقد تقدم ذكره، والعبارات كلها إلى الإسلام، له يُفضى ونحوه تومئ وإليه يُنتهى ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢].

والإسلام هو الأمر السوي والصراط المستقيم، وتعويجها أن يلحد في الربوبية والتوحيد والإسلام، ووصف الوجود العلي والأسماء كلها][1] وفي الرسالة والنبوة وفيما جاءت به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ
يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ
ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ
وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي
لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾﴾
[هود:٢٠ - ٢٦].

(١) زيادة في النسخة (ق).

قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:٢٥ - ٢٦] الواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ليعطف في القصص رسالة نوح على رسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليهما - نحو ما تقدم في صدر هذه السورة من ذكر رسالته كقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:٢] إلى قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧] إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ
كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ
عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى
ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ
ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ
أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ
رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ

قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ
﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى
بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا
تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى
مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ
أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ
أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ

ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي
قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨) وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ
رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (٥٩) وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا
كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ (٦٠) ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٞ مُّجِيبٞ (٦١) قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا
وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٦٢) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي
وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ (٦٣)
وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ
غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا
وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ
فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (٦٨)
وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ
حَنِيذٖ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ
أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ (٧٠) وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ

يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ
مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ
﴿٧٦﴾ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ
قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ
لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا
فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ
سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ
عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ
لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ
﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى
عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا
لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: ٢٧ - ٩٨].

ثم جعل ﷻ يسرد قصصًا على قصص منذرًا من عصاه بعذابه، ومبشرًا من [أطاعه][1] وقبل أمره، وصدق رسوله وعمل بطاعته بثوابه، فيقول جلَّ من قائل: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: ٦١].

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾[2] [هود: ٦٩].

---

(١) في النسخة (ق): «استجاب له».

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى﴾ يعني: ببشارة الولد. وذلك أن مدينة يقال لها: سدوما. ويقال: سدوم، وكانت بلدة فيها من السعة والخير ما لم يكن في سائر البلدان، وكان الغرباء يحضرون من سائر البلدان في أيام الصيف ويجمعون من فضل ثمارهم مما كان خارجًا من الكروم والحدائق، فجاء إبليس - لعنه الله - فشبه نفسه بغلام أمرد، وجعل =

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود:٨٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ • إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٧].

ويقرن بكل نبأ [عن رسول](١) ومرسل إليهم بالتكذيب والمخالفة، [فعبَّر](٢) ﷻ بإهلاكه إياهم، [ويقرن](٣) بذلك النداء عليهم بالإبعاد، واللعن في الدنيا والآخرة كما قال جلَّ قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

كذلك قال جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] كل ذلك إخبار منه ﷻ عن حقيقة وحدانيته، وبراهين أنبيائه وصدق رسله [لقوم يؤمنون](٤)، وإنجاز وعده من آمن به وأطاعه، وإنفاذه وعيده على من كفر به وكذب رسله.

فصل

تساوت دعوة الرسل إلى الله ﷻ فيما [بين](٥) التوحيد وطاعة من أرسل إليهم واتفق تكذيب المكذبين كذلك، فكانت الدعوة واحدة في الأصل وإن اختلفت الفروع التي تفرعت إليها، وعلى ذلك كان اتفاق تكذيب المكذبين في الأصل الذي

=

يدخل كرومهم وحدائقهم ويراودهم إلى نفسه حتى أظهر فيهم الفاحشة، وجاء إلى نسائهم، وقال: إن الرجال قد استغنوا عنكن، فعلَّمَهُنَّ أن يستغنين عن الرجال، حتى استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، فأوحى الله تعالى إلى لوط ليدعوهم إلى الإيمان، ويمتنعوا عن الفواحش، فلم يمتنعوا، فبعث الله جبريل ومعه أحد عشر من الملائكة بإهلاكهم، فجاؤوا إلى إبراهيم كهيئة الغلمان، فدخلوا على إبراهيم، فنظر فرأى اثني عشر غلامًا أمرد، ويقال: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ويقال: كانوا أربعة، فسلموا عليه ﴿قَالُواْ سَلامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ يعني: ردّ عليهم السلام. بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٤٤).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «فيخبر».

(٣) في النسخة (ق): «ويقرب».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «هو».

استحقوا به [دخول][(١)] النار وحرمان الرضوان، وإن اختلفت فروع ضلالاتهم.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ...﴾ [الذاريات:٥٢ - ٥٣].

كما اختلفت صور إهلاك الله ﷻ إياهم [ليفرق في مختلف سبيل][(٢)] ضلالاتهم، قال الله جلَّ قوله: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠] فكان نوح أول رسول إلى [أهل][(٣)] الأرض، فكان مثلاً لهم وقومه مثلاً للأمم سواهم إلا من عصم الله.

ألا ترى أن رؤساء المحشر وسادات الأمم يوم القيامة في [تطلب][(٤)] من يشفع لهم أول ما يأتون نوحًا ﵇ [بعد آدم ﵇][(٥)] فيقولون: «أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» فطلبوا منه أن يشفع لهم بأن كان أولاً، ثم بأن سماه الله: عبدًا شكورًا؛ تذكيرًا منهم إياه بمنزلته عند الله جلَّ ذكره، فأهلك قومه بالماء لما تكبروا وطغوا في الظلم.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم:٥٢] وأنجاه الله ومن معه في الفلك، والفلك في التأويل نجاة، والماء وإن أضر فعاقبته إلى خير وبركة، [فكان ذلك][(٦)] الخير والبركة للذين آمنوا من قومه، فأنجاهم الله وبارك على المؤمنين من ذريتهم وسلم عليهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ...﴾ [هود:٤٨] [فكان ذلك للذين آمنوا المنجين من ضره][(٧)].

---

(١) في النسخة (ق): «الإهلاك ودخول».
(٢) في النسخة (ق): «لتفرقهم في سبل».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «تطلبهم».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) سقط من النسخة (ق).

قال الله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ [الرعد:١٧ - ١٨] فكل من كفر بالرسل وبنوح خاصة في [تأويل][(١)] هذا المثل بمثابة الزبد الطافي على الماء، أذهبهم الله ﷻ بعذابه، وكان المؤمنون بمنزلة ما ينفع الناس من الماء [أثبته في الأرض ثم على ذلك][(٢)] حال المؤمنين والكافرين بعد.

وقال جلَّ قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق:٩].

وقال عزَّ من قائل: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [الشعراء:١١٩ - ١٢١] يريد ﷻ وهو أعلم: على أنا ننجي من آمن ونهلك من كفر، وهو أيضًا آية على أحكام [الله في][(٣)] الآخرة من [نجاة][(٤)] من آمن [بالله ورسله وهلاك][(٥)] من كفر.

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أنبتته عنه الأرض وأجرى الله منه الأنهار وتفجر منه العيون ثم كذلك».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «إنجائه».
(٥) في النسخة (ق): «وإهلاكه».

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: ٩٩ - ١٠٩].

وقال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٢ - ١٠٣] وهي أيضًا آية على ما تقدم من ذكر خلافهم، وما أهلكوا به من ذنوبهم.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] لما طغوا على الله وعلى رسوله طغى الماء عليهم، فأهلكهم وامتن على المؤمنين بأن نجاهم من عذابه في الفلك.

قال الله ﷻ: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ وهذه منه عز جلاله إشارة إلى غرض غائب لا [يدرى][(١)] إلا بالاعتبار والفطنة الصحيحة، [يريد الجارية التي هي الفلك][(٢)]، وفيها أيضًا موعظة لمن سلك سبيلهم من سائر الكفرة ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] لو نفعت الموعظة، وتذكرة لمن آمن واتقى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] كان [النبي][(٣)] ﵇ بحيث [وصفه][(٤)] الله من الخلق العظيم حلمًا وعلمًا ونبلاً وأمانة وصدقًا ونحو هذا، فكانوا يؤهلونه لمراتبهم ويرجونه لأمورهم، ولما أتم الله ﷻ عليه نعمته بالنبوة والرسالة، وقام فيهم بالتبليغ والنذارة، قالوا له: يا صالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا، أتنهانا...؟ المعنى إلى آخره، في هذا من [العبرة][(٥)] أن الصدق

(١) في النسخة (ق): «يدرك».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وضعه».
(٥) في النسخة (ق): «العلم».

والأمانة والحلم [والعلم والأخلاق الحسنة أصل لمنازل][(١)] خير الدنيا والآخرة.

عبرة:

قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ [يعني: العرب وكفار الأمم][(٢)] ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني: ذرية نوح ومن كان معه [وربما كان المعنيون بذلك ذرية العرب المنزل فيهم القرآن خاصة ثم سائر الناس عامة][(٣)] ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] من أهلكه الله يومئذ أهلك بهلاكه ذريته ورزقه وعمله ومن أنجاه فهو المنجى وذريته إن كان ذا ذرية وكذلك أيضًا أرزاقهم وأعمالهم [وقد][(٤)] قال عز من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧] فكان آية منه على اقتداره، [وعلى][(٥)] إخراج الآخرين على سواء ما سبق به العلم المحيط والمشيئة العالية، وكما حملهم في الفلك يومئذٍ حين لم يكونوا [موجودين لأنفسهم][(٦)]، بل كانوا بوصف العدم أولى على الإضافة إلى معلوم من [سواه][(٧)] جلَّ ذكره، فأولى إذًا [وأجرى الجوار][(٨)] حملهم في أمثالهم طول مدة البرزخ، بل ليسوا بسواهم، وكما نجا نوحًا ومن معه من المؤمنين الذين في ظهورهم وأصلابهم من الهلاك بالطوفان، ومن جميع ما حاق بأهل [الكفر والعناد لله][(٩)] من تسالٍ وضروب عذاب وضرب بمقامع، وخزي وعذاب هون قد حاق بهم فيما هنالك.

قال الله جلَّ قوله في وصف حال إنجائه إياهم: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

---

(١) في النسخة (ق): «والخلق الحسن أصل لمنال».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «لذلك».
(٥) في النسخة (ق): «العلي على».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «سوا الله».
(٨) في النسخة (ق): «وأحرى بجوار».
(٩) في النسخة (ق): «الكفر بالله والعناد».

كَالْجِبَالِ﴾[١] [هود:٤٢].

وقال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

ثم ذكر جل ذكره موضع العبرة مذكرًا بها، فقال جل قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] فكذلك [ينجيهم الله من عذاب البرزخ][٢]، ومن أشد العذاب الهول الأكبر بعد البعث من طوفان جهنم، وبحار النيران تطير بهم [أعمالهم][٣] ومراكبهم التي اكتسبوها في الدنيا من أوصاف أعمالهم، وتعبر بهم إلى مواطن النجاة، لذلك الإشارة بقوله جلَّ قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] أي: مثالات لها ما يركبون فيما هنالك آية ذلك أنه حملهم عز جلاله في الدنيا على مراكب خلقها لهم في البحر وفي البر [وفي الأرض][٤].

كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

---

(١) جوز فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون مستأنفًا.

الثاني: أن يكون حالاً من الضمير المستتر في ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ أي: جريانها استقر ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ [هود:٤١] حال كونها جارية.

الثالث: أنه حال من شيء محذوف دل عليه السياق؛ أي: فركبوا فيها جارية، والفاء المقدرة للعطف، و«بِهِمْ» متعلق بتجري أو بمحذوف؛ أي: ملتبسة، والمضارع لحكاية الحال الماضية، ولا معنى للحالية من الضمير المستتر في الحال الأولى كما لا يخفى، والموج: ما ارتفع من الماء عند اضطرابه، واحده موجة، و«كالجبال» في موضع الصفة لموج؛ أي: في موج مرتفع متفاوت في الارتفاع متراكم، قيل: إنها جرت بهم في موج كذلك، وقد بقي منها فوق الماء ستة أذرع، واستشكل هذا الجريان مع ما روي أن الماء طبق ما بين السماء والأرض، وأن السفينة كانت تجري في داخله كالسمك، وأجيب بأن الرواية مما لا صحة لها، ويكاد العقل يأبى ذلك، نعم أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن عساكر وعبد بن حميد من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن الماء علا رأس كل جبل خمسة عشر ذراعًا، على أنه لو سلم صحة ما ذكر فهذا الجريان كان في ابتداء الأمر قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ إلخ، فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر؛ إذ حينئذٍ يمكن جريان ما جرى بين نوح ﷺ وبين ابنه من المفاوضة والاستدعاء إلى السفينة، والجواب بالاعتصام بالجبل. تفسير الألوسي (٨/٢٤٢).

(٢) في النسخة (ق): «ننجيهم إن شاء الله من عذاب بعد الموت في دار البرزخ».

(٣) في النسخة (ق): «إيمانهم وأعمالهم الصالحة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧] فاستمع لكلام ربك جل ذكره وتفطن، فإن كل رحمة أظهرها في دار الدنيا، وكل نعمة أسداها فما هي لسوى المؤمنين، وهي خالصة لهم يوم القيامة من دون الناس، بل هو هناك بهم أرحم وعليهم أعطف، وإنما أنزل جل وعلا إلى الأرض رحمة واحدة عمَّ بها جميع الأجناس في الأرض والجن والإنس، وقد أخبر بأنه يقبضها إلى تسعة وتسعين [رحمة خبأها عنده][(١)] يرحمهم بها.

وعلى هذا فدونك [فاستقر][(٢)] كل رحمة له وكل نعمة يمن بها من حمله إياهم في بر أو بحر، أو بيوت جعلها لهم سكنًا، أو ثياب جعلها لهم لباسًا [وسترًا][(٣)]، ودفاعًا لبأس أو حر أو برد أو طعام أو شراب أو روح أو راحة أو [نعمة][(٤)] نفع أو دفع، فهي لهم؛ [أعني: المؤمنين][(٥)] خالصة يوم القيامة؛ لذلك كثيرًا ما عدد أنواع رحمته يُذكِّر بنعمته؛ [ليدعو][(٦)] إلى الاستجابة [له][(٧)]، وليحبب إلينا لقاءه، وليكسبنا حبه [المعهود من جنة][(٨)] المنعم، وهي [كلها إشارات][(٩)] إلى وعد له [بها][(١٠)] صادق في الدار الآخرة يكرم [بها عباده][(١١)]، فتارة يخص وتارة يعم، ولمثل هذا وما هو أعرق من هذا وأعظم نفعًا قال جلَّ من قائل: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [أي: بما هنالك][(١٢)] ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢] [فأحاله بهذا الخطاب على ما وراء

---

(١) في النسخة (ق): «عنده خبأها لهم».
(٢) في النسخة (ق): «فاستقرأ».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «نعم».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «ليدعون».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «للمعهود من محبة».
(٩) في النسخة (ق): «مع هذا كله».
(١٠) سقط من النسخة (ق).
(١١) في النسخة (ق): «بذلك عباده المؤمنين».
(١٢) زيادة في النسخة (ق).

ذلك من تذكرة ووعي][1].

فصل

سمَّى الله ﷻ ما [ينتقل إليه الحياة من العبد مرة][2] بـ«المثل»، ومرة سماه بأنه [«روح»][3]، فقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] أي: [لننقلكم][4] من حياتكم [الدنيا][5] إلى أمثال تكون لظواهركم [هذه][6] تكون في الدار الوسطى ظواهر لما بطن منكم [في هذه][7].

وقال جلَّ من قائل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ فهذا تبديله ﷻ عمار أرض بآخرين [أفضل منهم][8].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤١] وأمسك جل ذكره واجتزأ بما أظهر عما [أبطن][9] من تبديل أمثالهم بعد الموت، [وهو كثير في القرآن العزيز لمن يطلبه][10].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنما نسمة [المؤمن][11] طائر أبيض**»[12].

وقال ﷺ في الشهداء: «**إنهم في حواصل طير خضر تعلق بثمار الجنة**»[13].

---

(١) في النسخة (ق): «تعجيب منه ﷻ».
(٢) في النسخة (ق): «ما ينقل إلينا بحياة من العبد تارة».
(٣) في النسخة (ق): «زوج».
(٤) في النسخة (ق): «إنا ننقلكم».
(٥) في النسخة (ق): «هذه العامرة لأجسامكم».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «أضمر».
(١٠) سقط من النسخة (ق).
(١١) في النسخة (غ): « الموجز».
(١٢) أخرجه أحمد (١٥٣٥٠)، والبيهقي في البعث والنشور (١٩٤).
(١٣) أخرجه بنحوه الدارمي (٢٤٦٥).

ولا تعتمدن - [وفقك][1] الله - في فهم قوله ﷺ: «طائر» أنه ذو منقار [وجناح لا بد منه وبراثن][2]، إنما هو مثال للجسد الذي خرج عنه يطير به بعد أن كان الجسد سجنًا [له ولعل قوله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] فقرن الجناحين بالطائر ليخلص الإخبار عن طائر الدنيا الذي][3] في السماء من هذا الحيوان من تلك الطوائر، وقد تقدم [مثل هذا فيما قبل مقرونًا بالاستشهاد][4] عليه من أن الأموات أحياء بوجه حياة هي أشرف من هذه وأكرم [للمؤمنين][5]، وحياة الكافرين فيما هنالك بمقدار ما لا يفقدون [منها][6] إحساس العذاب ووجود الخزي وذلة [الهون][7].

قال الله جلَّ قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ﴾ [الصافات:٢٢ - ٢٣] وقد يقع هذا الاسم على القرين [الذي قارنه][8] المضل له في الدنيا.

فصل

المؤمن له حقيقة في العلو كما للكافر حقيقة في السفل، قال الله جلَّ من قائل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨].

[ثم قال جلَّ قوله: ﴿يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١]][9].

وقال عزَّ من قائل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] [فما من شيء كائن ما كان من نبات وجماد

(١) في النسخة (ق): «رحمكم».
(٢) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «هذا قبل مقرونًا بشواهده».
(٥) في النسخة (ق): «المؤمنون منهم».
(٦) في النسخة (ق): «معها».
(٧) في النسخة (ق): «الهوان».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «وقال: ﴿إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]».

وحيوان إلا وقد خلق الله ﷻ له زوجًا بقوله: «مثال باطن هذا المشاهد له ظاهر»][(١)].

قال الله ﷻ: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧] فأحد الزوجين هو المشاهَد، وزوجه باطنه، والكريم من الأزواج ما كان محمودًا، والذميم ما كان [رجسًا][(٢)]؛ ذلك لأنه نكب به في الوجود عن ظاهر سنن الفطرة، لهذا ومثل هذا أتبع ﷻ ذلك بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٨] فالتبصرة [من ذلك][(٣)] إثبات الوحدانية من ذلك وصفات الألوهية، ودلائل براهين النبوة، واليقين بموجودات الدار الآخرة وما جرَّ إلى ذلك، والذكرى [توجب][(٤)] أن كل زوج محمود هو في الجنة [وإلى الجنة مع ما هو زوج له][(٥)]، وكل [زوج][(٦)] مذموم هو [وزوجه][(٧)] في النار، آية ذلك أعمال المكلفين حسنها للحسنى وسيئها للسوءى.

وعلى هذا فإنه لا يسقط عن ذلك عمل ولا قول، ولا يكون ظاهر لباطن ولا باطن لظاهر إلا لإحدى [الجنتين][(٨)]، وهذا يعمه قول رسول الله ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله، والنار كذلك**»[(٩)] وهو معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣].

قال جلَّ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٧ - ٨] كذلك كل ما ينشأ من

---

(١) في النسخة (ق): «فما من شيء كائن ما كان إلا قد خلق الله له زوجًا حيوانًا كان أو نباتًا أو جمادًا هذا الزوج الباطن مثال لهذا الظاهر».

(٢) في النسخة (ق): «رحمًا».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «هو».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «الحسنيين».

(٩) تقدم تخريجه.

صغر [ثم يصعد][1] أو ينمو، ثم يضمحل أو يزيد، ثم ينقص أو يبسط أو يقبض، كل في كتاب حفيظ، ثم يميز [مما][2] هنالك ويسلك لكل مسلكه.

[قال الله ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧] فمفهوم هذا: إنه أيضًا يجعل الطيب الكريم في الجنة.

فصل

قال الله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة»[3].

وقال: «إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، ثم أخذ أهل اليمين بيمينه فقال: يا أهل اليمين، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم أخذ أهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي ربي يمين، فقال: يا أهل الشمال، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: ثم خلط بينهم، فقال منهم قائل: ربنا، لِمَ خلطت بيننا؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون»[4].

والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لم يوجد موجودًا ليعدمه جملة، إنما هو الإبطان والإظهار، وإن عدم ظاهرًا منه عن نفس الموجودات أوجد ظاهرًا، وربما أظهر ما شاء من ذلك وأبطن ما شاء، فمثال كل موجود ما قد قدره في الأول وأوجده في البدء حين الإقرار وأخذ المواثيق، فمتى أمات الله من أماته أبدل منه مثاله ذلك الذي كان أوجده، فهو المُقر على نفسه بالعبودية، المأخوذ عليه الميثاق، المعطي ربه

---

(١) في النسخة (ق): «إلى كبر ثم يصغر».

(٢) في النسخة (ق): «فيما».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

عهده أن يوجده ويعيده ويصدق رسله وكتبه، وينصر ويعزر ويوقر، وهو الذي عمَّر به الجسم في هذه الحياة الدنيا، فتغذى بما تغذى الجسم، وتزكى أو تردى بما كان في حياته هذه من إيمان وطاعة أو كفر ومعصية، فإن وافق عمله ما عاهد عليه الله رفعه إلى عليين، وآتاه أجرًا عظيمًا، وإن ختر العهد وكفر وكذب أسفل به إلى سجين، ثم أصلاه عذاب الجحيم، ثم بعدهم درجات عند الله ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٩٦)] [١].

رجع الكلام: وأما إهلاك عاد بالريح: فإنهم لما طغوا في ضلالهم، وادعوا القوة، ولجوا في زعامتهم، واستمروا في [الرعونة][٢] بعث الله ﷻ عليهم [الصرصر العاتية][٣] تصرعهم اهلاكًا، قال الله ﷻ: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧].

وأما ثمود: فإنهم لما عقروا الناقة الله رغت فرغا فصيلها فأهلكم الله بالصيحة طغت عليهم لطغيانهم في الأرض، وأما قوم لوط: [فإنهم][٤] قلبوا العلية سفلاً، فأسفل بهم لذلك [فخسف الله بهم الأرض][٥].

وأما أهل مدين وأصحاب الأيكة [قطعوا][٦] في الأرض وأخافوا [السبيل، وأفسدوا][٧] وبخسوا المكيال والميزان، فأهلكوا بالصيحة وبعذاب يوم الظلة وفرعون وقومه لاستكبارهم وعلوهم [فيها][٨] وطغيانهم.

[قال الله ﷻ: ﴿اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:٢٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٤]][٩] أطغى الله جل

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «رعونته».
(٣) في النسخة (ق): «الريح الصرصر العاتية عتت عليهم».
(٤) في النسخة (ق): «لما».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «فطغوا».
(٧) في النسخة (ق): «السبل».
(٨) في النسخة (ق): «في الأرض».
(٩) سقط من النسخة (ق).

وتعالى عليهم ماء البحر فأغرقهم فيه.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠] وهم أول لمن بعدهم.

قال الله جلَّ قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] فالوعيد إذًا قائم على من سواهم، [وإنما أدبنا الله جل ذكره بغيرنا إكرامًا](١) ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

[قال الله ﷻ](٢): ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٣) [هود:٨٣] وقد أنذر رسول الله ﷺ بخسف وقذف [نعوذ بالله من عذابه](٤).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] القائم من القرى ما هو منها أهل، والحصيد ما أهلك أهله فلم يعمر بعد، كديار عاد وثمود [وأرض مدين](٥) ومدائن قوم لوط ونحوها.

يقول الله جلَّ قوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ الله مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١] أي: [إهلاكًا كما قال جلَّ قوله: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ [الحج:١٣].

ثم أتبع ذلك كله ما هو علم ما تقدم، وموضع العبرة إليه والذكرى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣] وكما هو آية لمن

---

(١) في النسخة (ق): «أدب الله سبحانه وله الحمد هذه الأمة بسواهم إكرامًا لهم».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) روي أن لوطًا ﷺ غلبوه، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه، قال له الرسل: تنحَّ عن الباب، فتنحى وانفتح الباب، فضربهم جبريل ﷺ بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاة النجاة، فعند لوط قوم سحرة وتوعدوا لوطًا، فحينئذٍ قالوا له: إنا رسل ربك. وروي أن جبريل نقب من خصاص الباب، ورمى في أعينهم فعموا. وقيل: أخذ قبضة من تراب وأذراها في وجوههم، فأوصل إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب، فطمست أعينهم فلم يعرفوا طريقًا ولم يهتدوا إلى بيوتهم. وقيل : كسروا بابه وتهجموا عليه، ففعل بهم جبريل ما فعل. تفسير البحر المحيط (٦/٤٣٦).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

خاف عذاب الآخرة، فهو أيضًا آية على نجاة من أطاع واستجاب، وإنجاؤه أيضًا آية على مثال ما يرجى من ثواب الله ﷻ ولقائه.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣]][١].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت:٣٦] إلى قوله: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

يقول وهو أعلم: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ﴾ [هود:٨٤] ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ولا تصدوا [العلم][٢] عن سبيل الله [واتبعونها][٣]، فإنكم متى انتهيتم عن ذلك وعملتم بطاعة ربكم تاب عليكم فعاد عليكم بحسن عوائده [ورضي بكم][٤]، وكان معكم لإحسانكم، إن دعوتموه أجابكم، وإن سألتموه أعطاكم، وإن استنصرتموه نصركم، وكان لكم منه ملجأ تلجئون إليه، ومنجًا من محاذير تحذرونها، فكنى عن هذا [ومثل هذا][٥] بقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦] أي: خير لكم مما تستجلبونه لخداعكم وكفركم، وقطعكم السبيل وصدكم عن [سبيل الله.

لذلك - وهو أعلم - أعقب ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ويقال: «بقيت الشيء أبقيه» بمعنى: رَقَبْتَهُ وحَرَسْتَهُ، يقول: لحفظه خير لكم؛ لذلك قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقرب الله ومراقبته وحراسته وكلاءته وحفظه.

ثم قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٦] وقد يكون معنى قوله: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ جنة الله بما قد كتب لها من البقاء والدوام؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾][٦] فما كان جواب قومه إلا أن ﴿قَالُوا﴾ ردًّا لنصحه: ﴿يَا شُعَيْبُ

---

(١) ما بين [ ] به اختلاف بين النسخ.

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وتبغونها عوجًا».

(٤) في النسخة (ق): «ورضيكم».

(٥) في النسخة (ق): «ونحوه».

(٦) ما بين [ ] به اختلاف بين النسخ.

أَصلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا﴾ [كان][1] ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أو أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

كان عليه السلام على [الحق العظيم الذي انتخبه][2] الله ﷻ عليه من الحلم والرشد والعقل والأمانة، فكان عندهم معروفًا بذلك، ولما جاءهم بنصيحة ربهم إياهم وبلغهم رسالاته أخذوا يستهزءون به، ويسخرون لبعد البون [من كونه][3] على ما هو به مما جهلوه من أمر ربه [فيه][4] مما كانوا يرجونه [له][5] من مراتبهم وسدانة أماكن أباطيلهم، يقولون: [هذا الحلم والرشاد][6] اللذان كنا نعتقده فيك ونصفك به، أصلاتك هي [أمرتك بهذا؟!][7].

وكان عليه السلام فصيحًا معربًا عما يريده مؤيدًا بالحجة والبرهان، وقد قيل [فيه][8]: إنه خطيب الأنبياء - عليهم السلام - أي: هو [كان][9] أفصحهم لسانًا وأعربهم بيانًا [عما يريده، وأقواهم على المحاجة][10] - والله أعلم - فأجابهم بما يقابل ذلك منهم في لين ورفق فعل النصيح الشفيق يقول: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود:٨٨] [الأولى مقابلة لردهم عليه نصحه بالأمر لهم بالإيمان ومجانبة الكفر، والثانية مقابلة منه في ردهم عليه الولاء له إلى ربهم وسلوك سبيل طاعته وابتغاء مرضاته، وفيهما يتبين الحلم والرشد، والرزق الحسن هنا هو الوحي وعلم النبوة][11] وما يتبع ذلك.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الخلق العظيم الذي انتجبه».
(٣) في النسخة (ق): «لكونه».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «له هذا والرشاد».
(٧) في النسخة (ق): «التي تأمرك أن تترك ما كان يعبد أباتنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) سقط من النسخة (ق).
(١١) في النسخة (ق): «يعني: الإيمان واليقين والوحي والنبوة».

ثم جعل يذكرهم بما أصاب غيرهم السالكين سبيلهم المكذبين رسل ربهم إليهم بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يقول: لا [يكسبنكم][1] ﴿شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩] كانوا أقرب مجاورة إليهم من سواهم [يقول لهم][2] ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ [أي: بعباده][3] ﴿وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].

كما قال رسول الله ﷺ: «**التائب حبيب الله**»[4].

وقال الله ﷻ [وهو][5] أصدق القائلين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] فأجابوه ﵇ بما يشاكل عنادهم وقلة فقههم عن الله ﷻ ورسوله بقولهم: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١] يقولون: لم يكلفك أحد أن تأمرنا [بما تأمرنا به][6] ولا أن تنهانا، فمتى تعرضت إلى هذا رجمناك.

فأجابهم [برفق في غير عنف، فقال][7] ﵇: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[8] لم تعتقدوه آمرًا ولا ناهيًا، ولا مرسلاً ولا ناصرًا لم تخافوه في قولكم هذا وإنما خفتم رهتي ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ

---

(١) في النسخة (ق): «يكسبكم».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) ذكره العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/٤).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «في رفق بقوله».

(٨) ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ يقول: تركتم أمر الله تعالى وراءكم، خلف ظهوركم، وتعظمون أمر رهطي، وتتركون تعظيم الله تعالى ولا تخافونه؟ وهذا قول الفراء. وقال الزجاج: معناه: اتخذتم أمر الله وراءكم ظهريًّا؛ أي: نبذتموه وراء ظهوركم، والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر: قد جعل فلان هذا الأمر بظهره. وقال الأخفش: وراءكم ظهريًّا، يقول: لم تلتفوا إليه. بحر العلوم للسمرقندي (٢/ ٣٥٢).

﴿هُوَ كَاذِبٌ﴾ [في مقالته قولهم له وما أنت علينا بعزيز][١] ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٢ - ٩٣] فأنذرهم العذاب، ولم يبقَ [لهم][٢] إلا حلول أجله.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] إلى قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يقول: [كأنهم لم يكن لهم في ديارهم][٣] ظهورًا ولا بقاء.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] ما قال جلَّ من قائل في قوم أو في موضع: «ألا بعدًا لكذا» إلا جعله حصيدًا مبعدًا غير أهل آخر الدهر.

فصل

أجمع رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - على ضمان المغفرة والرحمة من ربنا ﷻ لمن آمن وعمل صالحًا، وعلى وصفه بالقرب وسرعة الاستجابة والوداد والحب [لعباده التائبين][٤]، كما أجمعوا على الدعاء إليه وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولا يملك الضر والنفع إلا هو، وهم الحق، وما جاءوا به هو الحق، [لا إله إلا هو][٥] الحق المبين، أرسلهم وضمنهم، هذا من وعده في دار الدنيا، [ولدار الآخرة خير][٦] وأكبر تفضيلاً، ألا ترى أن التوبة والعمل الصالح هو لقاؤه على الغيب ها هنا، فلقاؤه في الآخرة إذًا هو أكبر [الثواب وأكرم المنال وأفخمه كفضيلة البر الرحيم][٧] على كل ما أوجده.

آية ذلك: [فصل][٨] ما بين العمل بطاعته من صلاة وزكاة وذكر وتلاوة قرآن، وبين أعمال العباد في دنياهم هذا إلى المعهود المعلوم، فإن العباد ما رأوا الخير قط

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «كأن لم يكن في دارهم».

(٤) في النسخة (ق): «للتائبين».

(٥) في النسخة (ق): «لأن».

(٦) في النسخة (ق): «والآخرة أكبر درجات».

(٧) في النسخة (ق): «ثوابًا وأكرم منالاً كفضله ﷻ».

(٨) في النسخة (ق): «فضل».

إلا من عنده، ولا رأوا شرًّا ولا ضرًّا إلا من قبل سواه.

قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(١) [هود:١٠٣] كما جمعهم جلَّ ذكره في قبضتيه الكريمتين، ثم ذرأهم في الأرض لينيلهم نصيبهم الذي قدر لهم في الكتاب الأول كذلك يعيدهم إلى الجمع، ولم يستحقوا [الآن الكون](٢) في يمينيه الكريمين، وقد تدنسوا [بالخطايا والكفر](٣)، وتلفعوا باللعن والإبعاد، فلا بد إذًا [من جمعهم](٤) في صعيد واحد، أولهم وآخرهم، جنهم وإنسهم، لا ريب في ذلك.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤] [كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:١١٠]](٥) فإذا جاء الأجل المؤقت بالكلمة التامة أنفذ حكمه.

يقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥] لا اختيار يومئذٍ لأحد ينفذه، ولا أمر [يجده من نفسه](٦)، إنما الأمر كله يومئذٍ لله [والأمر اليوم لله ﷻ، لكن بوسائط](٧) وأسباب حجب بها ﷻ القدرة، [فهي - أعني: الأسباب](٨) والأواسط - يظن بها الغافلون الظن، وليست بنافعة ولا دافعة، والمنفرد بالحكم

---

(١) وعطف جملة ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ على جملة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ لزيادة التّهويل لليوم بأنّه يُشهد، وطُوي ذكر الفاعل؛ إذ المراد يشهده الشّاهدون؛ إذ ليس القصد إلى شاهِدين معيّنين، والإخبار عنه بهذا يُؤذن بأنّهم يشهدونه شهودًا خاصًّا، وهو شهود الشيء المهول، إذ من المعلوم ألا يقصد الإخبار عنه بمجرّد كونه مرئيًّا، لكن المراد كونه مرئيًّا رؤية خاصة، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقّق؛ أيّ: مشهود بوقوعه، كما يقال: حقّ مشهود؛ أيْ: عليه شهود لا يستطاع إنكاره، واضح للعيان ، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى كثير الشّاهدين إياه؛ لشهرته، كقولهم: لفلان مجلس مشهود. التحرير والتنوير (٧/١٩٦).

(٢) في النسخة (ق): «بعد أن يكونوا».

(٣) في النسخة (ق): «بالجرائم والخطايا».

(٤) في النسخة (ق): «لهم من أن يجمعهم».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «يدبره».

(٧) في النسخة (ق): «الواحد القهار وإن كان الأمر أيضًا لله فبوسائط».

(٨) في النسخة (ق): «فالأسباب».

هو الله [الذي][1] لا إله إلا هو، وهذا الأمر [في ذلك اليوم][2] أظهر جدًّا.

قسم الله ﷻ المكلفين إلى شقي وسعيد؛ إذ [تلك الآخرة منقسمة][3] على دارين جنة ونار كما قسم موجودات الدنيا إلى محمود وإلى مذموم، فنشأت محمودات الدنيا إلى [دار][4] السعادة والولاية الكبرى في المكلفين كما نزلت صفة المذمومات مما هي هنا إلى درك الأشقياء، والله تعالى لا يوجد شيئًا فيبطله ألبتة، [إذا أبطله عينًا أبطنه][5] حكمًا، وإن أبطله حكمًا أثبته عينًا، وعنده الكتاب الحفيظ [حوى كل شيء][6].

قوله جلَّ قوله وتعالى جدُّه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ [هود:١٠٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] أكثر علماء السلف - رحمة الله على جميعهم - في معنى هذا الاستثناء مع اجتماعهم على معتقد الخلود، والمفهوم من قول الله العلي [الأعلى][7]: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧] فعسرت المعرفة بهذا الاستثناء جدًّا، والله ولي التوفيق.

فمن قائل يقول: إن معنى «ما» [ها هنا معنى][8] «من» كأنه قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] ممن يخرج بالشفاعة وبما بقي في قلبه من إيمان وخير، واحتج [على ذلك][9] بأن «ما» بمعنى «من» موجود، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:٥ - ٧].

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «يومئذ».
(٣) في النسخة (ق): «دار الآخرة مقسمة».
(٤) في النسخة (ق): «درجة».
(٥) في النسخة (ق): «إن أبطله عينًا أثبته».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «الكبير».
(٨) في النسخة (ق): «بمعنى».
(٩) زيادة في النسخة (ق).

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [الليل:٣] ونحو هذا.

ومن قائل يقول: هي بمعنى «الذي» فيكون الاستثناء من المدة، معنى ذلك: إلا الذي شاء ربك ألا يخلدوا فيها، وهم الذين أدخلوا النار [بسيء أعمالهم][(١)] ثم أخرجوا منها بالشفاعة، فيكون الاستثناء متناولاً ما سوى لبثهم في النار بعد خروجهم، وبالحقيقة فإنه استثناء من خاص شقاوة [دون شقاوة][(٢)]، ولا ينطلق على من يخرج من النار اسم الشقاوة دون استثناء.

قالوا: ويحتمل أن يكون المستثنى [في][(٣)] المدة التي كانوا فيها وقوفًا في [عرضة][(٤)] المحشر قبل دخولهم الجنة أو النار، فيتناول الاستثناء [مقدار متناولهم][(٥)] من الحساب.

قالوا: ويحتمل أن يكون الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيرًا وشهيقًا خالدين [فيها إلا ما شاء ربك][(٦)] من مداولة أنواع عذاب بأنواع عذاب، لم يذكر مما شاء ربك أن تصيبهم بها.

قالوا: ويدل على ذلك قوله في أهل الجنة: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] فيكون الشهيق والزفير منهم مجذوذًا بغيره من أنواع العذاب، ويكون وصف الخلود مدة مادامت السماوات والأرض، [ثم ينشأ][(٧)] عذابًا غير ذلك، كذلك قال جلَّ قوله في أهل السعادة وقد قال: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧] ومعلوم أنهم ينتقلون من نعيم إلى نعيم، فكذلك أهل الشقاوة عذابهم غير منقطع، وإنما هو التبديل من عذاب إلى عذاب.

قالوا: فيمكن أن يكون الاستثناء واقعًا من هؤلاء وهؤلاء على هذا الوجه

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «هو».
(٤) في النسخة (ق): «عرصات».
(٥) في النسخة (ق): «بمقدار موقفهم».
(٦) في النسخة (ق): «في ذلك إلا ما شاء ربنا».
(٧) في النسخة (ق): «بما شاء».

الموجود، نسأل الله رحمته، ونعوذ [به][(١)] من عذابه.

ومن قائل يقول: إن [«إلا» في الاستثناء تكون][(٢)] بمعنى الواو، كما يقول الرجل: «والله لا رأيت مني خير إلا إن [رأيت مني][(٣)] غير ذلك» [وعقد يمينه أنه لا يرى][(٤)] غير ذلك ولا يشاؤه.

ومن قائل يقول: معنى قوله: ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ معنى قوله: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الفتح:٢٧] وقد علم الله ﷻ أنهم يدخلونه حتمًا، والاستثناء على هذا لم يوجب خيارًا؛ إذ عزيمة المشيئة قد كانت تقدمت بأن يدخلوه.

قال: وهذا الاستثناء مثله.

قال: ومثله قول رسول الله ﷺ: «**ولا يحل لقطتها إلا لمنشد**»[(٥)] والمعنى: ولا لمنشد. انتهى ما بلغنا فيه من تفسير المتقدمين ﴿**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

والذي ذهب إليه أيضًا بعضهم أن السماوات يومئذٍ هي سماء الجنة، وهو العرش، والأرض المذكورة هي أرضها وتلك سماء وأرض مؤبدتان بقاء سرمدًا لا إلى منتهى وهذه السماوات والأرض يومئذٍ قد بدلنا بغيرهن فيكون معنى قوله: ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ [هود:١٠٧] هو مدة ما لم يدخلوها، وهو ما قبل يوم البعث، ثم إلى حين دخولهم [داري][(٦)] القرار والله أعلم، وفصل الخطاب [في ذلك إن شاء الله][(٧)] - والله أعلم بعلمه وبحكمه - أن الاستثناء هو من الخلود [قدر][(٨)] دوام السماوات والأرض.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الاستثناء قد يكون».
(٣) في النسخة (ق): «أرى».
(٤) في النسخة (ق): «وعزيمته ألا يرى».
(٥) أخرجه بنحوه البغوي في «شرح السنة» (٥/٢١٥).
(٦) في النسخة (ق): «دار».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «الذي هو».

قال الله جلَّ من قائل: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨] والسماوات والأرض يومئذٍ غير موجودة، فكيف يستثني من دوام ما ليس بموجود إلا أن يكون معنى الكلام: خالدين فيها مادامت السماوات والأرض مُذ خلقتا إلى أن بدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وتبديلهن [ذلك][١] إنما يكون والناس في المحشر قيامًا لرب العالمين.

ويتوجه ذلك في حكم العدل أنهم لما لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض طلب نظر لعلم ما جعلت له، وطلب شهاداتهما لخالقهما ﷻ، وشهدوا عليها بما لم يشهدوا به على أنفسهما، وقولوها ما لم تقل على ربها وعلى أنفسها أوجب الله العزيز الحكيم عليهم العذاب طول دوامها منذ خلقها إلى أن قوض بناءها، وبدل أرضها وسماءها بغير ما هي عليه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] هذا في مقابلة قوله جل قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧] ثم لما كان كفرهم هو كفر بالله العلي العظيم الدائم الباقي دائمًا أبدًا متوالي البقاء كان المراد [تأبيدهم في][٢] عذابهم من أجل كفرهم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو المشار إليه بقوله جلَّ قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١] مستثنى من المراد في عذابهم الذي مدته مادامت السماوات والأرض، وتكون «ما» على ما أصلها.

[ويجوز][٣] أيضًا على ذلك [أن تكون][٤] معنى«ما» بمعنى «الذي» ثم كذلك أهل السعادة لما شهدوا للسماوات والأرض بما شهدت به لربها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فصدقوها بذلك وصدقتهم هي استوجبوا بوعد ربهم ﷻ أن يخلدوا في الجنة مادامت السماوات والأرض مضاعفًا، ولما كان إيمانهم إيمانًا بالله ﷻ، وأعمالهم موجهة إلى الله الدائم الباقي استوجبوا بفضل ربهم البقاء الدائم والخلود

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «في تأبيد».

(٣) في النسخة (ق): «ويكون».

(٤) سقط من النسخة (ق).

السرمد، فيمكن أن يكون المستثنى في مشيئة الله جلَّ ذكره زائدًا على مدة دوام السماوات منذ خلقت إلى يوم القيامة.

[ويمكن أيضًا أن يكون](١) قوله جلَّ قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] [بدلاً](٢) من «ما» وهي في موضع نصب؛ لأنها مفعول شاء، فيكون المعنى إلا ما شاء ربك **عطاء** غير مجذوذ، ثم ينقلون إلى خلود آخر مادامت السماوات والأرض إلى حيث لا يبلغه العدد، ولا ينتهي إليه الحصر [كما نشاهده الآن في تدوار الدوائر قد شاء الله قطعها إلى أجل مسمى هو عنده، وأمر الآخرة لا انقطاع له فيكون معنى الاستثناء: إلا ما شاء ربك من بقاء دائم غير منقطع كما شاء في هذه الدار البقاء المنقطع](٣) **عطاء غير** مجذوذ هكذا أبد الآباد؛ لأنهم آمنوا بالله الدائم الباقي وبأسمائه وصفاته، [ويكون](٤) معنى الاستثناء قوله: إلا ما شاء ربك [أي](٥) من تطويل وتقصير لمدة دوام السماوات والأرض، وهو على ما يشاء من ذلك قدير.

قال رسول الله ﷺ في الدجال لعنه الله: «**[إنه يمكث أربعين]**(٦) **يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة،** وسائر **أيامه كأيامكم**»(٧).

وقال: «**يكون في آخر الزمان اليوم كالسنة، واليوم كالشهر، واليوم كالجمعة، واليوم كالساعة، [واليوم كإحراق]**(٨) **السعفة وكضرمة النار**»(٩) فهذا مما قد شاء ربنا [وقد يشاء](١٠) ﷻ فيطول ما شاء حتى لا ينقطع أبد [الأبد](١١)، ويقصر ما شاء إلى

---

(١) في النسخة (ق): «ويكون على هذا معنى».
(٢) في النسخة (ق): «حالاً».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وتكرر».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠).
(٨) في النسخة (ق): «وكاحتراق».
(٩) أخرجه بنحوه أبو يعلى (٦٦٨٠)، والديلمي (١٣٠٦).
(١٠) زيادة في النسخة (ق).
(١١) في النسخة (ق): «الآبدين».

أقصر ما يتوهم كل ذلك عليه يسير.

غير أنه قال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وفي أهل الجنة: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

وفي الكتاب الذي كتبه على نفسه يوم استوى على العرش: «**إن رحمتي [سبقت]**[١] **غضبي**»[٢] وفي أخرى: «**تغلب**»[٣] وقد علق [تفتح أبواب][٤] السماء لأرواح المكذبين وإدخالهم الجنة بغاية كونها مستحيل في مجرى العوائد، فالله أعلم ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وكل شيء شاءه عليه يسير غير عسير، وما استاق جل وعلا [ذكر][٥] هذه الصفة إلا لعظيمة يقضيها لكنها مدخرة، من ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ * ذُو العَرْشِ المَجِيدُ﴾ يعني للمؤمنين ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٢ - ١٦].

ويقول ﷺ لمن هو آخر [أهل][٦] الجنة دخولاً وهو آخر أهل النار خروجًا منها، وقد رأى أن الجنة ضاقت [عليه لملئها][٧] بأهلها، فيقول: يا رب كيف وقد أخذ الناس أخذاتهم ونزلوا منازلهم؟ فيقول: أيرضيك أن يكون لك مثل الدنيا كلها؟ فيقول: أتسخر بي يا رب وأنت رب العزة؟ فيقول: إني لا أسخر بك ولكني على ما أشاء [قدير][٨] وإن لك الدنيا وعشرة أمثالها.

ويقول جلَّ قوله: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، ولكن وعزتي وجلالي وارتفاعي في علو مكاني لأخرجن**

---

(١) في النسخة (ق): «تسبق».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) في النسخة (ق): «تفتيح».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «بملئها».

(٨) في النسخة (ق): «قادر».

[منها][١] من قال: **لا إله إلا الله**»[٢] [ومن خافه][٣] في مقام فيدخل يده في النار فيخرج منها ما لا يحصي عددهم إلا الله.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، مع كل ألف سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، وثلاث حثيات من حثيات ربي**»[٤] فالسبعون ألفًا يدخلونها بغير حساب، وهم السادة القادة ﷺ، مع كل ألف منهم سبعون ألفًا هؤلاء هم أتباعهم، ثم أدخل على هؤلاء سبعمائة ألف مع كل ألف سبعمائة ألف، «أو» قد تكون بمعنى [الواو، فمعنى الحديث][٥] والله أعلم: يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، مع كل ألف سبعمائة ألف والسبعون فتح لباب الكثرة.

والثلاث حثيات لا يحصرها [بعدد][٦] إلا الله ﷻ؛ لذلك لما حدث رسول الله ﷺ بهذا الحديث في بعض الروايات عبَّر رسول الله ﷺ عن الحثيات بالفعل، فجعل يحثو بيديه جميعًا [بين يديه][٧] وكأنه يجعل ناحية يشير بيديه، قال أبو بكر ﷺ في الثانية أو الثالثة: «كفانا يا رسول الله» قال عمر ﷺ: «دع رسول الله ﷺ يصف [ويبشرنا][٨] بفضل الله علينا».

قال أبو بكر: «حثية من حثيات ربنا تكفينا» فكان أبا بكر عرض بأن الله واسع كريم وسع كل شيء، وبحثية واحدة يسع كل شيء، ففهم من التكرار أنه إخراج بعد إخراج، وأراد عمر التأنس بكثرة الحثيات، وكان أبا بكر أعلم الرجلين فتفهم، وتفطن إلى فيض جوده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وسبق رحمته، هي كلمة من كلماته

---

(١) في النسخة (ق): «من النار».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «وفي أخرى ومن خافني».

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٣٥٧)، والترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب. والطبراني (٧٥٢٠)، وابن حبان (٧٢٤٦)، والدارقطني في «الصفات» (٥٠)، وابن ماجة (٤٢٨٦)، والديلمي (٧١١٣).

(٥) في النسخة (ق): «سرد الحديث».

(٦) في النسخة (ق): «بعد ذلك».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «أو ليبشرنا».

[وكلماته][(١)] تامات نهايات، كيف تصاعد من سبعين ألفًا إلى سبعمائة ألف إلى أضعافها، وإلى أضعاف أضعافها إلى ما لا يتطرق إليه التحصيل، ولا يحصره إلا علمه المحيط وسعة جوده.

[قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[(٢)].

وفي أخرى: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمين بيمينه، وأهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة**»[(٣)].

هذا الذي تقدم من الكلام على بعض الوجوه الواردة عن علماء السلف - رضي الله عنا وعنهم - والذي يصح من مفهوم الخطاب العلي قوله: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا**﴾[(٤)] وقال في الشهداء مثل ذلك ﴿**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾ [هود:١٠٦ - ١٠٧] أي: في طول مدة البرزخ الذي عبّر عنه قوله الصدق: ﴿**وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وهذه مدة دوام السماوات والأرض على التحقيق، وما بعد ذلك هو الدوام الأبدي والخلود السرمدي في دار القرار، فأخبر عز جلاله عن مصير هؤلاء وهؤلاء في دار البرزخ، واستثنى من حكم الخلود الذي هو الأبدي الدائم ما قد شاءه، ثم

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أي: فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرّون في النار لهم فيها زفير وشهيق. قال الزجاج: الزفير من شدّة الأنين، وهو المرتفع جدًّا. قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير، والشهيق بمنزلة آخره.
وقيل: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف.
وقيل: الزفير: إخراج النفس، والشهيق: ردّ النفس.
وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق.
وقيل: الزفير: ترديد النفس من شدّة الخوف، والشهيق: النفس الطويل الممتد، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ أو في محل نصب على الحال. فتح القدير (٣/٤٨٣).

يرجع جل ذكره خلود ذلك اليوم الذي لم يشأ لهؤلاء ولهؤلاء خروجًا على خلود يوم دوام السماوات والأرض.

فخصت المشيئة العالية من الخلود الدائم الأبدي البعث والنشور بما ضمنه إياه من حكم، وقد كان استحقاقهم لكفرهم أو إيمانهم لخلود هؤلاء؛ لأنهم آمنوا بالوجود الموجود، وبالله الدائم القائم، ولأنهم كفروا بآياته في الوجود في السماوات وبالله الدائم القائم، الأول الآخر، الظاهر الباطن، فكان من مشيئته الفضل بإخراجهم يوم الخروج إلى العرض يوم النشور بما في ذلك من حكم عدل وفصل في تقديم وتأخير، وعطاء ومنع، وإكرام وإهانة، فافهموا فهمنا الله وإياكم عنه.

إنما هي دوائر يديرها بأمره العلي كما شاء حياة أولى، وهي هذه ليسوا في هذه ولا في هذه إلا في باطن من الأمر والنهي، وحكم الفيح والفتح والإيمان والكفر، ثم يصيرهم بعد الموت إلى هذه أو هذه في خلود ما دامت السماوات والأرض، ثم يخرجهم منها للتوقيف والعرض بجميع أحكام ذلك، ثم يعيدهم إلى هذه أو هذه في الخلود الدائم السرمد، فرجعت بذلك دائرة الكونين أولاها على أُخراها، جعلنا الله من المكرمين في ذلك كله إنه هو الولي الحميد][(١)].

فصل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن [علم المتقين][(٢)] تتفاوت علومهم على مقدار درجاتهم، وتفاوت محالهم [إعلامًا][(٣)] علمًا بالإضافة إلى من ليس بملك ولا رسول علوم الصديقين، وشهداء العلماء وهو إيمانهم بالغيب، ثم علم [المتقين][(٤)] يتلوه في الدرجة الثانية دونه.

قال الله ﷻ: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١ - ٢] [إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أهل اليقين».
(٣) في النسخة (ق): «أعلاها».
(٤) في النسخة (ق): «الموقنين».

هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]](١).

وقد تقدم في صدر الكتاب أن علم الغيب على درجات، فالعلم بالله ﷻ ووجوده ووحدانيته وألوهيته، والعلم بأسمائه ﷻ وصفاته بدلائل ذلك، وبراهينه وشواهده من الموجود والكتاب، ثم العلم بالكتاب والرسول والنبوة، وما جاءت به وما نحا نحو ذلك وما جر إليه، ثم العمل بالعلم والعلم بالآخرة، وإنها موجودة على أبعد الغايات وأنهى النهايات على القول بالإجمال، والقطع بعلم: لا ريب فيه وربما أدرك بعضهم من التفصيل طرفًا لكن بشرط الإيمان بأن وراء ما أدركه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يعلم لذلك [أنبياءه](٢) بعلم لا ريب فيه، ثم ما بين هذه المنزلة والمنزلة التي أدركها بتفصيل ما مهامه علوم بعيدة الآفاق، وبحار معارف لا يعبرها إلى ذلك المزيد إلا صريح الإيمان مع طمأنينة [النفس](٣)، ومساعدة العقل الإيمان، وانشراح الصدر لعظائم ترد [على](٤) خارجة عن المعهود، فهذا وشبهه من علوم الموقنين.

ثم - أعلم علمك الله العليم من علمه وأجزل حظك من معرفته - أن العلم الذي يخص [الصديقين واحد](٥) إلى ما تقدم ذكره هو علم واحد أوله علم الفطرة، وهو علم عموم المؤمنين والمعرفة واحدة، فلا تحسبنها مختلفة؛ أعني: معرفة الصديقين ومعرفة العوام في أولها؛ لأن الخالق [واجد](٦) والمطلوب [واجد] والمعروف بها واحدة، والفطرة واحدة، إنما هو الله ﷻ نبَّه رجالاً فانتبهوا.

ولو أن من قرأ العلم على العلماء وسمعه منهم رجع إلى ربه فقرأه عليه، ثم طلب منه حقيقته حتى يسمعه بإذن قلبه، ويعيه منه بحقيقة ذاته انتفع به، وبلغ منه حيث لم يحتسب، فاعمل - رحمك الله - بما تعلم يعلمك الله ما لم تعلمه، والمقام

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أيضًا».
(٣) في النسخة (ق): «اليقين».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «الموقنين والصديقين زائدًا».
(٦) في النسخة (ق): «واحد».

الذي حله الصديقون هو معرفته بذاته وحده، [فرأوه][(١)] قبل أن يظهر خلقه، فلما أظهر خليقته عرفوها - [يعني][(٢)]: الخليقة - فلا تسل عن كريم محلهم، ورفيع ما بُوِّءوا منه، إنما شاهدوها بالله وشاهدوه بها، فشهدوا له بما شهد به لنفسه، وشهدوا لها وعليها بما شهد به لها وعليها، فهم الشهداء الأُوَل، وهم القدوة فيها للشهداء سواهم، وهم السابقون إلى ذروة المحل الأعلى من الفهم والعلم.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] ولما حلوا هذا المحل وأقيموا هذا المقام وصدقوا فيه انفجرت لهم ينابيع العلوم في قلوبهم من ذلك المفجر مياه عذبة [صافية][(٣)] كافورًا وزنجبيلاً، سلسالاً تسلسل على خفي ذواتهم من رفيع المستوى، كل يُسقى بكأسه ويعرف له من نهره، فالعلم الذي نشأ إليه إيمانهم هو العلم الذي لا يجوز عليه اعتراض الشك، ولا ينبغي عنده التنازع، ولا يختلف فيه إلا الجاهلون به، وهو مما يلزم الإيمان به كما قال رسول الله ﷺ: «**إن من العلم ما يكون كهيئة المكنون....**»[(٤)].

قال: ولا ينبغي عند نبي تنازع، ولما كان علمهم من قبيل أنباء الإلهام والأشعار والمحادثة والتكليم لم ينبغِ التنازع عنده ولا فيه، فمن [أجاب][(٥)] وحسَّن الاستماع فيما فهموا منه اعتقدوه وحمدوا الله على ذلك، وما لم تبلغه أفهامهم لم يتعرضوا عليه بتكذيب، وهو العلم الذي لا يحتاج إلى دليل يدل عليه؛ لصحته عند من عرفه، ولا يعرفه إلا أهل الإيمان بالله، وهو العلم الذي لا [يسمح بإلحاح السؤال][(٦)]؛ إذ أكثره خارج [عن معظم][(٧)] الاستطاعة، بل أكثره عن نفحات البر الكريم ﷻ وتعالى

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أعني».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) أخرجه الديلمي (٨٠٢).
(٥) في النسخة (ق): «أدب سامعيه».
(٦) في النسخة (ق): «يستخرج بإلحاح سؤال».
(٧) زيادة في النسخة (ق).

علاؤه وشأنه، وفتوحات من الفتاح العليم، وعلومهم هذه مبنية على قواعد الإيمان العلي، وهو أن الله هو [الواحد][(١)] الصمد، ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا على سواء التوحيد الأعلى.

وقواعدهم التي أسسوا عليها أساطين بنيانهم هي أن الله ﷻ [لا يعجزه][(٢)] شيء، ولا يفوته شيء ماضي الأمور لديه كمستقبلها إن شاء ردها فكأنها لم تكن، وإن شاء أمضاها فكأنها لم تزل، وإن شاء أن يصعد [صعد][(٣)] ولا يخلو منه السفل، وإن شاء نزل ولا يخلو منه العلو من غير تكليف لصعوده ولا نزوله سوى الإيمان بأن له نزولاً وصعودًا، وإنه في كل مكان ومع كل موجود دون مكان، ولا معية صحبة ولا حركة ولا انتقال، بل هي صفات له وأوصاف يوصف بها، اتصف بها في وجوده الأزلي ما [ها][(٤)] هنا صفة [مما يعبر به عن ذلك][(٥)] مأخوذ [عما][(٦)] هنالك، وتلك منزهة عن أوصاف المخلوقين ونعوت المحدثين، وهو الذي لا يتعذر عليه أن يتصف بما شاء.

وله المثل الأعلى بكل وجه وبكل معنى، إن شاء تكلم ولا يزداد بالكلام قدرة، وإن شاء لم يتكلم ولا ينقصه ترك الكلام قوة، لا يعتوره حدث السكوت والكلام، إن شاء أسمع الخلق كلامًا بلا إلهام، وإن شاء قوى أبصار العباد على رؤيته كما إن شاء أن يضعفها عنه، وإن شاء قصر طول الدنيا كلها حتى يكون السائر في طريقه خطوة واحدة، وطول قصر الذراع حتى لا ينقطع مسافته أبدًا، وإن شاء أسكن [الكثير في القليل][(٧)]، وإن شاء أسجن الواسع في الضيق، وإن شاء جمع جميع خلقه في خردلة، وأسمع الميت الرميم الذي لا يسمعه الحي السوي، وحجب أذن

---

(١) في النسخة (ق): «الأحد».
(٢) في النسخة (ق): «ليس كمثله».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «من كريم أسماء وأوصاف وصفات موجود عن وجوده خلقًا وأمرًا».
(٦) في النسخة (ق): «مما».
(٧) في النسخة (ق): «القليل في الكثير».

الحي السوي عن سماع الرعد القاصف في وقت تسمع فيه وطء النمل على رءوس الشواهق.

وقد تقدم ذكر القواعد الستة في صدر الكتاب من علومهم، ومن **أذكارهم**:

- لا إله إلا الله.
- الله الله [الله][1]، ولا قوة إلا بالله.
- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.
- الحمد لله.
- لا يأتي بالخير إلا الله، لا يذهب السوء إلا الله.
- لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع.

ومن آياتهم في القرآن:

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ * أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٦ - ١٧].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

وكل آيات القبض فهي دعائم علومهم، وعنها دعائم [حقائق][2] معارفهم مع اعتقادهم جميع خطاب البسط.

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا لا حساب عليهم، وجوههم كالقمر ليلة البدر، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم**» فسئل رسول الله ﷺ: من هم؟ قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[3].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٦١٠٧)، مسلم (٢١٨)، وأحمد (١٩٩٩٨)، والطبراني (٣٦١٩)، والبزار (٢١٢٠).

فتوحيدهم في الأعمال على حقيقة التوكل؛ لأن التوكل [هو][1] فعل القلب [وعلمه][2] كما أن حلول التوحيد فيه هو علمه، [واعتقاده التوحيد هو علمه][3]، والتوحيد ينقص بنقصان التوكل؛ إذ التوحيد عبارة عن معانٍ ثلاثة، وهو علمك ألا يفعل فعل الله غير الله ونفي التهمة عنه [وعلمك بما يعرف][4] هو ظاهر التوكل، فإذا نقص العمل بذلك نقص التوحيد.

وأما توحيدهم في رؤية الأشياء فهو أنهم لا يرون الدواء والشفاء في الأطعمة ولا في الأشربة، ولا يرون الشبع والرِّي في المآكل ولا في المشارب، وإنما يرون الشفاء فيما أحل الله وفي العمل بطاعته، والداء كله فيما حرم الله والعمل بمعصيته، ولا يرون الموت إلا الكفر، ولا الحياة إلا الإيمان بالله والعمل بطاعته، ولا مرض إلا الشك، ولا دنس إلا دنس العصيان.

ومن توحيدهم: أن ليس للأشياء فعل بأنفسها قطعًا، وإنما الأفعال التي تشاهد منها إرادة الله بها، وفيها استوى عندهم وجود الموجودات في استمرارها على معهودها ومعارفها، وفي إخراجها عن [أسبابها][5] بخرق العوائد فيها، فإذًا لا فاعل ولا ضار ولا نافع إلا إرادة الله بها وفيها، ولذلك ما استقر بهم التوحيد على أن الله جلَّ ذكره إن شاء أن يحرق بالذي به بردوا، إن شاء أن يبرد بالذي به أحرق، وإن شاء أسقم بالذي شاء أن يبرئ به، وإن شاء أن يبرئ بالذي شاء أن يسقم به، وإن شاء أشبع بالذي شاء أن يجوع [به][6]، وإن شاء جوع بالذي شاء أن يشبع به، ليس عندهم في الأشياء معانٍ تُفعل بذاتها، [بل][7] الفاعل الحق بها هو الله وحده لا شريك له، فمن يسره الله للتوحيد الأعلى يسره للعمل بمقتضاه، فهو صديق من

---

(١) في النسخة (ق): «في الحقيقة».
(٢) في النسخة (ق): «وعمله».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وعملك بما تعرف».
(٥) في النسخة (ق): «سبيلها».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «إنما».

حيث إنه كثر منه الصدق والتصديق في علمه وعمله [وفي آيات الله جل ذكره في الوجودين العالم والوحي][(١)] من حيث إنه [هو][(٢)] بمكان يشرف منه على معالم النبوة فيصدق به ظهرًا وبطنًا.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال العبد يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»[(٣)].

والصدق شامل للقول والعمل، وهو إذا بلغ هذا [ييسر][(٤)] له علم ما [اختلفت من أجله][(٥)] هذه المعاني ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤] لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد.

فصل

ليس في الوجود كله إلا الله][(٦)] وتحققه قوله الحق: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور:٣٥] إلى آخر المعنى.

وقوله: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد:٣ - ٤].

وقوله: ﴿**وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام:٣] فبهذا يتبين لك فهم ما نحن بسبيله، فلنسأل الله جلَّ ذكره أن يجعل له هذا العلم حالاً ووصفًا وصفة، فقد يورثه ما لم يتحقق حاله في ذلك ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧)، وأبو يعلى (٥١٣٨)، وابن حبان (٢٧٣)، والبيهقي (٢٠٩٢٧).

(٤) في النسخة (ق): «تيسر».

(٥) في النسخة (ق): «اجتلب إليه».

(٦) سقط من النسخة (ق).

فصل

قال الله عزَّ من قائل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧] المعنى، وقد تقدم الكلام على هذا.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود:١٨] وقد تقدم الإعلام بما انتظم به هذا الخطاب.

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣] يعني: تواضعوا الخبت من الأرض المطمئن منها.

إلى قوله جل قوله: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤] يقول: مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم، وهم الذين على بينة من ربهم، ويتلوهم شاهد من الله كتابه ومعاني [توجبه][١]، ومثل المفترين على الله الكذب ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٥].

يقول: مثل هذين الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع، ولم يقل: كالأعمى والأصم والسميع إذ الغرض الإخبار عن المبصرين الآيات والسامعين شهادتهما، وما يقولها ربها ﷻ من حكمة ويهدي [المؤمن][٢] هداية، [وقد أوجد ﷻ في عباده من هو أعمى الأصم والبصير والسميع؛ لأنه][٣] قد أوجد الله ﷻ في عباده من هو أعمى وهو سميع، وأوجد أيضًا من هو بصير لا يسمع.

فالأعمى مثال للذي يقرأ القرآن ويشهد بالشهادتين ولم يرَ الآيات، ولا استشهد لله ﷻ بالشواهد، وكثيرًا ما يجعل هذا في باطنه نورًا من بصر باطنه فيمشي

---

(١) في النسخة (ق): «وحيه».

(٢) في النسخة (ق): «إليه من».

(٣) سقط من النسخة (ق).

به في الناس، وسبيل هذا أن يتخذ عبدًا من [عبيد][١] الله عالـمًا يقتدي به ويقلده، يقوم له مقام العصا للأعمى فيتجسس بها ويعنون ، فإن كان لهذا الأعمى قائد مبصر فهو كمن وفقه الله للاقتداء بالرسول ﷺ.

فإن قارئ القرآن والحديث ما لم يتبصر البينات، وينظر في الموجودات، ويتدبر كتاب ربه فهو بعد [أعمى][٢]، فإن اقتدى برسوله واتخذه إمامًا كان كالأعمى اتخذ [عصا][٣] قائدًا مبصرًا نبيلاً، وإن اقتدى بمن سواه من علماء الأمة كان كالأعمى اتخذ عصا قائدة إلى مقاصده، وفي ذلك عميان ومتاع، وإن كان قد قصرت به همته عن غايته التي أهل لها مثله [كمثل السميع لا بصر له][٤]، ومثل المبصر لا سمع له كمثل المعتمد على نظره المقتصر على معقوله الباحث بحاسته في الموجودات.

فغاية هذا: أن يسلك بين المحسوسات الجزئية بحاسته، ويستقرئ المقولات الكلية [يفهم ذاته بزعامته][٥]، فيستخلص من ذلك علمًا ظاهريًا يقف به على طباع الجسميات وما قرب منها، ولبعده عن [السمع وغيبته عن][٦] السماع كان كالمنادى [من حيث][٧] لا يسمع النداء [لا يوعد، ثم السمع][٨]، فهو من أجل ذلك يحسن الظن بنفسه من حيث إنه ربما رأى في نظره [لقاء ربه][٩] وأحس بقربٍ، ولم يكن له سمع يوصل إليه [تحقيق][١٠] معاني ما رآه، ولا [يتميز][١١] ما أحسه فتاه [من أجل

(١) في النسخة (ق): «عباد».
(٢) في النسخة (ق): «أمي».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «بفهم ذانه زعامًا منه».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «لأنه عدم السمع».
(٩) في النسخة (ق): «مقاربة ما».
(١٠) في النسخة (ق): «تحسين».
(١١) في النسخة (ق): «تمييز».

ذلك][1] في مهامه وطرقاته وهو لا يشعر، وعمه في مجاهل جهالاته وهو لا يفطن، [وببصره][2] واعتماده على عقله [ورجوعه][3] إلى حسه يظن أنه قد بلغ علمه إلى كل علة ومعلول.

وهذا طريق ينقطع بالسائر عليه دون البلاغ، ولا يصل فيه سالكه إلى المطلوب الأعلى، بل إنما يصل إليه بأن يعرف مراد ربه [منه][4] فيمتثله، ويعرف ما يكرهه فيتجنبه، وإلا كان شارعًا لنفسه آمرًا ناهيًا على نحو ما يهواه، فهذا يمشي بين السامعين والمستمعين غافلاً سادرًا، أو كالمبهوت الحائر لا يسمع الداعي فيجيب المنادي، فمتى وقع بصره على الحادي [وأحسن لشخص][5] المنادي لم يسمع ما يقوله، ولا يعقل منه ما يريده إذا لا يعلم ما هو مراد الله وما فيه رضاه إلا من جهة السمع وذلك لا يكون إلا بواسطة رسول من عند الله وكتاب يأتي من عنده.

وهذا متى ركن إلى سامع وأنس إلى مسمع حتى يتعلم إشارته، ويفهم بذلك مراداته دخل في المفلحين، وشمله اسم الناجين، وعمَّه عام الخطاب، وحصل من [حمله][6] الأتباع، وإلا بقي سادرًا في مهامه أسفاره، عديم الوصول بأفكاره [وأذكاره][7]، يظن أنه قد وصل، وهو قد ضل من حيث لا يدري [تراه أبدًا يدين][8] بتدقيق النظر في امتثال النقير والقطمير، وقد صد عن الوصول إلى مراد العلي الكبير، آية ذلك في الوجود وجود الممنوع السمع عن متكلم، وليس معنى الكلام سوى العبارة عن الوجود [العلي][9]، وذكر العلي الأعلى بمحامده وأذكاره، والفهم عنه والعلم لمراده.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «ولثقته ببصره».
(٣) في النسخة (ق): «وركونه».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وأحس بشخص».
(٦) في النسخة (ق): «جملة».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) سقط من النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود:٢٤] مثل السميع هنا: هو حامل القرآن، المتبع الوحي، السامع من المبلغ عن الله ﷻ، ومثال البصير هنا: هو [النافد](١) في الفكر، [المجاهد](٢) بمعاني الكتاب والوحي، المستشهد بالشواهد، المهتدي بآيات الله وبيناته، الناظر في مسالك معاني أسمائه وصفاته في العالم، المشاهد للدار الآخرة من دار الدنيا، الناظر بموجودات الآخرة بموجودات الدنيا حتى كأنها منه برأي عين، ذلك النير الباطن الظاهر، الخريت(٣) في طَرَقات أسفار الأفكار، الهادي في المشكلات، القائم مقام النور في الظلمات، الماشي على الصراط المستقيم ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هذا واللذان تقدم وصفهما ﴿مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ يعني: العرب وكفار الأمم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: إنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا ولا أنزل به كتابًا، يقول عز من قائل: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩] أي: نصيبهم المكتوب في [الكتاب](٤) من أرزاقهم وآجالهم وآثارهم وفي الآخرة؛ أي: من جزاء على ذلك غير منقوص من ذلك الشيء وعيد منه إليهم شديد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾
وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

---

(١) في النسخة (ق): «الناقد».

(٢) في النسخة (ق): «الماهر».

(٣) أي: الدليل، الحاذق، الماهر.

(٤) في النسخة (ق): «الدنيا».

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود: ١١٠ - ١١٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١] «إن» [لتأكيد][1] الخبر كما يقال: إن زيدًا [أظلم][2].

[﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾][3] للنفي في هذا على قراءة من قرأ بتخفيف الميم؛ فإنها قرئت بالتثقيل في ميم «لما» والتخفيف [بمعنى][4] ثقلت كانت اللام والميم بمعنى «لم» كقولهم: «لم يقم زيد» و«لما يقم زيد» فقوله جل قوله: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا﴾ كلام قائم بنفسه لما تقدم من العلم وتقرر في النفوس من معناه، ويقال لهذا: الخطاب الموجز، ولا يكاد يحتاج أن يقدر له محذوف لبيان عرفه، ومحذوفه حاضر في نفس المخاطب مفهوم بأول وهلة، ولذلك جاز إطلاقه في كلام العرب مخذولاً من آخره، وهو كثير في [خطابهم][5] شائع في كلامهم مع إنجازه، يقوم على ذلك مقام التام المذيل في [بادئه][6] المراد به كقولهم: إن كنت تفضلت فمثلك لم يزل محسنًا، فهلا يا هذا توقع الموت فكان قد جميعنا، فكأنما لم تفِ يا غادر فلِمَ لم وهو كثير رفيع في خطاباتهم ومحاوراتهم؟ ولثبوت هذا من أن الجزاء كله الذي هو [الآجل][7] لا يكون إلا بعد إلحاق الأولين بالآخرين، وإنه إذ ذاك يعيدهم ويحضرهم بين يديه للعرض والجزاء في عرصة القيامة.

أوجز في الكلام للزومه، وحصول اليقين بوجوده، وكان ذلك أظهر لجزالة التهديد، وأبين لشدة الوعيد، والمخزول [من][8] الكلام هو [أن لو][9] تداركوا

(١) في النسخة (ق): «للتأكيد ولام قوله لما تأكيد».
(٢) في النسخة (ق): «لقائم».
(٣) في النسخة (ق): «وميمها».
(٤) في النسخة (ق): «فمتى».
(٥) في النسخة (ق): «خطاباتهم».
(٦) في النسخة (ق): «تأدية».
(٧) في النسخة (ق): «للآجل الآخر».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) زيادة في النسخة (ق).

وتلاحقوا، أو ما يكون في معنى ذلك فمجاز الكلام على قراءة من قرأ بالتخفيف، وإن كلاً لما تداركوا بعد، وعلى قراءة [التثقيل][١] وإن كلاً لما يلحقوا ونحو هذا، ويتصل قوله جل قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ [أي][٢]: أعمالهم بما قبله بتقدير «إذن» أو ما يكون في معناها سياق الكلام، وإن كلاً لما يلحق آخرهم بأولهم أو لما تلاحقوا بعد إذًا ليوفينهم ربك أعمالهم.

ونظيرتها في سورة «يس» [قوله جل قوله][٣]: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] قرئت أيضًا بالتثقيل والتخفيف[٤] وسيأتي [بيانها في][٥] موضعها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٦] [هود:١١٢] الاستقامة الأولى [لزوم][١] الإيمان باطنًا والتحلي بحلية

---

(١) في النسخة (ق): «التخفيف».

(٢) في النسخة (ق): «ربك».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) هذه الآية الكريمة ممَّا تكلم النَّاس فيها وحديثاً، وعسر على أكثرهم تلفيقها وتخريجاً، فقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم «وإنْ» بالتخفيف، والباقون بالتشديد. وأمَّا « لمَا » فقرأها مشدَّدةً هنا وفي «يس» وفي سورة الزخرف، وفي سورة الطارق، ابن عامر وعاصمٌ وحمزة، إلَّا أنَّهُ عن ابن عامر في الزخرف خلافاً، فروى عنه هشامٌ وجهين، وروى عنه ابن ذكوان التخفيف فقط، والباقون قرءوا جميع ذلك بالتخفيف، وتلخَّص من هذا أنَّ نافعاً وابن كثير قرأ «وإنْ» و«لمَا» مخففتين، وأنَّ أبا بكر عن عاصم خفَّف «إنْ» وثقَّل «لمَّا» وأنَّ ابن عامر وحمزة حفصًا عن عاصم شدَّدُوا «إنَّ» و«لمَّا» معًا، وأن أبا عمرو والكسائي شدَّدَا «إنَّ» وخففا «لما» فهذه أربعُ مرات للقراءة في هذين الحرفين، هذا في المتواتر. وأمَّا في الشَّاذ فقد قرئ أربعُ قراءاتٍ أخر: إحداهما: قراءة أبي والحسن وأبان بن تغلب «وإنْ كلٌّ» بتخفيفها، ورفع «كل»، و«لمَّا» بالتشديد. [اللباب لابن عادل (١٧٤/٩)].

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) لما بيَّن أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب سبحانه في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل الاستقامة التي أمر بها، وهذا يقتضي أمره ﷺ بوحي آخر ولو غير متلو كما قاله غير واحد، والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهم المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه ﷺ وبين سائر المؤمنين،
=

الإسلام ظاهرًا، والاستقامة الثانية [الثبوت][٢] واللزوم كما كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[٣] فهذه الاستقامة هي التزام التوحيد عقدًا وقولاً وعملاً كما تقدم في التوحيد الأعلى.

قوله عز قوله: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود:١١٤] [هو][٤] مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما**»[٥].

طرفا النهار: الصبح والعصر، وزلف الليل: [المغرب][٦] والعشاء، والصبح أيضًا من زلف الليل، والزلفى: القرب، فهي معدودة من صلاة الليل للجهر فيها، معدودة من صلاة النهار [لطلوع الفجر][٧].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿**ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود:١١٤] الذكر ذكر اللسان مع موافقة القلب.

قال الله ﷻ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢] والذكرى تأنيث للذكر كما الحسنى تأنيث الحسن، والذكر حال الذاكر يكون عن ذكر الله سبحانه الذاكر بها.

=

والأمور الخاصة به ﷺ من تبليغ الأحكام، والقيام بوظائف النبوة، وتحمل أعباء الرسالة، وغير ذلك، وقد قالوا: إن التوسط بين الإفراط والتفريط بحيث لا يكون ميل إلى أحد الجانبين قيد عرض شعرة مما لا يحصل إلا بالافتقار إلى الله تعالى، ونفي الحول والقوة بالكلية، ومثلوا الأمر المتوسط بين ذينك الطرفين بخط يكون بين الشمس والظل ليس بشمس ولا ظل، بل هو أمر فاصل بينهما، ولعمري إن ذلك لدقيق؛ ولهذا قالوا: لا يطيق الاستقامة إلا من أيد بالمشاهدات القوية والأنوار السنية. [الألوسي (٣٨٨/٨)].

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الثبات».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٥٨)، وأحمد (١٧١٥٥)، وابن حبان (١٩٧٤)، والطبراني (٧١٣٥)، والحاكم (١٨٧٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو نعيم في «الحلية» (٧٧/٦). والنسائي (١٣٠٤).

(٤) في النسخة (ق): «هذا».

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «للفجر».

قال رسول الله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصليها إذا ذكرها**»[١] فإن الله يقول: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤].

ثم قد يتوجه على هذا أن تكون الذكرى اسمًا لذكر الله العبد برحمته، ثم عرفت [للعبد في علوم][٢] الإنباء والنبوة، فإذا ذكر الله عبده بأن يصلي [صلاة][٣] كذلك إذا ذكره بأن يطيعه [بقول أو عملاً ما طاعة][٤] بذلك، فذكر الله العبد هو الذكرى معرف ، وهو الأكبر في الذكر والعمل كله، يقال من ذلك: «ذكرى وذكر» كذلك جاءت [الثلاثة][٥].

يقول الله جل من قائل: ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي: الصلوات لمواقيتها ﴿**ذِكْرَى**﴾ من الله ﴿**لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود: ١١٤] وليست للغافلين، هو الأول في الذكر وفي غيره، والظاهر والباطن، ومن ذكر الله ﷻ عبده لأجل الذكر ما أنبأنا به رسول الله ﷺ في تلاوة العبد أم القرآن، فهو ﷻ يذكر عبده لما ذكره، وذكره إياه لأجل ذكره له بطاعته في الأعمال يكون منه ما يذكره به بما أعده له من جزاء عاجل على ذلك وآجل ذكره لأجل الصلاة هو نزله في الجنة ولقاؤه ورؤيته؛ إذ الصلاة [لها][٦] باطن؛ إذ المصلي يناجي ربه وهو مواجهه.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [هود: ١١٥] أي: اصبر على أدائها في مواقيتها بطهورها وخشوعها وجميع ما جعلت له، ومن أجله تكن من المحسنين، وفي مفهوم هذا يحبك الله ويتولاك بولايته كما قال جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿**وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

كذلك قال: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه: ١٣٢] ويكون زائدًا

---

(١) أخرجه بنحوه أبو يعلى (٨٩٥)، والطبراني (٢٦٨).
(٢) في النسخة (ق): «للعهد في معلوم».
(٣) في النسخة (ق): «صلى».
(٤) في النسخة (ق): «أو عمل ما أطاعه».
(٥) في النسخة (ق): «التلاوة».
(٦) في النسخة (ق): «لقاء».

على ذلك، واصبر على أذى من آذاك كما قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥] أي: بالدعاء عليهم بالهلاك، فيكون منتظمًا بقوله: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٦ - ١١٩].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: من وراثة النبوة والرسالة ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:١١٦] أي: لم يكن من أولئك [منهم][(١)] إلا قليلاً ممن أنجينا منهم [فكان لأولئك قليلاً][(٢)] [يهدينهم][(٣)] أنجوا فيمن اتبعهم واهتدى بهدايتهم.

وقبل نصائحهم من ذرياتهم وأهليهم وآبائهم وإخوانهم كما قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي بغير حساب سبعون ألفًا مع كل ألف سبعون ألفًا، وسبعمائة ألف مع كل ألف سبعمائة ألف**»[(٤)] فواحد من سبعين في خير القليل، وأعرق منه في وصف القلة واحد من سبعمائة.

وقد يكون الاستثناء من المهلكين فيقدر بعد قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ [عرف][(٥)] أنه تقديره: فلولا أنه ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ [أي: من الصالحين كانوا][(٦)] ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ ثم يقدر

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «ممن أنجى لأنهم».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) في النسخة (ق): «حرف».
(٦) زيادة في النسخة (ق).

[بتقدير][(١)] آخر وهو: لأهلكنا تلك القرون كما أهلكنا من ذكرنا من المهلكين ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ فاستثنى المنجين من المهلكين كنوح ومن أنجاه معه في الفلك، وأصحاب هود وصالح [وغيرهم][(٢)]، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

ثم قال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾[(٣)] [هود:١١٦] والمعنى: والذين ظلموا هم المهلكون من أسلاف المنجين ومعاصريهم، يقول: واتبع الذين ظلموا ما أترف أولئك فيه وكانوا - يعني: أولئك - مجرمين، وأهلكناهم لذلك [أيضًا][(٤)]، فهل ينظر هؤلاء إلا مثل [أيام الذين جنوا][(٥)] ما حل بمن قبلهم من ذلك.

[قال][(٦)] جل قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] والإصلاح هو العمل [بطاعة الله][(٧)] والنهي عن المنكر، فمتى كانت بقية في القرون ينكرون المعاصي [وبالقنوت][(٨)]، ويتأوهون [لسماعها][(٩)] ورؤيتها، وقاهم الله عذابها بإيمانهم ودعائهم.

---

(١) في النسخة (ق): «مقدار».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ معطوف على مقدّر يقتضيه الكلام، تقديره: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، والمعنى: إنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه، والمترف: الذي أبطرته النعمة، يقال: صبيّ مترف: منعم البدن؛ أي: صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة ، واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية. وقيل: المراد بالذين ظلموا: تاركو النهي. وردّ بأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا، وهم أشدّ ظلمًا ممن لم يباشر، وكان ذنبه ترك النهي. فتح القدير (٣/٤٩٦).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «بقوله».

(٧) في النسخة (ق): «بالطاعة».

(٨) في النسخة (ق): «ولو بالقلوب».

(٩) في النسخة (ق): «عند سماعها».

فصل

حكي عن الخليل بن أحمد - رحمة الله عليه - أنه قال: «لولا» في القرآن معناها «هلا» إلا التي في الصافات، قوله جل قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ - ١٤٤] وقد تقدم الكلام فيها على الوجهين.

[وقال][١] أيضًا: إن حرف «لو» يجيء عبارة عن امتناع الشيء لوجود غيره، أو لوجود الشيء لامتناع غيره، فأمرها إذًا مركب من إيجاب ومنع، واتصلت بها لترجحها إلى [أحد الجنتين ليفهم][٢] خطاب ما اجتلبت من أجله فتقدير قضيتها قبل دخول «لا»: فلو كان من القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض لأنجيناهم بذلك، ثم جاءت «لا» فأرجحتها إلى امتناع وجود أولئك، ثم جاءت «إلا» فاستثنت بعض القرون [من] [٣] كلها في وجود أولئك السادة ومن [اتبعهم][٤] ممن أهلك ثم عادت بتأويل «هلا» على المنجين، فاستثنت منهم البقية الصالحة الذين هم ينهون عن الفساد في الأرض [لو كان ذلك][٥] لأنجيناهم إلا قليلاً.

ممن أنجيناهم من المهلكين مع عامة المجرمين كما سئل رسول الله ﷺ [أنهلك يا رسول الله وفينا الصالحون][٦] قال: «**تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى**»[٧] وكما قال [الله][٨] جل قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] ونحو هذا، ومن تحقق النظر في كل «لو» أو «فلولا» جاءت في القرآن العزيز وحدها على ما تقدم ذكره من تركيب المعنى.

---

(١) في النسخة (ق): «وقالوا».
(٢) في النسخة (ق): «إحدى الحسنيين لنفيهم».
(٣) في النسخة (ق): «لقاء».
(٤) في النسخة (ق): «تبعهم».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) زيادة في النسخة (ق).

قوله ﷻ: ﴿وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] يعني: ما قص عليه من لدن قصص نوح ﷺ إلى آخر الأمم وما قاسوه من تكذيب أممهم إياهم، وخلافهم وعتوهم عليهم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ يعني: السورة ﴿الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠] [أنه لما آمنوا برسل ربهم نجوا من العذاب وأهلك المكذبون فهكذا يكون الحكم في الآخرة وفي حال البرزخ][١].

فصل

لم يشترط الله - جل ذكره - الذكرى والموعظة إلا للمؤمنين، أما سواهم فإنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، أموات غير أحياء.

قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب. قال: «**شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**»[٢].

هذا وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما [بالنا][٣] نحن لا نخاف ولا نخشى؟! أأمنا ما خشي هو ونحن المغرقون في بحار الذنوب، المزملون ملابس الآثام، قد آمنا كل [ذاهبة][٤] ونسينا كل واعظة، ألسنا لهم خلفًا وهم لنا سلف، ورثنا عنهم أرضهم وعمرنا بعدهم منازلهم ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠].

نسكن ديارهم ونأكل تراثهم، ويقص علينا ربنا [نبأهم][٥]، وكيف كان شأنهم، ولِمَ أهلكهم، فما يزيد قلوبنا [عند][٦] ذلك إلا قسوة، وأعمالنا [بذلك][٧] إلا جفوة،

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) وقال: حسن غريب. والحاكم (٣٣١٤) وقال: صحيح على شرط البخاري. وابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨).

(٣) في النسخة (ق): «لنا».

(٤) في النسخة (ق): «داهية».

(٥) في النسخة (ق): «أخبارهم».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

نقرأ القرآن لايجاوز حناجرنا، ونشاهد آيات الله - جل ذكره - في السماوات والأرض كأنما المراد بذلك كله غيرنا ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٥ - ١٠٦].

أفآمنا أن تأتينا غاشية من عذاب الله أو تأتينا الساعة بغتة ونحن لا نشعر، فكر يا أخي في نفسك بصحة من عقلك هل تجد شيئًا مما عيب به بنو إسرائيل ليس فينا شائعًا ذائعًا؟ أو هل من كل ما قصَّه الله علينا في كتابه من ذنوب الأمم التي أهلكوا بها إلا هي أعمالنا؟ ومن بعض سواءتنا الاستعلاء [والفسق](١)، وجعل الناس شيعًا، وتطفيف المكيال والميزان، وقطع السبل، وشدة البطش تحكم الباطل، وترك الأمر بالمعروف، وارتكاب المناهي والمناكير البادية والفواحش الظاهرة، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من عيوب وذنوب في أدنى منها أهلكت الأمم قبلنا ونحن الآمنون لا نراع ولا نخشى ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦ - ٦٧].

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بِالله الغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٤ - ٢٥].

قد أظلنا الموت وفاجأنا الفوت، ولا عذر لمفرط ولا حجة لغفول إن أمرًا لم يرغب في ثواب الله، ويخشى عقابه لجهول، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴿إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِالله الغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦].

---

(١) في النسخة (ق): «والقسر».

لا يرجع الغافلون باللائمة إلا على أنفسهم، قد دعانا إلى ما عنده وحذرنا غب ما نحن فيه، فاتقوا الله لعلكم تفلحون.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٠ - ١٢٣].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٢] وعيد وتهديد، صيغة هذا الخطاب صيغة الأمر، والمراد به: التهديد والوعيد، وشاع هذا بعد التبليغ والإعذار والإنذار، فإذا تصامم المرسل إليه جاز [الرسول][(١)] والمبلغ أن يقول بعد بذل الجهد: اعمل على مكانتك وانتظر ما تنتظره [كان هذا كقوله جل قوله: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]][(٢)] أي: منتظر بك ما أنذرك به فانتظم هذا المعنى [في][(٣)] قوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] ما آمن بالقرآن من استحل محارمه، وما آمن بالله ولا [بالرسول][(٤)] من لا يأمن جاره بوائقة.

قوله تعالى: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [هود: ١٢٣] [هكذا كقوله][(٥)] ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى الله المَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] لكن [وصف][(٦)] الملك احتوى على الظاهر من ذلك، والباطن والغيب هو ما غاب عن الحواس

---

(١) في النسخة (ق): «للمرسل».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «بالقرآن».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).

ليس الغيب [إلا][١] بالإضافة إلى المخاطبين، وأما المخاطب ﷻ لا غيب عنده، [وأغرق][٢] في الغيب مما تقدم ذكره ما فات العقول دركه كقوله جل قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] وكقوله جل قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥] ونحو هذا.

ومن هذا الغيب هو ما تؤول إليه السماوات والأرض ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] وهي الآخرة، وهي [غيب شاهدها][٣] الدنيا، وإن كانت الآخرة غيبًا [شهدها] الدنيا، فشاهد غيبها الذي هو ما عبر عنه قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ومن هذا الغيب ما [يقتضيه][٤] كل يوم وحين من إيجاد ما [لم][٥] يوجد، وتغيير وتبديل وأمر غائب [لهذين][٦] الغيبين.

قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] أي: ما لم يبدُ إلى القلوب [منه][٧] قبل أن [يقدم][٨] فيها من خزائن غيب علام الغيوب، فالغيب مخبوء في الشاهد، والآخرة مخبوءة في شاهد الدنيا، وما يحدثه من [موجودات][٩] الآخرة مما لم تعلمه نفس ولا تسمع به أذن غيب في شاهد الآخرة ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] في الشاهد والغائب مما هو قد كان وما هو لم يكن.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] [ثواب العبادة غيب

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «وأعرق».
(٣) في النسخة (ق): «شاهدت».
(٤) في النسخة (ق): «يقضيه».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «ولهذا من».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «يقدح».
(٩) في النسخة (ق): «شاهدات».

في شاهدها؛ لذلك قال جل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾][1] تصديقًا بوعده وثقة بضمانه، وإيمانًا بقدرته على المقدور الغائب كالإيمان بالمقدور الحاضر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣] قرئت بالياء والتاء[2] فالياء للكفار والعصاة نذارة ووعيد، والتاء للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بشارة ووعد ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء قال ابن عباس يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم وقرأ الباقون بالياء يعني ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأجازيهم في الدنيا والآخرة. [تفسير البغوي (١٦٣/١)].

تفسير سورة يوسف عليه السلام[1]

[مكية][2]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ

---

(١) فائدة: جمع الله في اسم يوسف عليه السلام أربعة حرف: الياء، والواو، والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف عليه السلام سمي يوسف عليه السلام، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية. قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف عليه السلام؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن، جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثَّل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار، وأيضًا: مثَّل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف عليه السلام: كان يوسف عليه السلام آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وها هنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية.

(٢) سقط من النسخة (ق).

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [يوسف:١] إشارة إلى الحروف في قوله: ﴿الر﴾ وإعلام بأنها آيات للكتاب المبين، سمي اللوح المحفوظ: «كتابًا مبينًا»؛ لأنه بين مكتوبه موجودات العالم علوه وسفله، وما هو كائن إلى يوم القيامة، جعل العالم كله مقدارًا لما هو كائن، عبر به عما سبق في علمه أنه يوجده، ثم نزل تلك الحروف إلى أن أنزلها قرآنًا عربيًا على لسان الرسول العربي ﷺ؛ [ليبين][1] للعرب المبعوث إليهم المقصودين به أولاً، ثم جعلهم أئمة يُقتدى بهم في التبليغ إلى سواهم.

قال الله ﷻ: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقال في كونهم أئمة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

وقال جل قوله لعامة العرب: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

كما قال جل قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال جل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢] المعنى إلى آخره.

قوله عز من قائل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ﴾ [أحسن القصص هنا هو الإعلام بحكمة الله، وتعرف لطفه بهم في تقريبه إياهم عن جواره الكريم، وسجنه إياهم في هذا السجن، وكيف لطف لهم على ذلك في الهداية إليه والعصمة لهم والرفق بهم وإيصاله إليهم، كما قال عز من قائل: «طال شوق الأبرار إلي وأنا أشد شوقًا إليهم»[2] وهو على ذلك يوصل إلى أبيه وذويه ما يلاطفهم به من رزق ودعابة بعضهم.

---

(١) في النسخة (ق): «ليس».

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٥/١١٧).

ومن شعر في حكمة الله لمثل هذا في إرساله الرسل وإنزاله الكتب وكريم نصائحه وحنانه وعنايته بهم، وتعاهده إياهم بالرزق من عنده والفتح والنصر من عنده شعر للمعنى الذي كنى عنه بأحسن القصص، كما أنه من لم يشعر لذلك فهو عن ذلك من الغافلين، وكان ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قد جعل يوسف ﵇ خليفة في تلك الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، فكان على ذلك يصدر أحكامه وكثيرًا من أفعاله على ما يوافق حكمة الله في عباده الذي متى قصه كان من أحسن القصص، وسيأتي ذكر بعضه إشارة إليه وتعريضًا به][(١)].

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] المخاطب بهذا هو الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ثم جميع أمته من بعده، ولم تكن غفلته ﷺ غفلة إهمال العقل ولا ترك تفكر وتذكر حتى يكون بذلك لا يعتقد شيئًا كما زعم من زعم، ومن شرح الله صدره صغيرًا وبارك عليه، ثم شرح صدره كبيرًا ورفع ذكره في السماوات وفي الأرض في كل ذلك فملاؤه حكمة وإيمانًا وإنباء ونورًا لا ينبغي أن تعتقد فيه هذا ولا [ما][(٢)] يقاربه، وكثير من عباده لم ينزله [الله][(٣)] هذه المنزلة، ولا رفعه [إلى][(٤)] هذه الدرجة، ولا بوَّأه هذه المرتبة يبعد هذا الوصف [فيه][(٥)] عنه إلا ما شاء الله، فكيف به صلوات الله وسلامه عليه؟.

وإنما الغفلة المعنية بهذا الوصف في غفلته عما جاء به القرآن من قصص وأحكام وإعلام بأسماء الله ﷻ وصفات، كان غافلاً عن تحقق أكثر ذلك [حسن وصف الغفلة في هذا القرآن في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، وقد بيَّن الوجود اللوح المحفوظ، ولا يصده عن المعرفة غير الغفلة][(٦)] وإن كان قد أوتي ﷺ من هذا

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).

كله فيما ألقى إليه [وملئ][(١)] به صدره وقلبه من أوائل معاني الإنباء ما ينوب، [أو][(٢)] في تحقيق درجته التي أريد بها [أن][(٣)] علم الفطرة للمؤمن، فعن تصور حقيقة المراد بذلك وما ينحو نحو هذا يمكن أن يوصف مثله بالغفلة حتى جاءه القرآن العزيز من عند الله ﷻ [مريده][(٤)] وبركته وتبيانه.

ألا تسمعه - جل من قائل - يقول بعد إيجابه إليه الكثير من القرآن العظيم: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الشورى:٣] إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧].

ثم استمر - جل وتعالى - على تفصيل ما أوحى إليه من أمر ونهي ووعد وزجر وإنباء وإعلام بما شاء، ثم قال جل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [أي: من شأننا][(٥)] ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢] يريد العلم العلي بالكتاب، والإيمان العلي الذي أعطاه الله إياه وخصَّه [لمكاتبه][(٦)] منه، فكيف يكون تاركًا للتدبر والتفكر أو يوصف بالضلال المعلوم عندنا المسمى فينا بضلال من شرح الله صدره، وبالغ في غسله، وأخرج [محط][(٧)] الشيطان منه، وعنه تكون الغفلة الأولى والضلال المعهود [عندنا][(٨)] اللذان وصفه بهما هذا القائل المعتمد في هذا أنه كان غفلته عن تصور العلم بحقيقة منزلته التي بلغها [من إيمان بنبوته وبأنه رسول الله وإيمان][(٩)] بالقرآن والإنباء ومعرفة توصيل الوحي إليه وإلى الأنبياء قبله ﷺ.

---

(١) في النسخة (ق): «وما مليء».
(٢) في النسخة (ق): «له».
(٣) في النسخة (ق): «مناب».
(٤) في النسخة (ق): «بمزيده».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «بمكانته».
(٧) في النسخة (ق): «حظ».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) زيادة في النسخة (ق).

عبرة:

هذه فطرة الله ﷻ في قلوب عباده، يؤمن العبد، ويتعلم العلم، ويتفكر ويتذكر، ويبلغ من معرفة الله - جل ذكره - ومعرفة النبوة والرسالة وموجودات الدنيا والآخرة، ولو بلغ من ذلك أرفع الدرجات لم [يستقر على][١] الفطرة، بل يجد في ذاته [أنه][٢] كالملهم والمعلم بهداية الله ﷻ وتوفيقه، فيموت هذا العبد، وما بلغ من علم فطرته مبلغًا يقول: هذا منتهاه، ثم النبي والرسول يجعل الله جل وعز في فطرته زائدًا إلى فطرته [في][٣] السماوات والأرض.

[وفي المؤمن][٤] علم الفطرة بالإنباء والنبوة والحكمة، ثم يرفعه إلى أرفع درجاته، ثم هو لو [بقي][٥] عمر الدنيا ما بلغ من علم فطرة ما فطره الله على علمه مبلغًا يقول: هذا منتهاه إن ربك عليم حكيم، بل على القول بالحقيقة في معنى قوله جل قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] [فإنه ما وصفه ﷻ بالغفلة حال وجوده إنما وصفه بها قبل إيجاده إياه ألا تسمعه جل قوله يقول: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ﴾ [يوسف:٣ - ٤]][٦] كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيّ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤] ولهذا نظائر.

فصل

«ما» في قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ليست بزائدة كما زعم قوم، بل هي اسم لما أوحى [إليه به، هو الروح][٧] والملك ﷺ والأمر أو ما يقوم مقام المسمى بالحق المذكور في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

---

(١) في النسخة (ق): «يستنفد علم».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «التي لقنها في خزائن».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «عُمِّر».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «به الروح».

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ...﴾ [النحل:٢] ونحو هذا كثير.

فكأنه قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ﴾ ثم قال جل قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] [وفي الأمر يتوجه](١) وصف الغفلة عن كيفية إنزال القرآن والوحي عليه وعلى من سواه من الأنبياء والمرسلين [وهو أمر خاص من الله ﷻ للنبيين لا يعلمه إلا هم ويعلم منه الصدقون أولاً منها وحالاً ما تصديقًا لصديقيتهم وإيمانًا عليًا وهو الروح منه كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] المعنى فافهم](٢).

فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلانِيَةً...﴾ [فاطر:٢٩] إلى قوله جل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا....﴾ [فاطر:٣٢].

أيها القارئ كتاب ربه، إن لك وراثة فيما تلاه رب العالمين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه على نبيه ﷺ فاتئد في قرآتك، وأحضر ذهنك [معاني](٣) ما تتلوه، [فإليك](٤) الخيرة مع إحضار نيتك في أن تكون أنت القارئ على ربك والتالي كتابه عليه، أو يكون هو القارئ التالي، فاستمع لما يوحى، وأمط عن باطنك هواه [وغفلته المطلوب من علم بالمتلو، فيكون تحسين الصوت به حينئذٍ لأمارة توجد بالمفهوم فترسله عند ذلك مشتركًا من المعنى، ويؤيد الوجد ويحقق الذوق علاوة، وعبر بالموجود أو حزبًا من أجله أو سوقًا وتوقًا لحسن الصوت بتحقق الأحوال بالقرينة على ذلك.

وبتزايد المعنى تتزايد الخواطر، وينقدح من خزائن الغيب إلى لوح القلب،

---

(١) في النسخة (ق): «فيتوجه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «معانق».

(٤) في النسخة (ق): «فأولئك».

ومع تحسين الصوت وتصنع الفهم واستمرار الغفلة يكون تطريب [...... تحسين الصوت ....] بما يرد على القلب من ذلك عن [....] الشغل الوارد والكرب [....][1] المراد والمفهوم من الخطاب، فإياك يا أخي والغفلة والهوى، شرح الله منا ومنك الصدور، وفتح علينا وعليك من رحمته.

فاتباع الهوى يبعد عن المطلوب وبالغفلة الخسران والخيبة وهما نعلاك، فاخلعهما أيها الوارث الغافل عن حظه، واطوِ البعد فإنك بالواد المقدس، وطهِّر وجهك لكريم الوجهة، ويديك إلى المرفقين لإشارة الاستسلام وحرمة الإحرام لحرم القرب، وامسح برأسك رجاء بركة الفهم، واغسل قدميك؛ لوطء البساط والوقوف عليهما بين يديه.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] قدَّم الفهم أمام التلاوة وسؤال التعليم قبل التفهم، فإنه جلَّ من قائل يقول: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٦ - ١٨] أي: اتبع ما يفهمك هذا في حقك أيها الوارث، فإذا فعلت ذلك فإن عليه ﷻ بيانه، ولا تؤثر العجلة فابشر بالمسابقة إليه، ثم عند الشروع فيه ليس هو بالعجلة إنما هو بالتؤدة والإحكام.

ربك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يتلو على قلبك وأنت عنه معرض عما يتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم، هو يقص عليك أحسن القصص وأنت تذهب عنه كل مذهب، تزملت الهوى ورضيت الغفلة خدنًا والجهل خليقًا، فأعرضت عنك الشواهد بشهاداتها، وطوت عن قلبك المعالم علمها والبينات تبيانها، وأظلمت في حقك أنوار الآيات فبقيت في عمه الجهالات.

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه يوسف ﵇ بأنه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2] [يوسف:٤] إلى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) روى جابر أنّ يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف، فسكت رسول الله ﷺ فنزل جبريل ﵇ فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم؟» قال: نعم. قال: «جريان، والطارق، والذيال، وقابس، وعمودان، =

حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] الحسن وأبو جعفر وأبو حيوة قرأوها بـ«**أحد عشر وتسعة عشر**» بإسكان العين حيث وقع.

كرر ﷺ لفظ الرؤية، فالأولى من حظهم، والثانية هي حظه رؤيته أبويه في تأويل الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا جماعة أخوة يوسف على [....][1].

ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ وذكر رؤياه في غزوة أحد فقال: «**رأيت سيفي قد انقطع ثم هززته فعاد أحسن ما كان، ورأيت بقرًا ينحر والله خير**»[2] ثم تأولها على حقيقتها، فألقى إليه المحذور، وأجمل له الخير فيما أريه، وقيل له: والله خير فهذه أحوالهم، وما هو أكرم وأفخم؛ لذلك عطف «يعقوب» بالواو على ما تقرر من نحو ما تقدم ذكره كما شاءه الله ﷻ من ذلك.

=

والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها. وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته، وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون. فإن قلت: لِمَ أخَّر الشمس والقمر؟ قلت: أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص، بيانًا لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. فإن قلت: ما معنى تكرار «رأيت»؟ قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابًا له، كأن يعقوب ﷺ قال له عند قوله: ﴿**إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾ كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ**﴾. فإن قلت: فلِمَ أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة والمقاربة. الكشاف (١٤١/٣).

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٤٢٥)، ومسلم (٢٢٧٢)، وابن ماجة (٣٩٢١).

ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦] - اعلم وفقنا الله وإياك وعلمنا من علمه - أنه من بلغ إلى بعض مقتضى ما جعل الله له الشمس والقمر والنجوم، وبعض ما سخرت له من أمر بلغ إلى أن يعلم من حيث قال إبراهيم ﷺ لما نظر نظرة في النجوم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩] فإما أنه أصابه سقم صدق به الله ﷻ قوله بما رآه من أمر الله ﷻ في النجوم، وإما أنه كان الذي رآه فيما هنالك هي المحنة التي امتحن بها من إلقائه في النار، فإن ذلك كان قريبًا من وقت رؤية ما رآه في النجوم، لكن لا يدرك حقيقته صادقة من ذلك؛ أعني: من العلم بأمر الله في الشمس والقمر والنجوم دون دغل ولا كذب إلا بسبيل نبوة، وقد انقطع ذلك، فمعاطاة تعرف ذلك الباب ضره أقرب من نفعه لأمور الوصول إلى حقيقتها ممنوع، ودرك بعضها متعذر لأجل إرصاد لو صحَّت فقد قدمت، وانتقلت لذلك الهيئة بجملتها ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وركوب وصف هذه السبيل يشغل عما نحن بصدده كما طلبه يوجب الخيبة، ونظر على الأولى.

ثم قال ليوسف ﷺ: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ هم الأحد عشر أخوة الذين هم بنو يعقوب ﷺ ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] إتمام النعمة على الإنسان بما هو إنسان هو أن يعطى الإيمان، ثم إتمام النعمة على المؤمن هو أن يستعمله الله ﷻ بطاعته ويعلمه العلم واليقين، ثم إتمام النعمة على الموقن أن يرفع إلى مقام الصديقية والتزام التوحيد الأعلى عقدًا وقولاً وعملاً، وذنوب هؤلاء في محالهم هي نزول أحدهم عن مصافه إلى ما تحته، لهذا قالوا: «ذنوب المقربين حسنات أصحاب اليمين».

فقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوة والرسالة، ثم شرط في كلامه بقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] فإتمام النعمة على النبي والرسول أيضًا هو أن يرفع إلى العمود عمود النبوة والرسالة من الاجتباء والاصطفاء، وتأول ذلك يعقوب من سجود الكواكب والشمس والقمر له كما تقدم، وإن إذعان الهداة إنما يكون لمن هو أرفع مرتبة منها وأعلى مكانة وقد تقدم.

ولو كانت الرؤيا لسواهم اليوم لم يكن للمتأول أن يتأولها على النبوة خلافًا

لأولئك لأنهم من أهل بيت ووقت منهم الأنبياء والرسل، ألا تسمعه يقول: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦] ولهذا كان تأويل الرؤيا على طبقات الناس ومراتبهم وأزمانهم.

يقول الله عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] تتميم لما تقدم ذكره والله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:٧ - ١٢].

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:٧] و«في» حرف؛ أي: عبرة للسائلين، يريد وهو أعلم للطالبين العلم والباحثين عنه، فكان فيهم وفيما عراهم من أمورهم آيات بينات على علم الله ﷻ، وتقديره بالتقدير في الموجودات قبل وجودها، واستياقه المقدورات إلى حقيقة ما قدره في الأزل لا يتعداها ولا يقصر دونها، وعلى لطفه في ذلك وخيره وجليل حكمته وكريم رحمته بمن شاء ذلك، وعلى أنه لا ييأس من رحمته الكافر ولا يأمن مكروه النبي الطائع، إلى غير ذلك مما يبدو في تصفحها؛ أعني: النبوة من أولها إلى آخرها، ولما أن حان من بني إسرائيل الاغتراب الذي أنذر الله جل ثناؤه به خليله إبراهيم ؑ حرك بني يعقوب إلى ما قصّه الله ﷻ علينا في كتابه.

قوله جل ثناؤه: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ يعنون بنيامين أخًا ليوسف من أبيه وأمه خالة يوسف عليهم السلام ﴿أَحَبُّ إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] العصبة من الرجال: العشرة، لا يقال فيما دون العشرة: عصبة، لكن رهط إلى سبعة ولا يقال لثلاثة: رهط، لكن نفر، والجماعة يقال لكل حملة من خيل أو رجال، فإذا

كانوا متقطعين بعضهم من بعض فهم عصب وعصائب.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أو اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف:٩] أي: تتوبون من ذنبه الذي ارتكبتموه من أجله وتكونوا صالحين بالتوبة إلى الله ﷻ.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ (١٣) قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف:١٣ - ١٨].

كان ما قصّه الله ﷻ من قصصهم إلى قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(١) [يوسف:١٨] قد كان سبق العلم إلى يعقوب عليه السلام بما علمه الله ﷻ من علم النبوة، وربما تأكد من قربه عنده من رؤيا يوسف عليه السلام وتأويلها أنه سيتم الله ﷻ نعمته عليه ويبلغ به، وإنه يظهره الله ﷻ عليهم بتأويل سجودهم له، وربما خشي من ذلك أن يدركه الاغتراب المعهود به إلى إبراهيم عليه السلام في بنيه هؤلاء ويملكهم والإزلال المذكور، فقال لأجل ذلك أو بعضه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وفي مصحف أنس بن مالك وأبي صالح: «فصبرًا جميلاً» بالنصب على

---

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الصبر» وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبان بن أبي حبلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: «لا شكوى فيه ، من بثّ لم يصبر» وهو من طريق هشيم عن عبد الرحمن، عن حبان بن أبي حبلة، وهو مرسل. وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: ليس فيه جزع. فتح القدير (١٢/٤).

المصدر وهي قراءة عيسى بن عمر وغيره، ولم يصدقهم فيما زعموه من أنه أكله الذئب وهلك.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨] لما تقدم له من علم ذلك، وأما يوسف عليه السلام فإنه لما جعلوه في الجب أوحى الله - جل ثناؤه - إليه وهم لا يشعرون ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ [يوسف:١٥].

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:١٩ - ٢٢].

قوله جل وعز: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾[1] [يوسف:١٩] من أعجب العجائب بوجود لهذا الوارد جاء عن دلو ماء

(١) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قيل: كانوا من مدين قاصدين إلى مصر. وقيل: في الكلام حذف تقديره: وأقام يوسف في الجب ثلاثة أيام، وكان أخوه يهوذا يأتيه بالطعام خفية من إخوته. وقيل: جاءت السيارة في اليوم الثاني من طرحه في الجب. وقيل: كان التسبيح غذاءه في الجب. قيل: وكانت السيارة تائهة تسير من أرض إلى أرض. وقيل: سيارة في الطريق أخطؤوه فنزلوا قريبًا من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران لم تكن إلا للرعاة، وفيهم مالك بن دعر الخزاعي، فأرسلوه ليطلب لهم الماء. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، وإضافة الوارد للضمير كإضافته في قوله: «ألقيت كاسبهم» ليست إضافة إلى المفعول، بل المعنى الذي يرد عليهم والذي يكسب لهم. والظاهر أن الوارد واحد. وقال ابن عطية: والوارد هنا يمكن أن يقع على الواحد وعلى جماعة. انتهى. وحمل على معنى السيارة في قوله: «فأرسلوا» ولو حمل على اللفظ لكان الترتيب، فأرسلت واردها فأدلى دلوه؛ أي: أرسلها ليستقي الماء، قال: يا بشراي. في الكلام حذف تقديره: فتعلق يوسف بحبل الدلو، فلما بصر به المدلي قال: يا بشراي. وتعلقه بالحبل يدل على صغره؛ إذ لو كان ابن ثمانية عشر أو سبعة عشر لم يحمله الحبل غالبًا، ولفظة «غلام» ترجح ذلك؛ إذ يطلق عليه ما بين الحولين إلى البلوغ حقيقة. =

فوجد نبي الله ورسوله، فما كان أسعد وجهته تلك وجيئة ذلك لكن لم يشعر.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] ذلك بأنهم لم يعرفوا قدر ما أفقدوا أنفسهم من بركة كونه فيهم، ونظر الله - جل وعز - لهم من أجله، والذين حملوه لم يعرفوا حقيقة ما احتملوه معهم إلى رحالهم، وهذا كما قال رسول الله ﷺ للأنصار: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالله للذي أحرزتم خير من الذي أحرزوه**»[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١] الكاف للتشبيه، وذلك إشارة إلى المفهوم من تأويل الرؤيا المستقر في نفس يوسف عليه السلام من علم ما لقنه عند الرؤيا، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله ﷻ، وإلى ما أريه إبراهيم عليه السلام من تغريبهم إلى تلك الأرض، وكان ظلم إخوته إياه من بيعه وطرحه إلى أرض ليخلو لهم وجه أبيهم كما زعموا من أسباب ذلك؛ لذلك قال جل قوله وهو أعلم: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يعني والله أعلم: اتفاق هذا بهذا؛ يعني: وفاق الكل للتقدير السابق المثبت في اللوح المحفوظ، ثم قال جل قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١] أي: قدر سياق الآخر على الأول، وإفاضة الأول للوفاق على الآخر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٢] [يوسف:٢٢] يريد

=

تفسير البحر المحيط (٦/٤٩٥).

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١)، وابن أبي شيبة (٣٧٠٠١)، وأحمد (١٦٥١٧).

(٢) الأشدّ: هو وقت استكمال القوة، ثم يكون بعده النقصان. قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة. وقيل: بلوغ الحلم، وقيل: ثماني عشرة سنة، وقيل: غير ذلك مما قد قدمنا بيانه في النساء والأنعام. والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر. والعلم: هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه، وقيل: العقل والفهم والنبوّة. وقيل: الحكم هو النبوّة، والعلم هو العلم بالدين. وقيل: علم الرؤيا، ومن قال: إنه أوتي النبوة صبيًّا قال: المراد بهذا الحكم والعلم الذي آتاه الله هو الزيادة فيهما. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء

=

الأشُد الأول الذي هو البلوغ زاده الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - إلى ما يعلمه من تأويل الأحاديث العلم والحكمة، ووعد مثل ذلك جميع المحسنين، وهذا كقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ...﴾ [الحديد:٢٨].

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٥].

قوله ﷻ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ...﴾ [يوسف:٢٣] هذه الآية متصلة بما قبلها معنى ومجاورة، أما مجاورة فظاهرة، وأما المعنى فإنه لما أخبر - جل وتعالى - أنه أتاه الحكم والعلم عند بلوغه أراد جل ذكره أن يرينا بركة ما أتاه الله إن ردَّ ذات الجمال والمنصب والحسب والثروة والغنى مع اتصال الخلوة، وبعض هذا يذهل أكثر الأكابر، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» قال منهم: «**ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال - وفي أخرى: «ذات منصب»**»(١) -

=

العجيب نجزي المحسنين، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أوليًا. قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهرًا على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ. يقول الله تعالى: كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض. فتح القدير (١٥/٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١)، وأحمد (٩٦٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٢١)، وابن حبان (٤٤٨٦)، وابن خزيمة (٣٥٨).

فقال: إني أخاف الله»[(١)].

يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ [يوسف:٢٤] اختلف الناس في البرهان ما كان، وذكروا أشياء لا تتصل بتصحيح ولا يعضدها شاهد، وأرى - والله أعلم - أنه أراه من أمره الظاهر ومن مقدوره الغائب ما صرفه عن همه ذلك وعصمه ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾ [النور:٢١].

ثم أشار إلى إحسانه ذلك وعصمته إياه بقوله جل قوله: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤] من أخلص لله وأطاعه عصمه عند هناته، وكان له غياثًا في شدائده.

وعلى قراءة من قرأ «**المخلصين**»[(٢)] بفتح اللام يريد ما أراده به في الأزل وحباه من نعمته في القِدم، وهذا كله من آياته التي ذكرها في شأنه وشأنهم.

ثم قال جلّ قوله: ﴿**وَاسْتَبَقَا البَابَ**﴾ [يوسف:٢٥] فرَّ عليه السلام من موضع حضره فيه الشيطان إلى ربه معتصمًا به، وقصَّ الله - جل ذكره - ذلك علينا من شأنه ليرينا كيف يكون الهرب إليه من المعصية، ومدحه على ذلك، وآثر عنه جميل الذكر وكريم الأحدوثة لإيثاره الله ﷻ على نفسه، وتغليبه حزب الله على حزب الشيطان ﴿**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ**﴾[(٣)] [يوسف:٢٥] وشهد له الشاهد بالبراءة من أجل ذلك،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩١)، وابن حبان (٧٣٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٥٨).

(٢) قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام، أي الذين استخلصتهم وأخلصتهم. وقرأ الباقون بكسر اللام، أي الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء. [تفسير القرطبي (١٠/٢٨)].

(٣) القدّ: القطع والشق، وأكثر استعماله فيما كان طولاً، وهو المراد هنا بناءًا على ما قيل: إنها جذبته من وراء فانخرق القميص إلى أسفله، ويستعمل القط فيما كان عرضًا، وعلى هذا جاء ما قيل في وصف علي، كرم الله تعالى وجهه: «إنه كان إذا اعتلى قدّ، وإذا اعترض قط». وقيل: القدّ هنا مطلق الشق، ويؤيده ما نقل عن ابن عطية أنه قرأت فرقة «وقط» وقد وجد ذلك في مصحف المفضل بن حرب.

وعن يعقوب تخصيص القدّ بما كان في الجلد والثوب الصحيحين. والقميص معروف، وجمعه: أقمصة وقمص وقمصان، وإسناد القدّ بأي معنى كان إليها خاصة مع أن لقوة يوسف عليه السلام أيضًا دخلاً فيه؛ إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في
=

وتلك آية الله على الحكم بالدلالة والأمارة عند عدم الشهود، وهو حكم صحيح، وقد حكاه الله واستاقه في معرض المدح مصونًا للتحكيم به.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٦ - ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف:٢٩] يمكن أن يكون هذا من البرهان الذي أراه الله ﷻ فازدجر من أجله، فينتظم لمعنى قوله: ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤] رأى مرأى ما بعينه قائلاً له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ولما أسلمت بعد زمان فاجتمع مجتمع بها قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ ويدل على صحة هذا قوله لها: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩] ولو كان القائل لها غيره وفي وقت الحكم لم يخلص ذلك منها للماضي؛ أي: إنكِ كنتِ من الخاطئين في مراودتك إياي وقولك لزوجك: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أو عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥] وقولك للنسوة ما قلتِ وسجنك إياي.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ

=

منعه عن الخروج، وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح. تفسير الألوسي (٤٨٤/٨).

فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢)﴾ [يوسف: ٣٠ - ٣٢].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠] إلى آخر القصة، ذكر أن سيدها كان قليل الغيرة؛ وإنما ذلك؛ لأن القوم كانوا كفارًا فلم تكن لهم رعة، وإن كان الزنا عندهم شيئًا فإنهم كانوا يتساهلون فيه، وما بلغنا أنه غير عليها.

وقيل: إن أخاها كان الشاهد عليها بما كان منها قبل رؤية قد القميص، وإنه هو الذي قال ليوسف ﷺ: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ثم قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩] وذلك بعيد عنهم، وقد تقدم في ذلك ما هو الأولى والله أعلم.

ولما قال نساء في المدينة ما قالوا أحضرتهن واعتدت لهن طعامًا ومتكئًا، وهو عبارة عن شرب الخمر، وقراءة ابن عباس ومجاهد وأبو حيوة: «واعتدت لهن متكئًا»[(١)] وهو الأترج، وتجتمع القرأتان في قراءة الجماعة، وإنها اعتدت لهن متكئًا وأُترجًا وغير ذلك من فواكه تقطعن بالسكاكين، فدفعت لكل واحدة منهن سكينًا وأمرته بالخروج عليهن قيل: بعد أن زينته، والله أعلم.

والمراد بالآية: إظهار كرامته عند الله وتبرئته من الذنب، وكان وجهه الكريم على عظيم براعة جماله تبدو عليه مخاييل الصدق، وتلوح في أساريره لوائح الخير والعفاف، ويشاهد في هيئته وحركاته الوقار والسكينة، وإن كان أُعطي شطر الحسن فلم يكن ذلك الحسن والجمال على الأغلب جالبًا فتنة شهوة إلى من أبصره، ألا ترى إلى جمال الشمس والقمر وحسنهما لا تخيل لرائيهما برؤيتهما شهوة، ولا يكاد يخطر ذلك على باله، فمن ذلك السبيل كان حسنه وجماله لحكمة بالغة لخالقه

---

(١) قرأ مجاهد وسعيد بن جبير متكأ مخففًا غير مهموز - والمتك: هو الأترج بلغة القبط. وقيل: إن ذلك هو لغة أزدشنوءة، وقيل: حكي ذلك عن الأخفش، وقال الفراء: إنه ماء الورد، وقرأ الجمهور: متكأ بالهمز والتشديد وأصح ما قيل فيه: إنه المجلس، وقيل: هو الطعام، وقيل: المتكأ كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث. وحكى القتيبي أنه يقال: اتكأنا عند فلان: أي أكلنا. [فتح القدير (٣١/٣)].

على صورته وهيئته تلك في سنن الوجود.

ولما فجئ النسوة قطعن أيديهن إكبارًا لجماله وعجبًا من شأنه، وتُهن بين جماله ولوائح كرامات الله البادية عليه كما قال بعضهم عن محمد رسول الله ﷺ: «فما هو إلا أن رأيته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب فأكبرنه» عما ذُكر عنه ورُمي به ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ وفي قراءة ابن مسعود: «حاشى الله»[1] يقلن ما كان مثل هذا ليفعل سوءًا ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أي: إنه لو كان من البشر لسبق من حسنه لرائيه الفتنة به، إنما حسن هذا من حسن الملائكة، ليس في حسنهم فتنة، ولا يعرض لرائيهم إليهم حديث شهوة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] فقام عندهن ما شاهدن من هيبته وطلعته وبراعة حسنه، مع ما سبق إلى قلوبهن من عظيم شأنه مقام المعجزة المعبرة عن كذب الكذابين عليه، المنبئة بصدقه، وإنما أرادت هي أن تعذر فيه لما سبق من قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠] ليس بضلالة عن هداية، ولا صيانة لدناءة، وإنما ضللوها لهيمانها وشدة ولوعها به، وخروجها عن المعهود منها في شأنه، بيَّن ذلك من قولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف:٣٠] أي: قد خالط حبه شغاف قلبها، وخِفنا عليها الموت لكثرة ما اتبعته نفسها.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ...﴾ [2] [يوسف:٣٢] وإنما أحضرتهن لتستعين بهن عليه ويعذرنها فيه، جاء

(١) قرأ أبو عمرو وحده «حاشى لله» وقرأ أبيّ وابن مسعود «حاشى الله» وقرأ سائر السبعة: «حاش لله» وفرقة «حشى لله» وهي لغة، وقرأ الحسن: «حاش لله» بسكون الشين وهي ضعيفة وقرأ الحسن أيضًا «حاش الإلاه» محذوفًا من «حاشى». فأما «حاش» فهي حيث جرت حرف معناه الاستثناء، كذا قال سيبويه، وقد ينصب به، تقول: حاشى زيد وحاشى زيدًا، قال المبرد: النصب أولى؛ إذ قد صح أنها فعل بقولهم: حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه. قال القاضي أبو محمد: يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يخفض به لا غير، وأن الفعل هو الذي ينصب به، فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفًا، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فاعل؛ وذلك في قراءة من قرأ: «حاشى لله» معناه: مأخوذ من معنى الحرف، وهو إزالة الشيء عن معنى مقرون به، وهذا الفعل مأخوذ من الحشا أي هذا في حشى وهذا في حشى. [المحرر الوجيز (٣/٢٤٩٩)].

(٢) ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ الإشارة إلى يوسف، والخطاب للنسوة؛ أي: عيرتنني فيه.
=

بيان ذلك في حديث رسول الله ﷺ إنهن كن يسهلن عليه ويرغبنه في وصالها قوله لعائشة وحفصة: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف**»[1] ولم يكونا طلبا الإمامة لأنفسهما، بل لابتغاء مرضات عائشة، فافهم.

فأخذت كل واحدة منهن تسهل عليه المأتي، وتعذله في تخلفه، ويقلن له في ذلك، فهنالك استغاث يوسف ﷺ بربه عز جلاله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ
وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ
بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا
نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ

=

قالت لهنّ هذا لما رأت افتتانهنّ بيوسف إظهارًا لعذر نفسها، ومعنى ﴿فِيهِ﴾ أي: في حبه. وقيل: الإشارة إلى الحب، والضمير له أيضًا، والمعنى: فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب، والأول أولى. ورجحه ابن جرير. وأصل اللوم: الوصف بالقبيح. ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقعن فيه عند ظهوره لهنّ ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه، فأقرّت بذلك وصرّحت بما وقع منها من المراودة له، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: استعف وامتنع مما أريده طالبًا لعصمة نفسه عن ذلك، ثم توعدته إن لم يفعل ما تريده كاشفة لجلباب الحياء، هاتكة لستر العفاف، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: لئن لم يفعل ما قد أمرته به فيما تقدّم ذكره عند أن غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: يعتقل في السجن ﴿وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاء؛ لما يناله من الإهانة، ويسلب عنه من النعمة والعزّة في زعمها. فتح القدير (٤/٢٦).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٩)، ومسلم (٩٦٨) والترمذي (٤٠٣٥)، وأحمد (٢٦٦٢٧)، ومالك (٤١٧)، والبيهقي (٥٢٨٥).

لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٨].

قال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣] وقرأ عثمان بن عفان وجماعة: «رب السجن»[١] بفتح السين على المصدر، وهو المحبس، وبكسرها هو السِّجْن الفعل، وهذا من أشد ما مر عليه إنها استعانت عليه بنفسها وبغيرها من إنس وجن، وضاقت مذاهبه فاستغاث عند ذلك بالقريب المجيب - عز جلاله - فاستجاب له حينه ذلك بالثبات والعصمة، وبعد ذلك بصرف كيدهن عنه، وكان من لطفه في ذلك قضاءه بسجنه.

يقول الله عز من قائل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[٢] [يوسف:٣٥] الآيات التي رأوها هي ما شاهدوه على جماله وحسنه من شواهد البراءة من الريبة والنزاهة عن الفحشاء حتى أكبرنه ﴿وَقُلْنَ حَاشَ للهِ﴾ أي: في أن يكون هذا يفعل سوءًا أو يقاربه هذا الذي عليه وقار الملائكة، وسمتهم لا سمت بشر ولا حلية آدمي، وكان السجن ليوسف عليه السلام عصمة، ولله فيه من أجله

---

(١) العامة على كسر الباء؛ لأنه مضافٌ لياء المتكلم ، اجتزيء عنها بالكسرة، وهي الفصحى، و«السِّجنُ»: بكسر السين، ورفع النُّون، على أنَّه مبتدأ، والخبر: «أَحَبُّ» و«السِّجنُ» الحبسُ، والمعنى: دخول السِّجنِ.

وقرأ بعضهم: «ربُّ السِّجنُ» بضمِّ الباءِ، وجرِّ النون، على أنَّ «ربُّ» مبتدأ و«السِّجن» خفض بالإضافة، و«أَحبُّ»: خبره ، والمعنى: ملاقاةُ صاحب السجن، ومقاساته أحبُّ إليَّ. وقرأ عثمان، ومولاه طارق، وزيد بن علي، والزهريُّ، وابن أبي إسحاق، وابن هرمز، ويعقوب: بفتح السِّين، وفي الباقي كالعامَّة. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٦٨/٩)].

(٢) ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن الحين ها هنا ستة أشهر. قاله سعيد بن جبير.

الثاني: أنه سبع سنين. قاله عكرمة.

الثالث: أنه زمان غير محدود. قاله كثير من المفسرين. وسبب حبسه بعد ظهور صِدْقه: ما حكى السدي أن المرأة قالت لزوجها: «إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وقال: إني راودته عن نفسه، فإما أن تطلقني حتى أعتذر، وإما أن تحبسه مثلما حبستني» فحبسه. [النكت والعيون (٢٥٧/٢)].

حكمة، وعليه نعمة غيَّبه لحسنه وجماله عن أعين الناس وحجبه عن الفتن، وكان ذلك له ولأمثاله بمنزلة التخلي عن الناس والتوحش منهم، والهرب عن الأهل والمال حتى يستقيم أمره ويحين وقته.

قوله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وقرأ عبد الله والضحاك: «أعصر عنبًا»[1] ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] هذا من آيات الله الظاهرة على كريم سجيته وهيئته، كان القوم كفارًا والمعهود أن المحسنين على الأغلب أسبق الجملة فما كان يسبق على حسنه وجماله إلى قلوب الرائين له إلا الإعظام والإجلال ذكر فيما ذكر عنه أنه كان في أهل السجن مصلحًا يطعم الجائع، ويؤنس الخائف، ويصلح بين المتباغضين، ويعلِّم جاهلهم ويعظهم، ولما رأى الفتيان من إصلاح شأنه قصَّا عليه ما رأياه وقالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فنص الله - جل ذكره - على لسان الفتيين ما تقدم ذكره من آيات الله - جل ذكره - الظاهرة عليه، الفائضة عليه من بركة باطنة، فصدق شأنه المتصل بالآل الذي فيه من القريب الرحيم، فهو لا يراه أحد إلا أكبره وأعظمه، ولما قال له الفتيان ذلك الكلام توجه عليه فرض التبليغ عن ربه - عز جلاله - وقد وجد له موضعًا فأضرب عن التعبير؛ ليغتنم في حاله تلك تفرغهما إليه واستماعهما له، فأخذ عليه الكلام في تبليغ علم النبوة بقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ...﴾ [يوسف: ٣٧] إلى قوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨].

كذلك قال عيسى ﷺ لمن لزمه التبليغ إليه: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٩].

---

(١) قراءة «أبيّ» وعبدالله: «أَعْصِرُ عِنَبًا» لا تدلُّ على الترادف؛ لإرداتهما؛ لإرادتهما التفسير، لا التلاوة، وهذا كما في مصحف عبدالله: «فَوْقَ رأسِي ثَرِيدًا» فإنه أراد التَّفسيرَ فقط. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٧٢/٩)].

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: ٣٩ - ٤٤].

ثم طفق عليه السلام يخبرهم عن الله - عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - بوحدانيته وألوهيته ويعيب الأصنام وما خالف التوحيد، وكل ما كانوا يعبدونه من دون الله بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾(1) هو يضل وهو يهدي ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ بعبادة الله

(١) والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، وتقريرُ فساد القول بعبادة الأصنام: أنه تعالى بيَّن أن كثرة الآلهةِ توجب الخلل والفاسد في هذا العالم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ فلمَّا قرَّر أنَّ كثرة الآلهة تُوجبُ الخلل والفساد، وكونُ الإله واحدٌ، يقتضي حصول الانتظام، وحسن الترتيب قال هاهنا : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار﴾ وأما تقرير كون كثرةِ الآلهةِ، توجب الخلل والفساد في العالم: إنَّه لو كان اثْنانِ أو ثلاثةٌ، لم نعلم من الذي خلقنا، ورزقنا، ودفع الآفاتِ عنَّا؛ فيقع الشِّرْكُ في أنَّا نعبدُ هذا أم ذاك، ومعنى: كونهم متفرقين، أي: شتَّى، هذا من ذهب، وهذا من فضةٍ، وها من حديدٍ، وهذا أعلى، وهذا أوسط، وهذا أدْنَى، متباينون لا تضر ولا تنفعُ ﴿خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار﴾ «الوَاحِدُ»: لا ثاني لهُ، «القَهَّارُ» الغالبُ عل الكلِّ.

وحده دون من سواه، هو الدين القيم وسلوك ذلك هو الصراط المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩ - ٤٠] فكان في هذه الجملة تبليغ الرسالة وإثباتها ووراثتها له على آباء له متقدمين، في ذلك يجب الإيمان بهم، ثم التبليغ عن الله ﷻ ما هو أهله.

فلما فرغ ﷺ من تبليغ ما أمر به أخذ في تأويل الرؤيا بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ إلى قوله: ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١] وقراءة لعكرمة: «**فيسقي ربه عنبًا**»[1] إن العنب هو ملآن من مائه الذي يكون خمرًا، فقال الرائي: إنه يعصره، والعصر هو استخراجه من أوعيته التي هي حبوب العنب، فأول رؤياه له بشربها كما يفعل بإناء الماء والخمر واللبن؛ يشرب ما فيه بأن يستفرغ ملء الإناء في جوفه فيروى عن ذلك كما كان الماء ري العنب.

وعلى القراءة الأخرى: فإن حب العنب هو مخزن لمائه، فرأى هذا الرائي أنه يعصره، وكان من فتيان الملك، فتأويل رؤياه أن يكون بيده مخزن خمر الملك يستخرجها له من أوعيتها، ووافق ذلك منزلته من الملك ومكانته.

وأما الآخر فكان يرى أنه يحمل خبزًا على رأسه والطير تأكله، وخبر الطير اللحم، ولا يكون حاملاً الخبز على رأسه إلا ويكون قائمًا، ولا يكون قائمًا على رجليه والطير تأكل لحم رأسه إلا أن يكون محبوسًا، ولا يكون كذلك إلا أن يكون مصلوبًا، فقال: ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ وهذا مما تقدم ذكره أنه يعطى النبي الوحي جملة تامًا مفروغًا منه بيقينه ونوره دون فكرة منه ولا أن يروى في شأنه، ولذلك ختم العبارة بقوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

ألا ترى أن هذا ليس من طاقة البشر القطع بصدقها وصدق تأويله، وإنما حد المعبر المجيد أن يقول: إن صدقت الرؤيا فتأويلها كذا كذا والله أعلم، وأما القطع لصدقها وصدق تأويله إن ذلك كائن لا بد فمعجز لا ينبغي ذلك إلا له ولأمثاله في منزلته.

---

(١) الجمهور على خفض باء رب وقرأ أبو الغالية وابن السميفع وعيسى ابن عمر بنصبها، وقرأ أبو رزين العقيلي والربيع بن خيثم وأبو عمران الجوني برفعها. [زاد المسير (١١/١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] هذا الظن بمعنى العلم لو لم يكن علم ذلك لم يكن لقوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾ [يوسف:٤١] معنى، ومثله: «لا ينطق عن الهوى» قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يريد الملك مقام الأنبياء والصديقين التوحيد الأعلى، فمتى نزلوا عنه أخذوا بذلك وعوقبوا من أجله، إلا أن يعفو الكريم - جل ذكره - بفضله.

يقول الله جل وعز: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢] كذلك يعقوب لما ﴿قَالَ﴾ لبنيه: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف:١٣] ولم يكن سبق في القدم على يوسف ﷺ أن يكون للذئب طعامًا ابتلي بأن جاء بنوه يذكرون أن الذئب أكله.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[1] [يوسف:١٦] وقرأ الحسن: «وجاءوا أباهم عُشاء يبكون» بضم العين يقول: عشوًا من البكاء ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨] والظن به ﷺ أنه حين أرسله توكل على الله كفعله بجماعتهم يوم قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف:٦٧] وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى، فسبحان من جعل حكمته نعمة بوجه، ونقمة وعقابًا بوجه، وثوابًا بوجه، إنه لواسع عليم هذا ونحوه جاء عن جل أهل التفسير في هذا

---

(١) فيه مسئلتان: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أي: ليلاً، وهو ظرف يكون في موضع الحال، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار، فروي أن يعقوب ﷺ لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله الذئب، فبكى وصاح وقال: اين قميصه؟ على ما يأتي بيانه إن شاء الله، وقال السدي وابن حبان: إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشيًا عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب، قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس، ولم يتحرك له عرق، فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين! ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه في حجر روبيل، فقال: يا روبيل! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهدًا؟ فقال: يا أبت كف عني بكاءك أخبرك، فكف يعقوب بكاءه. الثانية: قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعا فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى.

المعنى أن قوله ﷻ: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٤٢] أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ راجع إلى يوسف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٥ - ٤٩].

وليس يعطي سياق الكلام والمعهود هذا الذي ظنوه بل هو راجع بحمد الله على الذي ظن يوسف أنه ناجٍ من الفتيين دل على هذا قوله عز من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥] فأخبر عز جلاله أن الناسي هو الفتى لا يوسف عليه السلام وأن ذكر اسم رب الفتى هو الملك وأما يوسف عليه السلام فلم ينسَ ربه بل لأجل ربه ﷻ قال للفتى ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] فإن الرسل والأنبياء - عليهم السلام - مأمورون بالتبليغ ولا بأس عليهم أن يتوصلوا إلى ذلك بطريق الكلمة أو طريق السنة أو بهما ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧] وقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] فأراد الله في محكم حكمته أن يحجبه عن أكثر الناس حتى يأتي أمر الله الذي أتاه به من الملك والقدرة على الانتصار ولكل أجل كتاب هذا هو الحق المبتغى والسبيل المرتضى إن شاء الله.

قوله جل قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف:٤٣] إلى آخر قصته، الملأ: كبار القوم وعلماؤهم وأشرافهم ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ الأضغاث: الأخلاط، الضغث: ملء اليد من حشائش أخلاط نبات أو غيره، وهي ما يراه النائم في نومه من شأنه أنه يعالجه في نهاره أو يطالبه، أو يكون ما يراه قد اختلط بحديث النفس وصعد إلى

موضع الرؤية منه أبخرة أخلاطه، فيتصور ما رآه على غير الصورة التي هي من الحق مع ما يشوبها من حديث النفس، فيبعد عن الحقيقة المراد بها.

قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤] كما قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا من الله والحلم من الشيطان**»[1] فقال القوم: الرؤيا لها إلى الحق تناسب يعلم تناسبها للحق، والأحلام قد ضلت مرائيها عن الحق، فلا علم لنا بها، ولما تركت في حقهم الرؤيا هذه من بشارة ونذارة، ورأوا فيها سنابل خضرًا وسنابل يابسات ظنوا لقصر علومهم أنها أضغاث، ورأوا فيها البقرات تأكل أمثالها وليست البقرة آكلة اللحم قالوا: إنها أحلام.

فقال عليه السلام: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ في مقابلة السبع البقرات السمان، ثم قال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ يريد في السبع السنين الخصبة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧] فكان هذا الرأي منه أمرًا من الله أن يبلغه إليهم، وجعل له في الرؤيا حظًّا من أمره العلي، وأخرج قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾ على صيغة الأمر؛ إذ هو له تحصين وعدة للشداد السبع السنين بعدهن.

ثم قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩] هذا القسم ليس من الرؤيا في شيء، ولكنه مأخوذ من عدد السبع الخصبة والسبع الجدبة، ولما كان بتمام الخصبة ابتداء الجدبة وجب في ختمان حكم الله ﷻ أن يكون بتمام السبع الجدبة ابتداء خصب آخر كذلك الوجود، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] ثم تجاوز ذكر العسر الثاني الراجح على المذكور.

ثم قال: ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾ فعلى هذا بتأويل يتوجه قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[2] [يوسف:٤٩] في تأويل هذه الرؤيا،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٦٠٣٤)، وأبو داود (٥٠٢٣)، والترمذي (٢٤٤٦)، وابن ماجة (٤٠٤٢)، وأحمد (٢٣١٨٨).

(٢) فهو بشارة وإدخال المسرة والأمل بعد الكلام المؤيس، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر. و«يغاث» معناه: يعطون الغيث، وهو المطر. والعصر: عصر الأعناب خمورًا. التحرير والتنوير (٧/٢٧٨).

ولما جعل الله له من الحظ في الرؤيا طلب الولاية، وحذر ألا يقوم غيره مقامه لا أن يظن بأمثاله طلب عرض الدنيا، ثم إذا خدم الملك النبوة تمت بذلك النعمة، وهي من تأويل أبيه رؤياه حيث قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦].

يقول الله عز من قائل: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] والسبع السنبلات الخضر هن زرع السنين الخصبة كما السنبلات السبع اليابسات هن ما اختزن منهن عدة للسنة الجدبة أو مثال لزرع تلك السنين الجدبة، وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ العنب خمرًا، والزيتون زيتًا، والجلجلان والفجل دهنًا، وقد يكون من العصر وهو الملجأ وهو المنجاة من شدة السبع الشداد.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[يوسف:٥٠ - ٥٣].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف:٥٠ - ٥١] ثبتهن الله على إعصامهن إياه الأول يوم فجئتهن فأكبرنه عن التلبس بفاحشة، وأقرت امرأة العزيز على نفسها بأنها هي التي راودته عن نفسه وصدقته بذلك، وهذا من آيات الله ﷻ على نبوته وكراماته لرسله للسائلين؛ أي: الباحثين عن لطيف صنع الله ﷻ للنبوة والأنبياء، وكرامة من أراد بذلك صلى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين الطيبين وسلم.

عبرة: انظر - وفقك الله - ما بين كفاية التوكل والتفويض إلى الله ﷻ وما بين

التكيس والتكسب حيث قال للذي ظن أنه ناجٍ من الفتيين للنبوة وكرامة من أراد بذلك: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لم يفوض الأمر إلى ربه تبارك وتعالى في ذلك، فعوقب بأن لبس في السجن بضع سنين، ثم لما جاءه من غير تعرض منه لذلك ولا تكسب صحة نيته في طلب البراءة مما قذفوه به ظلمًا أخذ الله بسمع امرأة العزيز وقلبها وجعلها تقر على نفسها بما كانت قبل تجاحش عنه وتتبرأ منه، وتشهد النساء له بما قد كان جعل الله في قلوبهن يومئذٍ من الإكبار له عن دنس الريبة والتلوث بالمعصية، لا لمعنى يستفدنه بذلك من دينًا، ولا براءة توبة يترجينها عند الله، وهذا خارج عن الفوائد المعهودة.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من ردي للرسول واحتباسي عن الانطلاق ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الملك ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ﴾ لتعلموا ﴿أَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾(١) [يوسف:٥٢] أعلم ﷺ أن النسوة اللاتي تلبسن بالخيانة ورضين بها وكذبن عليه أولاً لم يهدِ الله كيدهن، ولا يهدي كيد الخائنين، بل جعلهن يشهدن بشهادتهن، الأولى وهذا داخل في الإعجاز، وهو من الآيات للسائلين.

وهذا أيضًا إنباء منه ﷺ وتسليم من الله - جل ذكره - ذلك تصديقًا بأن هذا الحكم عام في مجازاته الخائنين، فإن الخائن لا عاقبة لفعله وإن ظهر له أول ما هو

---

(١) ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف ﷺ. قال الفراء: ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة إلى كل منهما إلى ما يليق به، والإشارة إلى الحادثة الواقعة منه، وهي تثبته وتأنيه، أي: فعلت ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله بالغيب، والمعنى: بظهر الغيب، والجار والمجرور في محل نصب على الحال؛ أي : وهو غائب عني ، أو وأنا غائب عنه. قيل: إنه قال ذلك وهو في السجن بعد أن أخبره الرسول بما قالته النسوة، وما قالته امرأة العزيز. وقيل: إنه قال ذلك وقد صار عند الملك. والأوّل أولى، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، والمعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيهه، والإقرار على نفسي بالمراودة؛ ليعلم يوسف أني لم أخنه، فأنسب إليه ما لم يكن منه وهو غائب عني، أو وأنا غائبة عنه، والإقرار على نفسي به.
﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ أي: لا يثبته ويسدّده، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم، وإذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته. فتح القدير (٤/٤٣).

بحسبان، وظن لأجل البلوى والفتنة كما قال عز من قائل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩] وإن ظهر له أول ما هو كالتخيل والأخذ بالنفوس، ثم تظهر الحقيقة بعد، وكقول رسول الله ﷺ: «**الحالف منفق للسلعة مذهب للربح**»[١] وهكذا فليعتقد في الخيانات كلها وبعمل الخائنين.

ثم قال عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣] لما أقرت امرأة العزيز على نفسها وشهد النسوة بما عندهن أقر أيضًا هو بما علمه الله منه.

وقيل: إنه لما قال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢] غمزه جبريل وقال له: «ولا يوم هممت بما هممت» وجاء: «ولا حين هممت بما هممت»، فقال: وما أبرئ نفسي ولا يبعد هذا، فهذا إن كان من طريق يصح قريب لأمثاله، وما هو آية عليه موجود فيما بيَّناه، وهو الحاضر من الخير في قلب المؤمن الذي سماه رسول الله ﷺ عظة الله في قلب كل مؤمن وفي وجود نشء الحق في الوجود يكون وجود ذلك عند وجود النبوة إلى خطاب الملك.

ومثل هذا ما ذكره الرسول ﷺ عن سليمان لما قال: «**لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل واحدة منهن تلد رجلاً يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك: «قل: إن شاء الله» فنسي، قال: فلم تلد منهن إلا واحدة ولدت شِقَّ إنسان**» قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لولدت كل واحدة منهن رجلاً يقاتلون في سبيل الله كلهم أجمعون**»[٢] فأقسم رسول الله على وجوب وجود ذلك إيمانًا بقول الملك: «قل: إن شاء الله» ووجود ذلك عنده وإن خاطر النبي نشأ فيه إلى ما هو الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (٤٢٠٩)، وأبو داود (٣٣٣٧)، والنسائي (٤٤٧٨)، وأحمد (٧٤٠٨).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٤٤)، ومسلم (١٦٥٤)، وأحمد (٧١٣٧)، والنسائي (٣٨٥٦).

ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٧].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ ألقى الله في قلب الملك إكباره وحبه ﴿قَالَ إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1] [يوسف: ٥٤ - ٥٥] هذه كلها آيات للسائلين - على جميعهم السلام][2] والكواكب الشمس والقمر جعلها الله تعالى للهداية ووجدان النور والضياء [في العالم][3] كذلك الأنبياء - عليهم السلام - وجودهم للهداية بهم والاقتداء [بأعمالهم][4] وأقوالهم وشهود الإيمان واليقين بذلك.

ثم قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فهذا حظه ﷺ من ذلك؛ إذ الهداة

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الملك ائتونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ يعني: أجعله في خاصة نفسي، فلما خرج يوسف من السجن ودّع أهل السجن ودعا لهم، وقال: «اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم، ولا تستر الأخبار عنهم» فمن ثمة تقع الأخبار عند أهل السجن قبل أن تقع عند عامة الناس. ولما دخل يوسف على الملك وكان الملك يتكلم سبعين لسانًا، فأجابه يوسف بذلك كله. ثم تكلم يوسف بالعبرانية، فلم يحسنها الملك، فقال: ما هذا اللسان يا يوسف؟ قال: هذا لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - ثم كلمه بالعربية، فلم يحسنها الملك، فقال: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان عمي إسماعيل. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: قال له الملك ﴿مَكِينٍ﴾ في المنزلة ﴿أَمِينٌ﴾ على ما وكلتك. قَالَ له يوسف ﷺ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ يعني : على خراج مصر ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ للتدبير، ويقال: ﴿حَفِيظٌ﴾ بما وكلت به ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع الألسن. ويقال: عليم بأخذها ووضعها مواضعها. وإنما سأل ذلك صلاحًا للخلق؛ لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله. ويقال: ﴿حَفِيظٌ﴾ يعني: عليمًا بساعة الجوع، وكان الملك يأكل في كل يوم نصف النهار، فلما كانت الليلة التي قضى الله بالقحط أمر يوسف بأن يتخذ طعام الملك بالليل، فلما أصبح الملك قال: الجوع الجوع. فأتي بطعام مهيًأ، قال: وما يدريكم بذلك؟ قالوا: أمرنا بذلك يوسف. ففوض الملك أموره كلها إلى يوسف. بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٨٤).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف وتقديم وتأخير بين النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «بأفعالهم».

والمقتدى بهم لا [يخضعون][١] إلا لمن هو أهدى منهم وأولى بالاقتداء به منهم، وتأويل وجود سجودهم له الإئتمام به وإقرارهم بسبقه لهم ورفعه درجته عليهم وهم لما جمع الله على يوسف شمله بهم وبأبويه - على جميعهم السلام - سجد لربه شكرًا له على ما أنعم به عليه من الكفاية والنعمة وعليهم من الإقرار بالذنب [والتوبة سجدوا لله إئتمام به وشكرًا لربهم تبارك وتعالى وقال رسول الله ﷺ: «**يؤمكم أفضلكم**»[٢] وفي أخرى: «**يؤم القوم أفقههم**»[٣]][٤].

فصل

قال يعقوب عليه السلام: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ [يوسف:٦] فعطف بالواو على مضمر، وإنما تقدم من قوله: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف:٥].

والمضمر المحذوف هو ما [أتى][٥] ذكره والله أعلم وذلك أن الله ﷻ يصطفي من خلقه [ما][٦] يشاء، وهم المؤمنون، ويصطفي من المؤمنين ورثة الكتاب، ويجتبي من هؤلاء الموقنين، ومن الموقنين الصديقين، [ومن الصديقين][٧] النبيين والمرسلين عليهم السلام، ويجتبي من رسله من يشاء، والمجتبون من الرسل - عليهم السلام - العمود السامر من لدن آدم عليه السلام [إلى محمد صلوات الله عليهما][٨] وعلى من سواهما من النبيين والمرسلين ذرية وآباءً وإخوانًا ورسلاً وأنبياء، والعمود هو آدم عليه السلام وإدريس ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

---

(١) في النسخة (ق): «يجمعون».
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٨).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦٠) عن عطاء.
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «يأتي».
(٦) في النسخة (ق): «من».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) سقط من النسخة (ق).

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**﴾ [آل عمران:٣٣ - ٣٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**ورأيت يوسف** ؑ **فإذا هو وقد أُعطي شطر الحسن**»[١].

وقد تقدم الاعتبار بمواقيت خروجهم من ساعات الدهر، وأن يوسف ؑ بموضع طلوع الفجر من يوم الدهر، فعطف يعقوب ؑ بالواو على هذا المعنى، [دله بذلك - والله أعلم -][٢] أن الله يبلغه هذه الدرجة سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا، وإن مثل يعقوب ؑ لا يفضله إلا المجتبى من المجتبين.

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه يعقوب ؑ بتأويل رؤيا يوسف ؑ: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾ [يوسف:٥] إلى آخر التأويل، أضرب له - عليهما السلام - عن تأويل رؤياه، وقد بذل النصيحة مع علمه بأن [المقدور][٣] لا ينجي منه الحذر، وكان قد أوحى إلى إبراهيم ؑ في عهد عهده الله ﷻ إليه قال: «سأورث ذريتك هذه الأرض [ومصر][٤] إياها من نهر مصر إلى الفرات النهر الأعظم» فَرَجَا أن يكون قد اقترب ذلك من وعد الله ﷻ، وخشي أن يكون [ما وعده][٥] يوسف ؑ في رؤياه من الإثرة [والتقدم][٦] الذي دل عليه سجود الشمس والقمر والكواكب له، [وأنبئ][٧] به إبراهيم ؑ فيما أعلم به: «إن نسلك سيتغرب في غير بلاده ويملكون ويزالون فيه أربعمائة سنة وأنت تلحق بآبائك في عافية [وتتصرف][٨] ذريتك ها هنا في الدرجة الرابعة» فقال: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٢٧) وأبو يعلى (٣٣٧٥) وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠) وأبو عوانة (٣٤٤).

(٢) في النسخة (ق): «إعلام منه في حكم التأويل».

(٣) في النسخة (ق): «القدر».

(٤) في النسخة (ق): «وبصره».

(٥) في النسخة (ق): «دون ما وعد به».

(٦) في النسخة (ق): «والتقديم».

(٧) في النسخة (ق): «ما أنبأ».

(٨) في النسخة (ق): «وشيخوخة صالحة وتنصرف».

﴿تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥].

قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم رؤيا تسوؤه فلينفث عن يساره ثلاثًا، وليتعوذ بالله من شر ما رآه، وليقم فليصلِّ فإنها لا تضره إن شاء الله، ولا يخبر بها أحدًا»[١].

وقال ﷺ: «إذا رأى أحدكم رؤيا تسره فلا يخبر بها أحدًا إلا بعد أن تطلع الشمس ولا يقصصها إلا لمن يحب»[٢]. وفي أخرى: «ولا يقصها على امرأة»[٣]. و«الرؤيا لأول عابر»[٤].

وقال ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت»[٥] والرؤيا المقصود بها هو الرائي والمرئي له ثم بأخره هي للعابر، وكانت رؤيا يوسف ﷺ ظاهرها فيما يسره، وباطنها يسوؤه، وعاقبتها [فيها][٦] بشارة بما يؤل إليه شأنه من الرفعة والاجتباء، وقصَّه على أبيه فحذَّره - عليهما السلام - من شرها وبشَّره بخيرها.

أما ظهور شرها فيها وخيرها فلأن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله، وأمر الله ﷻ يجمع البلاء والعافية والسراء والضراء، ورؤيا الأنبياء - عليهم السلام - وحي، فظاهر الشأن أن يوسف ﷺ ألقى إليه من شأن الرؤيا بشارتها وطوي عنه نذارتها وجمع ذلك ليعقوب ﷺ، وبذلك [اشتد][٧] حزنه على يوسف لما أعلمه الله ﷻ من اجتبائه إياه، فكان حبه [إياه][٨] في الله جل ذكره، ولفراقه وتمادي منه ذلك لأجل ذلك.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٢٦١).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) انظر: تعطير الأنام للنابلسي (ص٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٣٩١٥)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٩٥).

(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٢٠)، وابن ماجة (٣٩١٤)، والطبراني (٤٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٦٦)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٤٩)، وأحمد (١٦٢٢٧).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «ما أشد».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

فصل

الوحي يلقى إلى النبي ﷺ يلقاه تامًا في حقه مفروغًا منه إذا كلم في الأمر رآه مخاطبه كأنه قد تقدمت له المعرفة بأصول ذلك المسئول عنه، وهو لا يعرف الوجه الذي [ترقى][١] إليه به سوى أنه هكذا ألقي إليه، فإذا سُئل عن اتصال ذلك المخبر عنه وعن منبعثه من الحكمة علوًا [وجدته][٢] ماهرًا به عالمًا له كأنه عنه كان منشؤه، وفيه مسقط رأسه، وإذا سئل عن ذلك الصادر منه ذكر أنه ملقى على لسانه وقلبه مع يقين رفيع موجود به.

وهذا الحق يأتيه في اليقظة وفي النوم، وبين حال النومان واليقظان، وربما سئل في الأغلب [عن شيء ابتداءً فيراه][٣] المتأمل له كأنه يتلقى الجواب [من حاضر غائب عن أبصار الحاضرين، وإن كان ذلك المسئول عنه لدينا له أسرع في الجواب][٤] محكمًا؛ إذ هو مما فطر عليه في [حال النبوة][٥]، وإن كان مما هو خارج عنه [تقصى][٦] الجواب من قريب منه عتيد، فإن وجده على ما عهده أخبر به وإلا صمت عنه لا يطلبه من نفسه ولا يقتضيه من ذاته بفكر ولا روية؛ لذلك - والله أعلم - قال له أبوه عليهما السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦] فعطف بالواو، وأدخل كاف التشبيه عليها إشارة إلى ما استقر في قلب يوسف بما أعلم به في رؤياه من جملة [الإنذار الذي أصيب به][٧] وألقي إلى يعقوب ذلك مجملاً، ولذلك حذره ونفوس الأنبياء - عليهم السلام - مذللة للابتلاء وسبل إلى ما هي آيات عليه في لقاء الله البر الرحيم أولياءه، فهو أكرم مورود عليه وهو خير المنزلين.

وفي قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] في هذا من الفقه أنه لا يجوز لأحد

---

(١) في النسخة (ق): «يرقى».
(٢) في النسخة (ق): «وُجد».
(٣) في النسخة (ق): «فيلقى ذلك المعنى وربما لقنه ابتداء فبرأه».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «خلقته عند أخذه عهد النبوة».
(٦) في النسخة (ق): «يقضي».
(٧) في النسخة (ق): «الأقدار الذي أصيب بها».

أن يتولى، [ولا يجوز][1] أن يكون حفيظًا في علمه محافظًا عليه عليمًا بما يأتي في ذلك وما [يرد][2] ولا يجوز لموليه أن يوليه عملاً إلا أن يكون كذلك وإلا وقع كل واحد منهما في محذور ما نهى عنه، وكان من الفساد في ذلك أضعاف ما ينبغي إصلاحه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف:٥٦] وقرئت: «يشاء» بالنون[3] وهو أعلم بالتقدير الأول في ذلك وإن الوجود يقتضي سوء التقدير.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من إعلامه بآياته [وتبيانه][4] ما جعلت له آيات، وإعلام أيضًا بلطفه له؛ لينفذ به مقدوره، ثم ما تقدم ذكره من إحسانه [إليه][5] وإنعامه عليه وعلى أبويه وإخوته ومن القدر السابق في الأزل.

ثم قال وقوله الحق: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ ابتداءً ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

وفي مفهوم هذا ما هو مرصد لإثابته المحسنين وعقوبته المجرمين في أحكام الدنيا والآخرة جزاء؛ ليتم كلمته في قوله للقلم: «**اكتب ما هو كائن [إلى يوم القيامة]**[6]»[7].

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

---

(١) في النسخة (ق): «ولائه إلا».

(٢) في النسخة (ق): «يذر».

(٣) قرأ ابن كثير، والمفضل: «حيث نشاء» بالنون. [زاد المسير (٣/٤٤٠)].

(٤) في النسخة (ق): «وبيناته».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) تقدم تخريجه.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا
نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ
مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ
اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ
لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ [يوسف: ٥٨ - ٦٨].

قوله ﷻ حاكيًا عن نبيه يعقوب ﵇ لما راوده بنوه على أن يدفع إليهم أخاهم من أبيهم ليحملوه إلى [يوسف][1]: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وهنا محذوف مقدر معناه: فلم تحفظوه ولا رحمتموه ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وكانوا قد ﴿قَالُوا﴾ له من قبل: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] فهذا القول والذي قبله مأخوذ من الأمانة لم يكن طلبهم أن يصدقهم، بل كان طلبهم منه أن يأتمنهم عليه ولما آتوه، وقد فعلوا ما فعلوا في شأن يوسف واعتذروا عنده بالكذب قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: يؤتمن لنا على سواه بعد هذا ولو صدقناك [فيه اليوم كما قال][2] من جعلها عمدته

---

(١) في النسخة (ق): «مصر».

(٢) في النسخة (ق): «لتفريطنا في هذا اليوم فما بال».

في الاحتجاج على أن الإيمان هو التصديق، [وإن كان ذلك يتوجه على التصديق][1] فإن الأظهر فيه الأمن بما أحاط به من الدليل أنه من الأمن والأمانة، والإيمان هو الدخول في الأمن ثوابًا لتصديق الله ﷻ في إخباره عما أخبر به وتصديق الرسل [فيما بلغوه عن ربهم][2]، وائتمانهم على ما أخبروا به، فتفهم ذلك.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**الظن يخطئ ويصيب**»[3].

وقال ﷺ: «**الظن أكذب الحديث**»[4].

وقال الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم:٢٨].

فأخبر أن الظن قد يصيب، [وأن الظن كذب][5]، والعرب قد تسمي ما هو العلم بالشيء: ظنًا، كما قال الله ﷻ: ﴿**وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ**﴾ [التوبة:١١٨] وقال جل قوله في كذب الظن: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا**﴾ يظنون و﴿**يَخْرُصُونَ**﴾ [يونس:٦٦].

ثم قد يصعد هذا إلى أن يخطئ مرو ويصيب أخرى، وهذا هو ظن الإنسان بما هو إنسان، ثم قد يقوى في عموم المؤمنين باستصحابهم تقوى الله تعالى، فتكون الإصابة في ظنهم أكثر من الخطأ؛ ذلك لأن عامة المؤمنين في مثل الغبش [نور ليس هو بعديم منه ولا هو بكامله][6]، وأما الذين أتم الله نعمته عليه فإنهم على الأغلب تلحق ظنونهم باليقين، وقد كان عمر ﷺ من هؤلاء، وفي أثناء هذه الأمة من [يعطى

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٩٥)، وابن ماجة (٢٤٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣)، ومالك (١٦١٦)، وأحمد (٧٨٤٥)، وأبو داود (٤٩١٧)، والترمذي (١٩٨٨) والطبراني في «الأوسط» (٨٤٦١)، والبيهقي (١٣٨١٣).

(٥) في النسخة (ق): «ويكذب».

(٦) في النسخة (ق): «من ظلمات طبعهم لاختلاط نور إيمانهم بظلمات الطبع فهم ليسوا بمفلسين من نورهم ولا هم بوصف الكمال وكلامنا هذا في إصابة المراد من موجود الوحي والكافرون صم وبكم وعمي في الظلمات الكائنة عن طباعهم وكفرانهم».

هذا لذلك][1] قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن ينظر بنور الله**»[2].

وقال: «**احذروا فراسة المؤمن**»[3].

[وقال الله جل من قائل: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر:٧٥] والتوسم نحو التفرس][4].

وكان يعقوب ﵇ ظن أولاً في بنيه فأصاب في قوله: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف:١٨] وأصاب في الثانية لما قالوا: ﴿**يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾ [يوسف:٨١] إلى قوله: ﴿**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ [يوسف:٨٢] فقال لهم ﵇: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف:١٨] وهذه أخفى من تلك، فإنه وإن كان العشرة والتسعة منهم لم يضمروا مكرًا فإن يوسف وأخاه بنيامين مكرا مكرًا، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ**﴾ [يوسف:٦٩ - ٧٠] المعنى إلى آخره، [ومن تلك فإن العشرة البنين لم يمكروا في هذه المرة، وإنما مكر بهم يوسف وأخوه الأصغر ابن يامين، فأجاب بظنه الصواب لم يوقع خطأ][5].

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ...**﴾ [يوسف:٦٧] خشي يعقوب أن [يعاينوا][6] فأمرهم بالتفرق على الأبواب؛ ليدخلوا في المعهود وعامة الناس.

يقول الله جل من قائل: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي**

---

(١) في النسخة (ق): «أيضًا من يرزق ذلك ومنه».

(٢) أخرجه الديلمي (٦٥٥٤).

(٣) أخرجه بلفظه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٨١)، وأخرجه بلفظ «اتقوا» بدل «احذروا» البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/٣٥٤)، والترمذي (٣١٢٧)، وقال: حديث غريب. والطبري (١٤/٤٦).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فكان ظنه مصيبًا في المرتين».

(٦) في النسخة (ق): «يعانوا».

عَنْهُم مِّنَ الله مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾[١] [يوسف:٦٨] كما قال رسول الله ﷺ في الطيرة ونهى عنها [ونهى عن اعتقاد العدوى وقال: «**وفر من المجزوم فرارك من الأسد**»[٢] وقال: قد نهى عن التطير][٣]، ثم قال: «**وما منا إلا**» وخزل من الكلام شيئًا، ثم قال: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[٤] وقال: «**وإذا تطيرت فلا ترجع**»[٥].

فهذا التردد هو الذي حمل يعقوب على أمره إياهم بالتفرق على الأبواب في الدخول والحذر عليهم، ولعلمه بأن الله هو المنفرد بحكمه قال: ﴿**وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ الله مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [يوسف:٦٧] ولوجود هذا التوحيد في قلبه أثنى الله عليه بالعلم الذي [وضعه][٦] وصفه به في قوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ والعلم الذي [أضافه إليه][٧] هو

---

(١) قال ابن العربي: إنما قال ذلك اتقاء من العين، فإنها حق عند المشرعين، والباري تعالى هو الفاعل لا فاعل غيره، وقد جعل النظر سببًا للمرض الذي يصيب الشخص بنظرالعائن بحسب ما يقدره الله تعالى. ولهذا يُنهي العائن عن التلفظ بالإعجاب، فإذا تلفظ، فإن برَّك اندفع الألم بالبركة. فإن لم يفعل سقط بالاغتسال. حسبما ورد في الحديث. وقد اعترض الأطباء هذا، واعتقدوا كذب النقلة للحديث. والجواب بقولهم: إن الكون والفساد يجري على حكم الطبائع الأربع، فإذا شذ شيء عما قالوا: إنه قانون. قالوا: هذه خاصة، خرجت عن مجري الطبيعة لا يعرف لها سبب، وإذا ثبت هذا فنقول: هذا الذي نقل عن صاحب الشريعة. هو خواص شرعية يشهد لصدقها وجودها، فإنا نرى العائن إذا برك امتنع ضرره، وإذا اغتسل برئ مُعَيَّنه. وقوله: ﴿**مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ الله مِن شَيْءٍ**﴾. هذا يدل على أنه أمرهم بالتفرق خشية العين، ثم قال: وهذا لا يرد القدر، وإنما هو أمر تأنس به النفوس إذ خلقت ملاحظة للأسباب، فمن لاحظ السبب، ورأى أنه علامة في العادة لا يفعل شيئًا فهو الموحد. ومن نسب إليه فعلاً فهو ملحد. [الأحكام الصغرى ص٣٨٧].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩١٢)، والترمذي (١٧١٢)، وابن ماجة (٣٦٦٧)، وأحمد (٣٧٥٩).

(٥) أخرجه الطبراني (٣٢٢٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٦٢).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وصفه به».

العلم اللدني علم التوحيد الأعلى [والعمل به][(١)] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨] يعني: ذلك العلم.

وقد [حذره][(٢)] يعقوب [بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧] وفي هذا من [المعنى] ما تقدم ذكره الأخذ بالحذر وإن كان لا يغني عن القدر][(٣)] وإن من العلم به التحرز منه والتسليم لله والتوكل عليه، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»[(٤)] [وفي هذا من الفقه ما تقدم ذكره الأخذ بالحزم وإن كان لا يغني من القدر][(٥)] وإن مثل هذا لا يذهب بالتوكل إذا كان الآخذ به [ذاكرًا لله ﷻ وحده][(٦)]، وإن الحكم كله دون [لله وحده دون][(٧)] من سواه، والأخذ بالسنة مباح، لهذا فإذا فارق [الاسم][(٨)] الأول الموجود عن حكم الكلمة [حرم][(٩)] الثاني، [وخرج عن أن يكون أخذًا بالسنة.

فصل

يقال: لها العين والنفس، أصابت فلانًا عين ونفس بمنزلة سواء.

قال رسول الله ﷺ: «**العين حق**»[(١٠)].

وقال: «**أكثر هلاك أمتي من العين**»[(١١)].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أحرزه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) وقال: غريب. وأبو نعيم في «الحلية» (٣٩٠/٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢١٢).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «في حال ذكر لله وتوحيد له».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «القسم».

(٩) في النسخة (ق): «لم يجزم».

(١٠) أخرجه البخاري (٥٤٠٨)، ومسلم (٢١٨٧)، وأحمد (٨٢٢٨)، وأبو داود (٣٨٧٩)، وابن ماجة (٣٥٠٧)، وابن حبان (٥٥٠٣).

(١١) أخرجه أحمد في المسند (١٢٧/١٥).

وقال: «**العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر**»[١].

وتكرار ذكرها في الشرع كثير: «**العين من الإنس والنفس من الجن**».

ولما غزا رسول الله ﷺ غزوة حنين قال قائل من المسلمين: «لن نُغلب اليوم من قلة» فكانت الهزيمة، لولا دفاع الله ﷻ إياها.

قال الله ﷻ: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [التوبة:٢٥] ثم أنزل الآية.

هذه الآفة في النفوس كامنة؛ لذلك ذكرها يعقوب في [....][٢] ظنه من حيث علمه مثله من رفيع العلم؛ لرفعه منزلته][٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**وما منا إلا [فيه طيرة، ولكن الله يذهبها بالتوكل]**[٤]»[٥].

وليس المفروض على العبد [أن يزيل الخلقة][٦]، وإنما المراد منه الدؤوب على المجاهدة، وطلب المعالي من العلوم والأعمال، فربما ألحقها الله ﷻ له بالعادة فيتداركه بالعصمة، [وعلق][٧] الإنكار للأدنى، والتزام ما هو أولى بما يكون ذلك فاعلمه.

فصل

النفس تطلع من مطالعها المعهودة في الجسم والعين، ثم اللسان أقربها إسراعًا إلى هذه الآفة، ولهذا على ما تقدم ذكره مثال متصل [بها للعاين والمعيون][٨]، ولهذه النفس المشار إليها عدوى [يشاركه الجن الخلقة][٩] نهى الشرع عن اعتقاد

---

(١) أخرجه ابن عدي (٦/٤٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٩٠)، والخطيب (٩/٢٤٤)، والقضاعي (١٠٥٩).

(٢) ما بين [ ] بياض في الأصل.

(٣) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) في النسخة (ق): «تبديل خلقة الله».

(٧) في النسخة (ق): «وعلى قدر».

(٨) في النسخة (ق): «منها إلى المعيون».

(٩) زيادة في النسخة (ق).

وجودها بمعنى وأثبتها بمعنى آخر، وموضع [موطنها](١) موطنان: العجب بالشيء والحسد، وقد تقدم ذكر موضع العجب من القرآن في ذكر غزوة حنين، والحسد مذكور للتعوذ منه في سورة الفلق، فإذا أبصرت نفس العاين شيئًا فأعجبها وأراد الله إنفاذ ما قد [سلف](٢) على المقدار المكتوب له وعليه خرج بإذن الله شيء يقوم مقام العدوى على مثال نفسه متصلاً بمثال نفس المعيون، فكان عن ذلك ما شاء الله ﷻ، وكان موجود هذا [أعني: الإذاية بالعين والنفس](٣) عن اسمه الغيور واسمه الواحد والأحد، جل جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، والله أعلم.

[والتجرد](٤) من ذلك أن يذكر العجب بالشيء الخالق - جل ذكره - ويشغل قلبه بذكر الصانع لهذا المعجب به، وليقل: «تبارك الله أحسن الخالقين» ويدعو الله ﷻ بالبركة في ذلك المرئي.

وأما الحسد فنفس الحاسد آكد في العدوى ظاهرًا وباطنًا، وكما لظاهره على الأغلب عدوان فكذلك لباطنه عدوى، فنفسه أسرع إلى المعيون من الماء إلى صبيبه، [وتقدر](٥) كثيرًا ما يصحبه، والنفس هي من الحاسد؛ إذ الحسد من قبل العدو، والعين تكون من موضوع الحب، والعجب بهذا المرئي والتعوذ بالقرآن والكلام الطيب المعبر عن التوحيد الأرفع دواؤه بإذن الله تعالى.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ ما يغني عن الإطالة بذكره، وسنَّ رسول الله ﷺ الوضوء منه، وأظنه من عين المعجب بالمعيون ومنهما فالله أعلم، بل قد جاء في الثابت أن يؤمر العاين بالوضوء، وذلك أن يؤمر العاين فيغسل بالماء داخلة إزاره وإرفاغه وما هنالك، ويغسل رجليه قبل [ذراعيه](٦)، ويمسح برأسه قبل وجهه، وإذا غسل ذلك غسل إلى داخل من خارج اليد، وكذلك الرجل والوجه يؤخر ميامنه

---

(١) في النسخة (ق): «عملها».
(٢) في النسخة (ق): «شاءه».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «التحرز».
(٥) في النسخة (ق): «والقدر».
(٦) في النسخة (ق): «رأسه».

ويقدم أشمله؛ وذلك والله أعلم لأن مثاله مستقبلاً يمد قدمًا أمام ما هو مثال له، [فيشمل][(١)] المثال بالمعيون فيقع يمينه إلى شمال المعيون وشماله إلى يمينه، فيكون الوضوء على هذه الهيئة كفعل النبي ﷺ في تحويل الرداء عند دعاء الاستسقاء، وبالرجوع من المصلى يوم العيد على طريق غير الطريق الذي مضى عليه.

ثم هذا قد يتطرق إلى تعرف [الدواء من][(٢)] السحر والتحرز منه، وقد قال رسول الله ﷺ [يقاربها][(٣)]: «**لا عدوى ولا طيرة ولا غول ولا هام ولا صفر**»[(٤)] وقوله حق كله، لكن بعضه في المكيد آكد من بعض، وبعضه ألزم في الوجود من بعض، وبعضها يلزم أهل [الغلبة][(٥)] إنكارها واجتناب اعتقادها، وقد يترخص لمن دونهم للزوم وجودها، وبعضها حرام العمل بها والحوم حولها لجميع المكلفين، [وبعضها][(٦)] كانت أكذوبات فيما سلف، [وكشف رسول الله][(٧)] ﷺ عن حقيقة ذلك، والحمد لله رب العالمين.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾
قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ
عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ
كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

---

(١) في النسخة (ق): «فيتصل».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فيما يقارب هذا».

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٦٥)، ومسلم (٢٢٢٠)، والطحاوى (٣٠٩/٤).

(٥) في النسخة (ق): «العلية».

(٦) في النسخة (ق): «ولأجل ذلك».

(٧) في النسخة (ق): «وكشف الله برسوله».

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ [يوسف:٦٩ - ٧٧].

قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩] إلى قوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧] أعلم أخاه بما كتمه عن إخوته سواه.

قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] يريد ملك مصر، دينه: طاعته، وملكه: موضع حكمه، كان ﷺ قد أسرَّ في نفسه [أن يكيدهم بكيد يكون](١) سببًا لإمساكه [أخاه](٢) عنده، فقال من أجل ذلك: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩] [ترى](٣) مني أو منهم في شأنك.

وتمدح الله جلَّ ذكره في بديع لطفه في إيصال يوسف إلى أخذ أخيه في دين الملك دونه [على](٤) الملك بقدر منه تعالى ومشيئة شاءها، وكان لو سرق سارق ما صواع الملك وحكم هو فيه بحكمهم لم يكن ليوسف أخذه، إنما كان يأخذه الملك دونه أولاً إن الله جلَّ ذكره جعل ذلك؛ لتمكينه من الملك ومملكته، وأهل طاعته حتى أخذه لنفسه؛ لأنه بالزعم سرق صواع الملك، وإنما كانوا قبل قد سرقوا يوسف ﷺ بما تخيلوا به على أبيهم.

والصواع إناء يعبر به في كتب النبوات عن الذوات، فمنها أوانٍ شريفة، ومنها أوانٍ خسيسة، وذلك الصواع الذي عبر به يوسف أنهم سرقوه هو يوسف، والملك

---

(١) في النسخة (ق): «أن يكيد عليهم بما يكون».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «تراه».
(٤) في النسخة (ق): «أعني».

هو الله ﷻ، فكان فعله ذلك بهم جزاء لفعلهم، وهذا الصواع المجعول في رحل أخيه في الحقيقة هو لله ﷻ وهو الملك الحق، فتمدح الله ﷻ بعجيب لطفه له الذي أوصله إلى الحكم به عليهم في دين الملك؛ أعني: صاحب مصر، والمراد هو الملك الحق عز جلاله، ثم فوق هذا العلم المعبر عنه بما تقدم علم علي هو المقصود بسياق قصصهم من أوله إلى آخره تفهموه إن كنتم صادقين في طلبكم.

قال الله جل من قائل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] وهذه إشارة إلى كيف يجتبي الله عبده من مراد نفسه ويستاقه إلى مراده به؛ ليختار له ما عنده على ما هو العبد فيه؛ لذلك قال إشعارًا منه إلى هذه اللطيفة، قال الله ﷻ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] فافهم مدح الله جلَّ ذكره الملك ليوسف، وهو المعرض عن الدنيا يقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧] ذلك؛ لأن ملك الأنبياء رفيع القدر في أمور الآخرة، به يظهر حكمه [ويظهر دينه][١] القيم في البلاد والعباد والدين والملك أخوان، فمتى إذا افترقا فهما عدوان متباغضان.

ولما رأى أخوة يوسف قد [علموا][٢] بحكمهم، وأن القول قد وقع عليهم ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[٣] [يوسف:٧٧] ذكر مجاهد أن عمته

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «غلبوا».

(٣) وقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ لا يدل على الجزم بأنه سرق، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط؛ أي: إن كان وقعت منه سرقة فهو يتأسى ممن سرق قبله، فقد سرق أخ له من قبل. والتعليق على الشرط على أنّ السرقة في حق بنيامين وأخيه ليس مجزومًا بها، كأنهم قالوا: إنْ كان هذا الذي رمى به بنيامين حقًّا فالذي رمى به يوسف من قبل حق، لكنه قوي الظن عندهم في حق يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين، ولذلك قالوا: إن ابنك سرق. وقيل: حققوا السرقة في جانب بنيامين وأخيه بحسب ظاهر الأمر، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بدع من ابني راحيل؛ لأن أخاه يوسف قد كان سرق، فعلى هذا القول يكون قولهم إنحاء على يوسف وبنيامين. وقيل: التقدير: فقد قيل عن يوسف إنه سرق، وقولهم هذا هو بحسب الظاهر، والإخبار بأمر جرى لتزول المعرة عنهم، وتختص بالشقيقين. تفسير البحر المحيط (٧/٤٨).

أخت أبيه كانت قد كادت على يعقوب في يوسف لتحبسه، فأبى عليها فحرمته قلادة كانت لإسحاق كانوا يعظمونها، وجعلوا حد من سرقها أن يسترق، فاحتجت بذلك على يعقوب واحتبست لذلك يوسف ﷺ عندها.

قال: فهذه هي السرقة التي ذكروها، فالله أعلم أكان ذلك أم لا.

ولما سمع منهم يوسف ذلك أسرها في نفسه ولم يبدها لهم، وعلم بذلك ثباتهم على العداوة الأولى وكذبهم عليه، فقال: [﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا...﴾ يمكن أن يتوجه قوله هذا إلى ما تقدم ذكره، ويمكن أن يتوجه إلى سرقتهم إياه عن أبيه حين باعوه وادعوا أنه عبد لهم، يقول: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بسرقتكم إياي، يقول هذا عند نفسه.

ثم قال: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧] ولو كان ما قاله مجاهد صحيحًا لم يكله إلى الله ﷻ][(١)].

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا
لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ
أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ
حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ
إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ
ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ
فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير بين النسخ.

﴿مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف:٧٨ - ٨٥].

قوله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨] في هذا من الفقه [أنه مما ينبغي أن يقرن المدح المسئول المرغوب إليه بطلب الحاجة][١].

﴿قَالَ﴾ [يوسف ﷺ][٢] ﴿مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾[٣] [يوسف:٧٩] في هذا من الفقه أنه جائز أن يتوصل [إلى استيجاب][٤] بالمعاريض إلى الحق إذا لم يكن من ذلك بد، وقد ذكر الله ﷻ هذا منه في معرض المدح.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

---

(١) في النسخة (ق): «أن تمام السؤال والدعاء والرغبة أن يقرن إليه المدح وحسن الثناء».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) قال ابن عطية: يحتمل قولهم أن يكون مجازًا، وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حرّ بسارق بدل من قد أحكمت السنة رقه، وإنما هذا كمن يقول لمن يكره فعله: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك تبالغ في استنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز. ويحتمل أن يكون قولهم حقيقة، وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يريدوا استرقاق حر، فلم يبقَ إلا أن يريدوا بذلك طريق الجمالة؛ أي: خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك. ومقصدهم بذلك: أن يصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلية الأمر. وقوله: ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وصفوه بما شاهدوه من إحسانه لهم ولغيرهم، أو من المحسنين إلينا في هذه اليد إنْ أسديتها إلينا، وهذا تأويل ابن إسحاق، ومعاذ الله تقدم الكلام فيه في قوله: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ والمعنى: وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبكم، فلِمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم؟ وباطنه أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو مصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعاملاً على خلاف الوحي، و﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ تقديره: من أن نأخذ، و«إذن» جواب وجزاء؛ أي: إن أخذنا بدله ظلمنا. وروي أنه قال لما أيأسهم من حمله معهم: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه السلام وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف؛ ليعلم أنّ في أرض مصر صديقين مثله. تفسير البحر المحيط (٧/٥٠).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن
رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ
﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن
كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي
بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف:
٨٦ - ٩٥].

قوله ﷻ حكاية عن نبيه يوسف: ﴿**ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا**...﴾[1] [يوسف:٩٣] كان إبراهيم عليه السلام قد نزل أرض كنعان بن حام بن نوح، فلم يكن لهم ليخرجوا منها

(١) قوله ﷻ: ﴿**ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا**﴾ فيه وجهان: أحدهما: مستبصرًا بأمري؛ لأنه إذا شم ريح القميص عرفني. الثاني: بصيرًا من العمى، فذاك من أحد الآيات الثلاث في قميص يوسف بعد الدم الكذب وقدّه من دُبُره، وفيه وجه آخر؛ لأنه قميص إبراهيم أنزل عليه من الجنة لما أُلقي في النار فصار لإسحاق، ثم ليعقوب، ثم ليوسف، فخلص به من الجب، وحازه حتى ألقاه أخوه على وجه أبيه فارتد بصيرًا، ولم يعلم بما سبق من سلامة إبراهيم من النار ويوسف من الجب أن يعقوب يرجع به بصيرًا. قال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا بن يعقوب، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته فأنا الآن أحمل قميصك لأسرّه وليعود إليه بصره، فحمله. حكاه السدي. النكت والعيون (٢/ ٢٨٤).

إلى أرض مصر أو غيرها إلا بأمر من [عنده](١)، فأمرهم يوسف بالرحلة منها إلى أرض مصر، وذلك بأمر من الله جلَّ ذكره له، وأعطاهم قميصه آية على [صدق](٢) ما أمرهم به [عن](٣) الله ﷻ، وأن أباه يعود به بصيرًا إذا ألقي على وجهه فعلموا بذلك أنه من أمر الله جلَّ ذكره.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف:٩٤] من مصر متوجهة إلى أرض كنعان وجد يعقوب بريح يوسف على القميص، وهذه الصفة من حياة الإيمان نشأت في [حواسهم](٤) الظاهرة سمعًا وبصرًا وشمًّا وذوقًا ولمسًا.

كذلك قال إسماعيل وقد زاره إبراهيم أبوه - عليهما السلام - إلى منزله، [فلم يجده](٥) ووجد امرأة إسماعيل، فقال لها: أين هو؟ قالت: هو في القنص، فسألها: ما حالكم؟ فجاوبته بجواب لم يرضه منها، فقال لها: إذا جاء إسماعيل فقولي له يبدل [عتبة](٦) بابه، ولما جاء إسماعيل ودخل المنزل قال لأهله: إني أجد رائحة فمن جاءك اليوم؟ قالت: جاءني شيخ كذا، وقصَّت عليه القصة، فقال لها: ذاك أبي وقد أمرني بفراقك الحقي بأهلك.

وهذا أمر مشهور عند المنعم عليهم متعارف ووجود ذلك عن حواس الإيمان [في هذا من الفقه لأولي الألباب وجب تغليب حكم الأب على الابن في شأنه كله، ولا أشد من فراق الأهل من غير ضرر موجب ذلك منها، وكان ذلك ابتلاء من الله ﷻ بإسماعيل مرة ثم أخرى، ولما أطاع أباه مرتين وصية لا مشافهة منه له اصطفاه وأشركه معه في إقامة بيته الحرام.

وفيه من الفقه أيضًا أنه لا يجوز لمؤمن يريد الدار الآخرة أن يحبس امرأة لا تكون كذلك، ولا أن يجعل ابنته عند من يعصي الله ﷻ، ولا أن ينكح ابنه إلا امرأة

---

(١) في النسخة (ق): «الله».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «من عند».
(٤) في النسخة (ق): «حق الأنبياء بالحواس».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «رتجة».

ديّنة ومن بيت صالح][1].

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٦ - ١٠٠].

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ الله مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] [يوسف:٩٦] [كان ﷺ قد علم][3] من أمر يوسف ﷺ أنه سيتم نعمته عليه بالنبوة كما أتمها قبل على آبائه - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميعهم - وعلم أيضًا من الله ﷻ أنه غير مضيع يوسف دون أن يبلغه درجة إتمام النعمة عليه [إلى تمام إكمال تأويل رؤيا يوسف][4]، وهذه كلها من آيات الله في قصصهم، [فمن اعتبرها وجد منه معبرًا][5] إلى هداية وتفصيل معلومات كثيرة وإلى

---

(١) في النسخة (ق): «وكشف الله برسوله».

(٢) فيه إشارة إلى أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه إذا ذهبت عيناه من طول البكاء يجيء إليه بشير تجليه، فيلقى عليه قميص أنسه في حضرات قدسه فيرتد بصيرًا بشم ذلك، فهنالك يرى الحق بالحق، وينجلي الغين عن العين، ويقال: إنه ﷺ إنما ارتد بصيرًا حين وضع القميص على وجهه؛ لأنه وجد لذة نفحة الحق تعالى منه حيث كان يوسف ﷺ محل تجليه ﷻ وكان القميص معبقًا بريح جنان قدسه، فعاد لذلك نور بصره ﷺ إلى مجاريه فأبصر. تفسير الألوسي (١٧٢/٩).

(٣) في النسخة (ق): «يعني».

(٤) في النسخة (ق): «ثم كذلك إلى إتمام عباده رؤياه المذكوره في صدر السورة».

(٥) في النسخة (ق): «من تفهمها وعبر بها إلى المشار بها والمراد منها وجد معبرًا إلى هداية الله عبده المحبوب عنده المجتبى ثم».

ذكرٍ علي.

قوله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩٧] وقد كانوا [قالوا][١] ليوسف لما أن قررهم على فعلهم الذي وعدهم الله فيما أوحى إليه [في رؤياه][٢] حين جعلهم إياه في غيابات الجب.

[قوله][٣]: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ...﴾ [يوسف:١٥] فقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٨٩ - ٩٠] [وقرئت: «إنك» على التحقيق منهم][٤] إلى قولهم: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [يعني: قدَّمك ورفعك علينا][٥] ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩١] [يعنون في مدافعتنا ذلك وهو أمر قد أعطاك الله ووعدك به فها هو ذا قد أنجزك ما وعدك][٦] فجاء من هذا أن الإقرار بالخطيئة مع الندم على فعلها توبة؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «**رب إني ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي**»[٧] كذلك قال آدم وموسى ونوح على جميعهم السلام.

فقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف:٩٨] وأعدهم إلى السحر والله أعلم، ذُكر أنه جمعهم فجعل يدعو لهم ويؤمِّنون على دعائه حتى أعلمه الله ﷻ أنه قد غفر لهم وجعلهم أنبياء، واستغفر لهم ﷺ ساعة يسألوه المغفرة وحين إقرارهم بالذنب، وقد تعرف في ذلك وعد الله إيَّاه من وحيه الذي أوحى إليه حال إلقائهم إياه في الجب، وكان الذنب المرتكب منهم في جنبته وهو المظلوم به [أعني: يوسف][٨]، فوضع بذلك حقه عنهم وحسن ذلك.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «وهو قول الله له في وحيه إليه».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) أخرجه البيهقي (٢١٧٥).
(٨) زيادة في النسخة (ق).

[وكان يعقوب مظلومًا][(١)] في حط خطاياهم في يوسف ونفسه مما جنوه عليه من الحزن والأسف وطول البكاء، وأعظم المطلوب أن يبلغ بهم الغاية التي بلغوها من جعلهم أنبياء من أئمة المتقين، وقد كان علم ذلك من تأويل رؤيا يوسف، ولذلك قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦] وعلى قدر الحاجة يكون [الشوق][(٢)] لها والتأهب.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:٩٩] آوى والله أعلم هي المصافحة، كذلك قال قبل هذا: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩] ولم يقل ذلك في إخوته، ومن هذا [يفهم أن السلام على الأحبة والخاصة مباح المعانقة فيها وتقبيل المناكب، وهي المصافحة][(٣)] وذلك على منازل ﴿وَقَالَ﴾ يبشرهم ويهنئهم بالسلامة والرحب: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] وهذا يمكن عند تلقيه إيَّاهم [قبل أن يدخلوا المدينة][(٤)] آوى إليه أبويه وقال لجماعتهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [فإنه ذكر أن دخولهم مصر في اثنين وتسعين رأسًا][(٥)].

ولما دخلوا عليه [مجلسه][(٦)] رفع أبويه على العرش، ثم تذكر رؤياه التي أراه الله ﷻ إيَّاها في بدء الأمر، وكيف عبَّرها له أبوه، وكيف نزغ الشيطان بينه وبين إخوته، [وغربته][(٧)] في استعبادهم إيَّاه، وتصييره إلى ملك الأباعد، وكيف لطف الله ﷻ في حراسة دينه عليه في ظلمات الكفر وملك العبودية، وكيف لطف له بالحفظ والكلاءة وحسن الدفاع، ثم كيف جمع عليه شمله، وأقر بالظفر عينه فخرَّ لله ساجدًا شكرًا من نعمه لما أولاه، فخروا له سُجَّدًا؛ أي: لسجوده ائتمامًا به شاكرين لله ﷻ، حامدين له.

---

(١) في النسخة (ق): «إذ كان مطلوب يعقوب ؈».
(٢) في النسخة (ق): «التشزن».
(٣) في النسخة (ق): «يعلم أن المصافحة وهي تقبيل صفاح الأعناق وتقبيل المناكب وجعل الأيدي في الأيدي بين الأحبة مباح».
(٤) في النسخة (ق): «وقت دخلوا عليه فسطاطه خارجًا من مصر».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «منزله في مصر».
(٧) في النسخة (ق): «وعلم بذلك أن ذلك كان قدرًا مقدورًا قبل وقوعه وتذكر غربته».

ثم لما رفع رأسه من السجود قال: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يعني: لما قد وعد به أباه إبراهيم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1] [يوسف:١٠٠]][2] إنه عليم بما هو كائن قبل أن يكون حكيم في إجراء أمره في أثناء خلقه على هذا يتناول سجودهم له لا على غير ذلك.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ
ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠
وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠١ - ١٠٨].

ثم جعل يدعو ربه في الخاتمة وإتمام النعمة بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: فهم معاني الوحي وتأويل الرؤيه ونحو هذا،

---

(١) اختلف العلماء فيما بين رؤياه وتأويلها على خمسة أقاويل:
أحدها: أنه كان بينهما ثمانون سنة. قاله الحسن وقتادة.
الثاني: كان بينهما أربعون سنة. قاله سليمان.
الثالث: ست وثلاثون سنة. قاله سعيد بن جبير.
الرابع: اثنتان وعشرون سنة.
والخامس: أنه كان بينهما ثماني عشرة سنة. قاله ابن إسحاق. النكت والعيون (٢/٢٨٦).

(٢) سقط من النسخة (ق).

وما أظهر له من صدق التأويل في [الحكمة التي أظهر له في تأويل][(١)] سجود الشمس والقمر والكواكب في رؤياه، ثم التفضيل له على إخوته واجتبائه على من سواه [﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ فضم معاني الوحي وتأويل الرؤيا ونحو هذا][(٢)] ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[(٣)] [أي: خلقًا وأمرًا ورضًا][(٤)] ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] فسأل ربه باسمه الفاطر أن يتوفاه مسلمًا على ما فطر السماوات والأرض عليه [وفطره.

قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[(٥)] وفي أخرى: «**على الإسلام**»[(٦)].

وأنس من كريم حفايته بهم فيما تقدم حسن توليه ﷻ إيَّاه، فناداه من قرب الولاية][(٧)] يقول ﷺ: كما فطرتني على الإسلام الذي فطرت عليه السماوات والأرض توفني مسلمًا، وكما توليتني في الدنيا تولني في الآخرة وألحقني بالصالحين.

وقد تقدم ذكر سجود آدم لربه [وأنه][(٨)] لما سوَّاه خلقًا ظاهرًا، ثم لما نفخ فيه من روحه سوَّاه باطنًا، فعقل عند ذلك عن نفسه من هو، وإنه عبد لربه [الذي قرره

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) أي: توفني على الإسلام لا يفارقني حتى أموت، وألحقني بالصالحين من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك. وقيل: إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله ﷻ. وقيل: كان عمره عند أن ألقي في الجبّ سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم أبيه يعقوب عليه، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله. قيل: لم يتمنّ الموت أحد غير يوسف لا نبيّ ولا غيره. وذهب الجمهور إلى أنه لم يتمنّ الموت بهذا الدعاء، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام، ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله. فتح القدير (٧٥/٤).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره الحكيم (٣١٠/١).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

على التزام العبودية][1] ألهمه السجود إليه فسجد لسجوده الملائكة كلهم أجمعون، [إلا إبليس][2] كانت إمامة من الله أكرمه بها.

قوله ﷺ فيما حكا [عنهم][3]: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ...﴾ [يوسف:١٠٠] هذا يدل على ما تقدم ذكره ويؤيده بعلمه، وإنه بتأويل لرؤيا علمًا مجملاً، فذكَّر أباه ببعض الجملة وأعرض عن ذكر بعض فعل المحسنين يعدد بذلك نعم ربه ويحدث بها، ولما كان الغرض ذلك لم يحدث بما أصابه من ضر ووصب وغير ذلك، وهكذا يكون الشكر والثناء.

[ثم ختم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠] كان الذي شاء ربنا ﷻ إنفاذ ما أنفذه، فلطف في استياق المقدورات إلى مقاديرها بعلمه وحكمته، لا إله إلا هو][4].

يقول الله جل ثناؤه لرسوله ﷺ: ﴿ذَلِكَ﴾ [أي: ما قصصناه عليك من قصصه][5] ﴿مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢] فلولا أنا أعلمناك به لما أوحيناه إليك وهو خطاب صرفه إلى شأن محمد ﷺ [هذا مثل قوله في صدر السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف:٣] أي: عن العلم بقصصهم، صرف بهذا الخطاب إلى ذكر العرب][6] وتحقيق نبوته ورسالته.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانه ما أكثرهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] وإن هم أسلموا وأظهروا ذلك، بل الغفلة تصحبهم والخلاف يأتي على أكثرهم إلا من أتم الله عليه نعمته بعلمه بما عبر عنه قوله الحق:

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «عن محضرهم ذلك».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] دل على هذا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] [يوسف:١٠٦] فكان الوجود على ذلك من جملة الأمة ما يشاهد الآن فشرك أكبر وشرك أصغر، وإيمان قليل يوزن بالمثقال والذرة والخردلة وما هو أدنى وأدنى وأدنى.

[هذه السورة مكية، ولا مرية يومئذٍ في أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، ولم يكن عز جلاله ليعلمه لما كان يهتم لأجله ويحزن له؛ لأنه كان يحزن لتأخرهم ويهمه خلافهم، وإنما معناه والله أعلم: فإن دخلوا في الإيمان وكان منهم ما أنت حريص عليه فما أكثرهم في حال إيمانهم بمؤمنين، بل الغفلة تصحبهم والخلاف يأتي على أكثرهم إلا من أتم الله نعمته عليه، دل على هذا قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] وقول من قال: إنها نزلت في مشركي العرب، كانوا يهللون بالحج فيقولون في ذلك: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، فهذا إن صح فلا يقتصر على أولئك، فالوجود يعطي هذا والمشاهدة تأبى عليه علمًا][2].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ﴾ يقول: وهم على كفرهم وردهم رسول ربهم وما جاء به ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٧] [وهو أيضًا متوجه إلى المخالفين أمر الله بعد العلم ووعيد لهم على ذلك][3].

---

(١) فيه خمسة أوجه: أحدها: أنه قول المشركين: الله ربنا وآلهتنا ترزقنا. قاله مجاهد.
الثاني: أنه في المنافقين، يؤمنون في الظاهر رياء وهم في الباطن كافرون بالله تعالى. قاله الحسن.
الثالث: هو أن يشبه الله تعالى بخلقه. قاله السدي.
الرابع: أنه يشرك في طاعته، كقول الرجل: «لولا الله وفلان لهلك فلان». وهذا قول أبي جعفر.
الخامس: أنهم كانوا يؤمنون بالله تعالى ويكفرون بمحمد ﷺ فلا يصح إيمانهم. حكاه ابن الأنباري. النكت والعيون (٢/٢٩٠).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: لم يرسل الله إلى أهل القرى المهلكين ملائكة ولا ملوك الأرض، بل كانت لهم الذرية والأزواج يجوعون ويشبعون، وعلى ذلك أهلكنا من كذبهم ورد عليهم [أمرهم][١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١].

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم دعاهم جل ذكره من الدنيا إلى الآخرة ومن ضلالهم إلى الهدى بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩] ثم قرع من لا علم له بهذا القول الحق بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بتشديد الذال من ﴿كُذِّبُوا﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، وقرئت بالتخفيف فمعناه: حتى إذا استيأس الرسل [بواطن][٢] أتباعهم أنهم قد كذبوا ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ ويمكن أيضًا [أن يكون][٣]: حتى إذا استيأس الرسل من هداية قومهم، [وظن][٤] المرسل إليهم - [يعني: الكفار - أنهم قد كذبوا][٥]؛ أي: ظنوا [ذلك ظنًا

(١) في النسخة (ق): «أمر الله».
(٢) في النسخة (ق): «وظن».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وظنوا أي».
(٥) سقط من النسخة (ق).

يقوم][1] لهم مقام اليقين، والظن هنا بمعنى الشك والريب [جاءهم الهلاك وأخذهم العذاب، فكان ذلك نصرًا للرسل والاتباع لهم][2] ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ أي: من الأتباع ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

مسألة:

الظاهر [المعلوم][3] من رحمة الأنبياء والرسل وبرهم ورأفتهم لا سيما بالآباء والقرابات إنه كان ينبغي، بل كان يجب على يوسف إعلام أبيه يعقوب - عليهما السلام - وإدخال السرور عليه، ولا يتركه إلى الحرض ويسلمه إلى الحزن، مع عدم تعذر ذلك عليه، وتمكنه [من الأمر في أرض مصر][4] من إرسال الوصايا والأشخاص إلى أبيه الشديد البث، الكثير البكاء، العظيم المصاب يعرفه بحاله حيث هو، [وما الذي جرى له وعليه القدر، وإلى ما][5] آل إليه شأنه، [وقد قيل: إنه بلغ من الحزن وعظيم الوجد وجد][6] سبعين ثكلى، وهما يومئذٍ خير من على وجه الأرض، فكأن يكون لأبيه في ذلك عزاء، ومن عظيم حزنه وكثرة بكائه عليه مسليً، وهم القدوة للأمم بعدهم، والأئمة الأدلاء على القصد إلى الله سبحانه.

الجواب: ليس شأن الأنبياء - عليهم السلام - فيما بينهم كسواهم، بل شأنهم انتظار الإذن من الله ﷻ لا يتقدمون ولا يتأخرون [بإذن من الله سبحانه، فما أذن لهم فعلوه وائتمروا له، وما لم يأذن لهم به وكلوه إليه][7] وهو ﵇ لم يؤذن له في الإعلام بشأنه إلى أبيه؛ ليستوفي هو وأبوه بالحزن عليه، والشوق إلى لقاء كل واحد

(١) في النسخة (ق): «ظنًا قام».
(٢) في النسخة (ق): «جاء الرسل نصرنا والأتباع».
(٣) في النسخة (ق): «المعهود».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وبما جرى عليه وما».
(٦) في النسخة (ق): «وقد جاء: أن جبريل ﵇ دخل عليه السجن فسأله يوسف عن أبيه، فقال له: حَزِن عليك حُزن».
(٧) في النسخة (ق): «إلى غير ذلك».

منهما صاحبه دخرًا زائدًا إلى عملهما، [ودرجة لم ينلها بنبوته][(١)] ولحكمة لله جل ذكره في ذلك.

قد كان رسول الله ﷺ أذن لأصحابه في الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان ذلك عن إذن الله [وبقي][(٢)] هو ينتظر أن يؤذن له، ثم استأذنه أبو بكر بأن يهاجر فيمن هاجر إلى المدينة، فقال ﷺ: «**أنا أنتظر الإذن في الهجرة**» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: «**الصحبة**»[(٣)] فبقي أبو بكر أربعة أشهر يعلف ناقتين له ينتظر [أن يؤذن لرسول الله ﷺ فيهاجر معه][(٤)] حتى نزل عليه الإذن من ربه ﷻ فهاجر، وعلى هذا يتخرج [تأخر][(٥)] إعلام يوسف أباه، وهذا شأن الأنبياء مع ربهم وسيرهم وأحوالهم ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

[فإن قلت: فما بال يعقوب ﷺ حزن الحزن كله ولزم البث والبكاء، حتى بلغ ما عبر الله جل ذكره عن حاله تلك بقوله الحق: ﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[(٦)] [يوسف:٨٤].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومكث».

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٢١٣٨).

(٤) في النسخة (ق): «الإذن».

(٥) في النسخة (ق): «ترك».

(٦) فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تتام حزنه، وبلغ جهده، وجدد الله مصيبته له في يوسف فقال: ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ ونسى ابنه بنيامين فلم يذكره، عن ابن عباس، وقال سعيد بن جبير: لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ قال قتادة والحسن: والمعنى يا حزناه! وقال مجاهد والضحاك: يا جزعاه!، والنداء على معنى: تعال يا أسف فإنه من أوقاتك، وقال الزجاج: الأصل يا أسفي، فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عمي، قال مقاتل، وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب، وإنما ابيضت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال: ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ وقيل: إن يعقوب كان يصلي، ويوسف نائمًا معترضًا بين يديه، فغط في نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غط ثانية فالتفت إليه، ثم غط ثالثة فالتفت إليه سرورًا به وبغطيطه، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته:
=

يقول: فهو أبدًا يكظم حزنه ويعالج قلبه وما به، وقد أمره الله بالصبر والاستغناء بالله؛ إذ فيه العوض من كل فائت، بل لزم ما هو فيه حتى قال له بنوه: **﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾** [يوسف:٨٥].

والأنبياء - عليهم السلام - هم القادة الأئمة جعلهم الله أمثالاً للأمم، ويعقوب ويوسف وإخوته آيات على أمر الله في أوليائه، وإنه يختبرهم ثم كيف يقبض بعضهم دون بعض، ثم كيف يرسل إلى ما شاء من أوليائه عند قبض الملك إياه بشارته، وكيف يفتح بصره الذي يبصر به موجود الآخرة، عبر عن ذلك برده بصر يعقوب، بإلقاء القميص على وجهه يقول عز من قائل: **﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾** [يوسف:٩٦].

وإنما هي أمثلة كالمحاجاة جعلها آيات، أقام يوسف لمكان ملكه مقام الملك الحق، ويعقوب مقام الولي الشيق المحب، والإخوة مقام المؤمنين، والله هو العليم الحكيم لطيف لما يشاء، وإلى هذا انتهت العبرة في أثناء القصص الحق **﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾** [الأحزاب:٤].

=

«انظروا إلى صفيي وابن خليلي قائمًا في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعزتي وجلالي! لأنزعن الحدقتين اللتين التفت بهما، ولأفرقن بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة، ليعلم العاملون أن من قام بين يدي يجب عليه مراقبة نظري»، هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة - وإن لم يبطل - يدل على العقوبة عليها، والنقص فيها، وقد روى البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». الثانية: قال النحاس: فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب ﵇ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة: منها: أن يعقوب ﵇ لما علم أن يوسف ﵇ حي خاف على دينه، فاشتد حزنه لذلك، وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرًا، فندم على ذلك، والجواب الثالث: وهو أبينها هو أن في وا: «واحزناه» الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي وقال النبي ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»، وقد بين الله ﷻ ذلك بقوله: **﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه، قال الله تعالى: **﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾** أي: مملوء كربًا، ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم، وهو المشتمل على حزنه، يقال فلان **كظيم** وكاظم؛ أي: حزين لا يشكو حزنه.

والجواب: إن يوسف ﷺ لم يكن من متاع الدنيا، فيكره نفسه على الصبر دونه ويكسرها عن الحزن عليه، بل هو مما هو لله جل ذكره وهو حب لله، ومحبة المحبوب حب لله، والشوق إليه هو شوق لله، والحزن عليه حزن على ما هو لله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، ومن أهله وماله وولده والناس أجمعين**»[١]][٢].

قوله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ العبرة: هي أن يشاهد المتفكر بعلمه وقلبه ما يقف عليه بلُبِّه، فإن كان هذا المعلوم مما هو من متاع الدنيا فليقفز قفزة الأكياس إلى منبعثه من موجودات الآخرة، وليعبر من موجود ما [فكر فيه ومشاهده ما نظر إليه][٣] إلى غيب ما جعل هذا آية له ودلالة عليه، فقد تقدم من العلم بالآخرة ما تقدم، فليقايس [الأشياء][٤] بأشباهها، وموجودات كل دار منها بأمثالها [فيما عبر إليه][٥] وكذلك في كل معتبر إليه؛ [لذلك شرط في العبرة ذوي الألباب][٦].

[وعبرة موجود قصصهم محبة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عبده التائب إليه الذي عبر رسول الله ﷺ عن معناه بقوله: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ضلت له ناقته عليها زاده ومزاده فطلبها لم يجدها، وصعد لذلك شرفًا أو شرفين فلم يجد شيئًا، فلما يئس قال: آوي إلى تلك الشجرة أنام في ظلها حتى أموت، فبينا هو كذلك استيقظ فوجد ناقته قائمة على رأسه...**»[٧].

وقوله في المرأة التي كانت من السبي، كلما مرت بصبي ضمته إلى صدرها

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، والترمذي (٢٥١٥) وقال: صحيح. والنسائي (٥٠١٦)، وابن ماجة (٦٦)، وابن المبارك (٦٧٧)، والطيالسي (٢٠٠٤)، وأحمد (١٣٩٠١)، وعبد بن حميد (١١٧٤)، والدارمي (٢٧٤٠).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «تذكر به ومشاهد ما نظر فيه».

(٤) في النسخة (ق): «الأشباه».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) تقدم تخريجه.

ترضعه لعلها تصيب ابنها فيمن تصيب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه لما رآها كذلك: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار**» قالوا: لا والله يارسول الله، وهي تقدر ألا تطرحه، قال: «**الله أحب في عبده المؤمن من هذه في ولدها**»(١). وفي أخرى: «**لله أشد حبًّا لعبده المؤمن من هذه لولدها**».

قال شعيب ﵇: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].

وإنما أجهل قلوبنا وبلَّدها عن هذه العظيمة الغفلة المستولية وعدم الفقه بمعرفته، ألا تسمع إلى جواب قوم شعيب ﵇ حيث قالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] وقد كان يكفينا من العلم ما نريد به العبارة عنه والتبيان له لمشاهدتنا إنا لم نرَ الخير قط إلا من عنده، وإنا لم نرَ الشر قط إلا من سواه.

ولعلم يعقوب ﵇ محبة الله ليوسف الذي جعل يعقوب مثلاً في حبه له، لما راوده بنوه على أخيه بنيامين قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وفي أخرى: «فالله خير حفظًا» أي: أكرم مني حفظًا ليوسف ولجميعكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤] أي: أرحم بيوسف وبجميعكم.

ولما دفع إليهم أخاهم حذرهم من موضع المخافة عليهم وقال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف:٦٧].

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨] أي: العلم الذي أتاه بالنبوة وفطرتها، وبما أعلمه من بدء الأمر من تأويل رؤيا يوسف ﵇ الذي عبر عنه في آخر الأمر بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦] وما عبر عنه مناجاة يوسف ﵇ ربه عز جلاله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٢٨)، والبزار (٢٨٧).

﴿وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف:١٠١]][(١)].

[ثم قال جلَّ قوله][(٢)]: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: التوراة والإنجيل والزبور والصحف المنزلة قبله ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الذي هو][(٣)] كل شيء هو أم الكتاب، [فهذا تفصيل ما كان في معناه أو تعلق به أو جاوزه من أم الكتاب، فكل شيء أحكم الله آياته في الكتاب المبين، ثم فصله بالوجود إيجاد وبالكتاب إعلامًا وقصصًا ﴿وَهُدًى﴾ إلى الاعتبار ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

عبرة:

سبيل الاعتبار في هذا - والله أعلم][(٤)] كما عبر يعقوب في رؤيا ابنه من رؤية الشمس والقمر [إلى التفصيل وإلى الملك والاجتباء ومن رأيته الكواكب مع الشمس والقمر][(٥)] إلى أن يعلم تأويل الأحاديث، ومن سجود الإخوة بعد معرفة العبرة إليهم إلى حدوث العداوة منهم له بما جعل الله ﷻ في الكواكب [من أمره، وأمره][(٦)] مشتمل على الضر والنفع، وكما عبر يوسف في رؤيا الملك من السبع البقرات السمان إلى السبع السنين الخصبة، ومن العجاف إلى السبع الشداد، ومن السنابل الخضر إلى نعمة الحال وخضرة العيش، ومن السنابل اليابسات إلى [المجدبة][(٧)] منهن، فاعتبر أنت - وفقك الله - من وجود عداوة إخوته إياه وإخراجهم له عن أرضه إلى أرض مصر إلى أن ذلك من تصديق ما أنبئ به إبراهيم، وأن الذي جرى على نسلهم من استعباد القبطيين إياهم وإذلالهم وشدائد ما قاسوه فيما هنالك إلى أنها عقوبة لجميعهم؛ لاستعبادهم يوسف وكذلك جميع ما حزنوا

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أتبع هذا كله قوله الحق».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «من الأمر الذي سخرت له وأمر الله».
(٧) في النسخة (ق): «المختزنه».

من أجله لتحزينهم يعقوب عليه السلام.

فإن قلت: فما بال نسل يوسف قد أصابهم ما أصاب نسل جميعهم من الهون والاستعباد؟

فالجواب: إن الأمر من الله عز وجل إذا جاء عمَّ البريء والجاني كما قال رسول الله ﷺ: «**تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى**»[١] وقال الله جل ثناؤه: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال:٢٥] كما كان العطف عليهم وغياثهم مراعاة لصلاح آبائهم، [وميراثًا لصدق أسلافهم][٢]، فقد جاء أن شؤم الأب يلحق السابع من الولد، وأن بركة الأب تصيب [السابع][٣] من الولد؛ لذلك كان ظلم القبطيين لهم واستعبادهم إياهم وتسخيرهم سببًا ليورثهم الله جل ذكره أرضهم وديارهم وأموالهم وإن تراخت المدد.

قال الله عز وجل: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧] ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي: كذلك فعلنا بمن أهلكنا قبلهم ونفعله بمن نهلكه بعدهم، ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الشعراء: ٥٩].

يقول الله جلَّ قوله: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠] كذلك فاعبر من تيسيره الأسباب في حفظه يوسف، [وحفظه إياه][٤] في إيمانه وإسلامه ودينه، وتمكينه من ملك مصر ليهيئ له ما يريده من تفريغه نفسه وجوارحه إلى عبادته، [وإلى تعليمه][٥] ما علمه من النبوة وتأويل الأحاديث، وما آتاه من [فضله وأطلعه على علمه الذي علمه إياه][٦] إلى أن الله غالب على أمره ييسر أسباب الكائنات؛ لكون ما يريد [كونه][٧] ثم كذلك إلى ما حواه الكتاب المبين لكل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «وكريم ميراث الصدق عن أسلافهم عليهم السلام».

(٣) في النسخة (ق): «التاسع».

(٤) في النسخة (ق): «وكفالته إياه وحياطته وعصمته».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «حكمة وعلمه من علم».

(٧) في النسخة (ق): «كلاً».

كائن إلى يوم القيامة، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١].

ثم إلى ما اقتضى الكائنات من مقتضى أسمائه ومعاني صفاته [كذلك فاعبر من حسن إنزال يوسف إياهم عنده وطلبه منهم أخاهم لأبيهم، وجعله متاعهم في أوعيتهم وجعله لهم حمل بعير؛ لأجل صواع جعله في متاعهم لأمر أراده بهم ومنهم، كل ذلك اعبر منه إلى حسن إنعام الله علينا وكريم تعرفه إلينا بالمنن والإحسان، ثم اعبر من غفلتهم عن يوسف وعن تعرفه إليهم بالإحسان إلى عظيم غفلتنا نحن عن تعرف كريم أيادي الله علينا وجميل إحسانه إلينا ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]][١].

فصل

جاء في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة: إن الله جل ذكره أوحى إلى إبراهيم وأخرجه خارجًا، ثم قال: «تبصر السماء واحسب النجوم إن كنت تقوى، هكذا يكون نسلك».

وقال له جلَّ قوله: «أنا الله خلصتك من نار اليمانيين؛ لأورثك هذه الأرض وتملكها».

وقال له: «إن نسلك سيتغرب في غير بلاده، ويملكون ويذلون فيه أربعمائة سنة، ولكن سأحكم على الأمة الذين يستعبدونهم، وبعد هذا يخرجون بخير واسع وأنت تلحق بآبائك في عافية، [وشيوخه][٢] صالحة، وتتصرف ذريتهم ها هنا في الدرجة الرابعة».

وقال أيضًا: يوم أضجع ابنه للذبح وفداه الله منه بكبش، [فأوحى الله ﷻ إليه][٣]: «إذا فعلت هذا ولم تحن على ولدك المولود وحيدًا سأبارك عليك وأكثر نسلك حتى يكونوا كنجوم السماء، [وكرمل أجراف البحر][٤] وسيملك نسلك

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «وشيخوخة».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).

أبواب أعدائهم، وتتبارك بنسلك جميع أجناس الأرض إذا وقفت عند أمري» فكان [أيضًا ما لطف الله ﷻ لنبيه يوسف، وما حرك إخوته][1] إلى حسده وعداوته وبيعه وتغريبه عن وطنه؛ ليكون لهم كالفرط إلى أرض مصر للتغريب الذي أنبئ به إبراهيم، وهذا من تفصيل كل شيء.

[وولد لإبراهيم إسماعيل وإسحاق، ثم ولد لإسحاق يعقوب والعيص، وكان إسحاق قد بارك على العيص بعدما كان قد عمي - أعني: إسحاق - فبارك عليه [بعد مكيدة] كادتها عليه امرأته أم العيص وإسحاق يظن أن الذي بارك عليه هو يعقوب، فولد ليعقوب يوسف وإخوته اثنا عشر ولدًا كانت الأسباط عن هؤلاء بنو إسرائيل، وولد للعيص البنون والبنات، وكان صاحب صيد وقنص وركوب وظهور، فكان عنه الأصفر وما ولد، وقيصر وما ولد، وروم وما ولد، ويونان وما ولد، وفارس وما ولد، ثم كان من بني إسرائيل من الصلاح والنبوة والحكمة والكتاب ما قصَّ علينا، وكان من بعض خلفهم من خلاف وعتو وامتحان وعقوبات ما قصَّ علينا.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٤] والعلو الكبير الذي عناه وهو أعلم: علوهم بالرجال، فإن الرجل يدعو إلى نفسه ويدعي الربوبية، وأتباعه على دينه لا مرية في ذلك، ثم يكون يومئذٍ من عقوبة ما قصَّ علينا.

وقال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»[2].

وفي أخرى: «**حتى لو كان منهم من أتى أمه جهارًا لكان فيكم من يفعل ذلك**»[3] فما من شيء فعلوه إلا فعلناه نحن من قتال وقتل، وإخراج البعض من الأوطان، وخلاف واختلاف في الدين من بعد العلم، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده،

---

(١) في النسخة (ق): «ما قدره من تحرك إخوة يوسف».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

لو تصفح جميع ما غيب عليه لألقى في فعلنا ذلك خلا ما كان من قتل الأنبياء والرسل، فإن من رحمة الله جل ذكره أنه لم يبعث فينا نبيًّا يأمرنا أو ينهانا.

وقد كان فينا من ادعى النبوة والربوبية تصديقًا لما أنذر به رسول الله ﷺ، وأما من أتى أمه جهارًا، والجهار: هو النكاح وإشهاره، فذلك قد يكون من بعض ذنوب من يكون ناذرًا في أمه فارس، فإن ذلك كان من فعلهم، وعنه كان إسلامهم وتوبتهم، وما من أمة تابت من شيء وخرجت عنه بإسلامها إلا عاد إلى ذلك الفعل خلافها.

قال رسول الله ﷺ: «**وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم**»[١] ثلاثًا، وهذا والله أعلم إنذار منه للأمم الثلاثة العرب والروم وفارس، فإنه مبعوث إلى جميعهم، والحبش وسائر الأجناس تبع لها، ولا في الخطاب، فإنهم يعودون من حيث بدؤوا.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يعبد اللات والعزى**»[٢] **وحتى يضطرب آليات نساء دوس حول ذي الخصلة**»[٣].

وقد قيل: إن بظهور الدجال يعود ملك بني الساسان، وعلى القول بالإجمال ولو تصفح فعل الروم وفارس في تخلفهم عن هذا بأنهم الآن، وعلمنا في تخلفهم ما علمناه من تخلفنا لوجد فيهم أنهم سلكوا مسالك من كان قبلهم كما ضلال المهلكين، وغير المهلكين الذين سبق لهم من الله ﷻ الإمهال تبعوا سنن من كان قبلهم شبرًا بشبر وذراعًا.

وفي ذلك يقول الله جل من قائل: ﴿**كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ**﴾ [الذاريات:٥٢ - ٥٣].

وقال: ﴿**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة:١١٨].

﴿**إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ**﴾ [ص:١٤]][٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن عدي (٧/٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩٩)، ومسلم (٢٩٠٦)، وأحمد (٧٦٦٣)، وابن حبان (٦٧٤٩).

(٤) سقط من النسخة (ق).

ومن العبرة: وهو أن ينظر في تغريبه ﷺ عن أبيه وأهله ووطنه، فتعبر منه إلى غربة المؤمن عن [قرارة][١] فوزه وموضع مسقط رأسه وأولية خلقته، وهو الجنة [التي][٢] الجهار فيها هو البر الرحيم معدن النعمة والراحة والأمن، [ثم حسد إخوته كحسد][٣] إبليس لآدم ﷺ ثم بنيه من بعده، [لذلك قال بعضهم][٤]:

أنـــا فـــي الغـــربة أبكـــي مـــا بكـــت عـــين غـــريب

لـــم أكـــن يـــوم خروجـــي مـــن بـــلادي بمـــصيب

عجـــبًا لـــي ولتركـــي وطـــنًا فـــيه حبيبـــي

فغيب ﷺ إلى الاستعباد، وعرض به الفتن وضروب المحن والسجن، إلى غير ذلك مما ابتلي به، وذلك في التمثيل كتغريب أبينا آدم ﷺ وتغريب جميعنا من أجله، [ثم أرج عند لقاء الله الكريم من الترحيب والإكرام أكثر وأفضل من ذلك الإكرام وأرحب من ذلك الترحيب][٥] وفتفقد [جميع ما أصابهم وعاقبة ذلك، وتعرف][٦] عاقبة التغريب الأول [وأحسن العبرة][٧] فبذلك أمرت، وانظر في الرؤيا، ومثل حال الحالم بساكن الدنيا المغرب إليها فإنه فيها كالنائم، وما يلاقيه من محنها وسرائها وضرائها وشأنه كله فيها كالرؤيا والأحلام، وإن الرؤيا في معرض الصدق والذكر في هذه الأحلام فيها كالأباطيل، والمنسوب من مرأى [النائم][٨] إلى الشيطان والأضغاث كموجودات دار الدنيا ومتاعها.

قال رسول الله ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[٩].

---

(١) في النسخة (ق): «قرار».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ثم من حسد إخوته إياه إلى حسد».

(٤) في النسخة (ق): «حتى غربهم عن الجنة وقد قال في معنى ذلك بعضهم».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «الحاكم».

(٩) تقدم تخريجه.

فاعبر إذًا من رؤياه إلى موضع تمام أجل غربته، وحلول وقت اللقاء بأهله [وأبيه][(١)]، [وتوهم بسجوده وسجودهم حين اللقاء شكرًا لله ﷻ][(٢)]، ومثله بسجود المؤمنين لله يوم لقائهم له [حين تجليه العلي][(٣)] في صورته التي عرفهم بها في هذه الدار، [وعظتهم لما][(٤)] آل إليهم شأنهم وأنهم نقلوا حين تابوا لله ولرسوله من البدو [أو من][(٥)] كنعان إلى مصر يتبوؤن منها حيث يشاءوا، [فعبر منها ذلك إلى نقله التائبين من عباد الله من الدنيا إلى الجنة يتبوؤن منها حيث شاءوا][(٦)]؛ لذلك عرض بقوله الصدق: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

يعرض برفعه درجات أوليائه في الدار الآخرة هم درجات عند الله، لذلك أيضًا كان بنو يعقوب - عليهم السلام - درجات فيما هنالك، ثم انظر في تفاوت العباد المؤمنين في لقاء ربهم، أما [المذنبون][(٧)] فقصاراهم العفو عن ذنوبهم والمغفرة لخطاياهم، وأما [الأولياء وأهل المحبة الطاهرة من الذنوب][(٨)] فلهم الإجلال والإكرام.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ يعني: عانقه وضمه إليه التزامًا وشمًا وتشفِّيًا من اشتياق الغربة، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩].

[كما قال عز من قائل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠]][(٩)].

---

(١) في النسخة (ق): «وبنيه».
(٢) في النسخة (ق): «ويوهم سجود شكره الله ﷻ وسجودهم ائتمامًا به».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وغبطتهم بما».
(٥) في النسخة (ق): «وأرض».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «المؤمنون».
(٨) في النسخة (ق): «الطهرة والأولياء».
(٩) زيادة في النسخة (ق).

تفطن - وفقك الله وبلغ بنا وبك رفيع الدرجات - فكذلك يقول الله سبحانه وله الحمد في الدنيا والآخرة يوم اللقاء [الكريم][(١)]: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨] أي: مما ترونه من فظيع الأحوال وطول المقام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [مثال ذلك قول يوسف لأخيه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩] ثم يقول الله جل من قائل][(٢)]: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠] كما قال يوسف ﷺ: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ و﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:٩٩] ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] وجعل خطابه لهما.

[وقال جلَّ قوله في الآخرين: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٣٨ - ٣٩] ثم قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠] المعنى حيث وقع، وكذلك فعل عند لقاء أبيه، وجميعهم آوى إليه أبويه][(٣)] كيف [تظن وجد أبيه ومحنته، وشديد تشفيه لعظيم وده، وطول حزنه من بعده، وأصحاب][(٤)] الذنوب فلم يبلغوا المنزلة العليا أقصى أمانيهم العفو عنهم والاستغفار لهم.

قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله جل من قائل: اشتد شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا**»[(٥)].

وقال: «**إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره عبدي لقائي كرهت لقاءه**»[(٦)].

[وقال رسول الله ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل ضلت له ناقته بأرض قفر**

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «ترى وجد أبويه ومحبة أبيه وعظيم تشفيه لأجل عظيم وده وطول حزنه من بعده الذي عبر عنه رسول الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة عبده من رجل...» وأما أصحاب».

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٧٠٦٥)، والنسائي (١٨٣٥)، ومالك (٥٦٩).

عليها زاده ومزاده طلبها فلم يجدها، فلما يئس منها قال: أرجع فأنام تحت شجرة حتى أموت، فبينما هو نائم إذا بناقته قائمة على رأسه فقام يأخذ بخطامها وأخذ يقول: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»[١].

فالله ﷻ ينزل في هذا الخطاب على لسان رسوله إلى التمثيل برجل ضلت ناقته، والناقة في التأويل [...][٢] مثلاً ضربه، ولا يضل الله شيئًا، وتأويل الأرض القفر هو دار الدنيا بما أحاط [....][٣] من شياطين الإنس والجن، وفتن وهوى وأسقام، وسراء وضراء، ونفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله، وشهوة غالبة، وتأويل يأسه منه ما عبر رسول الله ﷺ: «**الهوى والشهوة يغلبان العقل**»[٤] والعلم والبيان وتأويل نومه هو ما عبر عنه بقوله: ﴿**إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٢].

وكل أجل عنده له كتاب، وكل أجل بكتاب [هو] ينتظر بأوليائه وهم في غيابات هذه الأرض المهلكة حتى يأتوه وهو الآتي بهم ﷻ، فإذا تاب التائب فهو إتيانه إلى ربه، وربه يفرح به وهو لا يشعر، ألا ترى إلى إشارة رسول الله ﷺ في آخر المثل إلى ما نحن بسبيل تبيانه من التأويل بقوله: «أنت عبدي وأنا **ربك**» فتفطن بخطاب ربك، وإشارات رسوله تفز ببغيتك إن شاء الله.

ألا ترى أن مكرهم على يوسف شبه بمكر العدو اللعين بآدم حين أخرجه عن قرار الفوز، وأنس القرب إلى الدنيا دار الغربة والوحشة والإذاية والفتن خروج يوسف إلى أرض الكفرة الأباعد، وتعريضه للفتن وسجنه فيما هنالك؟ وقال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن**»[٥] كذا آدم لما واقع الخطيئة هنالك سجن ها هنا.

كذلك فانظر إلى مكرهم في مجيئهم آباهم عشاء يبكون قد عالوا القميص دمًا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).

(٣) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٥٠٨٧) عن الحارث المحاسبي.

(٥) تقدم تخريجه.

كذبًا [وقال] النبي الصدق ﷺ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: على ما ألاقيه من البعد، ومعلوم ما سبقه إليه ربه ﷻ من علمه من تأويل الرؤيا، ثم قال: ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ألا ترى إلى بيعهم إياه بالثمن البخس بدراهم معدودة إشارة إلى قلتها، ولم يشعروا لما باعوه وفقدوه من نبي الله وصديقه ورسوله، وإلى جهل الذي اشتراه من مصر بما صار إليه، وما أشبه هذا في العبرة ببيع أحدنا نفسه بدنيا قليل نفعها وشيك زوالها زهيد متاعها، تذهب وتبقى تباعتها، لا تسر بقدر ما تضر، ما أشبه جهل البائع منا بالبائع منهم والمشتري بالمشتري منهم، ثم مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء كما فعل بآدم ﷺ ويكثر من ذريته.

ثم قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ ولا يكون التمكين في الأرض رحمة إلا المتقين، ثم قال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦] أي: الذي لم نمكن لهم فيها، فصبروا وأحسنوا.

ثم قال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من التمكين في الأرض لذلك، وهو أعلم قال: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٧] خاطب من الآخرة، فكأن تقواهم كالماضي.

وقال جلَّ قوله في ذكر التمكين الأول، وكذلك إشارة إلى ما كان في تأويل ذكر الرؤيا من التمكين إشارة إلى ذلك بقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف:٦].

وقال الله ﷻ: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] فقد كان في بني إسرائيل من آل إبراهيم من سخرت له الجبال والطير تسبحن معه بالعشي والإشراق، وكان فيهم من سخرت له الريح والجن والإنس والطير فأوتي الملك المعجز، وقد كان في آل إبراهيم من حباب الأرضين وسلكها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبناء السبل دون يأجوج ومأجوج وبنايات رومية وهو معجز.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١] وقد تقدم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1] بالفتح للتاء، و«هيت لك» بالرفع بمعنى: هيئت الفتن لك، فهذا أمثال

(١) «هيت» اسم فعل بمعنى أسرع، ولك للتبيين أي: لك أقول، أمرته بأن يسرع إليها، وزعم الكسائي والفراء أنها لغة حورانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلموا بها ومعناها: تعال، وقاله عكرمة، وقال أبو زيد: هي عبرانية «هيتلخ» أي: تعاله فأعربه القرآن، وقال ابن عباس والحسن: بالسريانية، وقال السدي: بالقبطية هلمّ لك، وقال مجاهد وغيره: عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حث وإقبال، ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظ، فقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهم، وقال الجوهري: هوت وهيت به صاح به فدعاه، ولا يبعد أن يكون مشتقًا من اسم الفعل، كما اشتقوا من الجمل نحو سبح وحمدك، ولما كان اسم فعل لم يبرز فيه الضمير، بل يدل على رتبة الضمير بما يتصل باللام من الخطاب نحو: هيت لك، وهيت لك، وهيت لكما، وهيت لكم، وهيت لكن، وقرأ نافع، وابن ذكوان، والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر: هيت بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وفتح التاء، والحلواني عن هشام كذلك إلا أنه همز وعلى، وأبو وائل، وأبو رجاء، ويحيى، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وطلحة، والمقري، وابن عباس، وأبو عامر في رواية عنهما، وأبو عمرو في رواية وهشام في رواية كذلك، إلا أنهم ضموا التاء، وزيد بن عليّ وابن أبي إسحاق كذلك، إلا أنهما سهلا الهمزة، وذكر النحاس: أنه قرىء بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة، وكسر التاء، وقرأ ابن كثير وأهل مكة: بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء، وباقي السبعة أبو عمرو، والكوفيون، وابن مسعود، والحسن، والبصريون، كذلك، إلا أنهم فتحوا التاء وابن عباس وأبو الأسود، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وعيسى البصرة كذلك، وعن ابن عباس: هييت مثل حييت، فهذه تسع قراءات هي فيها اسم فعل، إلا قراءة ابن عباس الأخيرة فإنها فعل مبني للمفعول مسهل الهمزة من هيأت الشيء، وإلا من ضم التاء وكسر الهاء سواء همز أم لم يهمز، فإنه يحتمل أن يكون اسم فعل كحالها عند فتح التاء أو كسرها، ويحتمل أن يكون فعلاً واقعًا ضمير المتكلم من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته على مثال: جاء يجيء، أو بمعنى تهيأت، يقال: هيت وتهيأت بمعنى واحد، فإذا كان فعلاً تعلقت اللام به، وفي هذه الكلمة لغات أُخر، وانتصب معاذ الله على المصدر أي: عياذًا بالله من فعل السوء، والضمير في إنه الأصح أنه يعود على الله تعالى أي: إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب، وأقامني في أحسن مقام، وإما أن يكون ضمير الشأن وغني بربه سيده العزيز فلا يصلح لي أن أخونه، وقد أكرم مثواي وائتمنني قاله: مجاهد، والسدي، وابن إسحاق، ويبعد جدًا، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه، ولا بمعنى السيد؛ لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكًا له، إنه لا يفلح الظالمون أي المجازون الإحسان بالسوء، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون، وقرأ أبو الطفيل والجحدري مثويّ، كما قرأ يا بشريّ، وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء، استعاذ أولاً بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبه على أنّ إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن =

المرصدة لا يراكم في غربة دار الدنيا جمعت لهذا في امرأة ملكه هي رأس الفتن، وقد وصفهن الله تعالى بأن كيدهن عظيم، فوصف الشيطان بأن كيده ضعيف، فقال: ﴿مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وهذه إشارة خفية إلى أن المراد هو: الرب الكبير الأكبر؛ لذلك قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]] [١].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ موضع العبرة في هذا [والفقه عن الله][٢]: إن الصديقين لا يدفع عنهم الشيطان وسوسة وفتنة وحديثًا، ويعصم الله الرحيم من سبقت له منه الكلمة بالعصمة.

يقول الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما [عند المخاطب][٣] محمد ﷺ ثم للتالين للقرآن حق تلاوته، والكاف للتشبيه بذلك المعلوم المعهود وجوده؛ أي: كفعلنا بالمخلصين [....][٤] من العصمة بالمقدور الغائب ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] من لطف الله وستره على أوليائه.

وقد يقم بها على ما ذكره من قوله الحق: «فقدت قميصه جبذًا له» وهو قادمًا حينها من دبر، فحصل له ذلك علامة على براءته من السوء، ولو شاء لجعله من قُبُل، وعلمه جل ذكره بالبراءة والفرار عنها علمه، لكنه أتم عليه بذلك النعمة، ثم يوقنون من يرجى التبليغ منه إليهم عن الله ﷻ على البراءة بالبرهان كما فعل بطلعته الكريمة في حق النسوة حين برأنه ونزهنه عن فاحشة ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لله مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] كذلك من عود نفسه المجاهدة وجوارحه الكف عن المناهي، فإن الله يقيض له العصمة من حيث يدري ولا يدري][٥].

ثم ألهم الفتيين ليقصا رؤياهما عليه، وبشره على ألسنتهما في قولهما: ﴿إِنَّا

يجازى بالإساءة، ثم نفى الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية فلا يناسب أن أكون ظالمًا أضع الشيء غير موضعه، وأتعدى ما حده الله تعالى لي. [البحر المحيط ١/٧].

(١) ما بين [ ] به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «يعلمه».

(٤) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).

(٥) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

﴿نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] وقول الذي نجا منهما: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف:٤٦].

[قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا عاجل ببشرى المؤمن**»[١].

وما انقضى على ألسنة اللاهين أو غيرهم في دار الدنيا فهو كالرؤيا في جانب تأويل حقيقة الآخرة، ولعل يوسف فقه عن ربه ﷻ وذلك هو المعهود منه في زلته حين قال للذي نجا من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢] فلذلك لما جاءه الرسول من عند الملك يأمره بالخروج من السجن أرجأ الأمر حتى يستبرئ لله ولنفسه، وقد رآه كيف أطل عليه يستبرئه، وجعل العلامة المحكوم بها على ما يبرئه بها.

ثم ذكر التبوء الكبير مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وقد تقدم ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:٥٨] لم يعرفهم نفسه، ولا أرسل إلى أبيه يعلمه بشأنه؛ لشبه هذه الغربة المكتوبة عليه بغربة أولياء الله عن ربهم وعن دار قرارهم، فالمطلوب في هذه الغربة: الإيمان والعمل عليه بظهر الغيب][٢].

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ...﴾ [آل عمران:١٧٩] نظم بهذا المعنى قوله عز من قائل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ...﴾ [آل عمران:١٨٦].

ثم قوله ﵇: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٥٩] [نبههم فأنامتهم الغفلة][٣] قد كان لهم في طلبه أخاه من أبيهم [بحيث لو شعروا][٤] وفي جعله بضاعتهم في رحالهم يقول ﵇ [للتنبيه][٥]: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:٦٢] [وربما كان ذلك

---

(١) رواه أحمد ٦/٤٤٥ - ٤٤٦ و٤٤٧ و٤٥٢.

(٢) ما بين [ ] به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «إشارة ومبحث لو تسمعوا لذلك».

(٥) في النسخة (ق): «لفتيته».

لعلهم يرجعون عن جهلهم إلى العلم كما قال الله جل من قائل في الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

الظاهر من شأن يعقوب: إنه يشعر لبعض المعنى، لكنه لما كان الدليل عليه من غير الوحي الذي هو المعهود في شأن الأنبياء لم يقف به ولا عدل عليه، لكنه أعطى من المعنى من ظاهر فعله قسطه.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»(١) وقد ائتمنهم على يوسف فلم يكن ليأمنهم مرة أخرى على أخيه حتى أخذ مواثيقهم؛ أي: أيمانهم، وليئتمن المرسل فيه، فإعطاء حظ التفطن للمعنى وأخذ المواثيق من هؤلاء وتوكل على الله فوض إليه علم بواطنهم](٢).

وأما قول يعقوب: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧] حذرًا من العين؛ لما كان فيهم المحبوب تحركت الشفقة على جميعهم [وهي رقة المحبة](٣) كما قال القائل:

ونبئت ليلى بالعراق مريضة ... وماذا الذي تعني وأنت صديق

شفى الله مرضى بالعراق فإنني ... على كل شاكٍ بالعراق شفيق

ما أخبر الله جل ذكره بهذا كله إلا تنبيهًا للفطن من [ركد](٤) الوسن، قد جاء أن الله جل ذكره إذا غفر لمذنب ذنبًا ما غفر لكل مؤمن عمل بذلك الذنب ذنوبه، وجاء أيضًا أنه يغفر يوم القيامة لكل من اسمه محمد.

ثم قال ﷺ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ الله مِن شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧] ما خلق الله [من مخلوق](٥) إلا وبالحق خلقه، وقد أعطاه من الحق [المخلوق به قسطه وأظهر منه](٦)؛ لأنه مفعوله بقدرته

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧٨)، وأحمد (٦١٠٧)، وابن ماجة (٤١١٧).

(٢) ما بين [ ] به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «خلقًا».

(٦) في النسخة (ق): «الذي خلق به السماوات والأرض قسطه، وأظهر منه عليه حظه».

وبمقتضى اسم أو أسماء من أسمائه، ومعاني صفاته أوجده، فمن رجا ذلك الموجود [في هذا][(١)] المفعول أو حذره من نفس المفعول [ناسيًا للفاعل الحق][(٢)] فقد عدل بالله عنده، ومن رجا ذلك الموجود [أوجده بالله وحده مشددًا له][(٣)] بالحكم والقدرة والمشيئة، فقد اهتدى بالحق وهُدي به، [وهذا المعنى منبعث عن اسمه المبارك عز جلاله][(٤)] وفي مثل هذا المعنى جاء قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] [أي: عدلوا به غيره، فافهم.

قال الله ﷻ][(٥)]: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف:٦٨] [الحاجة هي: أن يضيف إلى كل مخلوق حقه من الحق المخلوق به، لا يسلبه قسطه الذي جعله الله فيه، وبذلك تسلك السنة التي لله جل وعز في مخلوقاته وأسمائه، فيها قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨ - ٣٩].

يقول الله ﷻ في نبيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨]][(٦)] وكما يجب على المؤمن العاقل عن الله الجمع بين الإيمان والقدر والأخذ بالحذر مع علمه أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله [أن يصيبه][(٧)]، فكذلك يجب عليه الجمع بين أن الله هو المتوحد بالحكم لا شريك له، وبين العلم بما جعل الله ﷻ في الأشياء من نفع وضر، وإن ذلك لا يكون منها إلا بمشيئة منه فيها وبها، فافهم، فقد قرب لك المأتى، وعلمت ما لم تعلمه إلا بالله الولي المولى.

---

(١) في النسخة (ق): «وهذا».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أو حذره بالله وحده ذاكرًا له مفردًا له».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «الممدوحون اهتدوا بالحق الذي به الله خلق السماوات والأرض وما بينهما، عالمين بما له في الخلقة من حق ذاكرين لذلك وبه يعدلون؛ أي: الحق ضلوا عنه نسيانًا له ونظرًا إليه وخوفًا منه، أو رجاء له فعدلوا به غيره، عبر عن هذا المعنى قوله الحق».

(٦) ما بين [ ] يوجد به سقط واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٧) سقط من النسخة (ق).

وأما جعله السقاية في رحل أخيه، ثم [أمر بمؤذن يؤذن فيهم][1]: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] فالمعهود من الابتلاء بالأنبياء، فإنه ﷻ يبتلي الأنبياء - عليهم السلام - ثم الأمثل فالأمثل ويبتلي بهم.

يقول الله جل من قائل للنبي ﷺ: «وإني بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يمحوه الماء...» ولله جل ذكره في ابتلاء الأنبياء حكمة ظاهرة هي من أصول الحكم.

ألا ترى قول الله جل ذكره أول ما أوجد آدم أمر الملائكة بالسجود له ابتلاءً منه لجميعهم، فهدى الله من شاء وأضل القوي الرحيم، وهي أيضًا عقوبة عاقبهم الله بها بما فعلوه بيوسف وأخيه وأبيهم حال فعلهم، لذلك قال يوسف في نفسه عند قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف:٧٧] أي: من جهلكم كان يعالجهم ويرومهم ويكلمهم من موضع الابتلاء بالغربة عن الحق المبين وهم في غفلة الناس إلا ما شاء الله ﷻ][2].

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا...﴾ [يوسف:٧٨] [إنما كان له الأخذ][3] بهذه المعاريض؛ لأن الله بوَّأه موضع حكم المآب، فكان به يحكم وعن حكم الحق، [وبلسانه ينطق كان يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥] ولم يجد عند نفسه متاعًا عند بنيامين على الوجه المذموم فيأخذه من أجل ذلك بحكم الشرع، وإنما حكمه هذا فيه بحكم التقريب المنذر به، وإنه سيكون فرطًا لمن به، وأنه سيكون اتبعه على الوجه الذي قدره الله تعالى من الابتلاء له وبه، وإن أخاه ابن يامين يكون واردًا بعد الفارط، وعند ذلك يكون الإرسال في الجملة، فكان هو يحكم بحكم الله بوحي من الله ﷻ إليه في ذلك، دل على ذلك سياق الله جل ذكره بذلك في معرض المدح بحكمه وفعله، وجعله هذا من حكمه، وقوله وما قبله وما

(١) في النسخة (ق): «أذن مؤذن».

(٢) ما بين [ ] به سقط وزيادة واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٣) في النسخة (ق): «جاز له أخذه».

بعد من الإنباء كله عبرة لأولي الألباب، ولا تستغربن هذا؛ إنه الحق من ربك والله أعلم بحكمه وعلمه](١).

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ يقول: تخلصوا من الناس وانفردوا يتناجون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف:٨٠] قيل: إنه القائل [منهم في أول مرة](٢): ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ...﴾ [يوسف:١٠] ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف، وتذمم من لقاء أبيه بذنب بعد ذنب، وهذا ذنب لم يكن [إليه ولا إليهم فإنهم قد غلبوا عليه](٣)، وقد استثناه لهم حين الميثاق أبوهم [عند أخذ الميثاق منهم](٤) بقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦] [أي: تغلبون عليه](٥) لكن كان ذلك منه استحياء وتذممًا.

[كذلك ينبغي أن يكون المؤمن الجاني على نفسه ولو جاءه الوعد بالأمن والمغفرة أن يكون متذممًا مستحييًا حتى يأذن لي أبي في الوصول إليه على ما أنا عليه، أو يحكم الله لي؛ أي: يفتح لي بما أرضي به أبي، أو بما يقوم به عنده عذري.

ولما وصلوا إلى أبيهم فأخبروه بما كان ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣] واشتد على يعقوب الوجد لقرب طمعه، وإخفائه ظنه إياه بالقرب من [...](٦) من عند الله، فقال عند ذلك: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن تكليمهم، وربما كان بمعنى: ولاهم ظهره مدبرًا عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٣ - ٨٤].

قد مضى الكلام في أن يعقوب عليه السلام لم يكن حزنه على يوسف لأنه ولد له فقط، بل الذي يجب أن يظن به أنه حزن عليه لأجل النبوة والرسالة، والحظ الذي لله جل ذكره فيه، وهكذا يكون المؤمن لا يزال حزينًا كئيبًا حتى يلقى ربه ﷻ، ومن

(١) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.
(٢) في النسخة (ق): «في أول الأمر».
(٣) في النسخة (ق): «منه ولا منهم بأن غلبوا على كونه».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير واضحة في (ف).

أجل ذلك عاب الله الفرح بالدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾ [يونس:٥٨].

ثم قال ﷺ: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ...﴾ هذا مما يؤيد أن يعقوب كان عنده علم من وحي أو من تأويل الرؤيا أو منهما بقوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] كذلك من أتاه من عند الله جل ذكره علم أو خبر، وأيس من كون الوعد ووقوع المخبر فهو كافر، والقنوط من كبير ذنوب الموجدين، واليأس من وصف الكافرين.

قال إبراهيم ﷺ للملائكة وقد ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٥ - ٥٦].

وقال ﷻ: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ...﴾ [الممتحنة:١٣].

ولما ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩] هذا يقرر أصحاب الذنوب على ذنوبهم، يقررهم الله في الدنيا؛ لعظته في قلوبهم لأجل إيمانهم، فإن نزعوا وتابوا قبل منهم وإن تمادوا على إصرارهم كما فعل أولئك عبر عن ذلك منهم قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ...﴾ [يوسف:٧٧] والله أكرم الكرماء وأعلم الحكماء وأرحم الرحماء، ورأفة يوسف وعطفه ورحمته وعفوه وصفاته المحمودة من فيض معاني صفات الله جل ذكره.

قال لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾(١) ثم قال: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢] أي: هو أرحم الراحمين؛ أي: هو أرحم مني، فهو أسرع

---

(١) قال الألوسي (٢٩٩/١٨): أي لا يرده الله تعالى بعدما حكم به. ومن لم يرض بذلك قال: هو خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك من الله تعالى، والجملة استئناف في جواب سؤال مقدر تقديره ممن ذلك؟ أو حال من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر لا أو متعلق بالنفي أو بما دل عليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢] وقيل: هو متعلق بيأتي، وتعقب بأنه خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليل الفائدة، وجوز كونه صفة ليوم، وتعقب بأنه ركيك معنى، والظاهر أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم ورود الموت.

إلى العفو عنكم والمغفرة لكم، فليرج المؤمن هذا العفو من ربه وأكرم من هذا، وليرغب إلى الله فيه، فهو كريم العفو، حسن الإجابة والتجاوز.

وأما قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣] هذا كإعلام الله ﷻ عبده بأنه قد اشتاق إلى لقائه، فيحب الله عند ذلك لقاءه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يموت نبي من الأنبياء حتى يُخيَّر»[١] وقد يفعل ذلك ببعض عباده وليسوا بأنبياء ولا مرسلين، جعلنا الله الرحيم منهم برحمته.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤] يقول والله أعلم: لولا أن تفندون كالقليل المقارب يجد روح الفرج وريح المحضرين له كما قال جل من قائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥].

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] وروح في أخرى قوله ﷺ: لولا أن [الأمر] دل على الامتناع عن الإخبار عن كيف وبم، كذلك المحتضر ممنوع من ذلك بما [يحصل...][٢] أو لأمرٍ يؤمر فلا يخبر لمكان الإيمان بالغيب إلا ما شاء الله من ذلك، وأخذهم [من كان] بحضرته من [حفدته][٣]، فإن بنيه كان بعضهم بمصر وبعضهم قد فصل عيرهم عن مصر.

﴿تَالله إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥] هؤلاء في الاعتبار بمنزلة المكذبين وكرامات الأولياء الموحدين أولى الغفلة والمكذبين أيضًا بالآخرة ومقدماتها وأشراطها وأعلامها، وذلك؛ أعني: مقدمات ظهور الأمر قبل حلوله في الاعتبار كوجود ضياء الصباح عن الشمس، ولما تطلع الشمس بعد وجود ضياء المصباح، ولما يبدو المصباح، وكذلك ظهور نور القمر والنيرات قبل طلوعها،

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧١)، وأحمد (٢٥٧٤٢)، وابن حبان (٦٥٩٢) والقول منسوب لعائشة رضي الله عنها.

(٢) كشط في الأصل وطمس في (ف).

(٣) هكذا في الأصل وهو غريب.

وكذلك للملائكة وأعلام الآخرة ظهور للمقارب على الأغلب](١).

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ﴾ يعقوب ﴿بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦] كذلك المبشر عن الله جل ذكره بالرحمة والرضوان كالأعمى ارتد بصيرًا، والسقيم عاد صحيحًا، [وهو](٢) أعلى حالاً وأكرم وجدًا وسرورًا، حينئذٍ يقول لنفسه: «ألم أقل لك في هذا» ثم يقول ما معناه: الحمد لله رب العالمين ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

كذلك ﴿قَالَ﴾ ﷺ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦] ما ذكر الله ﷻ [في قصصه الحق](٣) هذا إلا وقد جعله آيات على موجودات يقابلها، فعليك - وفقنا الله وإياك - بتدآب التذكر وإعمال [الاعتبار](٤)، فإنه ﷻ ما قصَّ علينا جل ذكره قصصه وأنزل كتبه بالحق المجرد التأنيس [والنقلي](٥)، بل هو الحق وقوله الحق، وللحق أنزله وبالحق نزله مبشرًا به ونذيرًا [وداعيًا](٦)، فاعمل - وفقنا الله وإياك - على ذلك.

ولما خرُّوا لسجوده سُجدًا [لله جل ذكره شكرًا](٧) على أنعم به على جميعهم بتآلف القلوب بعد العداوة وجمع الشمل بعد التفرقة والشتِّ، وبالمغفرة والتوبة بعد السعي في اكتساب الذنوب والعمل بها [وإيثارها، واللحاق](٨) بدرجة إتمام النعمة

---

(١) في النسخة (ق): «وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن لأجل كراهيته في لقاء الله تذممًا من ذنوبه، وحرصًا على إصلاح ما به من ذلك، وإلا فلا عذر له في كراهته لقاء الله ﷻ، يقول: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ يعني: في الوصول إليه على ما أتى عليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠] بفتح أرضي به أبي أو بما يقوم به عنده عذري».

(٢) في النسخة (ق): «بل هو».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «العبرة».

(٥) في النسخة (ق): «والتسلي».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «عليه السلام».

(٨) في النسخة (ق): «وإيثار ذلك على الطاعة لله ﷻ وإرضاء الأب ﷺ ثم باللحاق».

والإدخال في الولاية الكبرى، فإنهم [الأحياء الألباب، العيبة عنهم بعيدة][١] ورأى يوسف عليه السلام ذلك وشاهده [فذكر][٢] رؤياه وما أوحى إليه ربه عز جلاله في الجب يوم جعلهم إياه فيه؛ [لتثبيتهم][٣] بأمرهم هذا [وهم لا يشعرون][٤]، فكان ذلك يوم جاءوا متحسسين عنه وعن أخيه؛ [إذ][٥] ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩].

[فأشبه هذا حال أهل الجنة إذ اجتمعوا هنالك فتذكروا ثم قالوا ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣] وما ذكره رسول الله ﷺ في قوله: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمهم الله ليس بينه وبينه ترجمان وإلا وهو محاضره، فيذكره ببعض هناته، فيستحي من ربه فيقول: يا رب، أو لم تغفر لي؟ فيقول له: نعم قد رضيت عنك**»[٦]][٧] وكان [منه هذا التقدير][٨] والتوبيخ، وبقي [عليه][٩] أن ينبئهم بذلك [على][١٠] حال الشكر والتعريف بنعم الله ﷻ والدعاء إليه والتبليغ عنه فقال عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [ومعنى الحق هنا: وجودها بالفعل ذكرًا بأي يصدق تعبيره إياها معرضًا بالثناء على ربه عز ذكره، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في النسخة (ق): «الأحباء الألباء».
(٢) في النسخة (ق): «بذكر».
(٣) في النسخة (ق): «لتنبئنهم».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «يوم».
(٦) أخرجه البخاري (٧٠٠٥) ومسلم (١٠١٦) والترمذي (٢٤١٥) وابن ماجة (١٨٥) وأحمد (١٨٢٧٢) والطبراني (٢٢٥) والبيهقي (٧٥٣٣) وفي «شعب الإيمان» (٢٥٩) وابن منده (٧٨٧) والرافعي (١٠٤/٤) إلى قوله: «ترجمان» ولم أقف على باقي الرواية.
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «ذلك منه لهم على وجه التقرير».
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وظهر من خطابه هذا وسياق الله تعالى أباه عنه في معرض التصويب والمدح له أن الحضر أحسن للاستيطان من البدو؛ إذ القبول بذلك تعلم العلم وحال الذكر، فإذا تعذر في الحضر طلب العلم وخيف علو الفتن على الذكر، فالفرار عنها إلى التفرد والخلوة فرض لازم.

يقول ﷺ: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ثم تذكر أمورًا أخرى بها المقادير دون ذلك وعظائم اعترضت على حال الوصول تبعد في بادئ الرأي منال المرغوب معهن، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]][١].

ولما [أنهى][٢] القصص الحق أرجع جل وعز الخطاب إلى المواجهة بقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ اجتمع هنا من الغيب أنه لم يكن حاضرها، وقد استاقها جل ذكره وعرض بأنها آيات على غيابات موجودات الآخرة وتدبيره الأمر وتفصيله الآيات ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢] [إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]][٣].

[وقد تقدم ذكرها وأنها دلالة على النبوة][٤]، وأن الأمر كله يرجع إليه، يبلغ بمن [شاء][٥] ولايته الكبرى، ويقصر من يشاء عن ذلك إلى ما هو دونه، ويجعلهم في ذلك درجات، [وكذلك يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسمع من يشاء ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٢ - ٢٣]][٦].

ثم قال عز من قائل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.
(٢) في النسخة (ق): «انتهى».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «وهذا من فضل النبوة وقد تقدم ذكر هذا».
(٥) في النسخة (ق): «يشاء».
(٦) سقط من النسخة (ق).

﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ [يوسف:١٠٨] ظهر بهذا الخطاب الوجوب على من جعله الله بصيرة من [الله وبينة منه][1] الدعاء إلى الله ﷻ والتبيين عنه، سبح الله جل وعز نفسه هنا تنزيهًا له عن أن [يكون][2] يقدر أحد على جلب نفع أو دفع ضر [سواه][3]، [فيقصر عن الاستجابة للداعي، أو يسرد إلى سوء إلا به لا إله إلا هو، ويكون أيضًا معنى قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ تذكيرًا له بالعمل له بطاعته كما قال جلَّ قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥].

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧] ونحو نحوه يؤيد ما تقدم ذكره بعد هذا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

أو يكون قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ ردًا إلى ما في قوله من معنى، وهو قوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] إلى قوله: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] قرئت: «والأرض» بخفض الضاد والرفع، فالرفع على الابتداء والخبر تقديره: «والأرض يمرون عليها» فيكون الضمير الذي في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ راجعًا إلى الأرض[4].

معنى تسبيح الله جل ذكره نفسه في هذا كله موجود مستمر الوجود حتى

---

(١) في النسخة (ق): «أمره وبينة من ربه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «سوى الله».

(٤) الجمهور على جرِّ الأرض عطفًا على السموات، والضمير في «عَلَيْهَا» للآية، فيكون «يمُرُّون» صفة للآية، وحالاً لتخصُّصها بالوصف بالجر. وقيل: يعود الضمير في «عَلَيْهَا» للأرض فيكون « يمُرُّون عليها » حالاً منها. وقال أبو البقاء: وقيل: منها ومن السَّموات، أي: يكون الحال من الشيئين جميعاً، وهذا لا يجوز؛ إذا كان يجب أن يقال: عليهما، وأيضًا: فإنهم لا يمرُّون في السَّماوات إلا أن يراد: يمرّون على آياتها فيعود المعنى على عود الضمير للآية، وقد يجاب عن الأول بأنه من باب الحذف؛ كقوله تعالى: ﴿والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] وقرأ السديُّ: «والأرْضَ» بالنَّصب، ووجهه أنه من باب الاشتغال، ويفسَّر الفعل بما يوافقه معنى، أي: يطوفون الأرض، أو يسلكون الأرض. «يمُرُّون علَيْهَا» كقولك: زَيْداً مررتُ بِهِ، وقرأ عكرمة، وعمرو بن فايد: «والأرْضُ» على الابتداء، وخبره الجملة بعده، والضمير في هاتين القراءتين يعود على الأرض فقط. [تفسير اللباب لابن عادل (٣٦٦/٩)].

سبّحت السماوات السبع والأرض ومن فيهن بحمده؛ لتسبيحه هو نفسه وحمده نفسه في هذا كله موجود ﷻ؛ أي: إن كل شيء يرونه بأبصارهم أو يسمعونه بآذانهم أو يعلمونه بقلوبهم أو يمرون عليه بذواتهم يسبح الله جل وعز بحمده، وهم عن ذلك كله معرضون لا يقعون على آية ولا يفقهون إشارة ولا يعلمون حقيقة.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً...﴾ [يوسف:١٠٩] قد تقدم هذا فيما مضى، وإنه إعلام بأن سنته جل وعز أنه يرسل إلى البشر من البشر، فمن اهتدى فلنفسه هداه، ومن أبى وعَتَا فسيروا في الأرض؛ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين][١].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩] لم يتقدم فيما مضى [ذكر هذا إلا في قوله عند ذكر ما مكنه][٢] في الأرض، ثم نبه على [تفضيل][٣] الآخرة [وما][٤] بعد ذلك [وما قبله][٥] فقصص، إلا أن يكون قد وجه هذا الظاهر إلى ما بطن في معنى الخطاب، والقصص كله من ذكر الاغتراب والغيبة، وما في ذلك من بلوى ومحنة [وذكر][٦] وفتنة، ثم ذكر اللقاء وما [نص][٧] فيه من الإيواء والإكرام للمحسنين الطاهرين من الذنوب، ومن السلام مع الإعراض عن [الجناية، والإكرام عن المؤمنين][٨] المغفور لهم.

يقول جلَّ قوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ بكل وجه وبكل معنى، وعلى الخصوص ها هنا فالإخبار عن اللقاء بعد الغيبة والغربة تقدير المعنى: وللقاء [الآخرة][٩] خير ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [كذلك بين لقاء ولقاء كما بين الخالق والمخلوق

---

(١) ما بين [ ] به زيادة واختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٢) في النسخة (ق): «من السورة مثل هذا إلا في قوله عز ذكره أمكنه».

(٣) في النسخة (ق): «تفصيل».

(٤) في النسخة (ق): «ثم».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وتذكير».

(٧) في النسخة (ق): «قص».

(٨) في النسخة (ق): «الإكرام والحفاية عن المذنبين».

(٩) في النسخة (ق): «الله».

فافهم؛ لذلك قال جلَّ قوله وهو أعلم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩] وقال جلَّ قوله في غير هذا الموضع وذكر موجودات الدنيا، فقال][1]: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا...﴾ [القصص:٦٠].

ومن زينة الدنيا: التقديم على الأقران، والجاه [على][2] الملوك، والمضاء في الأمر، [فما عند الله من ذلك خير وأبقى، وما عند الله من موجودات الآخرة خير وأبقى، أفلا يعقلون؟.

أما قوله جلَّ قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إثر هذا الإعلام][3] فتقريع للعقول، كيف لم يقف على هذا بالعلم؟ لِمَ لم [تتبينه][4] باليقين؟ ألم تعلم أن هذا الأمر بدأ [صغيرًا][5] ثم هو ذا ينشأ [من صغر إلى كبر][6]؟ هذا معلوم عند ذوي الألباب معهود في قضايا العقول، ومن هنا قال قائلهم يصف بعضهم:

قد استقام على المنهاج يسلكه ... ولم يزغ حائدًا عنه ولا عدلا
فجسمه يعمر الدنيا بظاهره ... وقلبه في أعالي الملك قد نزلا
وأبصر الأمر يجري في مسالكه من ... أول [الشيء][7] حتى تم واكتملا
[وقاطعته][8] البرايا وهي صامتة ... وميز الضد والأزواج والعللا
أتاه ذو العرش والإفضال حكمته ... حين الأشد إلى أن وافق الأجلا
فخصه بحياة لا انقطاع لها ... والموت في طبقات الناس قد شملا
فأظهر السيرة العليا بصورتها ... ومن قبل كانت ألبست ظللا

---

(١) في النسخة (ق): «كما هو تمكين الله للأولياء في الدار الآخرة خير من تمكين الملوك في دار الدنيا كما بين الخالق والمخلوق وبين الدار الآخرة ودار الدنيا».

(٢) في النسخة (ق): «عند».

(٣) في النسخة (ق): «وعلو المكانة قوله عز من قائل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هو».

(٤) في النسخة (ق): «تشتبه».

(٥) في النسخة (ق): «في وصف الصغر».

(٦) في النسخة (ق): «كما ينشأ الصغير إلى أن يكون كبير».

(٧) في النسخة (ق): «النشء».

(٨) في النسخة (ق): «وناطقته».

فصل [من الاعتبار][1]

قد تقدم - وفقنا الله وإياك - الاعتبار بالبذرة [كبذرة الخردلة][2] أو بذرة التين [مثلاً][3] أو ما دق من البذور أو عظم من شجرها، وإن كل ما تفرق في الشجر أو تجمع من معانيها وصفاتها في [الثمرة][4] مجموع في البذرة على دقتها، فإذا انزرعت فنبتت أخذت سفلاً وعلوًّا وتفرعت إلى ذلك، وذهبت مذاهبها وإنما جميع ما تفرق فيها من مكنون ما يجمع في تلك البذرة، فالبذرة هي الدنيا على هذه العبرة، والشجرة وما تفرعت إليه علوًّا وسفلاً وحملته من زهر وورق وأفنان وثمر إلى غير ذلك من أوصافها ومعانيها كلها هي الآخرة، [والشجرة إنما تجدها تنشأ من صغر إلى كبر، والشجر في الوجود أولاً ثم كان البذر عن الشجرة][5].

ونوع آخر من الاعتبار: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمين بيمينه...**»[6].

ولما قررهم فأقروا، وأشهدهم على أنفسهم [فشهدوا][7] بميثاق العبودية للربوبية وميثاق النبوة [فشهدوا][8] بثهم في خزائن السماوات والأرض، [ثم أوجد كلاً على نوبته وحينه الذي سبق به علمه][9]، فلو أن العقل الذي شهد به لله ولرسوله يومئذٍ لأحدهم اليوم الذي خلقه ربه [فضمنه][10] نطفة في ظهر أبيه فقيل لها بما حملته من الصفات التي يبلغها خالقها إلى كمالها [النطفة][11]: «إنك لو قد برزت

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «كالخردلة».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «الشجرة هو».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «وفي علم الله جل ذكره ما هو كائن ثم».
(٩) في النسخة (ق): «صيغة منه إياهم فيما هو كائن غيبًا وشهادة».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).
(١١) سقط من النسخة (ق).

من هذا الوعاء لوقعت في وعاء أرحب من وعائك، هذا وسيتوجه إليك التكوين على [طرق][١] كذا وكذا» لبَعُد على العقل ذلك، ولم يكد أن يسمح بقبول ذلك إلا أن يصحبه إيمان جزم [وعصمة][٢] وهداية من الله.

ثم لو قيل للنطفة ساعة نزولها [في الرحم][٣]: «إنك ساعتك هذه نطفة سيالة بيضاء مختلطة الأجزاء، بتداخل أقطارك بعضها في بعض، وستكونين علقة حمراء، ويلزم كل جزء منك مكانه، وتصيرين خلقة على أتم مما أنت عليه الآن» ثم لو قيل لها وهي علقة: «ستكونين خلقة أخرى مضغة ملززة الأجزاء، وتصورين [على صورة كذا ظاهرًا، أو على][٤] صورة كذا باطنًا، ويخلق لك يدان وصفتهما كذا، وكفان وذراعان وقدمان وساقان وفخذان ووركان وأضلاع وفقارات ومخ وعظام، ويشق لك عينان [وسمعتان][٥] ورأس ودماغ ومفاصل [ولحم وعصب وعضل ورباطات][٦] بأشكال، ذلك كله ومنافعه ومرافقه» [وتصور على صورة كذا][٧] البعد على العقل تصور ذلك جدًّا وتعذر منه قبوله، إلا أن يؤيد بإيمان [جزم][٨] فيصدق وإن لم يعلم علم ذلك ولا خبر خبره.

ثم لو قيل [للمضغة][٩]: «إنه سوف يركب [قبل][١٠] الروح وتكونين حية بنفس وروح وعقل» ويوصف لها صفات الحي من قدرة وقوة وعلم وإرادة وحلم وعفة شهوة، وهوى إلى جميع الصفات المحمودة وأضدادها المذمومة لتاه العقل في تلك المعالم وتحير، ولم يهتد إلا إيمانًا وتسليمًا.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «صورة ظاهرة وعلى».
(٥) في النسخة (ق): «وأذنان».
(٦) في النسخة (ق): «وجلد يضم ذلك كله جلد مشكل».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «وإسلام وسكينة».
(٩) في النسخة (ق): «للنطفة».
(١٠) في النسخة (ق): «فيكِ».

كذلك لو قيل للجنين المنفوخ فيه الروح: «إنك يا هذا لو خرجت من محلك هذا ووقعت من وعائك الذي أنت فيه لصرت إلى أرض [فيحاء][١] ممهدة، وإلى سماء فوقك [مبنية][٢] مزينة بالنجوم، [محروسة بالرجوم من خلق هم الجن تؤمن بهم ولا يتصورهم ويسمعون إلى الملائكة في السماء هم على خلقة تؤمن بها ولا يتصورهم إلا تسليمًا ودون السماء سماوات أفلاك تستدير بأمر الله جل ذكره تخبر عن غيب وتشير إلى شأن معجب][٣].

وإلى شمس وقمر وكواكب تطلع وتغرب [بحكمة معجبة تنبئ عن أمر عظيم][٤]، وإلى رياح وسحاب وأمطار ينزلها الله ﷻ من السماء إلى الأرض، فيخرج عن ذلك [جنات وأنهار، وفيها بحار ونبات][٥] كل شيء، وأنهار وأشجار وكل شيء حي وليل ونهار وأنت تفتح عيناك وأذناك، ونفسك تتنفس بنفس حية، وتعقل بعقل وتعلم بعلم، وتأكل وتشرب [وتلذ فيكون لك من جنسك جوارٍ حسان أتراب عرب وتصح وتسقم][٦]، ثم [يستقل][٧] في خلقتك خلقًا من بعد خلق إلى حال استوائك، فتتعلم ما لم يخطر لك ببال، وربما كنت ممن يجند الجنود ويمصر الأمصار [ويقلب الأحد][٨]، إلى غير ذلك من وجود الإنسان [في هذه الدار][٩].

وما أعطى فيما ها هنا لنكص [غفلة][١٠] على عقبيه، ولقال لقائل ذلك: قد

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فيها جنات وتشقق عنها عيونًا، ويجري عن ذلك أنهارًا، وفيما هنالك بحار وقفار وبيوت وقصور ومساكن ومدائن وقرى، وفيها نبات».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «تنقل».

(٨) في النسخة (ق): «ويغلب الأعداء».

(٩) زيادة في النسخة (ق).

(١٠) في النسخة (ق): «العقل منه».

كنت قبل هذا تخبرني [فأتردد فيما تخبرني به][١]، ثم أغلب [التمكن][٢] على ما هو عندي مستحيل، فأما الآن فأقصر عني، فإن [للذي مني][٣] في أبعد البعد، [ولنا لديك][٤] في أشد الإنكار، فمن سبيل المخبر له أن يقول له: كيف وجدت [خبري لك][٥] من إخباري [تقلبك في درجات تقلبك أصدقتك فيما أنشأتك][٦] به أم كذبتك؟ فلا بد من [نعم][٧]، فيقول له: ألم تر أن الأولى كانت أقرب إلى تصورك إياها وقبولك لها من الثانية، ثم الثانية أقرب من الثالثة، والثالثة أقرب [إلى الثانية منها إلى الرابعة، وإن الرابعة أقرب إلى الثالثة منها إلى الخامسة][٨]؟ قال له: بلى، [قال له: بلى][٩].

قال له: [فمال][١٠] ميزك تميز وعقلك قد عقل، [واشتدت أركانك جرت][١١] عن النهوض قدمًا في معرفة حقيقتك [وما][١٢] يؤول إليه شأنك، اعتمد في هذه على صدقي الذي جربته وما يؤول إليه، ونصحي الذي قد خبرته، فإن الذي أوجدك نطفة لا من شيء [مذكور][١٣] نقلك في طبقات خلقتك نقلة بعد نقلة [هو القادر][١٤] على ما مضى لك وما بين يديك، فقدِّم الإيمان وغلِّب العقل [واستغن

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الممكن».
(٣) في النسخة (ق): «الذي تخبرني به».
(٤) في النسخة (ق): «وأنا الآن له».
(٥) في النسخة (ق): «ذلك».
(٦) في النسخة (ق): «إياك عن درجات نقلتك أصدقتك فيما أنبأتك».
(٧) في النسخة (ق): «قوله صدقتني».
(٨) في النسخة (ق): «من الرابعة، والرابعة أقرب من الخامسة على سنن التدريج والنشء».
(٩) سقط من النسخة (ق).
(١٠) في النسخة (ق): «فما بال».
(١١) في النسخة (ق): «فانهدت أركانك وخرت».
(١٢) في النسخة (ق): «وتصور ما».
(١٣) في النسخة (ق): «تعلمه ثم».
(١٤) في النسخة (ق): «فاقتدر».

على الكذب][١] منك بصدقي إياك في جميع ما أنبأتك [فإنه][٢] كائن، وإن الخالق عليه قادر، فصدق هذا المولود ما أنبأه به وأعلمه.

ثم لما بلغ هذا المولود الأشد [الأول][٣] جاءه ذلك المنبئ له فقال: إنك يا هذا لو إنك خرجت من هذه الدار التي كنت وصفتها لك ببعض صفاتها [لوصلت][٤] إلى دار أخرى أوسع من هذه جدًّا، وأرحب نسبة ما بين هذه التي أنت فيها وبين التي هي بين يديك كنسبة ما بين الوعاء الذي كنت فيه نطفة، فأخبرتك بأنك تنقل فيما هنالك إلى طبقات خلقتك، ثم تخرج منه إلى ها هنا وكل ما تراه ها هنا أو تسمعه أو تعقله من موجودات فهي هناك أفضل جدًّا نسبة ما [بينها لنسبة][٥] ما بين الدارين، بل أكبر وأحسن جدًا وأبقى وأنقى، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ليس هذا هو البيان المبين والنور المنير والنبأ العظيم والقول الصدوق [الحليم][٦]، وإن منكره يستحق أن يوصف [بالعدم وبالحيرة][٧] وعدم الميز، أو باللجاج والجحد للحقيقة.

وقد قال المنشئ الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران:١٣٣] فأين تقع نسبة [الأرض من السماوات؟].

وقال ﷻ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٤٦]][٨] قال جلَّ قوله في موضع آخر: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [الحديد:٢١].

---

(١) في النسخة (ق): «واستعن على المكذب».
(٢) في النسخة (ق): «بأنه».
(٣) في النسخة (ق): «واجتمعت له صفاته وتوفر عقله».
(٤) في النسخة (ق): «فصدقتك لو وقعت».
(٥) في النسخة (ق): «بين ذلك كنسبة».
(٦) في النسخة (ق): «الحكيم».
(٧) في النسخة (ق): «بالحيرة».
(٨) في النسخة (ق): «الوعاء الذي كان فيه أو الموضع الذي يشغله من الأرض من ساحة عرضها السماوات والألأرض».

وقال رسول الله ﷺ: «**الجنة مائة درجة، كل درجة منها كما بين السماء والأرض أعدت للمجاهدين في سبيل الله**»[1].

وما وصف [الله جل ذكره ورسوله][2] منهن سوى أربع جنات.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢].

[ثم قال ﷻ: ﴿**مِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢]][3].

وقال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما**»[4] وجاء [النبأ][5] عن جنة من لؤلؤة، وجاء [النبأ] أيضًا عن جنة من نور وباقي الجنات هي مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ لذلك قال [الله ﷻ][6] حين خير الآخرة على الدنيا: «أفلا يعقلون» وما ظنك بدار الله وليها وجارها ونورها وضيائها [لا إله إلا هو رب العالمين، وخدامها الملائكة، ونورها نور الحق المبين، نشأ الحق المخلوق به السماوات والأرض إلى ذلك، بلغ الله بنا وبك][7].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «رسول الله ﷺ».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «البناء».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

تفسير سورة الرعد

مكية، وقال قتادة: مدنية، فيها من المنسوخ آيتان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ١ - ٣].

قوله ﷻ: ﴿المر﴾ قال أكثر المفسرين: أنا الله أرى، أنا الله أعلم وأرى، والله أعلم أن الهمزة لما أفهمت على جميع وجوهها حيث وقعت، والألف لما أفهمت، واللام والميم والراء كذلك على انفراد ذلك وتركيبه، وعلى نحو ما تقدم من النظر في صدر الكتاب، وهي حروف متوسطة بين القرآن وبين حروف هن آيات على الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ ﴿آيَاتُ الكِتَابِ﴾ [الرعد:١] غير الكتاب، كما الكتابة غير المكتوب، والقراءة غير المقروء.

آيات الكتاب: حروفه الدالة على مكتوبه، فممكن أن يكون هذه الحروف المعجمة، وما يكون من الحروف واسطة بين هذه وتلك، وتكون مع هذا معبرة عن أسماء الله سبحانه، وقد ذكر ذلك عن ابن عباس، وعن هذه الحقيقة وجدنا أسماء الله ﷻ معبرة عن جميع الموجودات، هذا في دار الدنيا، وفي الدار الآخرة ذلك أوضح وأظهر جدًّا؛ إذ من لا نهاية له ولا بداية، ولا يشذ عن وجوده العلي شيء دقَّ أو جلَّ، قدم أو حدث، والمعبر عن وجوده أسماؤه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

وجاء في الحديث: إن رسول الله ﷺ سأل اليهود ممتحنًا لهم: «**ما أول طعام الجنة؟**» فقالوا: لام ونون، وفسرها رسول الله ﷺ فقال: «**ثور وحوت يأكل من زيادة كبدها سبعون ألفًا**»[١] ولهذا الحديث - والله أعلم - قال مجاهد لما سئل عن هذه الحروف المعجمة في أوائل السورة: والمعنى يقول الله جلَّ ذكره: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ**﴾ [الشعراء:٢] هي: التوراة.

قال: والكتاب المبين هو: التوراة والإنجيل، وقد تقدم الكلام في ذلك ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿**وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِكَ الحَقُّ**﴾ [.....][٢] يعني: الوحي، والقرآن هو الذي أنزل إليه ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الرعد:١] به.

والكتاب الحكيم والمبين الذي لا ريب فيه هو: الكتاب المحفوظ الذي جميع الموجودات ممتحنة به، وهذا من التفصيل لبعض موجود اللوح المحفوظ، المعبر عنه بقوله: ﴿**الحَقِّ المُبِينِ**﴾ وإنما أشكل على الأكثرين أن الوحي والقرآن وسائر الكتب قد زم كل ذلك الكتاب المحفوظ زائدًا إلى ما زمه من سائر الوجود أجمع، فمتى عبَّر بالوحي أو علم بمعلوم لم يخرج عن موجود اللوح المحفوظ، فلزم عرف العهد والقرب به، فجهل لأجل ذلك من غير ارتياب ولا شك، وكيف يجوز وجود ارتياب في مشاهد حاضر لمن يشعر المعنى، ولا يتفطن بالحقيقة.

قوله تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾[٣] [الرعد:٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:٤] هذا كله إعلام منه جلَّ ذكره ببعض ما ثبت في اللوح المحفوظ من موجودات، وهو معنى قوله جلَّ قوله:

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥٢٣).

(٢) إشارة في الأصل إلى كلام غير واضح، وليس في (ف).

(٣) أي: بغير عمد مرئية، بل بعمد غير مرئية، وجعل الشيخ الأكبر - قدس سره - عمادها الإنسان الكامل، وقيل: النفس المجردة التي تحركها بواسطة النفس المنطبعة، وهي قوة جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك لا يختص بها جزء دون جزء؛ لبساطته، وهي بمنزلة الخيال فينا وفيه ما فيه. وقيل: رفع سماوات الأرواح بلا مادة تعمدها، بل مجردة قائمة بنفسها. تفسير الألوسي (٩/٢٤٤).

﴿المر﴾ فجعل كل ذكر يسرد مكتوب الكتاب المعبر عنه - وهو أعلم بما ينزل - بالحروف المفردة المعبرة عن أسمائه.

يقول جلَّ قوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢] فذكر - جلَّ ذكره - الاسم الأعظم الذي جميع الأسماء مفسرة له، وإنه الرافع للسماوات، وكما رفعهن فكذلك وضعهن، ولذلك خلقهن وما بينهن، ورفعهن على غير عمد مرئية، فهي إذًا قدرته، فهو الله الخالق الرافع الواضع عمد الجملة بقدرته، فهو القيوم وهو الحي لا شك ولا ريب، وهو القادر استوى على العرش يدبر الأمر فهو المستوي، وهو المدبر المفصل، وهو المريد يفصل الآيات، وسخر الشمس والقمر والنجوم وما في السماوات وما في الأرض فهو المسخر ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:٣] الجاعل كل يجري لأجل مسمى، والليل كل يجري لأجل مسمى، ذلك آية على انقراض يوم الدنيا ووجود يوم الآخرة هو عاقبه وخالقه.

عبرة:

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢] وليس عند ربنا ليل ولا نهار، إنما هو الدهر ضياء ونوره مبصر كله أبدًا.

وقال وقوله الحق: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ اثنان على ما ذكر فيما هنالك يوم الدنيا ليل ويوم الآخرة نهار فيه يتجلى الحق المبين، وإنما يكون موجود ما هو النهار آية عليه في الجنة في جوار الله ﷻ وموجود ما هو الليل آية عليه في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - لهم ظُلل من النار، ومن تحتهم ظلل في الظلمات السفلى - نعوذ بالله منها - آية تجلي الحق المبين في الجنة تجلي الشمس في الدنيا.

قوله ﷻ: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] لما كانت الجملة التي زمها أم الكتاب محتوية على جميع المعلومات والمذكورات كان تفصيلها بالفعل والذكر على سنن الحكمة والتذكير لنا بذلك من أعظم المنن علينا؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] كل

موقت مؤجل، فهو آية على إتيان الساعة واليوم الآخر وبخاصة الليل والنهار، فإن في انقضاء النهار إتيان الليل، وبانقضاء الليل إتيان النهار.

وكل موجودات الخليقة فلها كتاب، وكل كتاب فمؤجل بأجل مسمى، فإذًا كل ما في الدنيا مؤذن بانقراضها وبإتيان الآخرة، وبخاصة في العبرة النهار، فاجعل معلومات ما فيه العلم بلقاء الله جل ذكره لما فيه من موجود الشمس؛ لذلك قال جلَّ قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢] وقد تقدم الكلام في قوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...﴾ [يونس:٥] الآيتين.

فصل

سبيل العبرة بجريان الشمس والقمر والنجوم، واختلاف الليل والنهار انقضاء الآجال وتمام الأوقات، وتعاقب الليالي والأيام والشهور والأعوام، وقد تقدمت إشارة إلى المطلوب الأعلى.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد:٣] مد الأرض على الماء: تحملها قدرته، ثم أرسى الجبال فوقها ألا تميد بما عليها نصبها على المقدار المراد بها، وجعل قننها وزن مدار الشمس والقمر والنجوم بسير مقدر، وارتفاع وانحطاط يكون عنه الليل والنهار ظاهرًا وباطنًا، وتدبير الأمر المراد منها به كذلك ما فوق ذلك إلى العرش العظيم كل على مقدار ما شاءه منه ربه.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد:٣] رجع إلى الإخبار عن هذه الأرض وإنباته فيها من كل الثمرات، وقوله: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ معنى ذلك والله أعلم: إن كل ما ينوب مناب غيره فهو لذلك الغير زوج، كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والساعات والأيام، وكل ما يخلف بعضه بعضًا ليس الأضداد، فإنها ليست بأرواح لأضدادها، سمى تبارك وتعالى هذا وما يقع عليه معناه زوجًا، كقوله جلَّ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧] وقوله جلَّ قوله: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧] وقوله جل ذكره: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ:٨].

وقال ها هنا: «من كل زوجين» المعنى - والله أعلم - الظاهر: [حمله مِن كلِّ صنفين][1] وهو المثال الخالف له، وأكثر ظهور هذا في الدار الآخرة لا يجتني في تلك الدار من ثمرة إلا خلفها مثلها مكانًا، ولا يؤكل من حيوان على مراد الولي منه إلا خلفه مثاله، ثم يفرغ الولي من شأنه ومراده منه، فيعود كما كان على حالته الأولى.

قال الله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢] ثم قال وقوله الحق: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤] رجع الخطاب على أوله من قوله جلَّ قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد:٢] المفعول الأول مما ها هنا هو الليل، وهو المغشي، وغشاؤه هو النهار، دل على ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢] قد تقدم الكلام في سورة يونس عليه السلام أنه المطلوب الأعلى زائدًا إلى ما هي آيات على قدرته وعلمه وإرادته ومضاء مشيئته، وعلى حياته وأسمائه الحسنى.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد: ٤ - ٦].

قوله عز وجل: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ...﴾ معتمد هذه الآيات: الإعلام بالمشيئة مع تحصيل الاستدلال بها على القدرة والصفات والأسماء، كما أن

---

(١) طمس في (غ)، (ف). انظر: تفسير النيسابوري (٤/٣٠٢).

المعتمد بالاستدلال بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] حيث وقع الاعتبار البعيد، وإنما هو أن تنظر العين أو تسمع الأذن أو يعلم القلب، ويعقله؛ أي: يزمه على علم يغير من ذلك إلى معبره وموضع شبهه، ومن الاعتبار قريب وبعيد، والموصوف المضاف إلى العقل هو الأبعد، ويعم اسم الاعتبار.

فمثال ذلك فيما ها هنا: ما تقدم ذكره أن الله جل ذكره الواحد الأحد ينزل من السماء ماءً واحدًا ظاهرًا مظهرًا يوجد عنه كل شيء حي ونبات وحيوان وغير ذلك، فهو على هذا واحد توحد عنه كل شيء حي ونبات وحيوان، على أن ذلك الماء منزَّل من ذلك الحيوان أو ما هو دار الحيوان فيه حكم وآية الكثرة، وفي تلك الكثرة الطاهر والطيب والخبيث والرجس، ثم ﴿وَلله المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

وفيه: إنه أنزل الماء من السماء فأخرج به من كل الجنات من نخيل وأعناب وزرع، وأجرى منه أنهارًا، وسلك منه ينابيع في الأرض، وفجر عنها عيونًا لحكم جنة يصيره إليها، وهذه آيات وتنبيه لفطن العباد أنه أنزل من حيث ظاهر لباطن هي جنات وأنهار وعيون وحيوان وولدان ونساء وخيل وأنعام، وكل ما ها هنا من محمود فهو فيما هنالك أكرم وجودًا وأفضل؛ إذ المشيئة بالشيء ليس من المعهود إن لقاءه المشيئة به، وكما يؤول الماء المنزل من السماء إلى ما هو جنات بما فيها كذلك يؤول ما نزل منه وهو السماء إلى ما هي الجنات في الكون الآخر، وهي من الدار الآخرة، هذا إلى ما في ذلك من الاختبار القريب من الأحلام بالإعادة بعد البداية، والرجوع إلى الله بعد الموت، إلى غير ذلك.

أعقب ذلك تعجبًا من كفرانهم وجهلهم بالمعتبر الأقرب وتكذيبهم الآيات البينات لظهورها قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول الله ﷻ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠] أعقب ذلك بالرجوع لما بيَّن ﷻ الآيات، وأقام الشواهد مفصحات بالحق والعدل على الاعتبار القريب والبعيد، أعقب ذلك بالتعجب من جهلهم الموجود عن غفلتهم، ثم قال جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد:٥] أخبر الله الجليل جل ذكره بصدق إخباره عن الكفار أن الأغلال في أعناقهم الآن

كما قال جلَّ قوله في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ﴾ أي: الأيدي منهم إلى الأعناق ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس:٨] القمح: رفع الأعناق، وهو الآن وصف لهم بالكبر والعجرفة ضد ما يكون في الآخرة ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢].

﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:٥] في الدار الآخرة، معنى سياق الكلام: إن الله خلق كذا وفعل كذا، جعل ذلك آيات على معالم وعِبَر قريبة وبعيدة.

يقول ﷻ: ولجهلهم وإفراط غفلتهم لإقامتهم على إعراضهم عن ذكر ما أنبأتهم به والإيمان بآياتي.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ إلى العذاب وأنواع الضراء ﴿قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾[1] إلى الفتح والسراء، اعتبر تظفر وتطلب اليقين وحقيقة العقل والإيمان بما أنزل إليك ربك بأن خلق كذا، وجعل كذا، وفعل كذا، وجعل ذلك على معالم آيات قريبة، وإن تعجب فعجب قولهم كذا، ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ العَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣].

يقول جلَّ قوله: ولجهلهم وإفراط غفلتهم وما أورثهم الإعراض عن ذكري وآياتي ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ [الرعد:٦] أفلم يسيروا في الأرض فينظروا إلى نقماتنا في المكذبين أمثالهم لو اعتبروا بها نفعهم، لكن هذا عقوبة الإعراض ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ وعلم أن النبيَّ ﷺ كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا، والقوم كلَّما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والنشر كما تقدَّم في الآية الأولى، وكلما هددهم بعذاب الدنيا استعجلوه، وذلك أنَّ مشركي مكَّة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاء منهم يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] قوله: ﴿قَبْلَ الحَسَنةِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه متعلقٌ بالاستعجالِ ظرفًا لهُ. والثاني: أنه متعلق بمحذوفٍ على أنَّه حال مقدرة من السيئة. قاله أبو البقاء. تفسير اللباب لابن عادل (٣٨٩/٩).

ثم قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الرعد:٦] لمن أراد الله ﷻ بذلك المغفرة مغفرتان: صغرى وكبرى.

فالصغرى: معناها: الإمهال، وترك الأخذ بالذنوب إلى أجل لم يأن بعد مسمى.

والمغفرة الكبرى: تعم الدنيا والآخرة، وهذان الحكمان لسابقة سبقت من هؤلاء هؤلاء.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
(٧) ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ
بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ
وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد:٧ - ١١].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٧] قيل: «لولا» بمعنى: «هلا» بما اتصلت به، والمتصل به قوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لو كان ذلك كذلك لدخل المعنى اختلال، فإن أصل المعنى: إخبار عن آبائهم ونفورهم عن الحق، وقد تقدم الكلام في تبيان صريح المراد بها قبل هذا فأغنى عن إعادته، ولو كان معناها ها هنا معنى «هلا» لكان بمعنى الطلب، ولكان في ظاهر ما يأتي بعدها أو باطنه معنى جزاء وجود ما اجتلبت من أجله؛ لأنها تأتي أبدًا على معنى الطلب مقترنًا بمعنى العتاب؛ لأجل عدم وجود ما كان العتاب والطلب لأجله، كما يقال: لِمَ فعلت كذا؟ هلا فعلت كذا؟ هلا كان منك كذا فيكون لك مني كذا؟ هذا ونحوه.

وحقيقتها والله أعلم: أن تكون على بابها لوجود حرف «لو» لامتناع وجود الشيء لأجل وجود غيره، ثم حرف «لا» المتصل بها لنفي ما وجب كونه لأجل

امتناع ما امتنع من أجله.

تقدير الكلام: لو أنزل عليه آية من ربه لآمنا به، فلم ينزل عليه آية من ربه فلا نؤمن كانوا في ذلك كاذبين أو صادقين.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧] أي: ليس لك أن تهديهم ولا لهم أن يهدوا أنفسهم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي مرسل يريهم الهدى وينصرهم سبيل الرشاد، ثم يهدي الله إليه من يشاء ويضل من يشاء.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾[١] [الرعد:٨] إلى ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠] هذا كله منتظم بما في صدر السورة من تعريفه العباد بنفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من قوله جلَّ قوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد:٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

وفي ذلك كله أمر جل وعز بالنظر والاستدلال والاعتبار من مشاهدة إلى غيب، وأن المطلوب في ذلك المعبر إليه هو معرفة الله جل ذكره، واليقين بالدار الآخرة، وتعرف وجوداتها من موجودات في هذه الدار، والتعريف بموضع المنة والنقمة، والسارب: هو السائر نهارًا، والسائب: هو سير الليل مأخوذ من الإياب الذي هو الرجوع، أصله: الرجوع للمبات.

قوله جل وعز: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١] كما قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...**»[٢] وهذا إخبار منه ﷺ عن الكتبة الكرام.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠ - ١١].

---

(١) ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ استئناف جوابًا عن سؤال من يقول: لماذا لم يُجابوا إلى المقترح فتنقطع حجتهم ولعلهم يهتدون؟ بأن ذلك أمر مدبر ببالغ العلم ونافذ القدرة لا عن الجزاف واتباع آرائهم السخاف، وجوز أن يراد بالهادي هو الله تعالى، وروي ذلك عن ابن عباس والضحاك وابن جبير، فالتنوين فيه للتفخيم والتعظيم، وتوجيه الآية على ذلك: أنهم لما أنكروا الآيات عنادًا لكفرهم الناشىء عن التقليد ولم يتدبروا الآيات قبل، إنما أنت منذر لا هاد، مثبت للإيمان في صدورهم، صاد لهم عن جحودهم فإن ذلك إلى الله تعالى وحده وهو سبحانه القادر عليه. [الألوسي (٢٠٧/٩)].

(٢) تقدم تخريجه.

وقال الله جلَّ قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] كما تتعاقب فينا الملائكة الكتبة فكذلك تتعاقب فينا الملائكة الحفظة يحفظوننا من أمر الله الذي لم يشأ ﷻ أن يصيبنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٧٨].

﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] وأمر الله ﷻ عام شمل السراء والضراء والرحمة والعذاب، ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٢ - ١٥].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من العذاب الصواعق والخسف والقلب والريح العقيم وغير ذلك، وطمعًا في الغياث والحياة والرحمة ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢] أي: في الهواء بغير عمد، هذا تعريض منه جل ذكره بإمساك الجملة، لا شيء يكون من الجملة سوى القدرة العلي، بل بقدرته ومشيئته، وتنبيه منه أيضًا إلى الاعتبار بذلك، فكائن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، وهو خطاب منتظم بما ابتدأ به السورة.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[1] [الرعد:١٣] تقدير

---

(١) **مسألة في الرعد ما المراد به؟** إن العلماء اختلفوا في المراد بالرعد، وذلك كما يلي:
الأول: أنه صوت ملك يزجر السحاب، وقد روي هذا المعنى مرفوعًا إلى النبي ﷺ وبه قال =

=

علي وابن عباس وابن عمر ومجاهد وعكرمة والضحاك وشهر بن حوشب وعليه أكثر المفسرين. وفي رواية ابن عباس: أنه ملك ينعق بالغيث، وأخرى: أنه يسوق السحاب بالتسبيح، وفي رواية ابن عمر: أنه ملك موكل بسياقة السحاب .. إلى أن قال: وإذا تفرق عليه زجره بصوته، وفي رواية مجاهد: أنه ملك يسبح بحمده، وفي رواية الضحاك: وذلك الصوت تسبيحه، وفي رواية شهر بن حوشب: أنه ملك موكل بالسحاب .. إلى أن قال: كلما خالفت سحابة صاح بها. والثاني: أنه ريح تختنق بين السماء والأرض، وقد روي هذا عن أبي الجلد، فإنه قال: الرعد الريح، وقد روى عنه قتادة. وتعقبه أبو حيان بقوله: وهذا عندي لا يصح، فإن ذلك من نزعات الطبيعيين وغيرهم. انظر : (البحر المحيط ٩٦/٧) (زاد المسير ٤٣/١) (جامع البيان ١١٧/١). والثالث: أنه صوت اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض أو من انقلاع بعضها عن بعض، وبه قال الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود تبعا للفلاسفة والمتكلمين. انظر: (الكشاف ٨٩/١) (تفسير أبي السعود ٥٣/١). أما الإمام الفخر الرازي فإنه يقول: إن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية، وللسحاب روح معين من الارواح الفلكية يدبره، وكذا القول في الرياح وسائر الآثار العلوية، وهو عين ما قلنا سن أن الرعد اسم لملك من الملائكة يسبح الله تعالى، فهذا الذي قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء، فكيف يليق بالعاقل الانكار؟ (التفسير الكبير ٢٢/١٩) وتعقبه أبو حيان أيضًا بقوله: إن غرضه جريان ما يتخيله الفلاسفة على مناهج الشريعة ولن يكون ذلك أبدا، ولقد صدق رحمه الله تعالى في عدم صحة التطبيق بين ما جاءت به الشريعة وما نسجته عناكب أفكار الفلاسفة. اهـ (البحر المحيط ٩٦/٧). قال الإمام الألوسي: نعم إن ذلك ممكن في أقل قليل من ذاك وهذا، والمشهور عن الفلاسفة أن الريح تحتقن في داخل السحاب ويستولي البرد على ظاهره فيتجمد السطح الظاهر، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقا عنيفا فيتولد من ذلك حركة عنيفة وهي موجبة للسخونة، وليس البرق والرعد الا ما حصل من الحركة وتسخينها، وأما السحاب فهو أبخرة متصاعدة قد بلغت في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء لكن لما لم يقو البرد تكاثفت بذلك القدر من البرد واجتمعت وتقاطرت ويقال للمتقاطر مطر. وردّ الأول بأنه خلاف المعقول من وجوه : أحدها أنه لو كان الامر كما ذكر لوجب أن يكون كلما حصل البرق حصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزيق السحاب، ومعلوم أنه كثيرا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد. ثانيهما أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة بالطبيعة المائية الموجبة للبرد وعند حصول هذا المعارض القوي كيف تحدث النارية؟ بل يقال : النيران العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية؟ ثالثهما أن من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكّة الحاصلة في أجزاء السحاب، لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر؟ وردّ الثاني بأن الأمطار مختلفة فتارة تكون قطراتها كبيرة وتارة تكون صغيرة

=

الكلام والله أعلم بما جرى: وتسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة، فإن التسبيح والحمد قد يكونان عن تعجب من عظيم قدرة الله جل ذكره وخفي لطفه ومضاء مشيئته، وقد يكون ذلك شكرًا لجزيل نعمه وترادف مننه، وقد يكون ذلك عن خوف مزعج فيبعث ذلك على العمل بطاعته اعتصامًا به من عذابه، ووصف الرعد بالتسبيح والحمد وجزل جل ذكره من الوصف ذكر الخوف؛ إذ هو غير مكلف، لكن الشكر لازم له وصفًا وحالاً، ووصف جل ذكره الملائكة - عليهم السلام - بالخوف للمعهود بأنهم مكلفون، والخوف قد شمل المكلفين وغيرهم ظاهرًا وباطنًا أو باطنًا دون ظاهر، كما قال الله ﷻ: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ**﴾ [البقرة:٧٤] فيقوم ذلك منها مقام البكاء من خشيته.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾ [البقرة:٧٤] وما من شيء علوًّا وسفلاً إلا يسبح لله ﷻ ويحمده رهبة من شأنه، وخوفًا من سلطانه، وشكرًا لأنعمه، لكنها أحوال يغلب بعضها بعضًا في موجودات وأحيان كونًا إلا ما كان من الثقلين، فذلك فيهم شرعًا، فمنهم المسرع السابق، والمقتصد البطيء الغافل عن حظه، ومنهم الظالم لنفسه، فالله المستعان، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن من أهل المعرفة بالله جل ذكره لمن يسبحه ويحمده عجبًا زائد إلى ما

=

وتارة تكون متقاربة واخرى تكون متباعدة إلى غير ذلك من الاختلافات، وذلك مع أن طبيعة الأرض واحدة وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة يأبى أن يكون ذلك كما قرروا، وأيضًا التجربة دالة على أن للتضرع والدعاء في انعقاد السحاب ونزول الغيث أثرًا عظيمًا، وهو يأبى أن يكون ذلك للطبيعة والخاصية، فليس كل ذلك الا بإحداث محدث حكيم قادر يخلق ما يشاء كيف يشاء. (روح المعاني ١١٣/٧ - ١١٤).

قلت: إنه لا تناقض بين هذه الأقوال الثلاثة ويمكن الجمع بينها إذ إن الرعد إذا كان صوتا من أثر اصطكاك أجرام السحاب الذي يحدث بسبب انضغاط الهواء فيه فإنه من فعل ملك من الملائكة الذي يحرك السحاب ويسوق الرياح فينقلها من مكان إلى مكان فيحدث من خلال ذلك هذا الأثر، فإنه ما من حركة في العالم العلوي أو السفلي إلا وهي عن الملائكة الذين يفعلون ما يؤمرون.

تقدم من جليل اقتداره، وإحاطة علمه، ومضاء مشيئته، وحسن ابتداعه، وإتقان صنعه، وخشية من سطوته، وخوفًا من عذابه، فيجمع جميع ذلك ألحقنا الله الرحيم برحمته بهم، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم، إنه عليم قدير.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾(١) أي: فيجعل ذلك آية منه على عذاب أعدائه في الآخرة من سماع زفيرها وشهيقها، ورميها إياهم بشررها كالقصر، يؤيد هذه العبرة قوله جلَّ قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ يريد وهو أعلم ﴿وَهُمْ﴾ لا يعتبرون ولا يؤمنون، بل ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ أي: في آياته ويلحدون بها إلى المعهود المتعارف، فيكون ذلك سببًا لسلوهم ولزوم الغفلة إياهم ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣] بمكرهم، وهو خير الماكرين؛ أي: بتزيين ضلالهم والتردد في عمه طغيانهم؛ ليأخذهم على أوفر ما جنوه وأكمل ما أتوه.

ذلك قوله ﷻ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤] هي قول: «لا إله إلا الله» وهي أيضًا دعوته جل ذكره العباد إلى الإيمان به والعمل بطاعته ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:٢٥].

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧] وهي أيضًا دعوة الرسل -

---

(١) سئل الحسن عن قوله : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ...﴾ قال: كان رجلٌ من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ يقرّ بدعوته إلى الله ورسوله، فقال لهم: أخبروني عن رب محمدٍ هذا الذي تدعُوني إليه، مِمَّ هو: من ذهبٍ، أو فضةٍ، أو حديدٍ، أو نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته، فانصرفوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا رجُلاً أكفر قلبًا ولا أعتى على الله منه، فقال ﷺ: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فجعل لايزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أجيب محمدًا إلى ربٍ لا أراه ولا أعرفه! وانصرفوا، وقالوا: يا رسول الله، ما زادنا على مقالته الأولى، وأخبث. فقال ﷺ: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه، وهو يقول هذه المقالة إذا ارتفعت سحابة، فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوسٌ، فجاءوا يسعون؛ ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: احْترَقَ صَاحِبُكُم. فقالوا: من أين علمتم؟ فقالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾. تفسير اللباب لابن عادل (٤٠٧/٩).

عليهم السلام - والأولياء العباد إليه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ...﴾ [الحديد:٨] وهي أيضًا دعوة الله ﷻ العبد من نفس العبد إليه، وهذه الدعوة متصلة أمرًا وكونًا بالله؛ لأنها من الله بحق هو من الله ﷻ عبر عنها رسول الله ﷺ بأنها «**عظة الله في قلب كل مؤمن**»[١].

وعلى إيصال الذكر بالمذكور يقول الله جلَّ قوله: «**أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني وجدني**»[٢].

وقال ﷻ في الذكر الذي يكون من ذوات قلوبهم وقرارة نفوسهم: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري**» فشرط جل ذكره وجود الذكر في نفس القلب، وأنه الغالب عليه قال: «**إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»[٣].

وهذا مقتضى قوله الحق: «**إذا تقرب عبدي مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[٤].

هذا إلى مفهوم ما جاء من ذلك القرب في الولاية، وعلى الضد من ذلك جاء في الآخرين قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ هذا مثل ضربه الله ﷻ لانقطاع طريق الوصلة بين الكافر وبين ربه يجعل أيضًا له كفيه بالماء، كإيصال المؤمن دعاءه بإيمانه بربه وإسلامه له، فإذا لم يكن إيمان وإسلام وعمل صالح كان كالباسط كفيه إلى الماء يملؤهما ماء لم يصل كفيه إلى فيه، فليس الماء ببالغه ولا شافيه من عطش به ولا مبرد غلته؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٧١)، والحاكم (٢٤٥) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢١٦)، والترمذي (٢٨٥٩) وقال: غريب. والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣٣).

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ضَلالٍ﴾[(١)] [الرعد:١٤].

أعقب جل ذكره ذلك بقوله الحق: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] انتظام هذه الآية بالتي تقدمتها معنى أنه ليس شيء كائن ما كان مؤمن أو كافر حيوان أو نبات بخارج عن التعبد لله ﷻ، والقنوت لعظمته والخضوع، وذكر جل ذكره ضلالهم لما ذكر حرف من هي واقعة على من يعقل، فذكره جل ذكره الظلال دلالة على أن ما لا يعقل داخل في التعبد، وذكر جل ذكره الغدوات والعشوات بسجود؛ ليبين جل ذكره ما عمى النظر ويعلمه، كيف الطلب لذلك منها؟ وذلك أن التفيؤ بظلال هو بالآصال وامتدادها بالبكور؛ أعني: الظلال، ففيؤها بالآصال هو رجوعها إلى امتداد بواسطة التنقل وهي طائعة في ذلك لمفيئها ومتعبدها.

كما قال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان:٤٥] يريد: الظل بكرة، وهو قبل طلوع الشمس، ثم يجعل الشمس دليلاً على ذلك الظل لولا لم يتميز بأنه ظل أو غيره، ثم يقبضه جل ذكره إليه قبضًا يسيرًا؛ يعني: قليلاً حتى يقف الظلال على مقاديرها، ثم يفيؤها؛ أي يرجعها إلى الامتداد بواسطة التنقل، وكما جعل الشمس دليلاً على ظلال الأشخاص الظاهر، وكذلك جعل نور الوجود العلي دليلاً للعقول والإيمان على مثالات الموجودات وفي الباطن فعلاً وعباءة.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ

(١) أي: في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء: إن كان دعاء آلهتهم فظاهر أنه كذلك، لكنه فهم من السابق وحينئذٍ يكون مكررًا للتأكيد، وإن كان دعاءهم الله تعالى فقد استشكلوا ذلك بأن دعاء الكافرين قد يستجاب، وهو المصرح به في الفتاوى، واستجابة دعاء إبليس وهو رأس الكافر نص في ذلك، وأجيب بأن المراد دعاؤهم الله تعالى بما يتعلق بالآخرة، وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - من أن أصوات الكفار محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دعاؤهم، وقيل: يجوز أن يراد دعاؤهم مطلقًا ولا يقيد بما أجيبوا به. تفسير الألوسي (٢٣١/٩).

خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٦ - ١٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أمر رسوله ﷺ أن تبتلهم تقديرًا من رب السماوات والأرض، وفي ضمن الخطاب: فإن أجابوك وقالوا: «الله» وإلا تقل أنت: «الله» ولا بد لهم من ذلك، فهو قولهم، ثم أمره أن يجيبهم على تحقيق ما أقروا به بأن يقول لهم: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يقول: تعبدتم للعبيد وتوكلتم على العجزة يقرعهم بهذا، أو أي ولي يكون للمخلوق دون ربه ﴿لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًا﴾ وقع القول عليهم وأسكتتهم الحجة البالغة، ثم جعل يذم لهم منزلة من رضي بها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد:١٦].

يقول جلَّ قوله: هل يستوي العالم والجاهل، ويتوجه ذلك على الآلهة الباطلة، والإله الحق ﷻ فوصفها بالعمى وخزل وصفها بسائر النقائص التي هي لها أهل، وأحال على المعهود المتعارف منها، وما استاقه في غير هذا الموضع كقوله جلَّ قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥] وقوله جلَّ قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١] إلى غير ذلك من نقائصها.

ثم اتصف هو - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بأنه البصير الحق، وخزل ذكر سائر الأسماء والصفات المعهود من كماله العلي والمتعود من رفيع درجاته، ثم قال وقوله الحق: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الكفر والإيمان، والتأويل الأعلى مع العلم بما تقدم أن الظلمات هي من صفات آلهة باطلة، والنور هو من صفات الإله الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ثم قال وقوله الحق: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] وترادفت دلائل تناقصهم وعظم التوبيخ فأسكتتهم حجج الحقائق، وهذا إن دل على الثنوية والحشوية والمجوس

والقدرية من أهل الغفلة - أبعدهم الله - ولكل طائفة منهم آراء شبه أباطيلهم، وظنون تليق بجهالاتهم، سبحانه له الحمد وبحمده، وجوده العلي لا نهاية له، وكذلك صفاته لا نهاية لها، محال أن يكون صفاته متناهية وهو لا نهاية له.

وقالت الثنوية أبعدهم الله: إن فاعل العالم أصلان قديمان:

أحدهما: نور.

والآخر: ظلام.

قالوا: والنور هو الذي أوجد الخير، والظلام هو الذي أوجد الشر.

وقالوا: الشر نهاية الخير، والخير نهاية الشر.

والمخمسة لها آراء في الإلهيات التي أثبتوها زعموا وضلالات، والقدرية لم يتركها ألا تسلم إلا كفر أولئك يتركها عن المتمسك بسبيلهم إلى محض التوحيد، فهم مجوس هذه الأمة.

كذلك قال رسول الله ﷺ وقال الله جلَّ قوله لنبيه: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] حكم بحكم الظاهر لعلاء الحجة المفلح للخصم بواضح البرهان قرر الأصل المتفق عليه أولاً، ثم بنى جل ذكره الحجاج على ذلك بأن بين خلافهم للأصل الحق، وضرب لذلك جل ذكره مثلين بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، ثم ضرب جل ذكره مثلاً شاق المتعاطي صعب المسلك بعيد المتناول؛ لغموضه وبعد غوره، وتعذر العبرة به؛ لأنه مثل جمع أمثالاً متداخلة بعضها في بعض.

يقول الله جل وعز: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ * خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٣ - ٤٤].

قال ابن عباس: إن هذا القرآن لم يثبت بعد، فمن آثر عليه سواه فلا شفاه الله ولا رعاه، وعلم القرآن أشرف العلوم، هو الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢].

وقال ابن عباس في قول الله جل ذكره: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]: يعني الفهم والإصابة في القرآن.

وقيل في قوله جلَّ قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: أحرمهم فهم كتابي، وأعلم أن مثل علم القرآن مثل الأسد لا يمكن من علمه أحدًا.

وقال الحسن البصري: علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال، ومثل علم القرآن مثل العروس تريد البيت خاليًا، ومن أغمض علوم القرآن علم الأمثال منه، والأكثرون غافلون عنها ليشغلهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، وهي مواضع العبرة والمثل بلا ممثل به، كالفرس بلا لجام والناقة دون زمام، فاعلم ذلك.

قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا....﴾ [الرعد:١٧] لما كان المتكلم فيه فصل [الإلهية][1]، وإثباتها تناول ضرب المثل بها جميع الفصول السبعة التي تقسمت إليها فصول القرآن على الإجمال ومعنى العموم، وذلك أن ذكر اسم الربوبية في قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿قُلِ اللهُ﴾ [الرعد:١٦] فهذا اسم الإلهية.

ثم قال جلَّ قوله الله الواحد القهار، فهذا اسم الوحدانية، واسمه الخالق، واسمه القهار، ومخاطبته بقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ هو للنبي، فهذا فصل النبوة وفصل الوحدانية وفصل الإلهية، ثم في باقي الخطاب معنى التزام العهد والوعيد، فأول ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٧] واحد في ذاته، طيبًا طاهرًا مطهرًا.

وجاء سياق المثل على إثبات الوحدانية ووجود الموجودات جميعًا عن قدرته المحيطة وعلمه العلي ومشيئته السابقة، وإنه الحي القيوم الملك، والله على ما هو عليه اتخذوا من دونه أولياء ﴿لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦] وانتظم هذا المعنى بما عبر عنه من خطاب بقوله جلَّ قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ وقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ [الرعد:١٦].

يقول ﷻ: انظروا إلى الماء واحدًا ينزله الله من السماء يوجد عنه الكثرة من

---

(١) هكذا في (ف) و(غ).

حيوان وأنعام على اختلاف أنواع ذلك وتباين أجناسه، كذلك الله جل ذكره الواحد الأحد أوجد كل شيء، ثم ضرب جل ذكره مثلاً للعلة التي لأجلها وجد الباطل في مفعول الحق المبين بقوله جلَّ قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

يقول جلَّ قوله: أنزل هذا الماء الواحد الطاهر الطيب على الأرض جبالها وآكامها وشرابها وروائها فسالت مثاعبه على ما أتت عليه، فمثل الأرض مثل بني آدم المخلوق منها، ومثل الماء مثل الوحي من أمر السماء، ومثل مثاعب الماء السائلة على وجهها الوحي والقرآن، وما دار حوله مثال ألسنة الرواة له والناقلين إلى القلوب، ومثال الأودية مثال القلوب في القرون المتداولة اجتمعت المياه في الأودية كاجتماع القرآن والوحي في القلوب من الأمم المتداولة أدت إليها ألسنة الرواة كما أدت مثاعب الماء إلى الأودية.

ومثال فتنة المفتونين وعمى الجاهلين وزيغ الزائغين عنه مثل ما سلك عليه الماء في أهوية الأجواء، وألقحته الرياح في ممتزج الفيح والفتح من الأرض والسماء، فسالت الأودية بقدرها على قدر سعتها وكثرة طرق المياه إليها وسعتها في أنفسها كالقلوب، وعلى قدر جمعها ووعيها وفهمها لما وعته تكون سعتها.

ومثال الزبد المجتمع على المياه في الأودية الكائن عن امتزاج الماء بالأرض والهواء وعما في وجود ذلك من فيح نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم منها - مثال الموجود عن الأهواء والبدع وخطأ التأويل وآفات النقلة الرواة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد:١٧] الذهب والفضة ومتاع الحديد والنحاس وفلز المعادن كلها زبد مثله مثل الذهب والفضة في متاع الدنيا كمثل علم القرآن والوحي، ومثل فلز المعادن كلها مثل غيرها من العلوم ينتفع بها كما ينتفع بسائر العلوم، وكلها زبد لكونها عن الأرض كما العلوم الوحي وغيرها من العلوم خطأ وضلال عن القصد لمجاورتها الأهواء وآفات النفوس وما ملكت عليه.

وأما المعرفة من أين حدث الباطل في الأعمال، والشرك فيما يقابل التوحيد، وتكذيب الرسل فيما يقابل الإسلام، والتصديق بعد نزول ذلك من السماء، وفطرة الله المخلوقات على أحدية الدين القيم، وأخذ الميثاق والعهد على الإقرار

بالربوبية والنبوة، فذلك لمجاورة الحق القلوب على ما تقدم بأهوائها وآفات أنفسها الكائنين عن الأرض ونباتها الكائن عن نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مع الكثرة التي هي البعد عن وراثة الشبه الذي عبر عنه قوله ﷺ وبعدها عن الوحدة، كما قال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني: فيما كانوا فيما قرب من الوحدة مرت تحمل الإسلام والإيمان ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أي: كثرت الغاشية واتسع النسل وفشا، وذرت الذرية على وجه الأرض أكلوا من الأرض ومن نباتها ومما يكون عن فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وقوله جلَّ قوله: ﴿دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩] عبارة عن مراد الأبوين الإسلام والصلاح.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [...][1] ألقى عليهما وعلى الذرية من علم الفطرة، ثم هداية الرسل - على جميعهم السلام - ومعاهدة الوحي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ المراد بهذه التثنية: نسل الأبوين، ولما فرض القصة على الزوجين ذكر الجملة بلفظ التثنية؛ لأنهما عنهما كانت، فعبَّر جل ذكره بالأصل عن الفرع، والدليل في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠ - ١٩١].

وقد يكون المراد بقوله جلَّ قوله هنا في ضرب المثل بنفس واحدة: الماء، وخلق منها زوجها: الأرض، فهي تنبت نباتها على ما هو عليه، ولا يظهر العصيان [في النبات ولا][2] في الحيوان، وهو في الإنسان أظهر، بل هو الكفر والتكذيب والعناد، وهو موضع الكثرة عنهما، فكذلك الله الواحد الأحد أوجد عن حدته كل شيء كما أوجد عن الماء الواحد كل شيء حي ونبات، وإنما هي وسائط هي خلق الله جل ذكره، وما يكون عنها ليس له في الوجود الأعلى أصل ترجع إليه سوى تصريف القدرة، ومضاء المشيئة السابقة، وإحاطة العلم وإرادته، ذلك في

(١) كلمة غير واضحة في (غ) و(ف).

(٢) كلمة غير واضحة في (غ).

الموجودات على مراتبها في مسالكها المقدرة لها في تقديره الأول بعلمه السابق، وهذه أوجه مجموعة في تفسير هذا المثل يستعان بمعرفتها على طلب فوائد القرآن والوحي.

قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ [الرعد:١٧].

قال المفسرون: قوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ في العبادة؛ يعني: الأصنام ﴿لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي المؤمن والكافر ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الكفر والإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ حتى قالوا: «هذا من خلق الله وهذا من خلق الأصنام» وهل كان هذا قط، قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] خلقه للفناء وقهره بالموت.

قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا مثل ضربه الله للحق والباطل بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يقول: احتملته القلوب بأهوائها ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقول: الهوى باطلاً كثيرًا ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ يقول: ومن جواهر الأرض: الذهب والفضة والصُّفر والنحاس الذي يلبس ويتخذ منه الأواني له خبث مثل زبد الماء، كما لا ينتفع بالزبد والخبث كذلك لا ينتفع بالباطل، وكما ينتفع بالحلي والماء الصافي تحت الزبد كذلك ينتفع بالحق ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: يذهب كما جاء ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

مثل: قال مقاتل بن سلمان: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: غالبًا على الماء ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ الذهب والفضة والرصاص والحديد والصفر والشبة بها حيث مثل الزبد للماء لا ينتفع به، فمثل الأودية كمثل القلوب، ومثل السيل مثل الأهواء، ومثل الحلي الذي يبقى في الكير والماء الصافي الذي يبقى في الأرض مثل الحق، ومثل الخبث ينقيه الكير ومثل الباطل فكما لا ينفع الزبد والخبث أهلهما في الدنيا كذلك لا ينفع الباطل أهله في الآخرة، وكما ينفع الماء الصافي وما يبقى من الجواهر أهلها في الدنيا كذلك ينفع الحق أهله في الآخرة.

مثل: قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال في مثل واحد، فقوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الصغير على قدره والكبير على قدره، شبه جل ذكره نزول القرآن بالماء ينزل من السماء، وشبه جل ذكره القلوب بالأودية والأنهار، فذو العلم على قدر علمه، وذو الجهل على قدر جهله، فهذا مثل.

ثم شبه ﷻ وساوس الشيطان ومخائل النفس والخطرات الفاسدة بالزبد يعلو الماء، فما يقع في النفس من الفضول فمن ذاتها لا من ذات الحق، يقول جلَّ قوله: «فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء كذلك تذهب مخائل النفس ووسواس الشيطان ويبقى الحق كما هو». فهذا مثل ثانٍ.

والمثل الثالث: قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:١٧] له خبث مثل زبد الماء، فكما يذهب خبث الجواهر وتبقى خلاصتها ويبقى الحق كما هو، كذلك يذهب الجهل والوهم ويبقى العلم والفهم. فهذا المثل الثالث.

مثل: قال غيره: هذا مثل في الشك واليقين، فيقال في الشك ما قيل في الخبث والزبد، ويقال في الجواهر ما قيل في الحق، ويقال في العلم واليقين مثلما قيل في الجواهر والماء الصافي.

وقال في قوله جلَّ قوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: قد يعلو الحق الباطل ويغلبه في بعض الأحوال والأحيان، ولكن الله جل ذكره سيمحقه ويبطله ويذهب جفاءً، ويجعل العاقبة في الحق وأهله، واشتهر من قول العرب: «جفأت الريح السحاب» إذا أذهبته، وأجفل الظليم في عدوه: إذا أسرع فهو أجفيل.

مثل: قال غيره: في هذه الآية مثلان مثل الله بها ثلاثة أشياء: القرآن والعلم والنبي، فأما مثل القرآن العزيز فإن الله ﷻ مثل نزول جبريل بالقرآن بنزول الملائكة بالمطر، ومثل أيضًا القرآن بالمطر، فقال جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: أنزل الله الملائكة من السماء بالماء، كذلك أنزل جبريل بالقرآن ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: كل واحد بقدر سعته، شبه جل ذكره الأودية بالذوب فانتفع واتعظ كل قلب بقدر عقله والمعرفة به، وبقدر فكره واستدلاله والاحتياج إلى تقدير مع الخشية في إسماعه، وكما أن كل وادٍ زادت سعته زاد الماء فيه كذلك كل قلب

زادت فكره وعقله ومعرفته وخشيته وحسيته زاد فيه الانتفاع بالقرآن ومواعظه.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ معناه: إن السيل يعلوه الزبد، كذلك القرآن فيه آيات متشابهات ظاهرها خلاف باطنها، فكما أن الزبد على السيل ظاهره خلاف باطنه كذلك لظاهر آيات القرآن خلاف باطنها، وهن المتشابهات، ومثل المتشابه مثل السيل يعلوه الزبد، وكما أن الماء كان تحت الزبد وإن علاه الزبد ظاهرًا كذلك باطن القرآن والمتشابه واقع وإن كان ظاهره خلافه كالزبد، وكما أن من اكتفى بالزبد الظاهر على الماء لا يصل إليه من نفع الماء شيء، ويبقى العطش فيه فيهلك، ولذلك من اتبع الأكثر من ظاهر القرآن لا يصل إليه نفعه ومواعظه، وتبقى الضلالة فيه فيهلك زيغًا.

وكما أن من اعتبر بالزبد الظاهر ولم يعتبر بالماء الباطن تحت الزبد لم يصل إلى نفع الماء كذلك من اعتبر بظاهر القرآن ومتشابهه لم يصل إلى نفع القرآن؛ إذ الزبد حائل بين الماء وطالبه، كذلك المتشابه حائل بين القرآن وطالب نفعه، وإنما ضرب الله المثل على هذا الاعتبار؛ ليعلم العباد أن القرآن يدل على الامتحان والاعتبار بباطنه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ هي الجواهر، معناه على هذا: إن القرآن أنزل من السماء كالجواهر أخرجت من الأرض، فكما أن الذهب والفضة كامنان في الجواهر والخبث والنخالة حائلان بينهما وبين طالبهما، كذلك دلائل بعض آي القرآن وأحكامه باطنة وظاهرة حائلة بينه وبين طلب فوائده، فإذا دخله الفكر المسدد استخرج الحجج والمنافع.

وكما أن الناظر الجاهل بالجواهر ينظر إليها فلا يعرف قدرها ولا يبذل فيها ما يقاربها من الشمس، كذلك الناظر الجاهل بالقرآن ينظر إلى ظاهر بعض آي القرآن ولا يعرف قدرها المطلوب منها، ولا يرغب في مرغوبها، ولا ينفعه ذلك منها، ولا يبذل فيها من نفسه من البحث والطلب ما يكافئ ذلك، وكما أن الذهب والفضة لا يخرجان من الجواهر إلا بالامتحان الشديد، كذلك لا يستنبط علم بعض آي القرآن إلا بنظر ثاقب وفكرة لطيفة.

وأما مثل النبي ﷺ: فإن الله جل ذكره شبه إرسال النبي بالمطر ينزله من

السماء، فكما أنزل الله المطر من السماء بالملائكة كذلك أرسل الله محمدًا بإرسال جبريل إليه بالوحي، فكما أن الأرض الميتة إذا منع الله المطر عنها، ثم إذا أمطرت صارت حية بإذن الله، فكذلك أهل الأرض أموات في الديانة حال فقدان الرسل إليهم، وإذا أرسلوا إليهم صاروا أحياء لا يصلون إلى نفعها إلا بالغيث، وكذلك لا يصلون إلى نفع أنفسهم في الديانة والتقرب إلى ربهم إلا بالرسل.

وأما قوله جلَّ قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: بقدر سعتها، شبه جل ذكره الماء بالنبي؛ يعني: ما ينتفع به وبمواعظة كل الناس بقدر همتهم والنظر إلى دلائله، وكما أن الماء يزيد في الوادي في السعة كذلك نفع النبي ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ معناه: إن السيل ظاهره زبد غير نافع، وباطنه ماء نافع، كذلك النبي ظاهره صورة الإنسان، وذلك غير دال على صدقه ونبوته، وكما أن الماء الصافي تحت الزبد وإن كان ظاهره غير ماء لذلك احتجاجه، ودلائله أدل شيء على صدقه وإن كانت صورته الظاهرة لا تدل، وإنما ضرب الله هذا المثل؛ ليعلم أن ظاهر صورة الرسل لا تدل على صدقهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ...﴾ شبه الجواهر بالنبي، وشبه الأحجار بالخلق، ومعناه: إن الأنبياء بين الخلق كالجواهر بين الأحجار، فكما أن الذهب والفضة كامنان في الأحجار والخبث والنخالة حائلان بينهما وبين طالبهما؛ لأن ظاهرها غير ذهب وفضة كذلك دلائل النبي باطنة في أحواله، وصورته حائلة بينها وبين طالبها، فإذا أدخلت الجواهر في النار استخرج الذهب والفضة عنها، كذلك إذا اعتبر بدلائله عرف بها صدقه ونبوته.

وكما أن الناظر الجاهل بالجواهر إذا اعتبر بظاهرها لم يشترها بثمنها كذلك الناظر الجاهل بأمر النبي ﷺ إذا اعتبر بصورته وجدها لا تدل على حقيقة نبوته فيمتنع من تصديقه والإقرار بما جاء به، كذلك يضرب الله الحق والباطل الاعتبار بصورة النبي وبظاهره، والاعتبار بباطنه وأحواله ودلائله، وكما أن الماء بان نفعه في الأرض كذلك دلائل محمد ﷺ نافعة لمن اعتبر بها؛ لأنها توجب صدقه واتباعه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

وأما مثل العلم في هذه الآية: فإن الله جل ذكره شبه المطر النازل من السماء

بالعلم الذي يعلمه الله عباده، فكما أن المطر لا ينزل من السماء إلا بأمر الله كذلك العلم لا يحدث إلا بوحي من السماء، وكما أن المطر صلاح الأرض كذلك العلم صلاح الخلق، وكما أن الزرع لا ينبت بفقد المطر كذلك الخيرات لا توجد مع فقد العلم، وكما أن المطر لا يطلب إلا من السماء كذلك العلم لا يكون إلا من قبل الخالق جل ذكره، وكما أن المطر أسلكه الله ينابيع في الأرض كذلك العلم أيضًا في بواطن الحيوان والبشر، وكما أن في نزول المطر إفراغًا من الوعد والوعيد كذلك العلم إفراغ من الوعد والوعيد، وكما أن المطر بعضه أنفع من بعض كذلك العلوم بعضها أنفع من بعض، وكما أن المطر إذا كان في غير أوانه لم ينفع كذلك العلم إذا طلب من غير أهله وعلى غير وجهه لم ينفع.

وأما قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني والله أعلم: فاحتمل كل إنسان بقدر همته ومجاهدته، فكما أن جري الماء في الوادي لا ينفعه إذا لم يبقَ الماء فيه كذلك العلم إذا جرى على لسان العالم لا ينفعه إذا لم يعمل به.

وقوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ معناه: إن الزبد يعلو الماء فيحول بينه وبين وارده، كذلك شهوات النفوس تحول بين العلم وطالبه، وكما أنه من اكتفى بالزبد الكدر ولم يبحث عن الماء الصافي لا يصل إليه نفع الماء كذلك من اكتفى بظاهر ما يسمع من العلوم ولا يبحث عن حقائقها لا يصل إليه من نفع العلم شيء، وإنما ضرب الله هذا المثل على هذا الاعتبار؛ ليعلم الناس كيفية طلب العلم.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ...﴾ معناه والله أعلم: إن العلم والحكمة يطلبان عند أهليهما كما أن الذهب والفضة يطلبان في جواهرهما، شبه جل ذكره العلم بالفضة والذهب، وشبه العلماء بالجواهر، فكما أن في الذهب والفضة تفاوتًا بعضها أطيب من بعض كذلك العلماء بعضهم أكثر علمًا وأصفى، وكما أن في إخراج الذهب والفضة من الأحجار مشقة كذلك العلم والحكمة في طلبهما تعب ومشقة، وكما أن الجواهر تستخرج المنافع منها بامتحانها وإحراقها كذلك يستخرج العلم بكثرة السؤال ومداومة الفكرة وترداد التدبر، وكما أن الذهب والفضة أفضل من سائر الجواهر كذلك علم التفسير والدين والشريعة أفضل من سائر العلوم، كذلك يضرب الله الحق والباطل؛ يعني والله أعلم: الاحتجاج والدلائل والقصص

والأخبار.

فأما الزبد فيذهب جفاءً؛ يعني والله أعلم: إن طلب الأحاديث والأقاصيص يترك ويتطلب أحكامها؛ لأن نفعها أعم وأكثر، وكما أن الماء وزبده ذاهب كذلك علم الدلائل والمعرفة باقٍ، وطلب الأقاصيص ذاهب، كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم؛ يعني: فيما ندبهم إليه من طلب العلوم والدلائل والدين والذين لم يستجيبوا له فيما دعاهم إليه.

فصل

هو بيان وتذكير من ربنا عز جلاله، وموعظة بسر كتابه العزيز للمذكرين، وضرب الأمثال للمعتبرين، وقسم الله الحق المطلوب فيما بينهم ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦] وهو الكتاب الحكيم، قد جعله منزله العظيم متشابهًا مثاني، فيُثني بعضه بعضًا تلاوة ومعنًى، وهي معانيه وآياته معنى.

يقول عز من قائل: ﴿الـمر﴾ فجمع بها ما يفرق، وأحكم فيها ما فصل، فقال جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾ ثم ثنى جل ذكره ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد:١] أي: بأنه من عند رب العالمين أحكامه وتفصيله وتوصيله.

ثم جعل جل ذكره يسرد موجودات الكتاب المبين بقوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ...﴾ [الرعد:٢] يقول جل ذكره: لعلكم إذا رأيتم انقضاء الآجال وتمام الآماد ليلاً ونهارًا وغير ذلك، وتشاهدون طلوع الشمس والقمر والنجوم توقنون لذلك بانقراض الأعمار ويوم الدنيا وبلقاء ربكم، ترونه كما ترون الشمس صحوًا والقمر في كماله.

ثم أخذ جل ذكره يصف أنعمه وقدرته ومشيئته وعلمه في مقدوراته، يقول جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:٣] فيعلمون الآخرة من الدنيا، وموجودات ما هنالك استدلالاً بموجودات ما ها هنا، ويعرفون ربهم يوم يرونه يحكم الغيب في مقدوراته بأسمائه وصفاته وآلائه وأفعاله وأحكامه وآثاره، فيوحدونه بالإلهية ويفردونه بالمثل الأعلى.

ثم استمر جل ذكره على ذلك بقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ...﴾ فنص بصدق قيله وله الحيلة على أنه يفعل دقيق المفعولات كما يفعل كبيرها وجليلها من مذاقات وألوان وطعوم وروائح وأشكال، إلى غير ذلك من منافع ذلك كله ومضاره، وعلى تصاريف ذلك وتنويعه، ثم قال جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] موجودات الآخرة من هذه والتوحيد.

قال: ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] ولا تتفكرون.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢] إلى قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٧] نظم هذا بما تقدم ذكره من التعجيب من كفرهم، وعماهم عن رؤية الآيات البينات في النور المبين، أولم ينظروا إلى مثلاته ووقائعه فيمن كذب الرسل وصد عن السبيل؟! ولبيان ذلك أضرب عن ذكرها اعتمادًا على التذكير قبل هذا في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾ [الرعد:٦].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧] كما قال جل وعز: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ﴾ [الرعد:٤٠].

ثم ثنى المعنى وأرجع القول إلى ما ذكره في صدر السورة، فقال جلَّ قوله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ [الرعد:٨] إلى قوله: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] فاتصل المعنى بالمعنى الذي تقدم.

وثنى القول على القول، ثم أخذ في الاحتجاج عليهم بما ألزم ذكره من الحق المتضمن وقدرهم على المتفق على صحته في عرفان القلوب، فانتظم بالمعنى الذي تقدم فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ اللهُ﴾ [الرعد:١٦] وهو قولهم كما قال جل وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [العنكبوت:٦٣] ثم وقفهم على تناقضهم بقوله: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ [الرعد:١٦].

ثم صرف وجه الخطاب إلى سواهم من أهل ملك الكفر، فكان يخاطب بواسطة نبيه العرب الذين يتخذون الأصنام والتماثيل آلهة يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ظنون كاذبة [وادعاءات غريبة].

يقول جل ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ليس هؤلاء بشركائى في ملكي ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] وخرصهم هذا أصله عن مقدمة معرفة سقطت معرفتها في حقهم وبقيت فتنتها فيهم، وذلك المعروف هو الحق المخلوق به السماوات والأرض، لم يبقَ بأيديهم من معرفته إلا الخرص والحدس، نصب الشيطان لهم مصائده فاتخذوا له التماثيل وعبدوها على المشاهدة بزعمهم الإباء بما كذب الزعم.

ثم شبه المبدأ في ذلك في أخلاقهم حتى اعتمدوا عليها وألحقوها بمنزلة الشركاء حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] إلى قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص:٧] فكان هؤلاء في أوليتهم حال وراثهم عن أبيهم إبراهيم ثم إسماعيل يهدون بالحق، ثم عدلوا به غيره، فتوجه إليهم من خطابه قوله الحق على لسان رسوله ﷺ: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] عدل مخاطبته رسوله عن هؤلاء إكرامًا له؛ لبعدهم عن الحق وعدولهم عنه بزعامة العلم وإقامة الحجاج عليه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧] وهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

ولما ركبوا سبيل الضلالة زعموا بالعلم وكانوا أبعد شيء عنه، وهم الثنوية القائلون بأن فاعل العالم أصلان قديمان:

أحدهما: نور.

والآخر: ظلام.

قالوا: فالنور خير بطبعه وجعلوه مطبوعًا، والظلام شرير بطبعه.

قالوا: فالنور لا يفعل إلا الخير، والظلام لا يفعل إلا الشر، وصرحوا بأن النور هو الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وأن الظلام هو الشيطان، وقسموا موجودات العالم

إلى ما هو عن النور وإلى ما هو عن الظلام، كما يقسم الحق الموجود به العالم إلى ما هو ذكر وإلى ما هو فتنة، وإلى ما هو المحبوب والمكروه، والسراء والضراء ونحو هذا، ونحا نحو هذا طائفة من أهل القبلة هم القدرية، وهم من طوائف الضالة الذين توجه إليهم قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد:١٦] ومنهم المثلثة وهم النصارى، ومنهم المخمسة الذين قالوا: بخمس قدم.

قالوا: هم الهيولي والمادة والصورة والعدم والبارئ ﷻ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قالوا: في كل مسمى من هؤلاء يعمل في العالم بخاصة والبارئ سبحانه يصلح ما وصل إليه وما لم يصل إليه، بقي على ما كان عليه ﷻ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

يقول الله جل ذكره: ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] الغالب على أمره، وهو على كل شيء قدير.

وضرب ﷻ لذلك مثلاً فقال جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٧] أي: واحدًا طيبًا طاهرًا مطهرًا، فخلق عنه الخلق الكثير الجم الغفير، فذلك آيته جل ذكره على أنه الواحد القهار الأحد الطيب المطيب الطاهر المطهر القدوس السلام المؤمن المهيمن، خلق كل شيء، لم يخرج شيء عن أن يكون خلقًا مقدورًا لقدرته، مرادًا لإرادته، معلومًا لعلمه، ما من مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو خالقه ومصرفه ومدبره.

ثم قال وقوله الحق: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] أنزل جل ذكره الماء من السماء إلى الأرض جبالها وضرابها وآكامها وأوعارها وسهولها، فجرت مثاعب المياه إلى مسالكها فاحتملت زبدًا؛ لأجل مباشرة الكائن عنه، وهو الأمر النازل من ذي العرش ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، يلقيه وهو الحق إلى حملة العرش فينفدون بسماء سماء إلى موضع قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢].

ثم يخلقه في السحاب، ثم في الجو والهواء، وينزله إلى الأرض، وهو أمره جل ذكره، وقد باشر الموجودات، وما باشره هو الحق، وفي أجواء الهواء وفي

الرياح وفي الأرض فيح جهنم سعيرها وزمهريرها، وفتح رحمته كما قال جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان:٤٨] ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، فاحتمل السيل لذلك زبدًا، ولم يظهر في الأغلب زبدًا الماء في مسالكه ومثاعبه على الأرض خلا جوهر الماء وبرده، كما لم يظهر للنفسين في الأجواء ومسالك الكواكب ومجاري الأفلاك زبدًا خلا السمومين: سموم الحر والبرد.

وإنما يظهر الله جل ذكره زبده في النبات والحيوان المخلوق عنه بواسطة الحق المخلوق به السماوات والأرض، فيظهر إذ ذاك في النبات الشهي والكريه والحلو والمر والمتوسط والعذب والتفه المغذي والضار النافع بإذنه، والطيب والخبيث من النبات والحيوان والطاهر والرجس النجس واللين والخشن والمرار كله والشائكات، والمكروه والمحبوب من ذلك كله حيوانه ونباته وأحجار الأرض ومعادنها وأنواع أتربتها، وأمره جل ذكره أمره وإنما هو الحق كلما مازح حقًّا كان عن ذينك النوعين من الحق نوع آخر يوجد فيه من شبه ذينك النوعين الحق.

قال رسول الله ﷺ: «**فمن أين يكون الشبه**»[1] فكلما بعد عن مبدأ الماء بعد عن الطهارة والطيب على نحو مشيئته جل ذكره في خلقه وإذنه في مصنوعاته فافهم، فذلك قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] على هذا التأويل الأودية التي هي الأودية، والمثاعب والمسالك التي يُسلك عليها المياه إلى موضع مستقرها الذي هو النهر الأعظم، فهنالك يظهر الله جل ذكره على الأغلب زبد الماء رابيًا عليه؛ أي: مرتفعًا فوقه، كذلك كونه في هذه الدار في الأغلب الباطل يعلو الحق، لكن العاقبة للمتقين، فهذا وجه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ

(١) تقدم تخريجه.

يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٨ - ٢٢].

وبوجه آخر: [الموضع][1] الأعظم في التمثيل هو موضع المحشر، والماء هو الناس؛ لأنهم خلقوا منه، ومن الأرض سيَّرهم جل ذكره في أعمارهم إلى المستقر وهو الدار الآخرة، كل قد عمل على شاكلته وأعماله مغيبة عن العباد، فإذا بلغوا إلى مستقرهم أماز الله الخبيث من الطيب كما تميز زبد الماء من الماء الذي احتمله في مسالكه من الأرض، فبالتأمل من أعمالهم يبطلها الله ويهلكها وطيبها ببقية؛ لينفعهم به، فذلك قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ﴾[2] الحق والباطل دل على هذا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى﴾ [الرعد:١٨].

المعنى إلى آخره: وفيه ومما توقدون عليه في ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله قد تقدم الكلام في الأمر ينزل من عند الله، وكيف ينقلب حقًّا من الحق إلى الحق بإذن مدبره، آية ذلك الغذاء من الشراب والطعام يدخله أحدنا جوفه فيصير في الشعر شعرًا وفي البشر بشرًا، وفي العظم عظمًا وفي الدم دمًا، إلى غير ذلك من موجود الأكل والشراب، ثم يخرجه متغيرًا في غير الوصف والمعنى الذي أدخله يكون عليه، والخالق جل ذكره واحد، والصانع متفرد بصنعه وتدبيره.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:١٧] أي: إن الأمر في السماء وفي الأرض واحد الزبد موجود في

(١) كلمة غير واضحة في (غ) و(ف).
(٢) قوله تعالى: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فيه ثلاثة تأويلات:
أحدها: يعني: منشقًا. قاله ابن جرير.
الثاني: جافيًا على وجه الأرض. قاله ابن عيسى.
الثالث: مرميًا. قاله ابن إسحاق. النكت والعيون (٢/٣٠٨).

مسالكه، لكن هذا يبرره الامتحان بالنار، وذلك يبرره الامتحان بالماء، وهو في التمثيل، والنار في التمثيل بمنزلة المحنة كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر:١٥] إلى قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٦] فالفتنة بالنعمة الشر وبطر، والفتنة بالمحنة والمكروه كله سخط وعدم رضا بالمزيد، فأما الزبد فيذهب جفاءً زبد الماء بالهواء والشمس، وزبد الأرض بالنار ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧] أي: أمثال المؤمنين والكافرين، كما قال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١] أي: أبطلها وأمحقها هلاكًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢] بإيمانهم.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:٣] في ضمن هذا يدخل معنى الرسالة والنبوة والعلم والحق إلى غير ذلك، فرحم الله سلفنا ورضي عنا وعنهم، وجزاهم عنا خير ما جزى سلفًا عن خلف، هم الذين وطؤوا بنا معابر النظر فقفونا آثارهم، وسلكوا سبيل الحق فاهدينا بفضل هدايتهم، والحمد لله رب العالمين.

قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ...﴾ [الرعد:١٩] أخبر ﷻ أن الذكرى إنما هي لأولي الألباب، واللب: صفة في العقل يوصف به إذا تم إيمانه، وفكر بعقل سليم ونظر صائب فاستخرج بواطن المعاني وخفاياها، وعبر بمفهوم الشواهد إلى غيوبها، وصابر النفس على مكروهها ولم يرضَ بالمقارنة في العلم دون التحقيق فيه والعمل به، وصعد إلى ذروتها.

ثم جعل ينسق صفاتهم ليهتدى بهم ويقتفى بآثارهم بقوله الحق: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلَا يَنقُضُونَ المِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[1]

---

(١) ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله﴾ أي: بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم =

[الرعد:٢٠ - ٢١] أدنى ذلك أن يصل الإيمان بالإيمان في الله بأسمائه وصفاته وأفعاله كلها، وإنه ليس شيء إلا أُمر بالإيمان به، وبملائكته أجمعين، وبرسله وكتبه، لا نفرق بين أحد منهم، وبأمره ونهيه ووعده ووعيده.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١] هو أن يعدد ذنوب العبد دون تجاوز ولا مغفرة، نسأل الله العفو جميل عفوه وحسن تجاوزه، فإنه من نوقش الحساب عُذِّب، هذه صفة لأوليائه إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٨].

ثم أخذ في وصف الأباعد: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد:٢٥] والعهد: هو العهد المأخوذ علينا بالتزام العبودية لربوبية، والإيمان

=

وبين العباد ﴿وَلَا يَنقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ الذي وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالأيمان ونحوها، وهذا تعميم بعد التخصيص؛ لأنه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها، ويحتمل أن يكون الأمر بالعكس، فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه، ويراد بالميثاق: ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذرّ المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ﴾ [الأعراف:١٧١] فتح القدير (١٠٥/٤).

بالرسل والنبيين ونصرهم، وقد تقدم ذكره في سورة آل عمران وسورة الأعراف[1].

ثم قال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ على ما يضاد الولاية ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥] لا يضاد إكرامه أوليائه، بشَّر أوليائه - على جميعهم السلام - بعقبى الدار، وهي عاقبة هذه الدار حال المكث في دار البرزخ، ثم العاقبة في الدار الآخرة جزاء لما قاسوه في هذه الدار صبرًا على وحشة الوحدة، وقلة المساعدة على ما هم عليه، وامتحانًا يعلو الباطل على الحق في كثير من الأمر، فأنالهم فيما هنالك التقريب والجاه والحظوة عنده، ودخول الجنة في رفيع الدرجات، ختم لنا بخير خاتمة في يسر وعافية.

ثم ذكر جل ذكره طائفة أخرى دونهم، فقال جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢] كما قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] يبشرهم جل ذكره بأن العاقبة لهم في الآخرة لما

---

(١) مسألة في المراد بقوله تعالى: ﴿عَهْدَ اللهِ﴾ خمسة وجوه: الأول أنه ما ركّب في عقولهم من أدلة التوحيد والعدل وتصديق الرسل وما احتج به لرسله من المعجزات الشاهدة لهم على صدقهم ، ونقضهم لذلك تركهم الإقرار بما قد بينت لهم صحته بالأدلة. الثاني أنه العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من اتباع محمد ﷺ والتصديق بما جاء به من عند ربه ، ونقضهم لذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وكتمانهم ذلك عن الناس بعد أن أخذ الله ميثاقهم ليبينوه للناس ولا يكتمونه وأنهم إن جاءهم نذير آمنوا به ، فلما جاءهم النذير ازدادوا نفورا ونبذوا العهد وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً، اختار هذا الوجه ابن جرير الطبري. الثالث أنه وصية الله إلى خلقه على لسان رسوله ﷺ بما أمرهم به من طاعته ونهاهم عنه من معصيته ، ونقضهم لذلك تركهم العمل به. الرابع أنه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر كما ورد في القصة ، وهذا الوجه ضعيف لأنه لا يجوز أن يحتج على عباده بعهد لا يذكرونه ولا يعرفونه ولا يكون عليه دليل. (مجمع البيان١/٩٩) (جامع البيان١/١٤٣ - ١٤٤) (المحرر الوجيز١/١١٣). الخامس أنه ما ضمنه الله تعالى في الكتب المنزلة وعلى ألسنة أنبيائه من أمره بطاعته ونهيه عن معصيته وإفراده بالعبادة. ذكره أبو حيان في (النهر الماد ١/٩١) قال ابن جرير: وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال: إنه العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من اتباع محمد ﷺ والتصديق بما جاء به من عند ربه فهذه الآيات نزلت في كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل ومن كان على شركه من أهل النفاق .... وانظر: (جامع البيان ١/١٤٣ - ١٤٤).

قاسوه في هذه الدار من امتحان يعلو الباطل الحق في كثير من الأمر في هذه، وعقبى الدار فيما هنالك الحظوة والجاه لدى العلي الأعلى، ودخول الجنة هم وأزواجهم وذرياتهم، يجمع بعضهم إلى بعض، يرفع الأدنى إلى الأعلى، إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [الرعد:٢٧] بين في هذه ما أشكل في نظيرتها التي في صدر السورة.

ولما نسق جل ذكره ذكر آيات الكتاب المبين في الوجود في صدر السورة ختم ذلك بالتعجيب من طلبهم آية على صدق ما أنبئهم به، ثم لما نص بقوله الحق على أنه الواحد القهار، خالق كل شيء، رب كل مذكور وآلهة، لا إله سواه، وضرب لتحقيق ذلك مثلاً أخذ فيه بأطراف الكلام المشتملة على حقائق الحق المطلوب.

وذكر جل ذكره أولي الألباب الذين منحهم الله الفكرة والنظر إليه بالمشاهدة عجب أيضًا من طلبهم آية على صدق ما جاءهم به، وقد أحاطت بهم الآيات حتى أغشتهم أنوارها وأصمت أسماعهم ضوضاء الشواهد بأداء شهاداتها، فأجابهم بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] هداهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه السبيل لو اهتدوا، وفتح لهم الباب لو دخلوه عرفهم بالمنيبين إليه.

يقول جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١] [الرعد:٢٨] الإنابة وصف لمعنى من معاني المحبة، ومن أحب شيئًا

---

(١) ذكر الإمام في بيان اطمئنان القلب بذكره تعالى وجوهًا، فقال: إن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يتأثر، ومتأثر لا يؤثر، وموجود يؤثر ويتأثر. فالأول: هو الله تعالى. والثاني: هو الجسم، فإنه ليس له خاصية إلا القبول للآثار المتنافية والصفات المختلفة. والثالث: الموجودات الروحانية، فإنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عليها منها، وإذا توجهت إلى أعلام الأجسام اشتاقت إلى التصرف فيها؛ لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام، فإذا عرف هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليه والتصرف فيه، وإذا توجه إلى مطالعة الحضرة الإلهية وحصلت فيه الأنوار الصمدية فهناك يكون ساكنًا مطمئنًا، وأيضًا إن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى أمر آخر أشرف منه؛ لأنه لا سعادة في عالم الجسم إلا وفوقها مرتبة أخرى، أما إذا انتهى إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأنوار =

أكثر ذكره وسكن إليه، ولا محبوب كهو ﷻ، والمحب طائع لمحبوبه من طالب لما يرضيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٢٩ - ٣١].

لذلك وصل بذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ﴾ هو المرجع وقرئ ﴿وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ [الرعد:٢٩] بالنصب للنون على معنى: يا طوبى لهم، يا حسن مئاب.

قيل: إن طوبى في الفرح وقرة العين.

وقيل: الجنة نفسها بلغة الهند.

وقيل: هي شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وفي كل دار لأمته منها غصن تنفتق لهم عن لباس وطعام وجميع ما يشتهونه.

قال ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»[1].

=

القدسية ثبت واستقر فلم يقدر على الانتقال من ذلك ألبتة؛ لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منه وأكمل، وأيضًا إن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبًا باقيًا على ممر الدهور، صابرًا على الذوبان الحاصل بالنار، فإكسير نور الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهرًا باقيًا صافيًا نورانيًا لا يقبل التغير والتبدل، ولهذه الأوجه قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تفسير الألوسي (٩/٢٦٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨١) والترمذي (٢٧١٥) وأحمد (١٠٣٢٨) والطبراني في «الأوسط» (٢٦١٩).

وقال ﷺ: «**في الجنة شجرة لو ركب شابٌ حقَّة ثم دار بأصلها ما بلغ موضعه الذي بدأ منه حتى يموت هرمًا**»[1] فافهم هذه، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ...**﴾ كاف «**كذلك**» للتشبيه، وذلك مشار إليه مقصود بالإخبار عنه لعله إلى بعض الوجوه في المثل الذي تقدم من إثبات الإلهية والوحدانية والنبوة، وذكر معنى العلم فيه، فإن العلم بالرسالة وما جاءت به من ذلك مشبه به، وأشار إليه بقوله جلَّ قوله: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ**﴾ وحذف جل ذكره «قد أرسلنا إليهم» فمنهم من آمن فأتيناه أجره في الدنيا والآخرة، ومنهم من كفر وصد عنه فأهلكناهم ﴿**لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ هو القرآن ﴿**وَهُمْ**﴾ يريد الأمة التي أرسل إليهم ﴿**يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾ يقول ﷻ: ﴿**قُلْ**﴾ أنت يا محمد ﴿**هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد:٣٠].

والأوجه والله أعلم: أن ينتظم قوله: ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ**﴾ [الرعد:٣٠] فيهم بمعنى قوله: ﴿**قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾ [الرعد:٢٧] وقوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد:٧] وينتظم ذكر الهداية بمثلها فيما تقدم، وذكر الرسالة بذكر الرسل قبله.

فصل

عجب الله سبحانه من كفرهم بالرحمن، وفيه ضرب من الجدل كما قال جلَّ قوله: ﴿**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٦] [....][2] أي: يذكرون الرحمن عز جلاله بما يستحيل في نعوت جلاله كما قال: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام:١٠٨].

ومن التعجيب بكفرهم بالرحمن جل ذكره: إنه من حيث هو الرحمن ذو الرحمة الواسعة، من لدنه جميع نعم النفع والدفع، يجمع الكلاءة والكفاية والحفظ

---

(١) أخرجه الطبري (١٥٥١٥).

(٢) كلام غير واضح في (غ) وليس في (ف).

والحراسة والتربية والحفاية كلها، ومعاني الخلقة والإحسان والإجمال في الأمر كله والوجود أجمعه.

ومن أعجب العجب: الكفر بما هو منه هذا، وما هو أعم وأكبر من إيجاد أنفسهم وأنفاسهم وأغذيتهم والقيام عليهم بشأنهم كله وبما هو المستوي على العرش سوى الجملة حياة وعلمًا ومعرفة وخشية له وخوفًا، وفي إقامته آية ذلك خلقه آدم من صلصال كالفخار سواه بذلك خلقة وعلمًا، ثم نفخ فيه من روحه سواه بذلك حياة وصفات وأسماء، وكان بذلك لا يعزب عنه عن آدم من جملته ونفسه قربًا وعلمًا وحسًّا ووجودًا، فكذلك الجملة كاستواء الرحمن على العرش، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض.

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤] فكيف لا يعظم التعجب من كفر من كفره.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي: قل يا محمد أو يأيها التالي: هو ربي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠] فإذا تاب هذا العبد إلى ربه الرحمن عز جلاله استخصه فاجتباه واستخلصه وانتخبه وتولاه، فوصل له مقتضى اسمه الرحيم بمقتضى اسمه الرحمن في الدنيا والآخرة.

قال الله ﷻ: ﴿يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤٠ - ٤١] فإذا كان ذلك كذلك قال الله جل ذكره للنفس المطمئنة: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وفي أخرى: «**في عبدي**» يعني وهو أعلم بما ينزل: في مثاله الذي له ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] ثم نلحقهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة بدرجة النسبة إليه عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، فتارة يقول: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨] أي: في الدنيا ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠] أي: في الآخرة وبعد الموت، فمرة نسبهم إليه عز جلاله بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ...﴾ [العنكبوت:٥٦]

ونحو هذا في الدنيا وهذا في الآخرة.

تارة يعبر عن هذا التقريب والتخصيص بقوله جلَّ قوله: «**إني لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها...**»[١].

وتارة يعبر عن ذلك بقوله: «**ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، وعريت فلم تكسني**» إلى قوله تعالى: «**أما إنك لو فعلت ذلك بعبدي ففعلته بي**»[٢].

واعلم - وفَّقك الله - أن هذا التقريب ليس ممازجة، ولا بحلول هو ما عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**مولى القوم منهم**»[٣] ألا تراه متى وصفه بطاعته والرضا عنه أضافه إليه ونسبه إليه بالولاية والحفاية والتقريب، وإذا وصفه من حيث هو نسبه إلى أصله وأضافه إلى محتده، كذلك مولى القوم ينصرهم وينصرونه، ويحالفهم ويحالفونه وهو منهم، في عداد ذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنت أخونا ومولانا**»[٤] كذلك متى انتمى إليهم تعرف بهم، وهو إذا رجع إلى نفسه لم يدع إليهم، ولا اتصف بأنه من محتدهم.

قال رسول الله ﷺ: «**من ادعى إلى غير أبيه وانتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً**»[٥] [فبمنافاة][٦] الانتماء اشتد الوعيد، فافهم.

لذلك وهو أعلم أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ [الرعد:٣١] يقول جلَّ قوله: يسألونك أن تأتيهم بآية ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا...**﴾ الراجع إليه القرآن، وضمير قوله: «به» هو القرآن،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٦٥٧) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٦١٢)، والحاكم (١٤٦٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (١٣٠٢١)، والطيالسي (٩٧٢)، وأحمد (٢٣٩٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، وأحمد (٩٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٠١)، والبيهقي (٢٠٨١٦).

(٥) أخرجه البخاري (١٧٧١)، ومسلم (١٣٧٠)، وأحمد (٦١٥)، والترمذي (٢١٢٧)، وأبو يعلى (٢٦٣)، وأبو عوانة (٤٨١٦)، والبيهقي (٩٧٣١).

(٦) كلمة غير واضحة في (غ) وليست في (ف).

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد:٣٠] بعد ذكر اسمه الرحمن عز جلاله قد تقدم أنه القرآن العظيم، ومتى حل هذا الذكر العظيم قلبًا وغلب عليه فقليل له أن تُسير له الجبال أو تُقطع له الأرض، وبما كان معنى تقطع له الأرض: تطوى له الأرض، أو يكون يكون على ظاهره كل على الله يسير، أو يكلم به الموتى، فكذلك قال عز من قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا...﴾ [الحشر:٢١] إلى آخر السورة، فأشار جل ذكره إلى الثلاث الآيات إلى آخر السورة.

وقد جاء من طريق يقطع بصحته أن رسول الله ﷺ صعد أُحدًا هو وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اسكن فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»[1].

وجاء أن إبراهيم بن أدهم كان قاعدًا على جبل من الجبال مع بعض أصحابه فكلمهم في مثل هذا المعنى وقال: إن من عباد الله من لو قال للجبل: «تحرك» لتحرك له، فرجف الجبل، فقال له: «اسكن، فإنما هو شيء ذكرت به أصحابي» فسكن.

وقد سخرت الجبال لداود يُسبِّحن بالعشي والإشراق، وقد اكتنفت قصة إبراهيم بن أدهم شواهد القرآن، فأقل درجتها أن تكون في حيز الإمكان.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿بَل للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل للإضراب، وذلك في المقدر المخزول من الخطاب تقديره: لكان هذا القرآن أو ما نحا نحو هذا وكان في معناه، وقيل: إن تقدير المحذوف: «ما آمنوا به» ويؤيد هذا التأويل قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام:١١١] فأضرب جل ذكره بحرف «بل» عن المعنى الذي تضمنه حرف «لو»، وهو امتناع وجود تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى به ما لم يشأ الله ذلك، وبقي وجوب وجود ذلك كله مع وجود المشيئة من الله جل ذكره.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] قيل: هو بمعنى العلم، يأيس: يعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٩)، والترمذي (٣٧٠٣) وقال: حسن. والنسائي (٣٦٠٨).

وقيل: هي لغة النخع.

وقال بعض أهل اللغة: معناه: أفلم يعلم الذين آمنوا علمًا ييئسون معه أن يكون غير ما عملوه.

وفصل الخطاب في ذلك، والله أعلم أن معناه: أفلم ييئس الذين آمنوا عن إيمان من لم يشأ الله الإيمان منه، أو لم يعلم الذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعًا، ويقال بهذا النوع من الخطاب الموجز، وقد تقدم ذكره في سورة هود.

وقال بعض أهل العلم: للقرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع، فظهره جليُّه وبطنه خفيُّه، ومطلعه ما خزل منه اكتفاءً بما أوجز فيه منه، فمذكوره يدل على معنى، والمخزول منه يشير إلى معنى، وهو كثير في القرآن يجده من عُني به.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**أوتيت من الحكمة ومثله أوتيت من القرآن**»[1] والحكمة قد تكون القرآن ومعرفة تأويله وفهم معانيه، وهو أرفع الحكمة.

قال الله ﷻ: ﴿**يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...**﴾ [البقرة:٢٦٩].

ثم قال عز من قائل: ﴿**بَل للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا**﴾ [الرعد:٣١] أي: في الهداية والضلالة، وقرأها ابن عباس: «أفلم يتبين الذين آمنوا» من البيان، وقال: إن الكاتب كتبها وهو ناعس. وكذلك قرأ عكرمة أيضًا، وعلى القراءة الأولى الجمهور الأعظم[2].

﴿ **وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ**

(١) اضطراب في نص الحديث في الأصل، وأخرجه أحمد (١٧٢١٣)، وأبو داود (٤٦٠٤)، بلفظ «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

(٢) أكثر أهل اللغة على هذا القول وممن قال به أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة. [معاني القرآن للنحاس (٣/٤٩٧)].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٢ - ٣٥].

قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] هذا خطاب راجع معناه إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد:٣٠] خزل آخر القول، وأوجز في الخطاب والمخزول منه معنى التعجب من ذلك، وهو من الموجز المخزول آخره.

يقول عز من قائل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] [الرعد:٣٣] يجهل شأنه أو يعبد غيره، أو يكفر أو يشرك به أو يرد أمره كقولهم: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان:٦٠] أو يكفر به، أو يرد أمره ويجعل له الأنداد والأولاد، ونتخذ من دونه الأولياء والشركاء، دل على هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ﴾ فعطف جل ذكره بالواو ذكر شركهم على ذكر الجهل.

أتبع ذلك قوله جل ذكره: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:٣٣] هذا أيضًا مخزول معناه، وهو مطلع يشرف منه على حقائق لو شطرت من قرآن عظيم وكتاب حكيم لكانت مصحفًا كالقرآن أو ما يقاربه؛ إذ هو كلام الله جل ذكره يعبر عن أسماء الله وصفات إلى ما ينفصل منها من أوصاف له وأفعال، ومصانع مخبرة عن قدرته شواهد لوحدانيته، معبرة عن ألوهيته وربوبيته ورحمانيته، ناطقة بتسبيحه وتحميده، قائمة بأمره على سنن فطرته، قانتة له، خاضعة لعظمته، صامدة إليه، صاغرة لكبريائه، عانية

---

(١) استفهم سبحانه استفهامًا آخر للتوبيخ والتقريع يجري مجرى الحجاج للكفار، واستركاك صنعهم والإزراء عليهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ القائم: الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسه، فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، والجواب محذوف؛ أي: أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضرّ. قال الفراء: كأنه في المعنى: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله، والمراد من الآية: إنكار المماثلة بينهما، وقيل: المراد بمن هو قائم على كل نفس: الملائكة الموكلون ببني آدم، والأوّل أولى. فتح القدير (١١٤/٤).

لقيوميته، خاشعة لعظيم سلطانه وعلي شأنه، فقيرة إلى ما لديه، ليس لها من ذواتها غنى، ولا عنه غنى إلى ذلك اختصاصه المختصين من أوليائه وإنباؤه الأنبياء من صفوته، وإرساله الرسل من ملائكته وعباده، وإنزاله الكتب، وإيجاده وحيه على مراتبه، وكيف شاءه بمشيئته إلى من شاء من عباده.

يتبع ذلك الأمر والنهي والوعد والوعيد والنذارة والبشارة، وصدق الكلمات وإتمامها على سبيل سننه التي لا تبديل لها ولا تحويل، وإظهاره المعجزات عن القدرة العالية [....][1] العلي، وإلى وجوده الحق الذي إليه المصير في دار البرزخ ويوم النشور، ثم في دار القرار، ثم مرورهم على وفق كلمته.

يتبع ذلك إيجاد النعماء وظهور الآلاء [....][2] الإنباء عن ذلك والإخبار عنه في الأرض وفي السماء، ومرور أيامه بالنقمات والمثلات في أعدائه والنصر لأوليائه، وحسن العقبى في الدارين لأوليائه، إلى غير ذلك من إظهار مقدوراته ومضاء مشيئاته على وفق ما سبق من ذلك في علمه السابق، وتقديره الأول الأزلي ﷻ: قل لهم يا محمد سموهم، والخطاب لمحمد ﷺ خطاب لمن بعده من علماء أمته.

يقول جلَّ قوله: هل خلقوا السماوات والأرض وما بينهما وهم الخالقون؟ هل بأيديهم خزائن السماوات والأرض يقسمونها في المدن؟ وهل هم الرازقون؟ هل يحيون أم يميتون فهم المحيون المميتون؟ هل بأيديهم يملكون كل شيء فهم المالكون؟ هكذا إلى آخر الأسماء والأفعال، والتدبير على التقدير الأول: فلا بد لهم من قول لا يجاوبهم على ذلك، أيشركون مع الله ﷻ في ملكه وملاكوته وسلطانه ما لا يخلق ولا يرزق ولا يملك وهم يخلقون ويملكون؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

ثم قال عز من قائل: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:٣٣] ما لا يعلمه الله ﷻ فليس بكائن، ولا يجوز كونه على حال إذًا لا بد من ذلك.

---

(١) بياض في (غ) وطمس في (ف).

(٢) بياض في (غ) وليس في (ف).

قال جلَّ قوله في غير هذا الموضع: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ...﴾ [الفرقان:٥٥].

يقول ﷻ: ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ [الرعد:٣٣] عليه يعتمدون وإياه يرجون ويحذرون وله يدينون.

ظاهر القول على هذا هو تسميتهم الآلهة بأسماء لا توجد حقائقها في ذواتها كاللات والعزى ومنات ويغوث ويعوق، ليس لهن إلّ ولا عندهن عز ولا غياث ولا عوق، فهذا هو ظاهر من القول ليس كأسماء الله سبحانه التي توجد حقائقها لديه، وفي جلي وجوده ظاهرة وباطنة ملأت حقائقها السماوات والأرض، وقامت عليها الدنيا والآخرة وما علا وما سفل وما هو كائن وما ليس بكائن أبدًا؛ لذلك يعلو بأهلها عليون في آباد الآخرة في علائه، ويسفل بأهل السافلين إلى أسفل سافلين في تكوين وتحذير لهؤلاء وهؤلاء، يقول ﷻ: أم بظاهر من القول تدينون أنفسكم بما لا حقيقة له ولا معنى صحيح صادق يرجع إليه، أرضيتم بهذا لأنفسكم، تتعبدون لأسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؟.

ثم قال عز من قائل: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم سبيل الإسلام، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴿وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣] يقول عز من قائل: الأمر كما يظن به إنما زين لهم مكرهم فمكروا؛ لنمكن بهم على مكرهم، وتلك إرادتنا فيهم ليصدوا عن سبيلنا، وتتم كلمتنا السابقة منا فيهم، أخبر جل ذكره في هذه عن وحدانيته ورجوع الأمر كله إليه، وعجب من عظيم اقتداره على صرفه إياهم عن عوائد فطرتهم المستكنة في ذواتهم وأخذه بأنفسهم عنها بمعنى منه، فاستقاهم عن مرادهم إلى مراده بهم وفيهم، سبحانه وله الحمد.

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ
قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ
حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ
﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ۝٣٨ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد:٣٦ - ٣٩].

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦] ويفرحون بما أنزل على محمد ﷺ آمنوا بالكتاب الذي أنزل إليهم، ثم آمنوا بهذا القرآن.

قالوا: هم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، وكان هؤلاء يوم أنزلت هذه السورة على دين آبائهم في خيبر والمدينة، وكان إنزالها بمكة، والذي يعم هؤلاء وهؤلاء هم الذين آتاهم الله كتابه وأورثهم إياه وأفهمهم وحيه، فأطلعهم بذلك على ما خفي على سواهم كثير مما أنزل على رسوله، فهم الذين يفرحون بما آتاهم الله من فضله، دل على هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد:٣٦] ولو عنى بذلك الأحزاب الكفرة لقال من ينكره: وإنما أنكر بعضه قوم من فرق الإسلام أنكروا كثيرًا من معانيه، وهم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وإن كثيرًا من فرق المسلمين لمن ينكر ما لم يبلغه علمه منه، وذلك أكثره.

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ [الرعد:٣٦] أي: على ما علمت من وحيه وكتابه وما لم أعلم، كما قال المرضيون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

﴿وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾ [الرعد:٣٦] أرجع جل ذكره وجه الخطاب على المشركين.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨] كما قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ القُرَى﴾ [يوسف:١٠٩] ومثله كثير، أعلم بأن هذه سنته أنه لا يرسل إلى البشر إلا بشريًا كما قال جل وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥] لحكمة بالغة له جل ذكره في ذلك.

قال جل وعز: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:٢٠] ووعظ جل وتعالى بذلك عباده أنه أرسل الرسل وجعل لهم الأزواج والذرية، ولا بد من غنى ومن فقر، ومن بلاء ومن عافية، ومن هداية في ذريتهم وأممهم ومن ضلالة، فلا تشغلهم الأزواج والذرية ولا الفقر ولا الغنى عن طاعة ربهم، ولا ركنوا إلى ذلك دونه، ولا التفتوا إلى الأولاد والأزواج على المعهود من الحرص على إصلاح الأهل والولد في الدين والدنيا، بل صمموا إلى ما أرسلوا إليه وقصدوا لما وجهوا له، وهذه سبيلهم فبهداهم اقتده، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله وحده، رجع الكلام إلى أوله.

يقول جل من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ هذا منتظم بما تقدم من سؤالهم الرسول أن يأتيهم بآية، وذلك لا يكون إلا بإذن من الله جل ذكره، ثم قال جل ذكره: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] وجاء العلم في الكتاب الأول الذي هو مكتوب علمه المحيط، وفي هذا من الفقه أن رسولاً لا يكلف عن قوله الحق الإتيان بآية شرطية، بل يتابع على ما أوحي إليه، ثم في أثناء ذلك تبدو آياته.

ومعنى قوله جلَّ قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] قد تقدم أن كل كتاب له أجل، فالمعتقد الحق إن شاء الله تعالى أن الله ﷻ قال للقلم: «اكتب علمي في خلقي» فهذا الكتاب هو المحيط بما في الكتابين من دونه الذي أحدهما: قال جلَّ قوله: «اكتب ما هو كائن»، والآخر: «اكتب المقدار» فذلك الكتاب الأول هو أم لهذين بما يخرج.

قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ على هذا؛ أي: يثبت بما في الكتاب الأول الذي هو مكتوب علمه المحيط في الخليقة أجمعها، وقد يتوجه أيضًا أنه يمحو من الكتب الثلاثة ما يشاء وكيف يشاء ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] أي: عنده العلم الذي هو صفة ذاته، وهو أم الكتاب على الحقيقة، دل على صحة هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فالمحو والإثبات موجود عن مشيئة لما قد يسبق في علمه أنه يمحوه أو يثبته، ومشيئته أم لكل محو وإثبات ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٠ - ٤٣].

قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١] اختلف في معنى هذا، وفصل الخطاب فيه والله أعلم: إن المراد بذلك: ما انتقص الله ﷻ من أطراف أرضهم كأرض عاد وثمود ومدين والمؤتفكات وغيرهن بالإهلاك والتدمير، ولم يكن العلماء يومئذٍ موجودين كما ذكروا أنهم العلماء، ولا كان ظهر تغلب الإسلام على بلد من البلاد، وهذه السورة مكية.

وأما نظيرتها من سورة الأنبياء قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٤] فعبارة عن حال الإسلام يومئذٍ في اقتباله وشبابه، فكانت الأرض تنقص من أطرافها بأخذ المسلمين إياها يقول الله جلَّ قوله: فهلا أقاموا ذلك آية لهم على غلبة الإسلام على من يليه، دل على هذا التأويل قوله جلَّ قوله: ﴿أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ فكان فحوى الخطاب من ذلك إنذارًا بما هو كائن اليوم، فإنه سيكون المقتبل مدبرًا والشباب هرمًا كما قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[1].

ثم عرض جل ذكره إلى معنيين بقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] يعرض بمعنى قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلله المَكْرُ جَمِيعًا﴾

(١) تقدم تخريجه.

[الرعد:٤٢] المكر فعل في اختفاء عن الممكور به يراد به السوء والإذاية، فجزاء الله جل ذكره إياهم على ذلك هو المكر منه، وهو أن يذرهم في طغيانهم يعمهون، ولما زيَّنه لهم الشيطان - لعنه الله - لا يتداركهم منه بتوبة ولا ندم، سمى الله جل ذكره هذا الفعل منه بهم وشبهه مكرًا؛ لقصدهم البغي والفساد، كما سمى الله القصد باسم المقصود به، والفعل باسم المراد بذلك الفعل كذلك سمى القصد منه إلى تسوية السماء سبع سماوات استواء، وسمى فعله المقصود تسوية الجملة خلقًا وأمرًا استواء، كذلك سمى الجزاء على المكر منهم مكرًا منه، وهو تركه إياهم في عمه ضلالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا وهم الأخسرون أعمالاً ولا يشعرون.

عبر عن ذلك تعريضًا به قوله جلَّ قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٤٢] أي: عقبى دار الدنيا، ومتى أطلق اسم العاقبة فظاهره أن المراد به الخير؛ كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢] ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] فعقبى دار الدنيا لمن آمن ما في الجنة إن شاء الله تهديد ووعيد، وعقبى الدار خير الدار الآخرة ذلك هو عقبى الدار الدنيا، والجنة عاقبتها، والعاقبة إذا أطلق لفظها فهو الخير.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] ألا تسمع إلى قوله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِالله شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[1] [الرعد:٤٣] لما كذبوا رسالاته وشكوا فيها طلبوا منه

---

(١) المراد من هذه الشهادة أنه أظهر المعجزات على وفق دعواه ولا شهادة أعلى من هذه الشهادة القولية منا لا تفيد إلا غلبة الظن وهذه تفيد القطع بصحة نبوته، ثم عطف على اسم الله قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ أي: الذي حصل عنده علم القرآن وفهم معانية واشتماله على دلائل الإعجاز من النظم الأنيق والأسلوب العجيب الفائت لقوى البشر، فمن علم هذا الكتاب على هذا الوجه شهد بأنه معجز قاهر وأن الذي ظهر هذا المعجز عليه نبي =

الآيات على صدق ما جاءهم به، وقد كان القرآن كافيهم لو عقلوا عنه وعلموا مأخذه وتقرءوا سبيل الإعجاز فيه.

قال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾ قد يكون المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿الكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل والزبور، ويمكن أن يكون المراد بذلك: القرآن، فيكون المراد به: ومن عنده علم القرآن من أمته، فإنه من عَلِمَ علم القرآن وفقه فيه وعقل عنه مراد من له به علم من علم الكتاب المبين الفرق بين الرسول وغير الرسول، والنبي من المتنبئ، وعلم فرق ما بين الإعجاز والسحر والشعوذة، وهذا أولاً بفصل الخطاب، وحقيقة المراد والله أعلم بما ينزل معناه على هذا، والله أعلم ومن عنده تحقيق رسالته.

قال الله ﷻ: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦] وهذا خطاب راجع إلى معنى ما اجتلب من أجله الحروف المقطعة في أول السور، ثم ما وصل به في صدر السورة من ذكر خلق وأمر، وهذا أولى بنص الخطاب وحقيقة المراد، والله أعلم.

وعلماء أمته هم الشهداء له ولرسوله، ورواه عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ «وممن عنده علم الكتاب» أي: من عند الله ﷻ علمه، وقرأه مجاهد والضحاك وابن جبير والحسن وابن أبي عبلة واليماني وابن عباس «ومن عنده علم الكتاب» بضم العين وكسر اللام وفتح الميم، وهاتان القراءتان منتظمتان بمعنى قوله ﷻ: ﴿قُلْ

=

حق ورسول صدق، وعن الحسن وسعيد بن جبير والزجاج: أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ إلا هو يعني الله جل وعلا شهيدًا، ويعضده قراءة من قرأ ومن عنده على من الجارة، واعترض على هذا القول بأن عطف الصفة على الموصوف بعيد لا يقال: شهد بهذا زيد والفقيه، وإنما يقال: زيد الفقيه، وقيل: المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري؛ لأنهم يشهدون بنعمته في كتبهم، والاعتراض بأن إثبات النبوة بقول الواحد والاثنين مع جواز الكذب على أمثالهما لكونهم غير معصومين لا يجوز. [تفسير النيسابوري ٤/٤٧٤].

كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد:٤٣] فإن كان ذلك كذلك فالخطاب متضمن معنىً واحدًا؛ وهو شهادة الله وحده وهو أكبر الشاهدين، والقراءة الأولى متضمنة معنيين، وهو أولى.

وقد قيل لابن جبير: سعيد الذي عنده علم الكتاب هو ابن سلام. فقال: كيف يكون ابن سلام والسورة مكية، وإنما أسلم ابن سلام بالمدينة.

تفسير سورة إبراهيم(١) عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ
﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا
أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ
﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ١ - ٦].

قوله عز وجل: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾(٢) الألف خاصة الله تعالى من الحروف،

---

(١) سميت به؛ لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام تمّت بهذه الملة كالحج وجعل الكعبة قبلة الصلاة مع الدلالة على عظمتها بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية كمال إبراهيم عليه السلام وعلى نبوة نبينا عليه أكمل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

(٢) هذه السورة مكية كلها في قول الجمهور، وعن ابن عباس وقتادة ، هي مكية إلا من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَى النَّارِ﴾ وارتباط أول هذه السورة =

والام معبرة عن الملك، والراء للإنباء والرسالة وما جاءت به، وقد تقدم أن هذه الحروف متوسطة بين حروف الكتاب المبين وبين حروف القرآن أنزله عز جلاله من علو ونزله تبيانًا وتقريبًا للأفهام يقول جل من قائل: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يقول: من ظلمات الكفر والتكذيب والجهل إلى نور الإيمان والإسلام لله وحده وإلى نور العلم والتصديق ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لا يؤمن أحد ولا يهتدي إلا بإذن من الله له في ذلك ورضا، فليبشر المؤمن نفسه، وليكن شكره لربه فلعله إن يتم عليه نعمته بأن يختم له بذلك.

أعقب ذلك من الأسماء بما صدق به ما توجه قبل إليه قوله عز من قائل: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١] كمن أذن له في ذلك فليحمده ويشكره، ويجهد

بالسورة قبلها واضح جدًا؛ لأنه ذكر فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ ثم ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ثم ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فناسب هذا قوله ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ وأيضًا فإنهم لما قالوا على سبيل الاقتراح ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أنزل ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ كأنه قيل: أو لم يكفهم من الآيات كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات هي الضلال، إلى النور وهو الهدى، وجوزوا في إعراب ﴿الر﴾ أن يكون في موضع رفع بالابتداء، وكتاب الخبر، أو في موضع رفع على خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه ﴿الر﴾ وفي موضع نصب على تقدير: الزم أو اقرأ الر، وكتاب أنزلناه إليك جملة مفسرة في هذين الإعرابين، و﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء به كونه موصوفًا في التقدير أي: كتاب أي: عظيم أنزلناه إليك، وجوزوا أن يكون ﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب، و﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ جملة في موضع الصفة، وفي قوله: أنزلناه، وإسناد الإنزال إلى نون العظمة ومخاطبته تعالى بقوله إليك، وإسناد الإخراج إليه ﷺ تنويه عظيم وتشريف له ﷺ من حيث المشاركة في تحصيل الهداية بإنزاله تعالى، وبإخراجه ﷺ إذ هو الداعي والمنذر، وإن كان في الحقيقة مخترع الهداية هو الله تعالى، والناس عام، إذ هو مبعوث إلى الخلق كلهم، والظلمات والنور مستعاران للكفر والإيمان، ولما ذكر علة إنزال الكتاب وهي قوله: لتخرج قال: بإذن ربهم، أي: ذلك الإخراج بتسهيل مالكهم الناظر في مصالحهم، إذ هم عبيده، فناسب ذكر الرب هنا تنبيهًا على منة المالك، وكونه ناظرًا في حال عبيده، وبإذن ظاهره التعلق بقوله: لتخرج، وجوز أبو البقاء أن يكون بإذن ربهم في موضع الحال قال: أي مأذونًا لك، وقال الزمخشري: بإذن ربهم بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق. [البحر المحيط ١٣٢/٧].

في ذلك نفسه، وليستعن على ذلك بالدعاء والتضرع إليه صراطه هو الإيمان والإسلام وعبادته على ذلك، وهو من الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو شجرة مباركة متصلة بحقيقة الحق في الدنيا والآخرة أصلها الألوهية، وأفنانها مقتضيات الأسماء والصفات التي تفصلت إليها في الوجود، ومعنى الإسلام: هو الاستسلام وحده؛ بمعنى: هذا المطلوب بها التوحيد ثمرتها التقوى والمغفرة، وجناها ما تفرعت إليه مقتضيات الأسماء، والنور درجات أول درجة منه موجود قول: «لا إله إلا الله» على الكلمة والإيمان بها والعمل، وهو موضع قوله جلَّ قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فما استصحب العبد ذلك فهو على نور وخير، إن هو وافى على ذلك، لكنه بعد لم يصل، بل هو في ظلمة غفلته، ثم هو مكلف بعد هذا أن يترقى في درجات الإيمان.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:١٣٦] فأمرهم - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - أن يؤمنوا بعد أن آمنوا بالله ورسوله؛ ليزدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم، فلأهل الإيمان ظلمة هي الغفلة، فإذا تذكروا أبصروا، وإذا أبصروا آمنوا، وإذا آمنوا سارعوا، ومن تذكر وجد، ومن سارع سورع إليه، فكان وصوله على قدر إسراعه وسباقه، وذلك يسرع بهم إلى الصراط المستقيم صراط.

﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢] وذكر جل ذكره السماوات والأرض؛ لشياع وجود الحق فيهن، واتصال ذلك بفطرة الإسلام التي فطرهن عليها، وهي موضع صبغته الذوات ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨] وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأعلى هذا الصراط هو النور المبين والحق اليقين إليه المنتهى، واعلم - وفقنا الله وإياك - أن التدبر في الكتاب والنظر في الوجود مع العبرة من شاهد إلى غائب هو الطريق إلى ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] ما خلقناهما إلا بالحقولكن أكثرهم لا يعلمون وما خلقنا السماء

والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا كما قال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ...﴾ [المائدة:١٥] فأدنى الإسلام نور وما بطن منه إيمان وما علا فهو نور مبين.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:٢] إلى قوله: ﴿عِوَجًا﴾ [إبراهيم:٣] هو الدين القيم، والعوج فيه على قدر الخلاف عنه.

﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ﴾ عن الدين القيم والصراط المستقيم ﴿بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم:٣] أخبر الله سبحانه أن محبة الدنيا لأجل الدنيا من أعظم الذنوب، وهو تفضيلها على الآخرة وتقديمها في محبة القلوب عليها، والرضا بها والاطمئنان إليها، فليسمع من له أذن سامعة قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٤] انتظم هذا بقوله الحق: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [ص:٢٩].

كما انتظم بها قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:٥] المعنى: يقول كذلك أرسلنا إلى موسى كما أرسلناك ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٤] المراد بالرسول والرسالة: التبليغ، فييسر الله جل ذكره ذلك؛ لتبين الذي جاءوا به إلى الأمم، فإذا تبين لهم فأعرضوا عنه استحقوا الهلاك.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيّنا لهم التبليغ إليهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى...﴾ [فصلت:١٧].

ثم أتبع ذلك ما هو في معناه؛ قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ وهي دوائر نعمه ونقمه هذه أيام الله في عباده من هذه الجهة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] أي: إن في ذلك آيات الله جل ذكره آيات على عذاب الآخرة ونعيمها لكل صبار على بلائه شكور على نعمائه.

فصل

قال الله ﷻ لموسى ﵇: أخرج قومك من الظلمات إلى النور، وقد كانوا قبله أهل إيمان ووراثة نبوة عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه - على

جميعهم صلوات الله وسلامه - فإذن ظلمتهم تلك إنما هي كانت عن الغفلة، فأخرجهم الله ﷻ به إلى الولاية ووراثة النبوة والحكمة والكتاب؛ أما النبوة والكتاب فهما معًا، والحكمة هي الوقوف بالعلم، واليقين على معرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض، فإنه من تدبر ما جاءت به الرسل من وحي وكتاب، فتح الله له في ذلك إلهامًا ووحيًا إلى سره.

ومن تعرف الحق المخلوق به السماوات والأرض المذكور أورثه ﷻ الحكمة في قلبه، وإنما يجري العبد من حيث طلب ربه، ويسرع إليه ربه في إتيانه إليه من حيث أسرع إليه، وهذا الحق هو علم الله من حيث هو، وعن مقتضيات أسماء الله وصفاته أسلكها - جلَّ ذكره - في العالم مسالكها علوًّا وسفلاً، وأجراها مجاريها ظهرًا وبطنًا، وهو نور من أجل أن الصفات والأسماء متصلة بالمسمى الموصوف، كما اتصلت المفعولات بها، ودلت عليها دلالاتها هي على المسمى بها، والموصوف وهو صراط الله من حيث هو مسلك عباده إليه بالعلم ثم بالعمل، وهي شرائع ومناهج بمعنى ما تقدم.

قال رسول الله ﷺ: «**إن بين يدي الرحمن للوحًا فيه ثلاثمائة وأربعة عشرة شريعة، يقول الرحمن** ﷻ: **وعزتي وجلالي لا يأتي عبد من عبادي ما لم يشرك بي شيئًا بواحدة منهن إلا أدخلته الجنة**»[١].

وقال أيضًا ﷺ يومًا وقد كثرت عليه المسائل: «**أيها الناس، إن لكل سبيل مطية وثيقة ومحجة واضحة، وأوثق الناس مطية وأحسنهم دلالة ومعرفة بالمحجة الواضحة أفضلهم عقلاً**»[٢] وكم من عاقل عقل عن ذكر الله - جلَّ ذكره - أمره، وهو حقير عند الناس حقير المنظر ينجو غدًا، وكم من ظريف اللسان جميل المنظر عند الناس يهلك غدًا عند الله.

رجع الكلام واتساق جلَّ ذكره اسم العزة في قوله: ﴿**إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾ [إبراهيم:١] لما في الأسماء من أسماء الرحمة والحنان والمغفرة والعفو

---

(١) ذكره الحكيم (١/٢٩٠).

(٢) أخرجه الحارث (٧٩٨).

والكرم والفضل، ولما فيها من أسماء العدل والابتلاء والامتحان، فهو العزيز المنيع، لا يُنال ما عنده إلا بفضله، ولا يُنجا من عذابه إلا بعفوه ومغفرته، وهو المجازي على طاعته ومعصيته، وهو الحميد على كل حال.

قوله ﷻ: ﴿الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢] عرَّف عز جلاله بنفسه الذي اسمه العزيز الحميد، وأوجد الموعود به والمحذور في السماوات والأرض، أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:٢] ويتعرف أيضًا من قوله هذا جل قوله الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من مقتضيات أسماء له وصفات وشواهد على موجودات الآخرة، ودلائل غيب مخبوء في غيابات الغيب من فقه عن الله، بل ذكره حكمته في مصنوعاته، وما خلقها به تميزت له الدنيا من الآخرة، فليؤثر بعدها أيتهما شاء فمن آثر الدنيا على الآخرة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] حبها على الآخرة هو الضلال البعيد بنصِّ قول الله جل ذكره، قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٦] هذا من تعديد أيام الله.

كذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا
كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ
شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ

ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم:٧ - ١٠].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] [إبراهيم:٧].

قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم:٩] معناه، والله أعلم: أسكتوا أفواه الرسل - عليهم السلام - عن التبليغ إلى أممهم بالأيدي منهم؛ إما بالضرب والإخافة، وبسط الأيدي إليهم، والألسنة بالسوء وبما الله به أعلم.

وقد يكون معنى قوله: ﴿رَدُّوا﴾ بمعنى الترداد منهم والتكرار بأيديهم للإسكات، وقد أوذي رسول الله ﷺ؛ منعوه من التبليغ عن ربه ﷻ، فكان يعرض نفسه على القبائل في المواسم، فيقول: «**مَن يجيرني؟ مَن ينصرني حتى أؤدي رسالة ربي؟**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**لقد أوذيت في الله وما يؤذى في الله أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد**»[3] ونحو هذا جاء عن من قبله من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩] الشك من ذواتهم في حقيقة ما يخبرونهم به من أن الله واحد لا شريك له ومريب من الارتياب في صحة صدقهم في إضافتهم الرسالة إلى أنفسهم، والتبليغ عن الله جلَّ ذكره.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله، وأوسع لهم من الرزق، وأظهرهم على العالم. وابن جرير عن الحسن: ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: من طاعتي. وابن المبارك وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» عن عليّ بن صالح مثله. وابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية قال: لا تذهب أنفسكم إلى الدينا؛ فإنها أهون عند الله من ذلك، ولكن يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من طاعتي. فتح القدير (١٣٣/٤).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٤٨٣٠)، والبيهقي (١٦٩٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٠٨٧)، وعبد بن حميد (١٣١٧)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٦٦)، والترمذي (٢٤٧٢) وقال: حسن غريب. وابن ماجة (١٥١)، وابن حبان (٦٥٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٥٠/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣٢)، والضياء (١٦٣٤).

قالت الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ردوهم - صلوات الله وسلامه عليهم - إلى اسم الألوهية المتفق على معرفته، وإلى الفطرة التي فطرهم، والسماوات والأرض عليها وما بينهما ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

وصلوا بذلك صلوات الله عليهم قولهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم:١٠] ليست «مَن» هنا زائدة لا معنى لها كما زعم قوم، ولا هي للتبعيض كما زعم الغير، بل هي لاستغراق الجنس كما قال رسول الله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله»[1] وهي بمثابتها في قوله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾ [ص:٦٥].

أترى - عفا الله عنا وعنهم - لو يجوز القول بالتبعيض في هذا وبالخطاب، وإنها زائدة لا معنى لها، ليس قول القائل: «ما من إله إلا الله» أبلغ وأحق حقيقة في التوحيد من قول القائل: «ما من إله إلا الله» فإنما جاءت ها هنا «مَن» لاستغراق الجنس من الإلهية الباطلة المتخذة من دون الله سبحانه وله الحمد، ويجوز أن يقدرها هنا محذوف، فيكون تقدير الكلام: يدعوكم ليغفر لكم ويطهركم من ذنوبكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا
ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم
مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ
وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ

(١) أخرجه مسلم (١٢١)، وابن خزيمة (٢٥١٥).

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ [إبراهيم:١١ - ١٧].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١] هذا تنبيه لهم على خصوصية الله سبحانه من يشاء من عباده ومنّه عليهم بالنبوة والرسالة، ومن استغرق معرفة في آيات الله وقف علمًا ويقينًا أن الله - جلَّ ذكره - لو أطاعه الخلائق أجمعون في شأن الإيمان به والاستسلام له، والعمل بجميع ما يرضيه من العلم واليقين لذهب بهؤلاء من حيث أتى بقومٍ يجهلون ويعلمون ويؤمنون ويكفرون ويطيعون ويعصون، ويتخذ منهم أولياء وأنبياء، ويصطفي منهم الرسل والأولياء، ويجعل منهم الأباعد والأعداء.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

ثم قالوا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: إنا لا نقدر على ذلك إلا بإذن الله في ذلك، فيفعل ذلك بقدرته ومشيئته.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:١١] قولهم هذا - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يدل على أنهم على حرصهم على هداية أممهم لا يسألون ربهم الآيات، بل يتوكلون على الله في ذلك حتى يأتيهم الله بالفتح من عنده وبالفرج من لدنه، ويمكن أن يكون معنى قولهم؛ أعني: الأباعد.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم:١٠] أي: بما يخبرنا بتصديقكم، أو يجعل في قلوبنا تصديق ما تزعمونه، فقد قال هذا أمم ضالة، والسلطان: الحجة، وهو القهر والغلبة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ رسل الله ﷻ إلى عباده نعمة منه عليهم توجه عليهم واجب شكرها، فإن كذبوهم وأخرجوهم من بينهم فقد بدلوا نعمة الله كفرًا، وكذلك شواهده وآياته ودلائله في سماواته وأرضه، فتعاموا عنها وتبالهوا وكذبوا، فقد بدلوا نعمة الله كفرًا، وأحلوا قومهم دار البوار، وهو العذاب في الدنيا والآخرة.

يقول جلَّ من قائل: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وقد صدقهم الله وعده ونصر حزبه، فأهلك أعداءه وأسكنهم الأرض من بعدهم، والحمد لله رب العالمين.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من وعدي هذا ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾[1] أي: مراقبتي ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٣ - ١٤].

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: من أمم المرسلين وأتباعهم، قرئ بفتح التاء على الخبر عنهم، وبخفضها على الأمر لهم بالدعاء والاستفتاح على الذين كفروا.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٥] أي: أهلكوا فخابوا من خير الدنيا والآخرة.

يقول جلَّ ذكره: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: في مستقبل أمره لما كان المستقبل في حقهم محمولاً عندهم [...][2] بمعنى الوراء ﴿وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٦ - ١٧] هذا - والله أعلم - عبارة عن تقلب الحال بهم إلى مدة الزمهرير الدائرة عليهم من بعد مدة السعير - نعوذ بالله من أحوال أهل النار - في النار، فيها يسقون الصديد، والمهلة يكون من عصارتهم، وسلط عليهم شدة العطش وصدودة الماء، حتى إذا جاء أحدهم ليتجرعه منع على ذلك أن يسيغه كراهةً له وعسرًا، يلقونه عنه ذلك؛ ليذوقوا العذاب به من كل وجه، فإذا صار إلى أجوافهم حلَّ بهم من أجله عذاب أشد من العطش، وهو على ذلك لا يزيل العطش

(١) ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ يعني: ذلك الثواب لمن خاف مقامه يوم القيامة بين يدي رب العالمين. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: يقومون ثلاثمائة عام، لا يؤذن لهم فيقعدون، أما المؤمنين فيهون عليهم كما يهون عليهم الصلاة المكتوبة. وروي عن منصور عن خيثمة أنه قال: كنا عند عبد الله بن عمر فقلنا: إن عبد الله بن مسعود كان يقول: إن الرجل ليعرق حتى يسبح في عرقه، ثم يرفعه العرق حتى يلجمه. فقال ابن عمر: هذا للكفار، فما للمؤمنين؟ فقلنا: الله أعلم. فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، حدثكم أول الحديث ولم يحدثكم آخره؛ إن للمؤمنين كراسي يجلسون عليها ويظلل عليهم بالغمام، ويكون يوم القيامة عليهم كساعة من نهاره. بحر العلوم للسمرقندي (٤٢٧/٢).

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

عنهم، وقد أصابهم به الموت لكل وجهه لو منَّ به عليهم، ويأتيهم الموت من كل مكان من أجسامهم، وكلما جاورهم من تلك الدار، وما هم بميتين تهب عليهم الريح الصرصر.

والعاصف من الريح: العقيم التي تعقمت عن الرحمة، فتمزق لحومهم وجلودهم وتشقق أجسامهم، ويجد العذاب فيه مجالاً لعظمها فتربوا على ذلك، وتنقطع الأعضاء منهم، وتسيل قيحًا ودمًا.

ذكر أن للدود في أجسامهم دويًا كدوي الوحوش نافرة في غاباتها، وتجري من صديدهم وقيحهم ومن دموعهم الأنهار، فمن ذلك شرابهم في هذه المدة على مدة دائرة بالزمهرير لباسهم فيها الحديد، لا يكنهم من جليدها ولا رياحها، ولا يحجزهم من عذابها بيت ولا جبل ولا كن.

وقد عدد الله - جلَّ ذكره - نعمه علينا بالكن والسكن إلى البيوت، بقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٨٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١] وليس لأهل جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مِن عذاب الله من واقٍ، لا يرحمهم راحم، ولا ينفعهم شفاعة الشافعين، يلعنهم كل شيء، ويلعن بعضهم بعضًا، ويلعنون أنفسهم.

يقول الله جلَّ مَن قائل: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧] يعني: عذاب السعير يدور عليهم دائرته، فيكون [....][١] معنى قوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: عذاب الدار الآخرة قال هذا الوصف هنا كما قال في قصة قوم لوط وثمود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: من عذاب الإهلاك وما في ذلك من سعير.

ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:٥٨] [...][٢] أشد العذاب عذاب

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ).

الآخرة، لبوسهم فيها القطران، وهواهم لهب النيران، وأمطارهم حميم آن، ظلهم الحموم، ونسيمها السموم، ونقلبهم في العذاب الأليم.

قال الله جل ذكره: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يعني: طول مدة السعير ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٣ - ٢٥] والغساق: هو ما يخرج عنهم هكذا إيذاء، تدور عليهم دوائر العذاب، والله أعلم بسعة تلك الدوائر.

غير أن الله قال وقوله الحق: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٣ - ٢٤] وهي دائرة السعير كما تقدم، وذكرها فيما ها هنا بالأيام وبالشهور، وفيما هناك بالأحقاب، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره، ومما يوجبه أو يقرب منه أنه خير معاذ.

فصل

الوراء حقيقة: الخلف، كما الأمام حقيقة: المواجهة، وجاء في القرآن العزيز الوراء كقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩] وقوله جلَّ قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١].

قال المفسرون في هذه الوجوه: إنها بمعنى الأمام.

قالوا: والوراء قد يكون بمعنى الأمام، واحتجوا بما تقدم ذكره وبأمثاله، وقالوا: كل من لم يأتِ بعد وهو منتظر فهو وراء، وهذا معنى من معاني القرآن يجب تحديق البصيرة إليه لينكشف مستوره، وتنقشع غيابة الشك عن حقيقته، فنقول والله نسأله التوفيق: إن الوراء هو ما خلفته وصرفت وجهك عنه، والأمام ضده، وهو ما وجهت وجهك إليه ووليته ظهرك، فهو إذاً لا بصرته بعينٍ ولا علمته بعلمٍ؛ إذ الوراء موضع الجهل وعدم الإدراك.

يقول شعيب عليه السلام: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢] أي: جعلتموه منكم بموضع الجهل به، والغفلة عنه مع عدم الخشية والمراقبة.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء:٤٧] فطمس الوجوه على هذا

هو أن يضيعوا سماع الهدى ورؤيته، والقول به والعمل، وهكذا هو الكافر، وكان لأهل الكتاب هداية، فلذلك يهددهم بأن يسلبهم النعمة بها، ثم أنفذ ذلك عليهم، ووصف - جلَّ ذكره - المؤمنين بالإيمان بالغيب، والخشية لله بالغيب والمراقبة له والهداية.

وقال إبراهيم ﷺ: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا**﴾ [الأنعام:٧٩] وصورة الفطرة على الإسلام هي التوجه إلى الله ﷻ، والقصد بالوجهة والنية والصلاة خاصة ذلك وعمدته.

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يلتفت، فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى**»[1] ومن توجه إلى الله تعالى، وعمل محتسبًا عليه أجره في الآخرة، مؤمنًا بوعده فيما لها يجمع وإياها يقصد، ويسأل بتوهم الجنة والنار علمًا يسأل هذه، ويتعوذ به من هذه كان ذلك منه برأي عين، فهذا ليست الآخرة منه نورًا.

وأما الكافر بالله والدار الآخرة وآياته في السماء والأرض دالة؛ لأنه جاهل بها، عامل لدنياه التي نيط إليها بمشاهدته لها يجمع، وعليها يعول ظاهرًا وباطنًا؛ لأن وجهه إليها، والآخرة منه بظهر ووراء، فهو خارج عن الدنيا، ووجهه إليها قد استوطنها ورضيها، فهو مدفوع إلى الآخرة، ووجهه إلى هذه والآخرة وراءه، فهو يمشي إليها مرارًا، ويعمل للدنيا وينظر إليها، وهو يخرج عنها إلى الآخرة دفعًا يبني ما لا يسكن، ويجمع ما لا يأكل، ففي مثل هذا يحسن هذا الخطاب، وهو كالمثل المضروب لحاله عبَّر عنه بهذه اللفظة.

وأما قوله: ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف:٧٩] فلجهل أصحاب السفينة برأي الملك في ذلك.

وأما قوله جلَّ قوله: ﴿**وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ [هود:٧١] فلأجل المعهود من كون الولد الذي لم يأتِ بعد غيبًا، ومن أنه أبدًا بعد أبيه وخلفًا له.

وقال رسول الله ﷺ: «**أقيموا** ركوعكم وسجودكم، **فإني أراكم من ورائي كما**

(١) تقدم تخريجه.

أراكم من أمامي»[1] فهذا هو الوراء والأمام على معهوديهما لذلك، وهو أعلم.

قال جلَّ قوله في الكافر، وهو في جهنم يقاسي شدائدها من عذاب الزمهرير، ومن وراءه عذاب غليظ يريد عذاب السعير؛ لأنه مشغول بما هو فيه، وإنه لا يتفرغ باله إلى ما أمامه كما كان في الدنيا، سواءً عليه باليأس من الراحة بما هو فيه.

قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ**﴾ مثل ضربه لأعمال وجهت إلى غيره سبحانه، وهو رب السماوات والأرض وما بينهما، ومالك الدنيا والآخرة، وبيده الجزاء الآجل والعاجل، فإذا وردوا قيل لهم: اطلبوا ثوابكم من وجهتم له أعمالكم، فلم يتصل لهم بالثواب منه، ولهم أعمالهم، فضلّت عنهم كتفرق الرماد في اليوم بالريح العاصف.

﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)** ﴾ [إبراهيم:١٨ - ٢١].

والله هو الولي الحميد في الدنيا والآخرة، فهو الموفق لطاعته والمنيب عليها فيما هنالك؛ إذ قال وهو أعلم: ﴿**ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ**﴾ [إبراهيم:١٨] يريد - جلَّ ذكره - من وجه أعماله لغير الله فقد ضل عن المقصد، وبعُد عن الاتصال بالثواب في الدنيا والآخرة، هذا هو المثل والممثل به، وبقيت التذكرة حبط عمل الكفار في الدنيا مع إقباله عليها، وهو مع ذلك يخرج عنها، ويترك ما جمعه للوارث وما بناه للخراب وما ولد للفناء.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (٦٤٤٤)، والبغوي في «الجعديات» (٢٨٠٨).

وتحقق في الإبطال إلى حقيقة ما وصفه - جلَّ ذكره - كما نشأ عمل المؤمن إلى حقيقة وجوده فيما هنالك، وإن كان مصير العالمين إلى حقيقتهما على مهل، ولذلك لا يشعرون من لا عقل له، وكل ما هو آتٍ، فكان قد أتبع ذلك بما هو في معناه.

قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وقد تقدم إلماع إليه، وذكره هذا بمعنى المثل الذي تقدم، يقول جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ومن هذا الحق إثبات الإلهية والوحدانية والنبوة والرسالة وما جاءت به، فعلى ذلك فليعمل العامل، وإلا ضلت أعمالهم معهم، فلم يقدروا على شيء منها، والضلال عن الحق هو الضلال البعيد.

ثم وجه الخطاب إلى الكفرة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(١) [إبراهيم:١٩] أي: كما فعل بمن كان قبلكم.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] وهو من فعل الوعيد، والوعد المتصل بما جاءت به الرسالة.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا

(١) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم أيها الناس كما قاله جماعة، أو أيها الكفرة كما روى عن ابن عباس بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يخلق بدلكم خلقًا مستأنفًا لا علاقة بينكم وبينهم، والجمهور على أنه من جنس الآدميين، وذهب آخرون إلى أنه أعمُّ من أن يكون من ذلك الجنس أو من غيره، أورد سبحانه هذه الشرطية بعد أن ذكر خلقه السماوات والأرض إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإن من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان على إعدام المخاطبين وخلق آخرين بدلهم أقدر. تفسير الألوسي (٩/٣٤٤).

سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ
مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢ - ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] المثلين إلى آخرهما.

قيل: الشجرة الطيبة هي النخلة، والكلمة الطيبة هي ذكر الله تعالى، كقول العبد: لا إله إلا الله، والحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر ونحو هذا، وكلمة «لا إله إلا الله» هي العمدة في الشهادة والذكر.

والكلمة الطيبة هي الثابتة في قلب المؤمن صاعدة إلى السماء؛ يعني إلى الله كما قال رسول الله ﷺ: «**وكلمة لا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

والنخلة ثابتة في الأرض، راسخة في الثرى، صاعدة إلى السماء، عملها طيب وقلبها طيب، رأسها في أعلاها صاعدًا إلى السماء كالإنسان صاعد إلى العلو، كالمؤمن في توجيهه نيته إلى ربه بلغت النخلة حدها المقدر لها، وانتهت حيث انتهى بها، ثم تأتِ بنفسها لربها ورفعت جذورها علوًّا، كذلك قال رسول الله ﷺ: «**وإليك نسعى ونحفد**»(٢) كذلك المؤمن لربه عمله، وفيه أمله ونيته، مثَّلها رسول الله ﷺ بالمؤمن، وقال لأصحابه وفاءً: «**أكرموا عمتكم النخلة؛ إنها خلقت من فضل طينة آدم**»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٧١٥)، والبيهقي (٢٩٦٣).
(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، وابن عدي (٦/٤٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/١٢٣)، وابن =

وقال ﷺ: «**ألا ترونها لا تحمل حتى تلقح**»[١].

ويقال: إنها ساوت للمؤمن في كثرة المنافع والأشباه، منها أن كل شجرة إذا قطفت تشعبت الغصون حولها، والنخلة إذا قطع رأسها ذهبت أصلها، وتساوت أيضًا في الإلقاح ولها عروق وساق وغصون، فمثل عروقها من المؤمن المعرفة وساقها الطاعة، [...][٢] وهي لها غصون من حيث هي شجرة، لكل غصن منها ثمرة:

- فغصن منها لسانه، وثمرته منه: النظر بالاعتبارات.
- وغصن منها عينه، وثمرته منه: النظر من المؤمن صدق المقالات.
- وغصن منها عينه، وثمرته منه: النظر بالاعتبارات.
- وغصن منها أذنه، وثمرته: استماع العظات.
- وغصن منها يداه، وثمرته: الزكوات والصدقات.
- وغصن منها رجلاه، وثمرته: الجمعة والجماعات.
- وغصن منها قلبه، وثمرته: ترك الهوى والشهوات.
- وغصن منها بطنه، وثمرته: أكل الحلال والطيبات.
- وغصن منها فرجه، وثمرته: ترك الزنا والخبيثات.

وصدق الصادق المصدوق ﷺ لا شيء من الشجر أشبه بالمؤمن من النخلة، وللنخلة من حين تطلع إلى أن ترطب عشرة أحوال وعشرة أسماء، فأول حمل النخلة الطلع وذلك أول ما يبدو، فإذا انشق فهو الضحك والإِغْريض، فإذا صلب فهو البلح، فإذا عظم فهو البسر ثم السياب، فإذا لانت فهي الثغرة، فإذا احمرت فهي الزهر، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مجزعة، فإذا بلغ ثلثيها فهي حلقانة، فإذا عمها الإرطاب فهي منسبتة، ولا يتم إرطابها ما لم تحل بهذه الأحوال.

كذلك المؤمن له عشرة أحوال من حين يتوب إلى أن يصل إلى الله ﷻ، فأول

=

عساكر (٣٨٢/٧).

(١) هو من شرح النووي على مسلم (٢٩٠/١) ولم أقف عليه من حديث، والله أعلم.

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ)، وطمس في (ف).

أحوال المؤمن التوبة، ثم الإصلاح، ثم الاجتهاد، ثم الخوف، ثم الرجاء، ثم الإرادة، ثم المحبة، ثم الرضا، ثم المعرفة، ثم يصل إلى الله ﷻ، وإنما يصل إلى ربه إذا صلحت أحواله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩] كما أن الرطبة إذا صارت منسبتة تمت أحوالها، وصلحت للأكل.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥] ولو كان التذكر المطلوب منا هو تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة، أو بغيرها من الشجر لم يكن ذلك تذكارًا ولا اعتبارًا، بل يكون علمًا.

قال رسول الله ﷺ لأصحابه يومًا: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها مثلها مثل المؤمن خبروني ما هي؟**» ثم قال لهم: «**إنها النخلة**»[1] فكان ذلك منه ﷺ كالعالم يمتحن أصحابه عما عندهم من فهم وعلم.

أما الكلمة الطيبة فهي كلمة «لا إله إلا الله» ثم بالتبعية غيرها من الأذكار كما تقدم ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم:٢٥] متى قالها متى عمل المؤمن بمقتضاها من ذكر أو صلاة أو صيام أو صدقة أو غير ذلك من أعمال الطاعة أتته أكلها، فذلك قوله جلَّ قوله: ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كل حين قالها أو عمل بها ﴿تُؤْتِي﴾ أيضًا ﴿أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ على الولاء؛ لأن المؤمن يقولها مصدقًا بها قلبه لسانه، فيكتب عند الله مؤمنًا له عنده ما للمؤمنين، وعليه ما عليهم في الدنيا والآخرة.

فمثل هذه الشجرة هو الحق المخلوق به السماوات والأرض من معاني أسماء وصفات، ثم ما يتفصل إليه من موجودات الآخرة وموجودات البرزخ، وما بعد البعث في عرصة القيامة من حشر ونشر وسؤال وعذاب ونعيم ووجود حوض وصراط وميزان وشفاعة، وجميع ما تقدم ذكره في شرح اسمه «الشهيد» إلى منتهى الشهادات.

وعلى العموم في محكم قوله الحق: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧٢٧٧)، وابن حبان (٢٤٥)، والطبراني (١٣٣٣٥).

أسلك ذلك كله في عالمه مسالكه، حتى عاد العالم كله لمن اعتبر إلى رفيع الذكر إلى قسمين: ذكر يذكر بهذا كله، ومما لم يذكره وفتنة، فهذه هي الشجرة المباركة الطيبة التي رسا أصلها بالفطرة، وظهرت أفنانها بالشرعة، وثبتت حقائقها في جدر القلوب بالإيمان، وعلت أعاليها في السماء بالعمل بالطاعة بالحق، فاتصلت بالحق المبين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ لذلك قال جلَّ قوله، وهو أعلم: ﴿**وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [إبراهيم:٢٥] ولو كان التذكر المطلوب منا هو تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة، أو بغيرها من الشجر لم يكن ذلك تذكارًا ولا اعتبارًا، بل كان يكون علمًا.

فصل

قال الله جلَّ قوله: ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم:٢٤] ولم يقل: أصلها ثابت في الأرض؛ إذ كان منبعثها من لدنه ﷻ أسماؤه وصفاته، ثم إلى ما تفصلت إليه من الآية وآثاره ومقدوراته، فكان ذلك كقوله جلَّ قوله في الشجرة المباركة الزيتونة: ﴿**لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**﴾ [النور:٣٥] إنها ليست ثابتة في أرض، ولا هي منسوبة إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى جنوب ولا إلى شمال، فافهم، وسيأتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى، فالشجرة الطيبة إذًا هي شجرة الحق المتفرعة إلى ما تفرعت إليه، ومثلها من الأحياء المؤمن المعبَّر عنه بقوله الحق: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين:٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورة الرحمن**»(١) و«**مثل المؤمن من الشجر النخلة**»(٢) **على** ما تقدم هذا في الدنيا، ثم جميع شجر الجنة **في** الدار الآخرة ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ [إبراهيم:٢٥] على الولاء، فافهم المثل المضروب بالكلمة [....](٣) الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وموضع التذكرة والمطلوب **الأعلى**، ذلك هو الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين [ ] بياض في (غ)، وغير موجود في (ف).

الموجود ها هنا باتصال هذا الحق؛ لاتصال الأسماء والصفات به جلَّ وعلا.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[١] [إبراهيم:٢٦] ذُكِرَ أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة أو العلقم، وقيل غير هذا، وكشجرة خبيثة فهي مثل لما ماثلها من شجرة جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وذلك كله مثل للكفار كل إنسان منهم بخلقه وعلمه وجنس كفره، ولكل درجات مما عملوا، وشرح ذلك يطول به الكتاب.

وقال عزَّ من قائل: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٢٦] ليس كذلك فيما تقدم من وصف الشجرة الطيبة، وإنها ليست بصاعدة إلى السماء، كذلك عمل الكافر لا يفتح له ولا لعمله السماء والأرض في وصف الذم ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢].

وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤ - ٥].

وكقوله: «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»[٢] المعنى إلى آخره، دلَّ على هذا أن الهداية سبقت الضلالة، وأن الذكر أوجد قبل الفتنة ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] أي: الكلمة الطيبة في قلب الكافر؛ أي: وجود ما فيه من خلقة الفطرة كقولهم متى سألوا: من خلق السماوات والأرض؟ «الله» من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ «الله».

ومثل هذا ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

---

(١) الشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّت من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (٢٨٦٥)، والطبراني (٩٨٧).

﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾[١] [إبراهيم:٢٧] كنبات النخلة في الأرض، ونبات شجرة الحق الموجود به العالم [...][٢] ووجودها كلها بالحق المبين، فهذا الحق في الدنيا والآخرة.

فصل

من كان في خلقه وسيره إلى ربه كما وصف الله جل ذكره في الشجرة في عمله وشهادته ومراقبته وصموده إلى ربه فليست الآخرة من هذا بوراء، إنما هي بالوراء من الكافر والغافل الجاهل التارك الآخرة، وذكر الله منه بظهر هذا حقيقة المعنى، وحقيقة اللغة من حيث خلقتها، ثم تداولتها العبارات مع جاهليتها، وخلفهم فيها المسلمون فاستمروا على آثارهم وعند التحصيل، فتدبروا حقائق المعاني، كذلك ﴿يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥] بصفات النخلة.

وصفات شجرة الحق صفات المؤمن، فيحتذون ذلك ويصعدون في درجات الوصول إلى الله ﷻ كما ترقت النخلة بعملها إلى الوصول لأن تصلح للأكل، وكما ترقت شجرة الحق إلى موجودات الآخرة ومعانيها إلى الأسماء والصفات، ثم إلى الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ليس كشجرة خبث طعمها وريحها، وكثر ضررها واجتثت من فوق الأرض، أصلها الثابت في الهواء، والسماء لا قرار له، تفيئه الريح والفتن هكذا، وهكذا كالكافر لا يصعد له إلى الله ﷻ علم، ولا يفرع إليه منه عمل ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

---

(١) قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ كلمة التوحيد، وهي قوله: لا إله إلا الله ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: قبل الموت ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني: في القبر. هذا قول أكثر المفسرين . وقيل: في القبر عند السؤال وعند البعث، والأول أصح، لما روى البراء بن عازب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المُسْلِمُ إذَا سُئِلَ في القَبْرِ يَشهَدُ أنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فذَلِكَ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ قال: «حين يُقالُ لَهُ: مَن ربُّكَ؟ ومَا دِينُكَ؟ ومَنْ نَبيُّكَ؟ فيقول: الله ربِّي، وديني الإسلامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ» والمشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، فيلقّن الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال، ويثبته على الحق. تفسير اللباب لابن عادل (٤٨٩/٩).

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ)، وغير موجود في (ف).

أتبع هذا ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧] نظم جل ذكره تثبيته المؤمن في الدنيا والآخرة بما في شجرة الحق من الثبات الذي عبر عنه قوله جلَّ قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] بما في شجرة الخلطة من الاجتثاث وثبوت كلمة الإخلاص، والحق في قلب المؤمن، ونزول ذكرها، والشهادة بها من قلب الكافر بالتأفيك بما أفك له من علم لها وعمل بها.

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ بالكلمة الطيبة في الحياة الدنيا، وفي القبر وفي عرصة المحشر يوم المحنة يَزْوِيهِ الله جل ذكره الذي أشار إليه بقوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ في المواطن كلها، ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] لما كان من الظالمين من يكون قد شهد شهادة الحق، وأسرف على نفسه، وضيع التوبة، وفرط في الاستعداد كان في المشيئة أن الله لا يغفر أن يُشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ
مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن
تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨] أول المراد بهذا الخطاب: قريش وأهل الكتاب ورسل الله جل ذكره وكتبه، نعم وما نصبه من الدلائل وأقامه من الشواهد، نعم لا تحصى ولا يبلغ شكرها، ومن كذب بها وأعرض عنها فقد بدل نعمة الله كفرًا، وكما يحل أئمة الكفر قومهم وأتباعهم بذلك دار البوار فكذلك يحل علماء المؤمنين وأعلام المسلمين أتباعهم قرار الفوز، وهذا مفهوم الخطاب.

قوله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾(١) [إبراهيم:٣٢ - ٣٤] وجه الخطاب في هذا كله إلى تعداد النعم، ومعناه الدلالة على موجودات الآخرة في الدارين منهما، فما أخرجه بالماء من الأرض دلالة على ثمرات الجنة ورزقها، وكذلك تسخيره الفلك في البحر بأمره تجري فيه، وكذلك الأنهار على أنهارها والشمس والقمر دلالة على رؤية الله العلي الأعلى، وتسخيره الليل والنهار نعمتان منه دلالة على الدنيا والجنة والنار والإله الحق المبين وآلهة باطلة.

---

(١) إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمَنْ شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومَنْ شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتنقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عمّا أراد، وهذا من مقامات العارفين. وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم. قيل: أجلّ النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطيق القيام بشكرها أحد. وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفّار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية. وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وأما دلالات ذلك على موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فما هنالك سماء لهم تظلهم ويرحمون منها، ولا أرض لهم تكون قرارًا لهم، وأنهارهم الغسلين والحميم والغساق، يجري بهم الفلك في بحار حميمها وغساقها ويحمومها في أمواجها.

قال الله ﷻ: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الحَمِيمِ * ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١ - ٧٢] أي: يوقدون، وهم عن ربهم محجوبون، هذا إلى ما في الخطاب من التذكير بعظيم الاقتدار ومضاء المشيئة، وإحاطة العلم وتدبير الأمر، وذكر الملك والملكوت فانتظم هذا المعنى من هذا الخطاب بما في صدر السورة من قوله: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ * الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١ - ٢] المعنى إلى آخره، فافهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنًا﴾[1] قال رسول الله ﷺ:

---

(١) مناسبة هذه الآية لما قبلها: إنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وجعلوا لله أندادًا، وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة من دون الله، وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمه، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه - صلوات الله =

«**إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس**»[1] فحرمها الله جل ذكره، وكان التبليغ عنه في ذلك على لسان خليله، ثم على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه على جميعهم ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم:٣٥] تبرأ عليه السلام لله تبارك وتعالى من الحول والقوة، واعتصم به من شر نفسه أن يكله إليها.

﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم:٣٦] هذان الاسمان بمعنى الثواب هنا، يرحمهم فيتوب عليهم، ثم يغفر لهم، ومثله عليه السلام لا تستغفر لمن كفر بالله.

﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾ يريد إسماعيل - عليهما السلام - ثم من كان عنه من ولده أعلمه جل وعز أنه سيكون به ذرية ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ [إبراهيم:٣٧] المراد بذلك: هذه الأمة كما قال: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج:٢٦].

لم يكن الركوع إلا في هذه الأمة، بشَّر الله بذلك ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم:٣٧].

قال الله ﷻ: ﴿**أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا**﴾ [القصص:٥٧].

=

عليه - دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأنْ يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة وهي الصلاة؛ لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها. ﴿هَذَا الْبَلَدَ﴾ وقال الزمخشري: هنا سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمنًا. انتهى. ودعا إبراهيم أولاً بما هو على طاعة الله تعالى، وهو كون محل العابد أمنًا لا يخاف فيه، إذ يتمكن من عبادة الله تعالى، ثم دعا ثانيًا بأن يجنب هو وبنوه من عبادة الأصنام. ومعنى «واجنبني وبني»: أدمني وإياهم على اجتناب عبادة الأصنام. وأراد بقوله: ﴿وَبَنِيَّ﴾: أولاده من صلبه الأقرباء. وأجابه الله تعالى فجعل الحرم آمنًا، ولم يعبد أحد من بنيه الأقرباء لصلبه صنمًا. تفسير البحر المحيط (١٦٥/٧).

(١) أخرجه أحمد (١٦٤٢٣)، والبيهقي (١٥٩١٧)، والطبراني (٥٠٠).

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠ - ٤٣].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] قيل: المعني بهذا الدعاء: هو آدم وحواء - عليهما السلام - وأرى والله أعلم أن هذا من استغفاره لأبويه قبل أن ينهى عن ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤] وقرأ عاصم الجحدري وعمر وابن عبيد: «ربنا اغفر لي ولولدي» بغير ألف؛ يعني: ابنيه، وهي قراءة عالية، وقراءة الجماعة بالألف.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣] الإهطاع: الإسراع والقصد إلى الشيء دون التفات إلى غيره ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الإقناع: لغة في الرفع والميل، دل هذا على التنكيس للرءوس، والرفع لها.

قوله ﷻ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[1] [إبراهيم: ٤٣] فهم في

---

(١) ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الهواء في اللغة: المجوّف الخالي الذي لم تشغله الأجرام، والمعنى: إن قلوبهم خالية عن العقل والفهم؛ لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء؛ أي: لا رأي فيه ولا قوّة. وقيل: معنى الآية: إنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر. وقيل: المعنى: إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير. وقيل: المعنى: أفئدتهم ذات هواء، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: خاليًا من كل شيء إلّا من همّ موسى. فتح القدير (٤/١٥٧).

إسراعهم ذلك وقصدهم ناظرين إلى الأرض لا يطرفون، ولا يرتد إليهم طرفهم، فإذا رفعوا رءوسهم إلى السماء ذهلوا وامتلئوا رعبًا، فارتفعت أفئدتهم إلى حلاقيمهم يكظمونها كما يكظم البعير جرته.

قال الله ﷻ: ﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠].

وقال: ﴿كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] أقنع الرجل يديه في الدعاء بمعنى: رفعهما مادًا لهما.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤ - ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وقال جلَّ قوله هذا جوابًا لقوله: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِع الرُّسُلَ أو لَمْ تَكُونُوا﴾ [إبراهيم:٤٤] فمعنى ذلك كقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣] وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩] يذكرهم بما عبر عنه قوله الحق: ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] ونحو هذا.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥] مفهوم هذا: فما ازدجرتم ولا اتعظتم بما رأيتم، وضربنا لكم الأمثال [....][١] يعني: الحق والباطل، فلم تفهموا أو لم تعقلوا ما المراد.

---

(١) قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ﴾ يريد جل ذكره مكرهم؛ أي: كفرهم بالله وشركهم وتكذيبهم لرسله وكتبه، وعند ذلك ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ لعظمه ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦] بالشرك والولد دعوه من دونه، «لتزول» بكسر اللام الأولى ونصب الثانية يمكن أن يكون معنى ذلك كما قال الله جلَّ قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١].

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٧ - ٥٢].

ويمكن أن يكون المراد بذلك وإن كان مكرهم ومرادهم به إزالة الرسول ﷺ عن مكانته والقرآن والوحي والإيمان والمؤمنين، وأمر الله جل ذكره الذي قد شاء مضاءه كنى عن هذا كله بالجبال؛ لثبوته بثباتها، وقد وعد ووعده الحق أن يظهره على الدين كله والجبال والأرض والسماوات، وما بين ذلك مخلوق كله بالحق الذي جاء به الرسول والقرآن؛ لذلك قال وهو أعلم: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] يكون ذلك ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨] أي: إنما [..........][1].

البروز: الظهور، برزوا من أجداثهم ومن غيابات بلاءاتهم، واتصف هنا ﷻ بالوحدانية؛ لكون أمر الساعة واحدًا كلمح البصر أو هو أقرب، فظهرت الوحدانية

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

في ذلك لبعد ذلك الأمر عن التردد، وكل أمره واحد هو الواحد بكل وجه، وبكل معنى لكن لأحوال يظهر معاني أسمائه ولأحوال أُخر يظهر غيرها اسم القهار، قهر الكائنين للبعث في دار الدنيا المكذبين به.

يقول عز من قائل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] كقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات:١٨] [......][1] أيضًا القهار قهر [......][2] إلى مراده منهم، واستاقهم في سلاسل قهره إلى تحقيق كلماته فيهم.

وقرئ: «وإن كان مكرهم لَتزولُ منه الجبال» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معنى ذلك وهو أعلم: وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، لكن الله ينصر دينه، وأمرهم لا يخفى عليه، وهذا قريب القرابة من الوجه الأول، والأولى - والله أعلم بعلمه - إن مكرهم سيبلغ من عظمه وشؤمه أن تزول منه الجبال؛ أي: في آخر الزمان عنه خروج الدجال - لعنه الله - وقصر مدته وعجل بدماره، والجبال هم المؤمنون والصالحون لذلك، وهو أعلم.

أعقبه بقوله الحق: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] وإلى هذا الإشارة بقوله الحق: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠] ولا يكون أمرًا أعظم من ذلك الأمر يريهم موضع القدرة، ويظن الذين يعبر عنهم بالجبال أنهم قد كذبوا، وعند التناهي يكون الفرج، ومع الصبر يكون اليسر، ومن صبر إلى الخاتمة فهو المعافى إن شاء الله.

ولولا قصر مدة تلك الأيام لم يحتمل الخلائق عثراتها لكن قُلِّلت تلك الأيام لأجل الصالحين، وسيأتي من يتشبث بالصحيح [...][3] ويأتون بآيات عظيمة حتى يشك من يظن به صلاح، ذكر في الكتاب الذي يذكر الغيب أنه سيكون يومئذٍ حزن لم يكن من ابتداء الدنيا مثله ولا يكون، فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من

(١) قطع في (غ) وغير موجود في (ف).
(٢) قطع في (غ) وغير موجود في (ف).
(٣) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

يوم خلق الله فيه آدم إلى أن تقوم الساعة أمر أعظم من الدجال»[1].

ثم قال بعد كلام: وبعد انقراض ذلك الحزن تظلم الشمس، ويضمحل نور القمر، وتتساقط النجوم، وتحرك السماوات، ويبكي يومئذٍ جميع أجناس الأرض، وينظر إلى الملك مقبلاً في سحاب السماء ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ**﴾ [البقرة:٢١٠] في قدرة عظيمة شديدة، فأشبه قوله ﷺ عقب ذكر مكرهم وإنه لتزول منه الجبال: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم:٤٨].

وقد جاء أن الدجال - لعنه الله - يأتي القرية فيدعوها وتستجيب له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويأتي القرية فيدعوها فتأبى عليه، فيأمر السماء فيفتحها بالمطر وتسير معه أنهار، ولا يمتنع أن تسير له الجبال وتزول له، فهذا تبديل للمعهود من السماء والأرض الذي عبر عنه قوله ﷺ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف:٩٦].

وقول نوح وهود وغيرهما من الرسل - عليهم السلام - لقومهم: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرارًا....**﴾ [نوح:١٠ - ١١] فهذا تبديل ما يجب الإيمان بأنه من أشراط التبديل على الكمال، فتبدل السماوات جنانًا والأرضون أدراكًا لجهنم، أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

﴿**وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾[2] [إبراهيم:٤٩ - ٥٠] وقرأ ابن عباس وابن جبير: «**من قطران**»

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٦٦٩٢)، والطبراني (١٧٩٠٣).

(٢) ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ السرابيل: القُمص، واحدها: سربال. والقطران: هو قطران الإبل الذي تهنأ به؛ أي: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل. وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته. وقال جماعة: هو النحاس؛ أي: قمصانهم من نحاس. وقرأ عيسى بن عمر: «من قطران» بفتح القاف وتسكين الطاء. فتح القدير (١٦٢/٤).

وكذلك قرأها الأعمش والزهري بكسر القاف وإسكان الطاء وتنوين الراء وهمزة بعدها؛ أي: انتهى حَره، ويكون أيضًا معنى قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦] زائدًا إلى ما تقدم أن الساعة لا تأتي إلا على شرار الخلق.

وقد عاد أهل الأوثان إلى عبادتها، وأهل الضلالات إلى ضلالاتهم، وعادوا من حيث بدؤوا، ولم يبقَ على الأرض من يقول: «الله الله» فيقم الله جل ذكره الساعة، وتمور السماء مورًا، وتسير الجبال سيرًا، إلى غير ذلك من أهوالها.

قوله تعالى إثر قوله: ﴿وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥١] عذب الله الكافرين بعذاب جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - كما كذبوا بها في الدنيا، وكانت تغدوا وتروح عليهم بسموم فيحيها من سعير وزمهرير فلم ينظروا ولم يفقهوا، بل تعاموا [وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق] وحرموا الجنة، وكانت تغدو عليهم وتروح بفتحها ينزل الله الماء من السماء برحمته، وينبت لهم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات جنات معروشات وغير معروشات، إلى غير ذلك من أنعم الله عليهم من ظلالها وأكنافها ولبوسها ونسيمها في رواح وبكور، فلم يؤمنوا ولم يتذكروا ذلك.

قوله ﷻ: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١] إلى آخر السورة.

أعقب هذا كله قوله: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: بما أصاب من كان قبلهم ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: بما في القرآن من الإعجاز، وبما في الشجرة الطيبة من دلائل الوحدانية والألوهية والربوبية، ومقتضيات الأسماء والصفات في الوجودين الوحي والعالم، ودلائل النبوة والرسالة، وما جاءت به، وما تفصلت إليه معاني الأسماء، وتفرعت به الشجرة الطيبة من حق متصل بالحق المبين ﷻ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:٥٢] أي: ليعبروا من ذلك كله من المطلوب الأعلى، فيعبروا من مقتضيات الأسماء والصفات إليها، ثم من الأسماء والصفات إلى المسمى الموصوف، ومن الكلمة الطيبة إلى الشجرة الطيبة في الجنة التي

﴿تُؤْتِي﴾ هنالك ﴿أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٥] ومن الشجرة الطيبة إلى الوصول العلي، والقرآن بنفسه ما أن يكون تنبيهًا للمبتدئ أو تذكيرًا للمنتهي، أولئك يتلونه حق تلاوته ويؤمنون به، ومن سواهم فقراء ودارسون، والله واسع عليم.

تفسير سورة الحجر(1)

مكية فيها من المنسوخ أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجر: ١ - ١٠].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١] أشار بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى حروف «الر» فأخبر أنها دلالات على الكتاب؛ أي: اللوح المحفوظ والقرآن المبين، ألا ترى أن كلامه إنما تعرفناه بالحروف نطقًا وكتبًا، فكذلك حروف الكتاب المبين تكون هذه الحروف المقطعة دلالات عليها كما هذه المكتوبة دلالات على معرفة كلامه.

قوله ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] لا بد لهم من ذلك، ولا ريب في كونه منهم أول ذلك حين المعاينة لآيات الإهلاك، أو معاينة أعلام الآخرة والملائكة حين الموت.

(١) سميت بها لاشتمالها على قوله ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله بأدنى وجوه المؤاخذة مع غاية تحصنهم ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات وهو من أعظم مقاصد القرآن.

قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ يقول الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

ثم على الولاية أكدوا ولاءهم، فإذا هم سمعوا النداء في عرصة المحشر قوله ﷻ: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨] وقع في نفوس أهل المشهد الطمع فيها، يقولون: «نحن عباد الله» فيقول جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف:٦٩] فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى المؤمنون والمسلمون هنالك ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فيود الواحد منهم أن كان على الولاء لا سيما إذا وجبت الشفاعة ودخلوا النار قومٌ بعد قوم حتى إذا لم يبقَ أحد من المسلمين تمنوا أنهم جاءوا مسلمين.

يقول عز من قائل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: عن النظر لأنفسهم بالتأهب والاستعداد للقاء الله جل ذكره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٣] وعيد منه شديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر:٤] هنا محذوف مقدر عطف عليه بالواو تقديره [....][1] وما أهلكنا من قرية إلا لأجلها ولها كتاب معلوم؛ يعني وهو أعلم: الأجل الذي اخترمت عنه، فهذه الواو مشيرة إلى الأجل، وقد قرأ ابن أبي عبلة: «إلا لها كتاب معلوم» بغير واو[2] تقديره: وما أهلكنا من قرية إلا لأجلها، ما تسبق من أمة مهلكة أجلها المحدود لها لإهلاكها، وما لها عنه من تأخر كما قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3] [الأعراف:٣٤].

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ).

(٢) انظر: الدر المصون (١/٣٦٤٤).

(٣) هذا وعيد لأهل مكّة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم أي أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا خالفوا أمر ربهم فأنتم أيتها الأمّة كذلك، وقيل: الأجل هنا أجل الدّنيا التقدير: للأمم كلّها أجل أي يقدّمون فيه على ما قدموا من عمل، وقيل: الأجل مدّة العمر والتقدير ولكل واحد من الأمة عمر ينتهي إليه بقاؤه في الدّنيا وإذا مات علم ما كان عليه من =

ثم القراءة بواو العطف، وعليها قراءة الجماعة، وعلمه بما في مقتضى قوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٣] المعنى إلى آخره.

فصل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن لكل موجود كائنًا ما كان أجل مسمى هو المنتهى إليه، ثم دونه آجال سواه محدودة لأسباب مقدرة لا يعدو الموجود أجله المقدر المحدود له، وكل موجود فقد كتب فيما سبق له أجله وأثره ورزقه وعمله وشقي أم سعيد على مفهوم ما تقدم ذكره من أجل محدود لسبب معلوم، وأجل مسمى منتهى إليه قد سبق في التقدير مجيء السبب لحين الأجل، كما سبق بأي الأجلين يكون القضاء، فمن أجل إثارة الأسباب كثرت الآجال دون الأجل المسمى، وانتهى القضاء وإمضاء الحكم إلى المشيئة العلية في اعتراض الأسباب ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ هذا على سبيل السنة.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] وهذا بحكم الكلمة؛ إذ بالأعلى ينتظم الأسفل، فهلاك من أهلك لأجل

=

حقّ أو باطل، وقال ابن عطية: أي فرقة وجماعة وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس، وقال غيره: والأمة الجماعة قلّوا أو كثروا وقد يطلق على الواحد كقوله في قس بن ساعدة «يبعث يوم القيامة أمّة وحده» وأفرد الأجل لأنه اسم جنس أو لتقارب أعمال أهل كل عصر أو لكون التقدير لكل واحد من أمة، وقرأ الحسن وابن سيرين فإذا جاء آجالهم بالجمع وقال ساعة لأنها أقلّ الأوقات في استعمال الناس يقول المستعجل لصاحبه في ساعة يريد في أقصر وقت وأقربه قاله الزمخشري، وقال ابن عطية لفظ عنى به الجزء القليل من الزمان والمراد جمع أجزائه، والمضارع المنفي بلا إذا وقع في الظاهر جوابًا لـ«إذا» يجوز أن يتلقى بفاء الجزاء ويجوز أن لا يتلقى بها وينبغي أن يعتقد أنّ بين الفاء والفعل مبتدأ محذوفًا وتكون الجملة إذ ذاك اسمية والجملة الاسمية إذا وقعت جوابًا لـ«إذا» فلا بد فيها من الفاء أو إذا الفجائية، قال بعضهم: ودخلت الفاء على إذا حيث وقع إلا في يونس؛ لأنها عطفت جملة على جملة بينهما اتصال وتعقيب فكان الموضع موضع الفاء. [البحر المحيط ٥/ ٣٣٩].

تكذيب الرسل وعقوباتهم على وجوهها كلها، وكذلك إمهالهم وإثابتهم إلى ما وراء ذلك من ثواب وعقاب من سبل السنة، وتكذيبهم الرسل وعتوهم مقدور ذلك لهم، وعليهم بحكم الكلمة، ورجوع حكم السنة إلى حكم الكلمة كما تقدم بيّن ذلك لمن تدبر ووقف عليه.

قوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[١] فهذا كله كلمة، غير إن عملهم يوم إيجادهم على ما سبقت الكلمة من سنن السنة فكان إيجابه لهم الجنة، والعمل لها بغير عمل عملوه، ولا قدم قدموه، ثم لما أوجدهم تمم كلمته بالسنة، وإليه يرجع الأمر كله.

ويؤيدك على الوقوف على هذا - وفقك الله - بأن تستعرض معارف الأنبياء عليهم السلام، وأهل العلم بالله بذكر قصة موسى مع الخضر - صلوات الله وسلامه عليهما - حين سأله موسى أن يعلمه مما علمه الله، فشارطه على ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له به ذكرًا، فجعل صحبته له بشرط ترك السؤال وفراقه إياه بعد فقد الشرط. وكذلك الابتلاء.

وقال شعيب لموسى عليهما السلام: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ**﴾ [القصص:٢٧] وتمام العشرة نافلة.

قال لموسى: ﴿**ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ [القصص:٢٨] ففرضا أجلين ائتمامًا بحكم الله جل ذكره في خليقته، أحدهما: فرض، والآخر: نفل، فأشبه ذلك الأجلين، والله ضربهما لخليقته أولهما بر الكلمة وسبيل الفضل، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**بر الوالدين يزيد في العمر**»[٢] وفي أخرى: «**في الرزق**».

وقوله ﷻ: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ [هود:٣] أي: الأجل الذي إليه المنتهى، فإن اخترم به دونه يقتل ظلمًا أو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن عدي (٤٣/٣) وقال بعد أن ذكر الحديث وغيره: هذه الأحاديث بهذه الأسانيد مناكير. والديلمي (٢٠٩٠).

علة قاتله في الأغلب كما قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء خمس سوى القتل في سبيل الله**»(١) فذكر المطعون والمبطون، والحرق وصاحب الهدم؛ لحديث: «**كان شهيدًا**».

وفي قول الله جل ذكره أبين بيانًا لما نحن سبيله، يقول عز من قائل: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ المَوْتُ**﴾ [النساء:٧٨] أي: على أسبابه وآياته.

وقوله: ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَو القَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ [الأحزاب:١٦] أي: إن سلمتم بالفرار والتحصن والحذر من الموت لا تمتعون بالعيش إلا قليلاً.

قوله ﷻ: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾(٢) [الحجر:٦] أخرجوا هذا الكلام على طريق التهزؤ.

ثم قالوا له: ﴿**لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الحجر:٧] حرف النفي إذا لزم حرف «لو» حسن الاستقبال بعده، ويجوز بعده سياق الفعل الماضي.

أتبع ذلك قوله الحق تعالى فيه: ﴿**لَوْ مَا تَأْتِينَا**﴾ تقدير الكلام على أحدهما: لو أتيتنا بالملائكة آمنا، ثم دخلت «ما» نافية الإتيان بها، فلم يكن نفيك إتيان به، فلذلك لم يكن منا بك إيمان ولا يكون.

قال الله ﷻ: ﴿**مَا نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ أي: بالعذاب، أو بوجوب الموت، أو تبليغ وحي من الله ﷻ إلى عبد من عباده، أو برحمة يرحم الله بها من يشاء، وهو

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (١٠٨٤).

(٢) رموه وحاشاه ﷺ بالجنون مشيرين إلى أن سببه دعواه ﷺ نزول الذكر الذي لم تتسع له عقولهم، والإشارة في ذلك أنه لا ينبغي لمن لم يتسع عقله لما من الله سبحانه به على أوليائه من الأسرار أن يبادروهم بالإنكار، ويرموهم بما لا ينبغي كما هو عادة كثير من المنكرين اليوم على الأولياء الكاملين حيث نسبوهم فيما تكلموا به من الأسرار الإلهية والمعارف الربانية إلى الجنون، وزعموا أن ما تكلموا به من ذلك ترهات وأباطيل خيلت لهم من الرياضات، ولا أعني بالأولياء الكاملين سوى من تحقق لدى المنصفين موافقتهم للشرع فيما يأتون ويذرون دون الذين يزعمون انتظامهم في سلكهم، وهم أولياء الشيطان وحزبهم حزبه، كبعض متصوفة هذا الزمان، فإن الزنادقة بالنسبة إليهم أتقياء موحدون كما لا يخفى على من سبر أحوالهم. تفسير الألوسي (١٣/١٠).

هنا العذاب أو الموت؛ لقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ﴾ [الحجر:٨].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ظاهر الخطاب أن الذكر هنا هو القرآن، فهو قد حفظه من كذب الكاذبين وزيادة المبطلين ونقصهم منه، وهو أيضًا محفوظ حال نزوله وبعد ذلك من الشياطين ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٢] وإن كان المراد هنا بالذكر: العلم الحاصل عن التذكر والتفكر والنظر فهو أيضًا محفوظ عن سوى المظهرين، لا يناله الغافلون، ولا يهتدي إليه المعرضون ولا المكذبون به، كما قال عز من قائل: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] هذا بعض الأوجه فيه، وقد يكون الذكر النبي ﷺ، فالله أيضًا حافظه من الجنون الذي رموه به والكذب، أو أن يناله سحر الساحرين، وكلما كان حفظًا كان حفظ للوحي، فهو حفظ للمنزل عليه.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر:١١- ١٩].

ثم قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١)

---

(١) أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿نَسْلُكُهُ﴾ أي: الذكر ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء. والسلك: إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط. قاله الزجاج، قال: والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين. وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير «نسلكه» أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل: إن الضمير في «نسلكه» للاستهزاء، وفي «لا يؤمنون» به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر. فتح القدير (١٦٧/٤).

[الحجر:١٢ - ١٣] ثم هنا محذوف تقديره: «فإذا هم لم يؤمنوا به فقد خلت سننًا في الأولين» وعيد منه عز جلاله؛ يعني والله أعلم: عادًا وثمودًا والقرون الماضية الهالكة كما قال في غير هذا الموضع: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء:٢٠٠ - ٢٠١].

ثم أيأس من إيمان من لم يشأ الإيمان منه بقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر:١٤].

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر:١٦] لما أظهر لهم ما هي الأفلاك والبروج والكواكب والقمر فيهن، ولما جعلنا له ليعبروا بعقولهم إلى ما جعلنا شبهًا لها في وجود الدار الآخرة إلى قوله: ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] انتظم هذا كله بما هو ردٌّ عليهم، وأن سؤالهم آية على صدقه فيما جاء به، يقول: قد كان لهم فيما شاهدوه من خلق السماوات والأرض وجريان الأفلاك وتسخير الشمس والقمر والنجوم وتقسيمهما على ما قسمت عليه من بروج ودراري، ثم منازل الشمس والقمر، وتدبير الله في ذلك، وحفظ السماء من استراق الشياطين، ألا تدخل في النبوءات ما ليس منها، وتلبس الوحي [.....][1].

وأنزل الله الماء من السماء واحدًا موحدًا إلى الأرض يفصله إلى ما فصله إليه من جماد ونبات وحيوان وأناسي، إلى غير ذلك من مخلوقاته، موزون كل ذلك بأوزان مقسطة ومقادير معدلة، كل جنس من الحيوان والنبات والجماد أمة في نفسه يؤم بعضها بعضًا في أشكالها وألوانها وأرايحها وطعومها وخُلقها وخَلقها ومنافعها ومضارها، سنن قد سنت لها، وشرع شرعت لكل جنس منها، يتفاضل كل جنس في نفسه، فالمفضول مقصور على درجته، والفاضل قد فضله سواه إلى فاضل منها بين فضله.

وفي هذا كله ما يدل على الوحدانية والربوبية، وصفات الصانع والنبوة والسنة المشروعة للعباد، وعلى الرسالة وما جاءت به، وعلى فضل إنعامه على عباده

---

(١) ما بين [ ] كلام غير واضح في (غ)، ورسمه هكذا «باكذبوا بأيها».

وفضله الشامل المؤمن منهم، والكافر والطائع والعاصي.

يقول جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف:١٠] إشارة إلى موجود الجنة، ومن لستم له برازقين سخرها لنا إلى إنفاذ مرادنا وحمل أثقالنا، وأكلنا منها وشربنا وحمل عنا إرزاقها.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر:٢٠- ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ خزائن كل شيء [....][1] جل ذكره وتعالى علاؤه وشأنه، فكان من أول ما أوجد النور، ثم شق عن النور الروح، ثم شق عن الروح الهواء، ثم خلق عن الهواء الماء فريق به ما بين العرش إلى حيث انتهى، ثم فتق بالهواء ما رتقه بالماء، وأبقى حكم الماء في عين الهواء كما كان قبل معنى الماء في حكم الهواء، ثم جعل الهواء والماء خزانة لمخلوقاته وأرزاقها، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] أي: ما ينزل المختزن إلا بقدر معلوم، ولذلك كان ما أوجد عنه بأوزان مقسطة وأقسام من أوصافها معدلة في طعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومضارها.

ثم جعل يذكر بعض المختزن، وهو من الخزائن فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[2] يشير إلى أنه خلقهم منه، ثم قال: ﴿وَمَا أَنتُم

---

(١) في الأصل هكذا: «كلمة».

(٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ﴾ عطف على ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما بينهما اعتراض؛ لتحقيق ما سبق وترشيح ما لحق، واللواقح: جمع لاقح؛ بمعنى: حامل، يقال: ناقة لاقح؛ أي: حامل، ووصف الرياح بذلك على التشبيه البليغ، شبهت الريح التي بالسحاب الماطر بالناقة الحامل؛ لأنها حاملة لذلك السحاب أو للماء الذي فيه، وقال الفراء: إنها جمع لاقح على النسب كلابن وتامر؛ أي: ذات لقاح وحمل، وذهب إليه الراغب، ويقال لضدها: ريح =

لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢] توحد جل وتعالى بالاختزان والخزائن بقوله: ﴿وَلله خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧] يقول جلَّ قوله: ألم يكن لهم في هذا كله آية لهم على ما جاء به الرسول من توحيد الله جل ذكره والنبوة، وما جاءت به.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] انتظم هذا الكلام بما تقدم من الاختزان والخزائن، وذلك أنه لما أرسل الرياح لواقح فخلق الماء في الهواء، وأنزله إلى الأرض بواسطة الملائكة الموكلين بالرياح والسحاب والمياه علوًّا، أنبت في الأرض نبات كل شيء، وخلق منه كل شيء حي،

=

عقيم، وقال أبو عبيدة: «لَوَاقِحَ» أي: ملاقح، جمع: ملقحة، كالطوائح في قوله: «ليبك يزيد ضارع لخصومة مختبط مما تطيح الطوائح» أي: المطاوح، جمع: مطيحة، وهو من ألقح الفحل الناقة: إذا ألقى ماءه فيها لتحمل، والمراد: ملقحات للسحاب أو الشجر، فيكون قد استعير اللقح لصب المطر في السحاب أو الشجر، وإسناده إليها على الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز؛ إذ الملقى في الشجر السحاب لا الريح، والرياح اللواقح: هي ريح الجنوب كما رواه ابن أبي الدنيا عن قتادة مرفوعًا، وروى الديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن جرير وغيره عن عبيد بن عمير قال: يبعث الله تعالى المبشرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث المثيرة السحاب فتجعله كسفًا، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركامًا، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر. وقرأ حمزة: «وَأَرْسَلْنَا الريح» بالإفراد على تأويل الجنس، فتكون في معنى الجمع، فلذا صح جعل «لَوَاقِحَ» حالاً منها، وذلك كقولهم: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض، ولا تخالف هذه القراءة ما قالوه في حديث: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا» من أن الرياح تستعمل للخير والريح للشر؛ لما قال الشهاب من أن ذلك ليس من الوضع، وإنما هو من الاستعمال، وهو أمر أغلبي لا كلي، فقد استعملت الريح في الخير أيضًا نحو قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢] أو هو محمول على الإطلاق بألا يكون معه قرينة كالصفة والحال، وأما كون المراد بالخير الدعاء بطول العمر ليرى رياحًا كثيرة فلا وجه له.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّماءِ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابًا ماطرًا ﴿مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقيًا تسقون به مزارعكم ومواشيكم، وهو على ما قيل أبلغ من «سقيناكم»؛ لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدًّا لهم ينتفعون به متى شاءوا، وقد فرق بين «أسقي» و«سقى» غير واحد، فقد قال الأزهري: العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار: «أسقيته» أي: جعلت شربًا له وجعلت له منه مسقى، فإذا كان للشفة قالوا: «سقى» ولم يقولوا: «أسقى». تفسير الألوسي (٩/ ٤٧٣).

فما في نبات أو حيوان أو جماد من ورقة أو ثمرة أو جزء من أجزاء ذلك كله إلا وعليه ملائكة، فمنهم جاذب ودافع، ومرسل وماسك، ومعد وقاسم ومدبر إلى غير ذلك من الأفاعيل والفاعلين، فإذا أتم خلقه ما شاء إتمامه وبلغه مراده فيه فجاء حينه وأجله أهلكه إن كان نباتًا أو حيوانًا أو جمادًا أو غير ذلك، وأمات من ذلك ما قدر عليه الموت، وأبقى ملائكة ذلك الموجود لما شاء؛ لأن الملائكة عليهم السلام منتظرون، فإذا أنزل ما أخَّره خلق عنه ما خلقه، وخلق معه ملائكة كما تقدم ذكره، ثم يعدم ما أعدم ويبقي ملائكته هكذا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

فالملائكة - عليهم السلام - مع ما تقدم ذكره تقبض وجود كل ذي وجود كما يقبض ملك الموت أرواح بني آدم والحيوان، ويبقي بعدهم القابضون لوجود الموجودات يبقون بعد قبض ما قبضوه، ذلك قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] كذلك إلى أن يعم بالموت كل حي، ويبقى هو ﷻ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر:٢٦-٤١].

قوله ﷻ فيما حكاه عن إبليس لعنه الله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩ - ٤٠] وفي موضع آخر من كتابه قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] ما في قوله: «رب» بما اسم معناه: رب، فبالذي أغويتني؛ يعني: من

قدرتك على ذلك وعلمك السابق منك في ومضاء مشيئتك في ذلك بذلك أرغب إليك، وأسألك أن تجعل إلي إغواءهم، ويكون معنى كلامه: رب بالذي أغويتني لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين وهذا الوجه يظهر على تأويل قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] وفي قوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٦٢].

وعلى هذا فهي زعامة منه - لعنه الله - وعلى ظاهر قوله في سورة الأعراف وسورة الحجر سؤال منه ورغبة إلى ربه؛ لينفذ له مراده في ذرية آدم، يقول: بما أغويتني وأضللتني بذلك أستعين على إنفاذ ما جعلته إلي واستعملتني فيه من إغواء من سبقت مشيئتك له بذلك، والتزيين إليه كما بذلك أغويتني وأضللتني وزينت إلي مخالفتك.

يقول الله جل ذكره: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١] استقامة الصراط ألا يكون لله شريك في ملكه، ولا وزير ولا ظهير في تدبيره، ولا مناقض لقضائه، ولا راد لأمره، ولما سأله الفطرة وفهم أن الله ﷻ هو الذي زين وقدر له مخالفته وعصيانه بدا ذلك من قول الله ﷻ في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] [...][١] سأله قدرته على ذلك وعلى تدبيره الأمر كله أن يجعل على يديه إغواء من سبق علمه له لذلك؛ إذ هو [...][٢] في عباده من يسلك به سبيل الضلال.

قال الله عند ذلك: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: إن هذا ليس بشرك في ملكي ولا تعقب على أمري، أنا قدرت الخير والشر والكفر والإيمان والطاعة والعصيان، وأكره ذلك ولا آمر به، وأنهى عنه ولا أرضاه ولا أحبه، وإنما الذي آمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وأنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا آمر بذلك والعالم بالشر وبالكفر ليس بشرير ولا بكافر، إنما يكون ذلك فاعله هذا صراط مستقيم.

---

(١) في الأصل: «قدره على قدرته».

(٢) ما بين [ ] بياض في الأصل.

ولما في ذلك من أنه لا يرضاه ولا يحبه ويكرهه حسن فيه «عليّ» وقرأ قتادة وابن سيرين وقيس بن عباد ومجاهد وعمرو بن ميمون وجماعة غيرها ولأجلّة: «**هذا صراط علي مستقيم**» بكسر اللام ورفع الياء وتشديدها؛ أي: رفيع علي، كما ينبغي لبرهان وحدانيته وعز جلاله وعلاء ألوهيته تنزه ﷻ بعلائه عن القبائح والرذائل والأعمال الفسلة والدعاء إليها والتحريض عليها، فخلق خلقًا يدعو إليها ويزينه ويتخذه ملة وشرعًا؛ ليتمم كلماته في خليقته، ويكمل أمره في بريته، وينفذ مراده في أعدائه وأوليائه.

قوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1] سبحانه وله الحمد.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾ [الحجر:١٦] البروج: القصور.

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء:٧٨] أي: مبنية بالشيد، وهو الجص، بروجًا: يعني: قصورًا وحصونًا، و«زيناها» الضمير راجع إلى السماء، وكذلك الهاء في «حفظناها».

قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ [الحجر:٢٦] يعني: معفنًا منتنًا، وإذا كان الطين كذلك فهو الذي سُنَّ به سنن الخليقة.

ثم قال: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر:٢٨ - ٢٩] الدليل على أن سجود الملائكة لآدم كان سجود ائتمام بسجوده وهو لله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[2] وسجود القرآن كله يرجع إلى أصلين: أمر وائتمام بالملائكة والأنبياء -

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٨١)، وأحمد (٩٧١١)، وابن ماجة (١٠٥٢)، وابن حبان (٢٧٥٩)، والبيهقي =

عليهم السلام - وبموجودات السماوات والأرض [.......][1] الصلاة ولم يأمر ﷺ أن تصلي إلا لله.

قال رسول الله ﷺ: «**من صلى منكم وحده فليصل ما شاء، ومن صلى لغيره فليقصر؛ فإن فيهم المريض والكبير والسقيم وذا الحاجة**»[2].

قوله تعالى: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾ [الحجر:٣٠] لفظ العموم في ذكر الملائكة - عليهم السلام - ثم التوكيد بعد التوكيد دليل على أن جميع الملائكة المخلوقين من النور ومن النار الذين يقال لهم: «الجن» المخلوقين من نار السموم سجدوا ليس كما ذكر من ذكر من تخصيص بعض الملائكة دون بعض في قوله، إنما كان الأمر متوجهًا على من حضر من الملائكة، والدليل حضوره ورؤيته له، وليس بمعجز آية جمعهم في الأمر وامتثاله والإحضار لا الإعلام ومراده المشاهدة في كل شيء خلقه الله إلى يوم القيامة، داخل في ذلك التكليف ومتوجه إليه ذلك الأمر هو الجامع من أسماء الله ﷻ، وهو شرع وارد من لدنه دون متوسط، فلذلك ما أسمع كل مراد بذلك الأمر، وقد أوكد العموم ثم أوكد، فإلى أين المذهب بعد هذا.

قوله تعالى: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الحجر:٣١] أي: سجود آدم يومئذٍ، ولا في المستقبل الساجدون لسجود آدم يومئذٍ؛ لأنه عليه السلام كالطائع للرسول المصدق الأتي من عند الله جل ذكره، الموقر المعزز إن الأمر يومئذٍ بالسجود لآدم هو أول التقديم للإمامة، وهو مبدأ الأئمة، وعم الرسل والأنبياء، وبذلك استوجب من أُمِر واقتدى، فاستوجب بذلك البقاء في جواره، وكونه عنده مقربًا وليًا.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾ [الأعراف:٢٠٦] وكان لهم ذلك بالجزاء لطاعة ربهم، والائتمار لأمره

=

(٣٥١٦)، وابن خزيمة (٥٤٩)، وأبو عوانة (١٩٤٥).

(١) ما بين [ ] قطع في (غ)، وليس في (ف).

(٢) تقدم تخريجه.

في السجود لآدم ﷺ خلافًا لإبليس - لعنه الله - لما أبى وعتا لم يجعله من الساجدين معهم يومئذٍ ولا في المستقبل، بل طرده ولعنه.

قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣١] و﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١].

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] ما لك كلمة خاطب بها المتعاجز عن حظه الآبي عن رشده، التارك لسعادته، الراضي بشقاوته، يقول القائل: «يا هذا، ما لك لا تصلي؟ ما لك لا تقبل على حظك؟» وهو ضرب من التأنيب.

قال الله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥٤].

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] وهو كثير.

وقوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] كلمة مقطوعة مما قبلها بوجه متصلة [........][1] ومنه يظهر المعنى، وبين الكلمتين حذف تقديره: «أبيت عن السجود، أو ما يشابهه [........][2] هذا في غير هذا بقوله: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ [الحجر:٣٢] أو لم تسجد ما لك لم تطع أمري؟» أظهر هذا في غير هذه السورة قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] والعادة على الأغلب أن يكون ما يأتي بعد «ما لك» بلفظ الماضي كقولك: «ما لك ألا صليت» فإذا جاء بعد لفظ الفعل الماضي بفعل يكون بيانًا له وتمامًا صرفوه إلى المستقبل، كقولهم: «ما لك ألا قمت تصلي، ما لك ألا قصدت فلانًا فتحظى عنده» فقد تبين أن ما بين قوله: «ما لك» وبين قوله: «ألا تكون» حذف تقديره وهو أعلم: «سجدت أو أطعت» أو ما يكون في معنى هذا، فيكون تقدير الجملة على هذا: ما لك ألا سجدت فتكون عندي من الساجدين في الحال المستقبل، ومع الساجدين طائعًا ووليًا مقربًا كمن سجد الآن من الملائكة؟.

---

(١) ما بين [ ] بياض في الأصل.

(٢) ما بين [ ] بياض في الأصل.

وقرأت من هذا قوله في سورة الأعراف وهو قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١] يعني: الملائكة، فكان يحظَى عندي ويفوز الفوز كله ويتوجه أيضًا، ولم يكن من الساجدين؛ أي: مذكورًا بذلك في الأزل؛ ليكون منهم يومئذٍ وفي المستقبل.

قال: «يا إبليس، ما منعك ألا تسجد» هنا محذوف تقديره: ما منعك من السجود ألا تسجد إذا أمرتك فتكون من المؤمنين، جازاه على كفره وكبره وترك طاعته بأن لعنه وعزله عن القرب، وأهبطه من الحضرة القدسية، وسلط عليه الملائكة - عليهم السلام - وجعله رجيمًا فهو الرجيم والملعون إلى يوم الدين لما واقع الخطيئة ولعنه وطرده خشى أن يكون كما لعنه وأبعده أن يسلبه النظرة إلى يوم الدين، فإن الملائكة - عليهم السلام - لا يموتون إلى يوم الوقت المعلوم، فسأله النظرة.

﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[1] [الحجر:٣٧] لحكمة بالغة له في ذلك من إتمام كلماته يثبته قوله ﷺ: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون...**»[2] بمشيئته وإنظاره.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) أي: من جملتهم، ومنتظم في سلكهم. قال بعض الأجلة: إن في ورود الجواب جملة اسمية مع التعرض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعًا لهم في ذلك دليل على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم لا لإنشاء إنظار خاص به وقع إجابة لدعائه؛ أي: إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمة التكوين، فالفاء لربط الإخبار بالإنظار بالاستنظار، لا لربط نفس الإنظار به وأن استنظاره لتأخير الموت؛ إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل، ونظمه في سلك من أخرت عقوبتهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة، ولأن ذلك التأخير معلوم من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث. انتهى.

وقيل: إن الفاء متعلقة كالفاء الأولى بمحذوف، والكلام إجابة له في الجملة؛ أي: إذ دعوتني فإنك من المنظرين. تفسير الألوسي (١٠/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ
سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ
أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ
الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٤٢-٦٠].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٢] حسبهم أضيافًا على مجرى عادته مع الضيفان، فتقرب إليهم قراهم عجلاً حنيذًا ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أكلاً ﴿نَكِرَهُمْ﴾ من معهود الأصناف ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأمنوا روعته بأن عجلوا له البشرى عن ربهم جل وتعالى؛ لأجل فزعه لأجلهم.

كذلك قال الله ﷻ لما رأى موسى من سحر السحرة ما راعه أوجس في نفسه خيفة يقول الله جل وعز: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨] فبشره بالغلبة والظفر، كذلك فعل رسول الله ﷺ وقد أوقع خالد بن الوليد - رحمه الله - بحي من العرب قد كان لهم تقدم عهد وشبهه، فكانوا يقولون: «صبانا صبانا» ولا يحسنون أن يقولوا غير ذلك مما يعبر عنه بالإسلام، فقتل وسبى وغنم، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» وبعث بمال فودي ذلك كله حتى ميلغة الكلب، وأفضل على ذلك فضلة، وقال: «**وهذا لأجل روعتكم**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٦)، وعبد الرزاق (٩٤٣٤)، وابن حبان (٤٨٣٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٨٧١) ولم يذكروا قوله: «وهذا لأجل روعتكم».

قوله ﷺ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤] يعد ذلك عليه؛ أي: ما بشروه به من الولد على كبره على سبيل المعهود من السنة، كذلك قالت امرأته وصكت وجهها: «ألد وأنا عجوز عقيم» فأخرج قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ مخرج الإبعاد، وإلا فقد كانت البشرى منهم تقدمت حين ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا من أمر الله، وبشراك هذه من عند الله، كما قال ﷻ في غير هذا: كذلك قال ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ القَانِطِينَ﴾ [الحجر:٥٥] أي: بكلمة الله، يكون هذا وهو الحق الكائن مقتضاه على سبق الكلمة خارجًا عن سبيل السنة، والله يفعل ما يشاء.

فصل

الظاهر من قول الملائكة أنه من ييئس أن يفتح الله في الأمر بما شاء من لطف من سبيل السنة ، وإن بعد العلم به وتعذر توهمه في الوجود في نفوسنا أو بما يكون من حكم الكلمة فإنه من القانطين، كذلك أجاب ﷺ بقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[1] [الحجر:٥٦] أي: عن معرفة قدرته على إمضاء مشيئته بما شاء وكيف شاء، وانتظار ذلك منه.

ولما سرى عن إبراهيم الروع وتفرغ من اقتضاء البشرى بما فيها قال لهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر:٥٧ - ٥٨] نعم، ثم استثنى آل لوط بكونهم بالمدينة معهم مختلطين بهم على حكم الجوار في القرية، ثم استثنى من آل لوط المرأة؛ لما اختلف حكم الإهلاك للقرية والمرأة.

أما القرية فجعلوا عاليها سافلها وأمطروها حجارة من سجيل، وهي حجارة فيها من حكم سجين لما كانت في سجين لم يسيرهم إليه قبل يوم الدين، اليوم المعلوم يوم الجزاء الأكبر كانت حالهم التي أهلكوا بها واسطة بين حجارة السجين

---

(١) قرىء بفتح النون من «يقنط» وبكسرها، وهما لغتان، وحكي فيه ضم النون، و«الضالون»: المكذبون أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب؛ أي : إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي. فتح القدير (١٨٤/٤).

وحجارة الدنيا؛ لذلك كانت الحجارة التي أمطرت على أصحاب الفيل أيضًا، وهو كاشتراط الساعة أمر متوسط بين ما هو المصير إليه وبين معهود هذه والله أعلم، وهو اسم من أسماء سجين، أو ما يكون منه بسبب والله أعلم، وكانت المرأة المخرجة مع آل لوط، وأمر المخرجون ألا يلتفتوا.

قيل: فالتفتت فمسخت هناك تمثالاً، فشاركتهم في الهلاك وباينتهم في الكيفية، فاستثنى آل لوط من المهلكين، ثم استثنى المرأة من آل لوط بالبقاء مع المهلكين دون النجاة مع المؤمنين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر:٦١– ٧٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ﴾ لوط عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بما كنتم تشكون؛ أي: من الحق الذي لا بد هو مصيبهم إن لم يكونوا يؤمنوا لك ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: من عند الله الواجب كونه ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦١ - ٦٥].

قيل: كانت ثلاث مدائن سدوم وعمرة وصغور، فاستأذن لوط عليه السلام أن تسلم لهم صغورًا لصغرها، فلحق بها قبل الفجر ونزل العذاب بأولئك حين طلوع الشمس.

قيل: أمطروا النار والكبريت بعد تأفيكهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣] وخسف بالقريتين وأجوارهما وجميع من سكنهما ومن كان يمر دخولاً بها، ونظر إبراهيم عليه السلام ضحوة ذلك اليوم إلى القريتين سدوم وعمرة

وجميع ما جاورهما والشرر يخرج عنهما والدخان صاعد كدخان الفرن، ثم خرج لوط ﷺ مع ابنتيه من صغورًا ولم يبت فيها. هذا منقول من الكتاب الذي يذكر أنه «التوراة» صدقه القرآن المهيمن، والحمد لله رب العالمين.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ أي: بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٥] مدح الله جل وتعالى لحلمه عن كبائر قوم لوط وتوجعه لإهلاكهم دون إيمان منهم ولا توبة وإنابة منهم إلى الله تعالى والملائكة والمؤمنين، فمفهوم هذا الخطاب: لزوم الرحمة لعصاة المؤمنين بالدعاء لهم.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه «التوراة»: قال: لما تحرك من عنده الرجال - يعني: الملائكة عليهم السلام - حولوا نحو سدوم وعمرة أبصارهم، وإبراهيم ﷺ يذهب معهم يشيعهم قالوا: إن سرف أهل سدوم وعمرة قد كمل وكثرت ذنوبهم وتكاملت جدًّا.

قال: وكان إبراهيم لا يعدو أن يتابعهم، وهذا والله أعلم معنى المدح بالإنابة.

قال: فتدانا وقال: أيهلك صالحًا مع طالح؟ إن كان في المدينة خمسون صالحًا يهلكون معًا، ولا يرحم ذلك الموضع للمحسنين الصالحين إذ كانوا فيهم، فعاد من ذكر الفعل بأن يقتل صالحًا مع طالح، وأنت تحكم على جميع أجناس الأرض فلا تحكم بهذا الحكم، فقال له السيد: إن وجدت في وسط مدينة سدوم خمسين صالحًا فسأعفو عن جميع تجوزاتهم، فأجابه إبراهيم وقال: إذ قد بدأت مرة سأعود وإن كنت غبارًا أو دمارًا، ما أنت فاعل إن وجدت من خمسين نقصانًا خمسة تخسف بالمدينة الخمسة والأربعين؟ فقال له: لا أخسف إن وجدت خمسة وأربعين.

ثم قال له: إن وجدت بها أربعين ما أنت صانع؟ فقال: لست أهلكهم للأربعين، فقال له: أرغب إليك ألا تحقد علي يا سيدي إن نطقت ما يكون إن وجدت فيها ثلاثين؟ فقال: لست أفعل إن وجدت ثلاثين، فقال إبراهيم ﷺ: قد بدأت أكلم يا سيدي، ما يكون إن وجدت فيها عشرين؟ فقال: لست أهلكهم للعشرين، فقال: أرغب إليك يا سيدي ألا تغضب علي إن سألتك بعد مرة، ما يكون إن وجدت فيها

عشرة؟ فقال: لست أخسف بهم للعشرة، قال: فارتفع السيد بعد إمساكه عن مكالمة إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى موضعه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] وهذا الذكر شارح لقول الله جل ذكره في القرآن: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤] خاصة، ولم يكن ليقتصر على حال المجادلة [.....][1].

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: في هؤلاء المراد بهم العذاب ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٧٤ – ٨٢].

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥] التوسم: التفرس.

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦] يمكن أن يكون الضمير في قوله عائدًا على القرية، يقول: وإنها لعلى طريق عامر كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧ - ١٣٨] ويمكن أن يكون عائدًا على العقوبة فيكون معناه: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ أي: العقوبة ﴿مُّقِيمٍ﴾ أي: من فعل فعلهم وحذا حذوهم يصيبه ما أصابهم، وقد استحق من العقوبة ما استحقوا كما قال فيها: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢ - ٨٣] للمسرفين.

ثم ذكر أصحاب الأيكة وانتقامه منهم، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[2]

---

(١) ما بين [ ] مقطوع في (غ) وغير واضح في (ف).

(٢) ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لبطريق واضح يتكرر مع الأخبار عنها آنفًا بأنها لبسبيل مقيم على ما عليه

=

[الحجر:٧٩] الإمام: الطريق، ويقال له: النبي.

قال الشاعر:

لأَصْـبَح رَتْمًـا دُقَـاق الحَـصَى مكـان النبـيّ مـن الكاتِـبِ

والتأويل في هذه الآية على وجهين كما تقدم.

فصل

والعرض المقصود الأول في هذه السورة، والله أعلم الذكر والتذكير، فابتدأ بقوله جلَّ قوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:١ - ٢] إلى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:٥].

ثم سرد على ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:٦ - ٧].

ثم نظم بهذا جميع فصول السورة أو جلَّها، نظم بذلك قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] جعل ذلك من آياته على رسالته، يقول: فهذا ذكر لو كانوا يعقلون.

ثم كذلك إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم أوعد بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٢ - ١٣] يقول: كذلك؛ أي: كما فعلنا بمن قبلهم من الأمم المهلكة أعرضوا عن الذكر لما جاءهم والرسول والكتاب، فمنعناهم الفهم، وضربنا على قلوبهم وأغشينا أبصارهم وآذانهم فهم لا يؤمنون.

ثم أتبع ذلك بما هو في معناه قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا

=

أكثر المفسرين، وجمع غيرها معها في الأخبار لا يدفع التكرار بالنسبة إليها، وكأنه لهذا قال بعضهم: الضمير يعود على لوط وشعيب - عليهما السلام - أي: وانهما لبطريق من الحق واضح.

وقال الجبائي: الضمير لخبر هلاك قوم لوط وخبر هلاك قوم شعيب، والإمام: اسم لما يؤتم به، وقد سمي به الطريق واللوح المحفوظ ومطلق اللوح المعد للقراءة وزيج البناء، ويراد به على هذا: اللوح المحفوظ. تفسير الألوسي (٥٨/١٠).

فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[١] [الحجر:١٤ - ١٥] أي: إن الطبع على قلوبهم لعقوبة الإعراض يبلغ بهم إلى جحد المشاهدة العظمى وإنكار الغرائب والعجائب.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦] البروج: القصور.

يقول جل من قائل: ولقد جعلنا في السماء قصورًا لو تبينوا الآيات وبما هي آيات وعلى ما هي آيات لأبصروا بنور بصائرهم إلى أنها جنات حكمًا دون أن يكون الآن عينًا لحكمة الله تعالى في ذلك بستر عين الجنة لأجل الابتلاء بالإيمان بالغيب، فأبطن ذلك كما ستر الحيوان في مني الإنسان وغيره، ثم خلقه وبلغه إلى ما قدر له من صورة وخلقة وعمل وأجل، إلى غير ذلك مما هو الآن في عُلانا من سماء وسحاب والرياح اللواقح، فيخلق الله الماء في ذلك فينزله إلى الأرض كما ينزل الماء إلى الأرحام، ثم يفصله وينزله إلى ما إليه ينزله ويفصله من شبه لما ينزل عنه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إنما صد عن الإيمان بذلك منهم الكفر عموا عن الإيمان، وحجب أن يكتب من المصدقين لغفلته، وسينقشع ذلك يوم انقضاء أيام الحياة [.......][٢] الآن محنة السجن الذي سجنوا فيه لشؤم المعصية، فجدير بمن آمن وأصلح أن يرجع من سجنه إليها؛ أعني: الجنة.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦] كذلك هي الجنة مزينة

---

(١) ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ كما قالوا ذلك عند ظهور سائر الآيات الباهرة، والظاهر على ما قال القطب: إنهم أرادوا أولاً سكرت أبصارنا لا عقولنا، فنحن وإن تخيلنا هذه الأشياء بأبصارنا لكن نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه، ثم أضربوا عن الحصر في الأبصار وقالوا: بل تجاوز ذلك إلى عقولنا، وفسر الزمخشري الحصر بأن ذلك ليس إلا تسكيرًا فأورد عليه بأن ﴿إِنَّمَا﴾ إنما تفيد الحصر في المذكور آخرًا، وحينئذٍ يكون المعنى ما نقدم، وهو مبني على أن تقديم المقصور على المقصور عليه لازم وخلافه ممتنع، وقد قال المحقق في «شرح التخليص»: إنه يجوز إذا كان نفس التقديم يفيد الحصر كما في قولنا: «إنما زيدًا ضربت» فإنه لقصر الضرب على زيد. تفسير الألوسي (٤٥٧/٩).

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

جعل تزيينه إياها آية على ذلك، ولا يراها إلا الناظرون في آياته.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٧] كذلك أخرجهم منها وطردهم عنها يوم إباية أبيهم إبليس عن طاعة ربه والتوقير لآدم عليه السلام والاقتداء بصفته، فيقول عز من قائل: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾(١) [الحجر:١٨] [....](٢) كذلك جعل حدَّه يومئذٍ بقوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر:٣٤] وأبقى من جواره لآدم عليه السلام والمهتدين من عباده النظر إليها بالقلوب والتوهم لها بالعقول، ومشاهدة الآيات عليها، وأبقى للرجيم استراق السمع، غير أن هذا أرصد له رجم الشهب، وهذا حياة مريد الإيمان ومباشرة الروح اليقين.

تنبيه: يقول ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١] وقرئ «سرجًا» برفع السين والراء وإسقاط الألف على الجمع، وجعل هذا في موضع السؤال عن نفسه ﷻ في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] فوصف البروج والنجوم والشمس والقمر بأنه هو الخبير به ﷻ.

---

(١) قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: ﴿إِلَّا مَنِ استرقَ السَّمْعَ﴾ يريد: الخفطة اليسيرة، وذلك أن الشياطين يركبُ بعضهم بعضًا إلى سماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة، فيُرمون من الكواكب فلا تخطيء أبدًا، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرقُ وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً، فيقتل الناس في البراري. روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأمْرَ فِي السَّماءِ ضَربَتِ المَلائِكةُ بأجْنِحَتِهَا خضعانًا لقوله كَأنَّه سِلسِلَةٌ على صِنْوانٍ، فإذَا فزِعَ عَنْ قُلوبِهِمْ قالوا: مَاذَا قَال ربُّكُمْ؟ قَالُوا: الَّذي قَالَ الحَقُّ وهُوَ العليُّ الكَبيرُ، فَيَسْمعها مُسْترِقُ السَّمع، مُسْترِقُ السمعِ هَكَذَا بَعضهُ فَوْقَ بَعْضٍ، ووَصفَ سُفْيَانُ بكفِّه فحرَّفها وبدَّدَ بيْنَ أصَابعهِ، فيَسْمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقِهَا إلى مَنْ تَحْتهُ، ثُمَّ يُلْقيها الآخرُ إلى مَنْ تَحْتهُ حتَّى يُلقيهَا على لِسانِ السَّاحر والكَاهنِ، ورُبّما أدْركهُ الشِّهابُ قبْل أنْ يلقِيهَا، ورُبَّما ألْقاهَا قبلَ أن يُدركَهُ فيَكذِب مَعَهَا مِائةَ كِذْبة، فيقالُ: ألَيْس قد قَالَ لَنَا اليَوْمَ كَذَا وكَذَا، فيصدق بتِلْكَ الكَلمةِ الَّتي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ» وهذا لم يكن ظاهرًا قبل أن يبعث الرسول ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمانه ﷺ وإنما ظهر في بدء أمره، وكان ذلك أساسًا لنبوته ﷺ. تفسير اللباب لابن عادل (٢٩/١٠).

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر**»[١].

وأخبر عن هذه الرؤية إنها في الجنة إن شاء الله ﷻ، والشمس والقمر لا يكونان أبدًا إلا في البروج على المعهود المعلوم من مسالكهما فيها وسيرهما في منازلهما، وجعل رحمته فيها آية له على ذلك، وقد تقدم أنه يفتح برحمته من رحمته بالماء ينزله من السماء، فتخرج به الجنات على أنواعها معروشات وغير معروشات، ومن كل زوج كريم، وإنما يكون عن الإنسان الإنسان، ومن كل جنس جنسه، فافهم ولا يضلك الغافلون.

وقال الله ﷻ: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٢ - ٢٣] فكما أن نطقنا موجود فكذلك ما نوعده في السماء موجود، هذا قول الصادق - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - أقسم عليه وهو الحق المبين.

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[٢].

وقال يوما لأصحابه: «**أتدرون ما فوقكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**هواء**» قال: «**أتدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ماء**» قال: «**أتدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**سماء**»[٣] فهذا ظاهر من قوله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣١٥٤) ونصه: عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قال: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ مَرَّتْ سَحَابٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ؟ هَذِهِ الْعَنَانُ رَوَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ يَسُوقُهَا الله إِلَى قَوْمٍ لا يَعْبُدُونَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ السَّمَاءُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذِهِ السَّمَاءُ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ وَسَقْفٌ مَحْفُوظٌ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءٌ أُخْرَى، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَيَقُولُ: أَتَدْرُونَ مَا بَيْنَهُمَا؟ ثُمَّ يَقُولُ: مَا بَيْنَهُمَا خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الأَرْضُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذِهِ الأَرْضُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا تَحْتَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: تَحْتَ ذَلِكَ أَرْضٌ أُخْرَى، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا
=

ﷺ أنبأهم فيه عن رتبة هذه الموجودات في أماكنها، والهواء عن الروح، وهو جل هواء الجنة.

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة:٨٨ – ٨٩] والريحان عن الماء؛ إذ كان معناه الرزق أو ما هو يفوح طيبًا، والسماء: الجنة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم﴾ الذي وعدتم به ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] أي: ما هو الأمر بالوعيد من السماء ينزل الأمر به، وقد ينزل الله من علو الصواعق ذلك عن إثارة نفسي جهنم بفيحها سعيرها وزمهريرها، فيكون عن ذينك النفسين إذا شاء الله ذلك الصواعق والبرد والصر الذي يهلك الحرث ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧] هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم.

وقال الله سبحانه: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر:٢٠] فقال: «مبنية» بلفظ الماضي، ولم يقل بلفظ الاستقبال كما قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

ألا تراه جل ذكره يبالغ في الإشارة حتى أرانا مثالها مشاهدة بما تقدم من التذكير حتى قال بعدُ بقوله إثر هذا: ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ [الزمر:٢٠ – ٢١] إلى آخر المعنى، كذلك قال جلَّ قوله في الطرف الآخر قبل هذا: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦] وأخذ بالوصف للجنة من سفل ثم أصعده، وأخذ يوصف النار من علو ثم أهوى بها سفلاً، فافهم وفقنا الله وإياك.

فصل

الغيب له منازل؛ أعني: على المعهود الذي كلفنا تعرفه والإيمان به:

=

بَيْنَهُمَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ دُلِّيَ رَجُلٌ بِحَبْلٍ، حَتَّى يَبْلُغَ أَسْفَلَ الأَرْضِ السَّابِعَةِ لَهَبَطَ عَلَى اللهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

أحدهما: ما هو كائن، لكنه غيب في وجود سواه، كالعلقة هي غيب في النطفة، والمضغة غيب في العلقة، والإنسان غيب في هذا كله على درجات انتقاله، وكالماء هو غيب في الهواء، وكالنبات هو غيب في الماء، والحيوان غيب في النبات، والماء والأرض والإنسان غيب في هذا كله على درجات انتقاله، فهذه منزلة غيب ما يوجده الله جل ذكره من حكم التوسعة في الدارين الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] بيّنه رسول الله ﷺ بقوله: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بِمَ يرجع منها؟**»[١].

والمنزلة الثانية: حكمها حكم حقيقة حياة الشهيد؛ حيث أخبر الله عنها بصدق قيله أنه حي يرزق ويسر ويستبشر ويأكل ويشرب [....][٢] يقول فيه: حيث هذا باطن غيب وحقيقة موجوده على ضد ما هو ظاهره، [....][٣] هذا بخلاف الظاهر منه.

والمنزلة الثالثة: حكمها وجود الملائكة - عليهم السلام - ووجود الجن معلوم لنا الآن ومشاهد لغيرنا، وأعلى من هذا كله وجودًا وأحق حقيقة: وجود الله العلي، الكبير - جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - فهذا حق الحق، وهو غيب، فكذلك وجود الجنان حق بحكم التوسعة المذكورة أولاً بوجه ما، وهي موجودة بحكم وجود الغيب الذي ظاهره خلاف باطنه الذي هو غيبه، وهي أيضًا موجودة بحكم وجود الحق الذي كل وجود منتزع من وجوده، ونحن وإن كنا نرى سماء وأفلاكًا وبروجًا وشمسًا وقمرًا وهواء فهو حق وشرط كما أن حقيقة وجود الشهيد طعامًا للطير والسباع حق، ووجوده حيًا يرزق وجود حق، وقد أخبر بذلك الصادق الحق وأقسم عليه، فهو الحق والحمد لله رب العالمين.

وأما على قراءة من قرأ: «**وجعل فيها** سرجًا»[٤] وهي الكواكب، وهي في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

(٣) ما بين [ ] بياض في (غ) وغير موجود في (ف).

(٤) قراءة العامة: «سراجًا» بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي: "سرجا" يريدون النجوم العظام الوقادة.

والقراءة الاولى عند أبي عبيد أولى، لانه تأول أن السرج النجوم، وأن البروج النجوم، فيجئ =

التأويل: الأنبياء والرسل والأولياء العلماء.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:١٩ - ٢٠] من نظر في معنى هذا الخطاب فَهِم منه سر المراد، ومن بعض المفهوم منه جل وتعالى أنها جنة الأرض، استاق ذكرها نظمًا بذكر جنة السماء، ثم ذكر بخلقه آدم عليه السلام وخلقه الجنان، وذكر تعظيم ودِّه وكريم موالاته في عصمته للمجتبى عنده وصفيِّه آدم عليه السلام وإكرامه إياه، وبما ابتدأه منه وحيث أسكنه ولِمَ أخرجه، وفي ذلك إنه لما اهتدى وتاب إليه رده إليها.

قال رسول الله ﷺ: «**لقيت آدم في السماء الدنيا وعن يمينه أسودة وعن يساره أسودة...**»[1].

ثم ذكر بالجنة والمغفرة منه والرحمة لعباده، وأنذرهم بعذابه إن لم يطيعوه ويؤمنوا به وبرسله، ثم ذكر بقصة إبراهيم ولوط وقومه وأصحاب الأيكة، وفي ذكر ذلك من تكذيبهم الرسل والكتب وعيد لمن فعل فعلهم وحذا حذوهم، وتحذير لمن عصى من هذه الأمة وترك الاقتداء والعمل بالطاعة، فإن ذلك تكذيب وكفر أصغر، فحذر من جزاء ذلك على قدره، فافهم.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الحجر: ٨٣–٨٨].

المعنى نجومًا ونجومًا. النحاس: ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال: السرج النجوم الدراري. الثعلبي: كالزهرة والمشتري وزحل والسماكين، ونحوها. [القرطبي ١٣/٦٥].

(١) تقدم تخريجه.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ قد تقدمت إلى الحق المخلوق به السماوات والأرض إشارة، والله عنده مزيد الخيرات، ثم نظم بذكر الحق ذكر إتيان الساعة على اليقين بما في الموجودات من تمام ليل ثم نهار، وساعة ونفس وجمعة وشهر وسنة، كل ذلك يعود أولها على آخرها، كذلك كانت الدنيا عن الدار الأولى التي يشار إليها بالآخرة، وسيأتي آخر الدنيا ويحل أجل ذلك، ويعود آخرها كأولها، ثم قال: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[1] [الحجر:٨٥] أي: انتظر بهم واصفح عن استهزائهم يكون قولهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:٦ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦] هذا منتظم بذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض، و«الخلاق» فعَّال على بناء التكثير والإجادة والإحكام، ثم هو إشارة إلى الإمساك، فإنه يخلق ويعدم أبدًا على الدوام في كل شيء موجود.

قال الله ﷻ: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] وقد تقدم ذكر هذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي﴾[2] [الحجر:٨٧] قد تقدم القول

---

(١) أي: فأعرض عنهم إعراضًا جميلاً بحلم وإغضاء إن كان اللام الجنس، فالمراد هذا النوع من الصفح لا الذين يشتمل على حقد واجتهال ومكر، وإن كان للعهد فلعل المراد ما أمر به في نحو قوله: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ وقيل: هذا منسوخ بآية السيف، والأظهر أن حسن المعاشرة والمخالقة مأمور به ما أمكن، فلا حاجة إلى ارتكاب النسخ. تفسير النيسابوري (٤/٤٩٥).

(٢) اختلف العلماء في السبع المثاني، فقيل: الفاتحة، قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، وروى عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى، وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني»، قال: هذا حديث حسن صحيح، وقال ابن عباس: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معًا، إذ ليس بينهما التسمية.

فيها في صدر الكتاب، هذا منتظم بما في صدر السورة من قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦] إلى قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فذكر أنواع التذكار وما يقع عليه اسم الذكر، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] والسبع المثاني بنص حديث رسول الله ﷺ في سورة ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

قال رسول الله ﷺ فيها: «**إنها أم الكتاب، وإنها أم القرآن، وهي السبع المثاني**»[١] وفي أخرى: «**وهي من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت**»[٢].

وهي سبع آيات على اختلاف في إدخال سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فيها أو إخراجه عنها، وقول رسول الله ﷺ الحكمة البالغة، هو الوحي يحتاج عند تفهمه إلى الاستبصار والبحث والتدبير.

جاء - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت مكان الإنجيل المبين، وأعطيت مكان الزبور المثاني**» فالمراد والله أعلم؛ يعني: قوله ﷺ: «**أعطيت المثاني مكان الزبور**» هو ما جاء في القرآن العزيز آتينا القصص والمواعظ والتذكر والتحذير من ذنوبٍ ومعاصٍ، وذكر منه [....][٣] فإن الزبور على هذا السبيل سبع مثاني «**وأعطيت فواتح الكتاب وخواتم سورة البقرة من تحت العرش لم يعطها نبي قبلي، وأعطيت المفصل نافلة**»[٤].

وفي أخرى: «**أعطيت البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى**»[٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «القراءة خلف الإمام» (١٠٤).

(٣) ما بين [ ] بياض في الأصل.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني (٥٢٥) والحاكم (٢٠٨٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (١٩٤٩٠)، وابن عساكر (١٨٨/٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٧٨).

وقال ﷺ في سورة الحمد: «**إنها من السبع المثاني**»[١] وهي سبع آيات وسبعة أسماء وخواتم سورة البقرة سبعة أسئلة، قال له الملك عليهما السلام: لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته.

أما قوله ﷺ: «**أعطيت السبع المثاني مكان الزبور**»[٢] فلم يأت فيما نعلمه تعيين هذه السبع المثاني إلا ما قاله في سورة ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢]: «**إنها السبع المثاني**»[٣] و«**إنها من السبع المثاني**»[٤].

يقول الله جل وعز: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي...**»[٥].

وقال رسول الله ﷺ فيها: «**ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل مثلها**»[٦].

وقال الله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٤٥] فهذه أسماء الله ﷻ تجمل الوعظ، وعنها فصل كل شيء وجودًا وذكرًا؛ إن كان من الإيجاد فهو الإيجاد المحكم، وإن كان من الذكر والوعظ والكلام فذلك كله عنها انفصل، ويكون التفاضل في الموجودات على قدر الرضا [.....][٧] بعد فيما قرب، ثم الأقرب، ولما اتخذوا العجل إلهًا من دون الله وكان ما قد قصه الله جل ذكره من قصصهم إلى قوله: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾ [الأعراف:١٥٤].

فهذا إخبار منه ﷻ أن التوراة التي كتبها الله جل ذكره بيده انتسخ منها بأمر الله جل ذكره؛ أي: أثبت لهم في النسخة المنزلة إليهم ما هو هدى ورحمة، واقتصر فيها على الأمر والنهي والنصيحة والإرشاد لهم إلى ما ينجيهم من عذابه، ومنال ثوابه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد (٢١١٣٣)، وابن خزيمة (٥٠٠)، والحاكم (٣٠١٩) وقال: صحيح على شرط مسلم. وعبد بن حميد (١٦٥)، والدارمي (٣٣٧٣)، والبيهقي (٢٣٤٨).

(٧) ما بين [ ] بياض في الأصل.

﴿هُدًى﴾ أي: لقوم موسى ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ قوم عيسى، وبعدهم تابعوه بإحسان بمشاركة ممن اهتدى فيهم وخشي الرحمن بالغيب.

ثم قال بعد ذلك غير بعيد: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف:١٥٥] إلى قوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ورحمة الله وسعت كل شيء الظاهر لنا سماعًا وقولاً وعبرة في الموجودات هي أسماؤه، ولا تكون رحمته وسعت كل شيء إلا للمؤمن.

قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمْره كله خير، إن أعطي شكر فأُجِر وإن مُنع - أو قال: ابتلي - صبر فأُجِر، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن**»[1].

قال الله ﷻ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ....﴾ [الأعراف:١٥٦] فهذا يؤيد ما تقدم ذكره من العبرة، والقول بأن القرآن كله واحد فردًا [....][2] لم ينفصل بعد إلى كل شيء بفضل الله، عبر عن ذلك قوله في مفتتح أم القرآن وأم الكتاب: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ فجاء بالحمد الذي هو جامع للثناء والمدائح والذكر أجمعه وأضافه إلى اسمه الله جل ذكره، والذي جميع الأسماء له شارحة، ثم تفصلت عنه الأسماء جميعًا كما تفصلت عن الحمد وهو جامع الأذكار كلها.

أتبع ذلك ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فذكر الوجود كله الواقع عليه اسم العالمين، وهو كل مخلوق وكل مذكور وموجود سوى الله ﷻ، فظهر بذلك ما فصله إيجادًا، كما أظهر بتغاير الأسماء ما فصله عن اسمه الواحد الأحد من ذكر وإيجاد.

أتبع ذلك قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣].

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٥ - ٦] به ظهر الوصل والاتصال، وبه حيي الوجود كله، وتراحم وتعاطف بعضه على بعض، الرحيم به، تمت رحمة الله بالإيمان

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٩٥٩)، والدارمي (٢٧٧٧).

(٢) ما بين [ ] غير واضحة في (غ)، و(ف).

والإسلام والطاعة، واتصل ذلك بهم إلى رحمة الله في الآخرة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] في الدنيا والآخرة عاجلاً وآجلاً من طاعة وجزاء، وكل ما تقع عليه اسم الدين، وبه ظهر الملك في العالم عيانًا، فلأنه الله الإله الرب الرحمن الرحيم الملك وجبت له الطاعة والخضوع والخنوع والمحبة والود والرضا بكل ما يقتضيه الجزاء عليه.

ولوجوب ذلك قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وبما تقدم ذكره من الأسماء والأذكار العلا وما وجب عن ذلك مع قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وطلب العون من مالكها، في كل ذلك يثني الله جل ذكره قوله العظيم على تلاوة عبده، فهذا كالذي كتبه الله جل ذكره لموسى في التوراة من كل شيء؛ أي: من الأسماء من اللوح المحفوظ موعظة وتفصيلاً لكل شيء، ومن تدبر هذه الجملة وأمعن في التذكار، وامتحن نفسه في ذلك إلى ما يأتي من مثله في سائر القرآن من المعبر عنه بالقرآن العظيم وجده، والذي عبر عنه ﷻ عن مكتوبه في التوراة سواء.

ثم قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦ - ٧] إلى آخر السورة، كقوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

كذلك قال في الإنجيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦].

كما قال في وصف القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾[1] [الحجر:٨٨]

---

(١) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح بنظرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ﴿أزواجا مِّنْهُمْ﴾ أصنافًا من الكفرة اليهود والنصارى والمشركين، وقيل: رجالاً مع نسائهم، والنهي قيل له ﷺ وهو لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة. وقيل: هو لأمته وإن كان الخطاب له ﷺ، وأيد بما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس - رضي الله =

أي: استعن بما آتيناك من نور وهدى وشفاء وموعظة من علم وعمل به.

كما قال في نظيرتها من سورة طه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ [طه:١٣٠] إلى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢] المعنى إلى آخره حيث ظهر.

ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا يحزنك كفر من كفر، فذاك الذي قد شاءه الله جل ذكره منهم وبهم ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] تودد لهم ورحب بهم وقربهم وتحنن عليهم.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٨٩ - ٩٩].

﴿وَقُلْ﴾ لمن كذب أو استهزأ بك: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر:٨٩] وعيد وتهديد كما قال ﷺ: «**وأنا النذير العريان**»[١].

تعالى عنهما - أنه قال في الآية: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، نعم كان ﷺ بعد نزول الآية شديد الاحتياط فيما تضمنته، فقد أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير أنه ﷺ مر بإبل لحي يقال لهم: «بنو الملوح» أو «بنو المصطلق» قد عنست في أبوالها وأبعارها من السمن، فتقنع بثوبه ومر ولم ينظر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ ويعد نحو هذا الفعل من باب سد الذرائع. ومنهم من أيّد الأول بهذا وبدلالة ظاهر السياق عليه، وحاصلها مع ما قبل أوتيت النعمة العظمة التي كل نعمة وإن عظمت فهي بالنسبة إليها حقيرة، فعليك أن تستغنى بذلك ولا ترغب في متاع الدنيا، وجعل من ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» بناء على أن «يتغن» من الغنى المقصور كيستغنى وليس مقصورًا على الممدود. تفسير الألوسي (٦٩/١٠).

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٤)، ومسلم (٢٢٨٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٣٢).

وقال: «**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[1] هذا كله من التذكير المتقدم.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر:٩٠] الكاف للتشبيه، والميم في قوله: «كما» اسم للذكر، وبخاصة منه مثلاته في الأمم الماضية والقرون المهلكة، وقد تقدم ذكر بعضهم في هذه السورة قوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب.

يقول: إنا أنزلنا على أولئك من الإهلاك والإضلال والعمى عن الهدى، وأملينا حتى أخذناهم بذنوبهم كما أنزلنا على المقتسمين؛ يعني وهو أعلم: الذين تقاسموا على الكفر من عنادهم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ورفضهم إرسال محمد ﷺ إليهم.

وقيل أيضًا: هم الذين كانوا يقسمون على الطريق ويبلغون الركبان يحذرون الناس منه وينفرونهم عنه بقولهم: «هو مجنون شاعر ساحر».

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١] يقول: قطعوه على أنحاء أباطيلهم وسبل ضلالتهم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣].

يقول: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

ويقول: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤].

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] أي: امضِ لشأنك وفرق بحق ما آتيناك أباطل أضاليلهم، وامضِ لشأنك وأبلغ عنا ما أمرناك بتبليغه.

يقول جل من قائل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] من استهزائهم بما ذكره في صدر السورة كانوا قومًا بأعيانهم منهم أبو لهب وعبد ياليل وستة نفر دعا على أحدهم رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم سلط عليه كلبك**»[2] فافترسته السبع، وأبو لهب أصابه سهم جره إليه رداؤه وهو يمشي فأصابه في عنقه شيء لا يوبه له إصابته الدائرة منه، وآخر كان يطوف بالبيت فأشار جبريل بإصبعه إلى صدره فكان

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٢)، ومسلم (٢٠٨)، والنسائي في الكبرى (١١٤٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي (١٠٣٤٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٥٦٥).

من ذلك هلاكه.

أخبر بذلك رسول الله ﷺ حتى استنفذهم الله هلاكًا، فقال له جل ذكره: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ﴾ [الحجر:٩٥ - ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:٩٧] أي: من استهزائهم وهجرهم في القرآن.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٩٨] أي: تشاغل عن ضلالهم وفحشهم بعبادة ربك وانتظر به ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ هم الملائكة والمؤمنون، وجميع ما خلق الله من شيء، وبذلك أَنَّب الله جل ذكره إبليس الملعون بقوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا﴾ سجدت فـ﴿تكُونَ﴾ بذلك ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] ومن الساجدين ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] هو الموت، ويكون اليقين وعد الله له بالنصر والتأييد، وظهور دينه على الدين كله، والوجهان موجودان في وعده، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النحل(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

---

(١) سميت بها لاشتمالها على قوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله ﷻ بعض خواص عباده أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب بحمل كلماته على مواضع الشرف وعلى المعاني المثمرة وعلى التصرفات العالية مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية وهذا أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده، قال الحسن، وعطاء، وعكرمة، وجابر: هي كلها مكية، وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد حمزة وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقيل: إلا ثلاث آيات ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية نزلت في المدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحد، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِالله﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وقيل: من أولها إلى قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مدني وما سواه مكي، وعن قتادة عكس هذا، ووجه ارتباطها بما قبلها أنه تعالى لما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان ذلك تنبيهًا على حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما أجرموه في دار الدنيا، فقيل: أتى أمر الله وهو يوم القيامة على قول الجمهور، وعن ابن عباس المراد بالأمر: نصر رسول الله ﷺ وظهوره على الكفار، وقال الزمخشري: كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبًا بالوعد، وهذا الثاني قاله ابن جريج قال: الأمر هنا ما وعد الله نبيه من النصر وظفره بإعدائه، وانتقامه منهم بالقتل والسبي ونهب الأموال، والاستيلاء على منازلهم وديارهم، وقال الضحاك: الأمر هنا مصدر أمر، والمراد به: فرائضه وأحكامه، قيل: وهذا فيه بعد؛ لأنه لم ينقل أنّ أحدًا من الصحابة استعجل فرائض من قبل أن تفرض عليهم، وقال الحسن وابن جريج أيضًا: الأمر عقاب الله لمن أقام على الشرك، وتكذيب الرسول، واستعجال العذاب منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم، وقريب من هذا القول قول الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وقيل: الأمر بعض أشراط الساعة.

خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:١-٨].

أول هذه السورة منتظم بالسورة التي تقدمت في أنهما معًا للتذكار والذكر، وخاصة جل هذه في التذكير بالنعم والآلاء، والإعلام بآثار الله جل ذكره وحكمته، ودلالاته على موجودات الآخرة عبرة إليها من موجودات هذه الدار، ولما انقسم الإعلام باسم اليقين في آخر الحجر إلى الموت وإلى ما هو وعد الله بالنصر والتأييد وإظهار الدين، وكل ذلك يشمله اسم الأمر قال ﷻ في مفتتح هذه: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ [النحل:١].

وإتيان الأمر على أنحاء:

فمنه: ما يكون يومه خمسين ألف سنة.

ومنه: ما يكون يومه ألف سنة.

ومنه: ما يكون كيوم من أيامنا هذه، وكلمح البصر، وما هو أقرب، يقال: «أتى الشيء» إذا أتت أوائله وتباشيره، وأتى الشيء نفسه، والمراد بالإخبار عنه في هذا الموضع والله أعلم: هو الساعة نفسها، وانقراض الدنيا، ومن أشراطها: رسالة محمد ﷺ، فمن أشراطها يومئذٍ: ظهوره؛ إذ لا نبي بعده، وكانوا يستعجلونه بالعذاب الذي كان ينذرهم به كما كان يُفعل بمن كان قبله؛ أي: من كان قبلهم من الأمم بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وعلى هذا فيكون معنى قوله: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ**﴾ أي: بنصره ورسوله وظهور دينه، ومن أوائله مجيء رسوله محمد ﷺ، عبَّر عن هذا المعنى وعما هو عنده الأولى قوله: ﴿**فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا**﴾ [النحل:١ - ٢] واتصل بهذا المعنى قوله: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

وكان كثيرًا ما قدم ذكره في الكتب قبله وأنطق ألسنة الرسل على نوب جياءتهم

فكان معنى قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: الذي بلغكم ذكره وتقدم إليكم في الإيمان به، وأخذ عليكم الميثاق بنصره وتصديقه، فلا تستعجلوا كمال ظهوره وتمام وصفه، فإنه تبارك وتعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، وذلك مقتضى كلمته: «كن» فينزل ذلك القول مع الملائكة بالروح على المراد بذلك من عباده، يفهم من ذلك ﴿أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

هذا جملة الموحى به إليهم، وهي كلمة جمعت ما احتوت عليه جميع الكتب المنزلة جملة محكمة، ثم لا يزال بعد يُفصِّل هذه الكلمة بحكمته ويتممها بسنته فيكون من ذلك ما قد سبق في علمه لمقدار كلمته الموحى بها إلى ذلك الرسول، فرب رسول يتفصل في حقه تلك الكلمة إلى أن تأخذ أقطار الأرض، وتبلغ حيث بلغ الليل والنهار، ورب رسول لا يتفصل في حقه إلا قليلاً.

قال رسول الله ﷺ: «**عرض علي الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الرهط، ويمر النبي ومعه الرجل والرجلان، حتى رأيت سوادًا سد الأفق، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا موسى وأمته...**»(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

وقد كان من قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١] سبح نفسه وتعالى عما يشركون في الآية الأولى عند ذكر مجيء أمره الحق المشاهد في إتيان أمره بوحيه وتبيان دلالته في الخلق على وحدانيته، كما سبح نفسه وتعالى أيضًا لأجل شمول الحق المخلوق به السماوات والأرض، جمع ذلك كله كلمة الأمر، وهو المعنى الأول الذي به كان الحق في كل شيء، ولذلك أعربت شواهد الوجود كله بالعلم بالله وبأسمائه وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه.

ومن أسمائه وصفاته: المرسل والرسالة، وما أرسل به الرسل هو من أفعاله، فشهادة الموجودات فيما تقدم ذكره من العلم به وبالرسالة، وبما جاءت به يبلغ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٥٤٢٠)، ومسلم (٢٢٠)، وأحمد (٢٤٤٨)، والترمذي (٢٤٤٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٧٦٠٤)، وابن حبان (٦٤٣٠).

استقرار العلم به معرفة بالغة كمعرفة أحدنا بكلام من تقدم له العلم بمعرفة كلامه، وإن كان من وراء حجاب، وتمييزه من كلام سواه، وإن كلامه يدل على ما يريده وعلى العلم، ومع ما يدل مصنوعه على وجوده دلالة الفاعل على فعله والفعل على فاعله، ووحدانيته معلومة من حقيقته قيوميته أبدًا إلى ما دل عليه فعله، وذلك معلوم بقيام السماوات والأرض، لا تزول قيوميته أبدًا إلى ما دل عليه فعله، ولا يمور إلى أن يشاء ذلك، وذلك يدل على ألا شريك له ولا إله معه سواه، وعلى إنه شاهد غير غائب، وإنه لا ينام ولا يغفل، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ونبّه أيضًا من معنى قوله الحق: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: إن كل شيء له أجل مسمى، وعرض في ذلك بطول المدة مذ خلقها لما خلقها له إلى أن يقوض البناء ويبدلهن بغيرهن، يقول: فلا تستطيلوا مدة انتظار هذا الأمر ولا تستعجلوا إتيانه، فهو إنما يأتي لوقته، وعرض أيضًا بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بأنهم لطول الأمد نسوا حظهم وما ذكروا به فأشركوا به، وعدلوا.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] إرداف التبيان إتيان الأمر إلى مدده المؤجلة له، كما يأتي المراد بالنطفة إلى ما وجدت له، وهو أن يكون إنسانًا، ثم ينقله منقلة منقلة إلى تمام الأمر فيه الذي هو المراد منه، عبّر عن ذلك بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يجادل في الله، أو يجادل عن الله، فربما أمهلناه على التمتع؛ ليأكل في ذلك رزقه، ويتقلب في أحواله المقدرة له من أعماله وأيامه إلى ما بين ذلك لينال إمهاله.

دلت الآية المتقدمة على أنه الواحد الحق ﷻ وألوهيته، وعلى المألوه والمخلوق، وعلى معرفة الرسالة والمرسل والرسول، لكن بآخرة، ثم هذه الآية دلت على الرسالة بما أخبر فيها عن تنقيل الإنسان وتقليبه في سنن سنته على سبيل النشء بمشاركة في الدلالة على القدرة والعلم والإرادة والحياة.

قوله ﷻ: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ [النحل:٥] عطف هذا الخطاب على ما تقدم؛ لاتصال ذكر الخلق بالأمر وتقارب معنييهما؛ لصدورهما من أمر الخالق جل وعلا بالوقوف على قوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ وهذا تعداد النعم أوقع بالمعنى الذي استاق هذا الخطاب لأجله، والوقوف أيضًا على قوله: ﴿خَلَقَهَا﴾ بمعنى قد تقدم من

اتصافه بالقدرة والعلم والإرادة، وإنها من الحق الذي خلق به كل شيء.

وقوله جلَّ قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [النحل:٥] فمعناه: إن كل ما خلقه من شيء في هذه الدار مسخر لبني آدم، فهي نعم كلها له عليهم فيها تأمل؛ ليصلوا إلى ما هو حقيقتها ومنبعثها، فإنها موجودة عن الجنة في الدار الآخرة، منبعثها من هنالك، ألا ترى أن الدفء استدفاع لأذى البرد، والتظلل استدفاع لأذى الحر الكائنين عن فيح جهنم، أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

وإلى ذلك انقسم نعم ما ها هنا إلى نعم نفع ونعم دفع، وإنما تخلص نعم النفع إلى ما جاءت به من قبله وهي الجنة، وبالضد في دار البوار، ورحمة الله تصرف هنا موجودات دار البوار إلى نعم النفع، فذكر ذلك جل ذكره تعدادًا لنعمه وإعلامًا بقدرته ووحدانيته.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥] هذه الكلمة إشارة إلى تعداد النعم، وتعريض إلى أنه عنها وعن الأرض ينشؤهم، وفي ذلك إشارة إلى الإعلام بالإعادة بعد البداية، وتعريض بإشارته إلى أنه خلقنا من فيح خارج من موضع عذابه، وفتح كائن عن رحمته بما ينزله من السماء من طيبات وزروع وثمرات وأنعام؛ لذلك أمرنا جل وتعالى بأكل الحلال الخالص، وبالزكاة لكل ذي روح أباح لنا أكله.

قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢].

كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٦٧].

وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦].

ثم قال جل وعز: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ فيها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦] الجمال والحسن كله والملك من الجنة، فهذا من نعم النفع.

ثم قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ فهذا من نعم الدفع صرفها بواسطة نعم النفع حمل عنا بها المشقة برحمته إلى الانتفاع بها، وتعريض بأن أهل النار لا يسخر لهم شيء، بل يسلط عليهم كل ما سخر لهم هنا

وما لم يسخر بأعظم النكال وأشد العذاب؛ لذلك أعقب هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧].

فكان لهذا الخطاب وجه إلى تعداد نعمه، ووجه إلى الإخبار عن عظيم غنى موجودات الجنة، وجمال ما هنالك وحسنه، ووجه إلى الإعلام بحمل الأنعام ضحاياها وهداياها، وما ذكر اسم الله عليه وابتغى به مرضات الله، وحط الأوزار عن الموجهين لها إلى مرضات الله، وركوبهم إياها إلى بغيتهم، وجوازهم على الصراط بها؛ لذلك وهو أعلم عرض بقوله: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١] جعل فيما قدره فيما ها هنا من قطع أبعاد الأسفار وحمل المشقة بها عنا عبرة إلى ما هنالك.

أتبع ذلك بذكر ما لم تجرِ العادة على الأغلب بأكله، فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] يقول: من مخلوقات برية وبحرية وهوائية وأرضية لم ترها أبصاركم، ولا سمعت بها آذانكم، ولا علمتها عقولكم من مثالات هي بواطن لهذه الظواهر، وأرواح لأرواح وموجودات، وامتداد من الشياطين والجن وأتباع ذلك فيما مضى وفي الحال والمآل، ومن ملائكة تملك الملكوت، وآخرين يحفون بالعرش على أصناف ذلك

---

(١) ﴿إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ أي: مشقتها وتعبها، وقيل: المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بما ذكر وحذف بها؛ لأن المسافر لا بد له من الأثقال، والمراد: التنبيه على بعد البلد، وأنه مع الاستعانة بها يحمل الأثقال لا تصلون إليه إلا بالمشقة، ولا يخفى أن الأول أبلغ. وقرأ مجاهد والأعرج وأبو جعفر وعمرو بن معين وابن أرقم «بِشَقّ» بفتح الشين، وروى ذلك عن نافع وأبي عمر ووكلا ذلك لغة، والمعنى ما تقدم، وقيل: الشق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم؛ يعني: المشقة. وعن الفراء: إن المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف، يقال: «أخذت شق الشاة» أي: نصفها، وجاء: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» والمعنى: إلا بذهاب نصف الأنفس، كأن الأنفس تذوب تعبًا ونصبًا لما ينالها من المشقة كما يقال: لا تقدر على كذا إلا بذهاب جل نفسك أو قطعة من كبدك، وهو من المجاز، وجوَّز بعضهم أن يكون على تقدير مضاف؛ أي: إلا بشق قوى الأنفس، والاستثناء مفرغ؛ أي: لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس. تفسير الألوسي (١٠/١٠٢).

وصفاتهم في مصافاتهم، وآخرين تعجب الخليقة من جماد ونبات وحيوان وإنس، وغير ذلك من قوى في جميع مواد الخلقة إلا من قوى تقترن به بذلك تدبرها ملائكته أو عدوا لذلك إلى غير ذلك مما يعلمه هو ولا نعلمه إلى مقدورات لا تتناهى، هذا في الدنيا، وقال في الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] و«في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[١].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل:٩ – ١٦].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل:٩] ليس على الغافل عن آيات الله سبحانه سبيل للوصول إليه، وكذلك المكذب بها كيف يكون لهما سبيل تضاف إليهما ولم يسلكا سبيلاً، ولا أخذا إليه في طريق، بل عُميًا وموتى، إنما الجائر عن السبيل والله أعلم من أخذ يتعرف أسماء الموجودات وخواصها ومواضعها وأشكالها وصورها وخلقها وطبائعها ومسالكها في مضارها ومنافعها دون عبرة بخلق إلى خالق، ولا من صورة إلى مصور، ولا اهتداء بفطرة

(١) تقدم تخريجه.

إلى فاطر، ولم يوصل الفعل إلى فاعله، ولا نسب الموجودات إلى مقتضياتها من الأسماء والصفات، ولا يعرف مخارجها من منبعثها، ولا وقف على ما اختص به الفاعل الحق جل وتعالى [......] هذا وهذا عبرة بذلك إلى الدار الآخرة وموجوداتها [......][١] الأمر كله مما تبرأ منه، فهو يتطلب خواصها وعللها ومفعولاتها، وينسب آيات الأرض والسماء إلى معهود بادئ الرأي، وظاهر مواقع الأبصار، فذلك هو الجائر عن السبيل الذي وقف بالدليل دون المدلول، وتشاغل عن الفاعل الحق بالمفعول أبدعت به مطيته دون الوصول حتى اخترمته منيته ولم يبلغ المطلوب.

وإنما قصد السبيل لمن تقصى تعرف الموجودات واعتبر بها إلى مآلها، وما يكون آخرًا لها، ويعرف منبعثها بأولها، ويعرف وجود الحكمة في وجودها، واستشهد بها على ما جعلت له، فتعرف بها فاعلها وما أراد به، ويقف بإيمانه على توحده جل ذكره بصنعها، وإنه الواحد الأحد الملك الحق، ويؤمن برسوله ويستسلم لربه، ثم يترضاه ويعمل له خالصًا دون دخل في عمل ولا دغل في دينه، فبذلك القصد السبيل لا يتجشم إليه قطع مسافة، ولا يتوهم دونه بعدًا سوى خلافه لأمره وجهله به، بل هو أقرب إليه من نفسه.

فرُد - وفقنا الله وإياك - كل فعل جاء ذكره في القرآن أو ظهر وجوده في العالم إلى الله جل ذكره، فهو وليه خلقًا وأمرًا، وتعرف لأي حق أوجده من موجودات الدنيا والآخرة، وما بين ذلك، وما يشاهد في عرصة القيامة، وما يجب الإيمان به والشهادة له بالربوبية أو عما كان أو هو كائن حق ثابت، نسب ذلك كله إلى أسمائه كل مقتضى إلى مقتضيه دون اعتقاد قطع مسافة ولا توهم بعد، فهذا هو النظر الحق والاعتبار الأعلى، وهو المعبر عنه بالصراط المستقيم، وهو قصد السبيل إلى ما أضيف إليه وعرف به، ولأي وجه ولأي معنى أوجد.

ألا تراه جل ذكره بعد هذا يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النحل: ١٠] هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، هو الله هو الله حيث جاء هذا الذكر صدر

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

بألوهيته، ثم يخبر عن ذلك بما شاء تحقق في ذلك كله أنه فاعله، ومنزله ومقدره وزارعه ومنشئه ومدبره، والقائم عليه وممسكه حال وجوده، ثم ما أصدره بعد من قول أو خبر أو من مثل، فعلى إثبات ما أخبر به، وتحقيق ما عرض إليه بذكر موجودات الدنيا وأفاعيله وضروب حكمته فيها، ويذكر بالحق الموجود في الدار الآخرة من دار القرار وما بينهما؛ ليعبر المعتبرون من شاهد إلى غائب، ومن صغير إلى كبير، وما عدا هذا النمط هو [......][1] أخذ من الجوار عن قصد السبيل لحظه، وجار بوصف عن سواء القصد بقدر بعده عنه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١٠ - ١١] ظاهر هذا تعداد النعم، ومفهومه وصف اقتداره على إنزاله من السماء ثم تشريفه إياه على سنته فيه وبه، وأخرج به على ذلك من كل الثمرات وخلقه عنه كل شيء، وذكر الشراب وسوم الأنعام في النبات تعريض بذكر ما عنه منبعث ذلك بأنه يخلق منه خلقه ويفصله إلى ما هو يفصله عن أنعام ونبات وأناسي، وفيه تعريض بحكم باطن الخطاب إلى معنى قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٢].

وإنه لما أنزل من السماء الماء فأخرج به من كل الثمرات، وخلق منه كل شيء حي، فإذا بنزوله ذلك من زاد الحيوان، وآية للمعلوم من واجب وجوب الشبه بين الشيء وبين ما يكون عنه، كالنطفة من الإنسان يخلق الله منها إنسانًا، وكذلك غيره، ولوجود ذلك على الكشف أقسم رب العزة جل ذكره في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣].

هذا إلى ما تقدم ذكره من الدلالة على أنه يخرج الموتى كما يخرج النبات، وعلى أنه كما بدأ أول خلق يعيده، كما قال جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:١١] و﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:٩] كما يحيي الأرض بالماء ينزله من السماء فيصرفه إلى ما يصرفه إليه، ويخلق عنه أنواع النبات والحيوان، كذلك ينزله من السماء وقد مات

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

كل حي، فيخرج عنه الأحياء بعد موتهم يوم النشور؛ لهذا وأمثاله قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١١].

قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢] ظاهره تعداد النعم بتسخير ذلك وبما فيه من هداية لأهل الإبصار والبصائر، ومفهومه الإعلام بحسن الإبداع والإخبار عن كريم حكمته في حسن التقدير، وعدله في الأمر والخلق، وإنها آيات على ظهور الحق المبين، وتجلي المطلوب العلي في دار الحيوان دار القرار، وإن ذلك فيما هنالك على دوائر محكمة التدوار دون أفول فيما هنالك ولا غروب، وإنه كما أن موجودات هذه الدار عن أمره وفتح رحمته مع طلوع الشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمره، فكذلك موجودات ما هنالك عن تجلي الحق المبين، فاقدروا قدر هذه الدار من قدر تلك ما بين أمر وأمر وخلق وخلق.

أتبع ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢] أي: يعقلون تلك من هذه، كذلك عرض بكونها جارية على سنن معلوم وشرع قويم إلى إرساله الرسل بشرائع محكمة وآيات مفصلة ودين قويم، وهداية منه إلى صراط مستقيم.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾(١) دل بذلك على اختلاف موجودات الآخرة، وإثبات القدرة والمشيئة والعلم له ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:١٣] أي: بهذه ما هنالك ذكر في أولها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل:١٠] ذكره في الأولى الفكرة، وفي التي بعدها

---

(١) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض﴾ أي: خلق، يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءًا: خلقهم، فهو ذارئ، ومنه: الذرّية، وهي نسل الثقلين، وقد تقدّم تحقيق هذا، وهو معطوف على النجوم رفعًا ونصبًا؛ أي: وسخر لكم ما ذرأ في الأرض، فالمعنى: إنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية. وانتصاب ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ على الحال، و«ألوانه»: هيئاته ومناظره، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكلّ في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرّده. فتح القدير (٤/ ٢٠٧).

العقل، وفي الثالثة الذكر؛ ذلك لأن الفكرة يبعثها الذكر فيثير مكنون العلم، وكلما أجلت الفكرة الذكر من العلم مجملاً من الغيوب أطلعته على شرف من الفهم، فلا يزال تقدمه به ويترقى هو بها في الأسباب حتى يصل، وقد قالوا بالتأني في تسهيل المطالب، وبالفكر الثاقب يدرك الرأي العازب.

وأما العقل فإذا كان الإيمان دليله والوحي أميره، ولقن الخطاب عنه وفهم الإشارة منه، وتوسم بالإشارة ووقف دون الأشباه، فخضع لمالكه ونضال لواهبه، وصابر النفس وداوم قرع الباب، ولج بمعقوله في بحار الأفكار بتصحيح شواهد الأسرار، وعند ذلك فاعلم يصل القلب إلى نسيم الهواء الواصل إلى الروح في ملكوت الضياء حيث القدرة الخفية عن الأبصار الظاهرة، فيقبل القلب الهواء الواصل إليه، ثم يتلاحق بمضمرات الغيوب فيحصل قربًا بالمطلوب الأعلى.

يقول الله جل من قائل: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:١٣].

وقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت:٣٧].

وأما الذكر فإنه إذا وقف العقل على المختلفات من الموجودات من الألوان والصور، وعلى المؤتلفات منها ذكر الآخر بهذا الأول والنهاية بهذه البداية، وذكر في ذلك تصريف المشيئة العالية، وقهر القدرة الغالبة، وسعة العلم المحيط، وتحقق الصدق بالوعد الصادق، ووقف بلُبّه على صحة وجود الشيء من أول الأمر إلى غايته، فعند ذلك يتمثل له الآخرة عيانًا، وتمثل حقيقة التوحيد في باطنه مشاهدة، وقد يُكتَفى من حظ البلاغة بالإيجاز.

واعلم أن الأفكار جائلة في سعة تحسر عن إدراكها وتعجز عن الإحاطة بها؛ إذ قد لطفت تلك المعارف عن إحساس الأوهام، فمن الواجب أن تكون العقول متناهية إليها، متعلقة بأسبابها، معترفة بالتقصير عنها، ولتكن شاهدة لحقائقها، ممتنعة عن العلم بها إلى أن تصفو الأكدار، وتظهر الأخلاق من الأدناس فترتع في رياض الألباب، ويفتح الله جل ذكره لها صواب المصيب، فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الروح وتعاين حقائق الغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤] ظاهر هذا تعداد نعمه، وإظهار قدرته، وسعة علمه، إلى غير ذلك من صفاته وأسماءه، وفيه تعريض بطلب العلم، فمثال العلم على هذا التأويل المفروض البحر، فمن قائم على الشاطئ لا ينتفع بشيء منه سوى الإيمان به لا غير، ومن داخل إلى لجته ليصيد فينال بعض مآربه، ومن غواص إلى قعره ليستخرج مكنوناته، ومن عابر له بالفلك لابتغاء الفضل في سبيل دنيا أو أخرى، كذلك الناس في الحرص على طلب العلم والمعرفة بالله جل ذكره درجات، والله يؤتي فضله من يشاء لعلهم يشكرون، وقد تقدم الكلام في غير هذا الموضع على وجوه الاعتبار، فلنقتصر الآن خشية الإكثار.

ثم قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥ - ١٦] هذا وإن كان ظاهره تعداد النعم وإظهار القدرة فإن معناها أيضًا: الدلالة على معرفة النبوة؛ إذ الجبال والسبل والأنهار والنجوم أمثال للأنبياء والرسل والأولياء والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل:١٧-٢٦].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧] أرجع الكلام إلى أوله في صدر السورة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النحل:٣]

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل:٤] ثم عطف بالواو فصول الكلام بعضها على بعض.

ثم عطف على الإخبار عن المقدور والإخبار بنعمته بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [النحل:١٨] المغفرة على وجهين:

- **مغفرة**: معناها الإمهال وترك الأخذ بالعقوبات من أجل الذنوب، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦] ومنبعث هذه المغفرة من معنى قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] إذا شاء الله جل ذكره إمضاء أمر قيض له شفعاء يشفعون عنده فيه، فيشفعهم سبحانه وله الحمد.

- **والمغفرة الأخرى**: هي المغفرة التامة، مغفرته ذنوب المؤمنين، وفي هذه قيل: الله أجل من أن يغفر لعبده ذنبًا ثم يراجع فيه، فهذه المغفرة لا تكون من الله إلا لعبد سبق في علمه أنه بالإيمان أو بالتوبة يختم له ، جعلنا الله منهم بمنه وفضله.

قوله ﷻ: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩] وصف الله جل وعز نفسه بأنه يعلم السر والعلانية؛ ليبين لمن أشرك سوء اختياره في عبادته ما لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر ولا ينتصر ولا يخلق ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠ - ٢١] يصلح هذا الوصف لمعبوداتهم ولعبادها.

---

(١) إشارة إلى أن النعمة نعمتين: أعطاف إعطائه ونعمة ألطافه، فنعمة أعطاف إعطائه ما يتعلق بوجود النعمة وهو على ضربين: نعمة ظاهرة، ونعمة باطنة، ونعمة ألطافه ما يتعلق بوجود المنعم وهو على ضربين: نعمة ذاته بالألوهية، ونعمة صفاته بالربوبية، وهي بلا نهاية فلا تعد ولا تحصى، وقال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبةً ودينًا ودنيا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وأصلًا وفصلًا. فنعمة النفس: الطاعات والإحسان والنفس فيهما تتقلب، ونعمة الروح: الخوف والرجاء وهو فيهما يتقلب. ونعمة القلب: اليقين والإيمان وهو فيهما يتقلب. ونعمة العقل: الحكمة والبيان وهو فيهما يتقلب. ونعمة المعرفة: الذكر والقرآن وهو فيهما يتقلب. ونعمة المحبة: الألفة والمواصلة والأمن من الهجران وهو فيهما يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ﴾ [النحل:١٨] لمن عجز عن شكر نعمة وجوده ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] لمن عجز عن شكر نعمة وجوده.

ثم سرد عليهم قوله الحق جلَّ قوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل:٢٢] فبين انتظام هذا بما تقدم يقول ﷻ: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلي الواحد الأحد بكل وجه وبكل معنى كما قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] أتبع ذلك قوله الحق: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: للتوحيد والتصديق بالآخرة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢] عن التدبر به.

أتبع نظم ذلك قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ معناها ها هنا: لا بد ولا محالة ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل:- ٢٣] أي: من إنكارهم الحق إذا ما دعوا إليه تهديد منه ووعيد.

ثم سرد عليهم ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي: وإذا سألهم الأتباع ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٤ - ٢٥] هنا محذوف مقدر تقديره: أي قيضناهم لهذا القول، وأضللناهم عن الهدى؛ ليحملوا أوزارهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ القَوَاعِدِ...﴾ [النحل:٢٦] من فعل فعلاً ليس بصالح في اختفاء من الممكور عليه فقد مكر، ولما كان المستكبر عن قبول الحق مزدريًا بالرسل مستهزئًا بما جاءوا به من عند الله، وكان ذلك عن كبر في صدره ورفعه منزلة زعم أنها له دون من بذل له النصيحة عن الله جل ذكره استتبع الأتباع وكايد الرسل، وربما دعا إلى نفسه أتاه الله بالعذاب من حيث لا يشعر، وأخذه من أين لم يحتسب، فشبه الله بنية هذا الكافر هذا البناء وأخذه إياه هذا الأخذ بما ضربه مثلاً له.

ووجه آخر: وهو أنه قد خسف بكثير من العتاة؛ لتكبرهم كقوم لوط وقارون، وقد أغرق فرعون وجنوده في البحر، فكان أخذه لها وإتيانه إياهم بالعذاب من تحت أرجلهم، وقوض عليهم ما بنوا لهم يتحصنون به وأحاط بهم من بناء، وأقبل سقوفهم عليهم.

وقرأها الضحاك: «فأتى الله بيوتهم من القواعد» يريد والله أعلم: بما بنوه لأنفسهم من مكر في قلوبهم من رتب ومنازل مرفعة عن إقدار من سواهم، ومطالبة وإرصاد لهم وتربص، وإرادة الإيقاع بهم ونحو هذا.

والخطاب منتظم بذكر المستكبرين في قوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٢].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: ٢٧ – ٣٣].

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل:٢٧] كقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [هود:٩٩] إلى قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [النحل:٢٧] الذين أوتوا العلم هنا هم الذين وقفوا بحقيقة إيمانهم على تحقيق الوعد والوعيد، كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا﴾ أي: في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] أي: عن الإيمان بالحق.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] ومثله في القرآن كثير.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ﴾ أي: لقبض نفوسهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بإهلاكهم وعذابهم، أو الفتح عليهم للمسلمين ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كفروا وكذبوا الرسل والكتب فأخذهم الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ إذ

قد أرسل إليهم رسله وأعذر إليهم بكتبه وآياته مذكرًا لهم بما في ذواتهم من هداية الفطرة ﴿وَلَكِن كَانُوا﴾ في حالتهم تلك ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣].

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل:٣٤ – ٣٩].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل:٣٤] يقول: فاحذروا من التمادي في الغي أن يصيبكم ما أصابهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥].

وقال عنهم في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وقال في سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧] وراثة ورثوها عن أثارة النبوة السالفة في أبيهم إبراهيم وبنيه من بعده.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨] وهي كلمة حق مرادهم بها الباطل؛ لطول الأمد، ولضلالهم عن نور الهداية.

يقول الله عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٣] يريد وهو أعلم بما ينزل: قالوا مثل هذا واستمروا على شركهم وتكذيبهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ

﴿إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] ومعنى البلاغ هنا: التذكير والتنبيه على هدايتهم، والتبيين لحال ضلالتهم.

وقال في سورة الأنعام: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] أي: كذلك قال الذين من قبلهم ثم كذبوا بأفعالهم، واستمرار عقودهم على كفرهم وشركهم.

يقول ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] هل استدللتم على حقيقة ما قلتموه بكتاب من عند الله، أو نظرتم منه نظرًا تقفون به على أنه الحق من عند الله كما قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤] إنما قولكم ظاهر من القول لا أصل له في قلوبكم ثابتًا ولا برهان قائمًا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

كذلك قال في غير هذا الموضع: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ فكان الجواب منه جل ذكره على ذلك: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠] ففي هذا من الفقه إن شاء الله إن كلمة الإيمان مقرونة بوجود العلم والإخلاص لله ﷻ والعلم بالسنة أو نية واستسلام واتباع واقتداء، وهو المسمى إسلامًا.

قال الله ﷻ: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] والعلم لا يكون إلا بالبرهان وصحة الدليل، وإلا فحكمه أن يكون ظاهرًا من القول لم يثبت له في القلب أصل، ولم يرتفع له فرع إلى السماء، بل هي كلمة مجتثة عن تحقيق من فوق القلب لا قرار لها من أصلها، ولا سمو لهم عنها، فهي على ذلك لا سمو لها ولا مطلع، وهذا لا توتي أكلاً ولا في حين من الأحايين، كذلك كل كلمة حق لم يتبعها علم يقترن بشاهد من الكتاب والسنة أو برهان صحيح، فهو رد.

ألا تسمعه جل ذكره كيف رد على قوم أنكروا الرجعة بعد الموت فقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ والدهر: اسم من أسماء الله جل ذكره، ولما كان وفاقهم للحق في أثناء إنكارهم الحق أجاب بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] لم يحمد إصابتهم؛ لاستصحابهم الجهل في أقوالهم وأفعالهم؛ أما في أقوالهم فذكرهم هذه، وإنما عنوا

بذلك دوران الزمان واختلاف الليل والنهار لا الدهر الذي هو إليه ﷺ مرجع أفعالهم واستمرارهم على ضلالهم.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هاتان كلمتان من أمهات القرآن، وباجتماعهما يتم كمال الإسلام، ويصح سلوك الصراط المستقيم، وبذلك يخرج العبد من الظلمات إلى النور، ويستن إلى ربه سبل السلام؛ لأنهما شرطان لازمان فيه لا محالة مع الإخلاص، وإخراج القول بذلك بتصديق وإيمان إما عن تصحيح برهان وإما عن حسن تسليم واتباع، ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ ثم أضرب عن ذكر ما أصابهم به وعرض بقوله للمهتدين: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾[1] احرص أن يكون يقينك بوجوب وعد الله جل ذكره كوجوب كون

---

(١) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ﴾ شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث، وهو على ما في «الكشاف» وغيره عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الذين أَشْرَكُوا﴾ [النحل:٣٥] قيل: ولتضمن الأول إنكار التوحيد، وهذا إنكار البعث، وهما أمران عظيمان من الكفر والجهل حسن العطف بينهما، والضمير لأهل مكة أيضًا؛ أي: حلفوا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمانِهِم﴾ مصدر منصوب الحال؛ أي: جاهدين في أيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى، وأن البعث إعادة له، وأنه يستحيل إعادة المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة، ولم يوافقهم في دعوة ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية. وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجوا عليها بما رده المحققون، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك، وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه، فقد نقل الإمام عن الشيخ أبي علي بن سينا أنه قال: كل من رجع إلى فطرته السليمة ورفض عن نفسه الميل والتعصب شهد عقله الصريح بأن إعادة المعدوم بعينه ممتنعة، وفي قسم هؤلاء الكفار على عدم البعث إشارة كما قال في «التفسير» إلى أنهم يدعون العلم الضروري بذلك، وأنت تعلم أنه إذا جوز إعادة المعدوم بعينه كما هو رأى جمهور المتكلمين فلا إشكال في البعث أصلاً، وأما إن قلنا بعدم جواز الإعادة لقيام القاطع على تلك فقد قيل: نتلزم القول بعدم انعدام شيء من الأبدان حتى يلزم في البعث إعادة المعدوم، وإنما عرض لها التفرق ويعرض لها في البعث الاجتماع فلا إعادة لمعدوم. تفسير الألوسي (١٠/١٦٠).

الليلة دون غد، بل وجوب وعد الله أحق حقًّا من ذلك؛ لذلك أعقب بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٣٨] يفعل ذلك؛ ليجزي كلاً بما عمل.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] كقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إلى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] في عرصة المحشر، يقول: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد المعنى لهذه الوجوه وأمثالها يبعثها الله جل ذكره بعد الموت، وأيضًا فلأنه الباقي الدائم، فما أصابكم به أو فعله فهو أيضًا دائم باقٍ، وإنما أماتهم بعد إيجادهم تفرقة بين عزته وذلتهم، ولبقائه وألوهيته وحكمة الحق، وديمومية الحق لم تتبع لسواه أن تساويه في صفاته؛ ذلك لأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض فهو إذا أمضى فيهم حكمه وأحكم قضاءه أوجدهم للبقاء والدوام، وعلى سنن النشء ونشوء الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً؛ لأنه المبدئ المعيد، والأول والآخر، والمحيي والمميت، فافهم.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٠ – ٤٧].

أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] الأمر هنا بمعنى الشأن، فسمى المراد قبل إيجاده إياه شيئًا؛ إذ كان عنده مشهودًا يراه ويعلمه ويسمعه حتى أوجده؛ إذ شاء لما شاء، وعلى الموجود تختلف معاني الوجود والعدم لا على الموجد، وقد تقدم الكلام في معنى قوله: «كن» وإنها للكلمة أو قوله: «فيكون» للسنة.

قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] أحال الله جل ذكره قريشًا والعرب لجهلهم بهذا الأمر على أن يسألوا أهل الذكر وهم أهم الكتاب: هل الرسل الذين أرسل إليهم وإلى من قبلهم من البشر أم لا، وإنهم لم يكونوا ملائكة، بل كانوا رجالاً من أهل القرى أرسلهم إلى الناس ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الكتب وآتاهم المعجزات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ يريد: الكتب، ثم قال عز من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

الذكر قد يكون القرآن نفسه، قال الله ﷻ: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء:٥٠] وقد يكون بعض القرآن ومعنى من معانيه، قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] ثم قص أخبار الرسل والأنبياء.

ثم قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ ثم ذكر مآب ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص:٤٩] وقال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ فأردف عليه ذكر مآب الظالمين وقال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ والذكر أيضًا قد يكون بعض ما أوحى إليه وإلى سواه من الأنبياء والرسل والكتب كلها بما فيها ذكرًا.

قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] أراد به والله أعلم: إنما يشير به إلى قوله قبل هذا: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] فإن قصص الأنبياء وذكر آيات الأرض والسماء يكون ذكرًا؛ لأن بها يتذكر وبها يشهد بعلم لا إله إلا الله والحمد لله ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] من هذا الضرب إلى آخر السورة، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص، وأول سورة الحديد، وأمثالها في القرآن هو الواقع عليه اسم الذكر مشهرًا، وهو القرآن العظيم؛ لذلك وهو أعلم أعقب بقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه:١٠٠ – ١٠١] وهذا النوع من الذكر يخفف به الأوزار أولاً، ثم بما عداه من الذكر ثانيًا، ويدل على صحة ما قلناه، والله أعلم.

قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] فهو الذكر اللدني، وقد يكون الذكر المراد في هذه الآية المتكلم عليها: ما ملأ به صدره قبل من حكمة وإيمان،

وما يحتوش الوحي من أمر وروح ونفث في روع، وما الأنبياء - عليهم السلام - به أعلم بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهو القرآن، ثم قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] أي: فيما أتاه عباده المؤمنين من هذا المشار إلى بعضه، عباده المؤمنين إذا تفكروا تذكروا، فإذا تذكروا أبصروا، فإذا أبصروا علموا ما لم يكونوا علموه قبل التفكر.

قوله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَو يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥] إلى قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧] الذين يمكرون السيئات هم المستكبرون؛ لما كان مكرهم من جنس ما تنهد به الجبال، وتنفطر منه السماوات، وتنشق منه الأرض كانت عقولهم أن يخسف الله بهم الأرض إلا ما عفا الله عنه من ذلك، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم في تقلبهم، هؤلاء هم الأتباع؛ أي: في إقبالهم وإدبارهم حال سعيهم وتصرفهم، أو يأخذهم على تخوف؛ أي: على تنقص، والتخوف لغة في التنقص وربما كان المراد الخوف بعينه يأخذهم على خوف وهم لم يرجعوا، وهؤلاء هم المذنبون من المسلمين؛ إذ لا يقال للكافر هو على تنقص من دينه وإسلامه وإيمانه، بل هو عديم الدين مفلس من الإيمان.

ويمكن أن يكون معنى التخوف ها هنا حال إصراره، فإنه يخاف عليه إن مات على ذلك أن يعذب بذنوبه ما لم يتب، وإن كان لا يقطع على ذلك، فلذلك كان لفظ الخوف أولى به، وقد قيل: يأخذهم على تخوف؛ أي: ليخوف بهم غيرهم يجعلهم عظة لآخرين وعبرة، فالله أعلم، ويقوي هذا التأويل في أنه الموحد المصر على ذلك ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٤٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ

ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل:٤٨ -٥٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[1] [النحل:٤٨] اليمين والشمائل هنا - والله أعلم بما ينزل - بالإضافة إلى القائم مستقبِل المشرق، وهو وجه الدنيا لطلوع أنوارها من هناك، ونزل القرآن على قطر هذا وذاك، فكانت العرب تجالس في نواديها تستقبل الشمس وتسمى تلك الناحية: القبول، وتسمى ناحية الغرب على ذلك: الدبور، والقبلة الجنوب، والجوف الشمال، فأفرد ذكر اليمين لعمارة الضياء إياه، ولتسلل الظل عن ذات الشمال من القائم يقال طلوع الشمس إلى عين استوائها، كثر لفظ الظل؛ لأنه حيث حل من ذات الشمال من القائم فهو ظل له.

وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥] يريد وهو أعلم: من حين غروب الشمس إلى قبل طلوع الشمس.

قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان:٤٥].

كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:٧١].

يقول الله جل من قائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان:٤٥] أي: ليمتاز منه، وليعرف به أوقات الصلوات وغير ذلك.

يقول جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦] الليل أول النهار الذاهب، ممتد من المغرب لمقابلة الضوء القائم بالشمس الطالعة من مشرقها، فلا

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما «تتفيأ» بالتاء لتأنيث الظلال، الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد، أي يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلص ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى، فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها، ومنه قيل للظل بالعشى: فيء، لأنه فاء من المغرب إلى المشرق؛ أي: رجع، والفئ الرجوع، ومنه ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما، وقد مضى هذا المعنى في سورة الرعد، وقال الزجاج: يعنى سجود الجسم، وسجوده انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام في كل جسم.

تزال الشمس تطلع وهي في ذلك تسير في قوس دائرتها فيقصر لذلك الظل، فهو قبضه إياه إليه، ولكونها سائرة في دائرتها يعم الظل ذات الشمال منه، فيكون ذلك سجودًا منها لموجدها.

وتوجيه التأويل قوله: «إنه يقبضها إليه» أعني: الظلال، فذلك إما لأنه يعدمها كما يقال في الميت: «إنه ذهب إلى الله» أو لأنه بخلقه الضياء والله هو نور، والنور منسوب إليه، والنور من أسمائه ليس كذلك الظلام، فقوله: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨] هو في الظاهر حال تفيؤها أمام ضياء الشمس، وهي من آياته في السماء والأرض، فهي بذلك ساجدة داخرة صاعدة لها؛ إذ ليس يفعل ذلك بها سواه.

وإنما سجودها - أعني: ذات الظلال - لسجود ضياء الشمس، وسجود الضياء لسجود نفس الشمس التي هي ضيائها سبحانه وله الحمد، فالضياء لا يزال يطردها بأمر الله مضطرة عن أماكنها داخرة مادامت الشمس طالعة من مشرقها إلى حد استوائها، فيكمل إذ ذاك قيام الشمس وسجود الظلال، وذلك نهاية سجودها.

ثم يأخذ سجود الشمس في الإعلان به حال نزولها عن موضع استوائها، فيأخذ الظلال في القيام لله ظهور لسجود الشمس له إلى حال سقوطها في مغربها، وذلك نهاية ما يبدو للناظرين من سجودها وقيام الظلال، فلا تزال الشمس ساجدة لربها حال طلوعها من الغد والظل قائم لربه جل ذكره، كذلك الليل يطلع، فما دام كذلك فهو قائم لبارئه، فإذا سقط الشفق خرَّ ساجدًا، فلا يزال ساجدًا بوجه وقائمًا بوجه إلى أن تطلع الشمس، وقد قُبض إلى ربه.

وجعل الله الشمس آية على خليفه الليل الذي هو الظل بين طلوع القمر وبزوغ الشمس دليلاً، فالظلال ساجدة ما كانت زائدة على قامات أشخاص ما هي ظلال لها، فهي إذًا ساجدة بكرة وعشيًا، وساجدة حال تفيؤها في حال تنقصها عن قامات أشخاصها، ويتناهى سجودها وسجود الشمس وسجود الليل، وبيّن التناهي في ذلك هو حال ركوعها.

قال الله ﷻ: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] وقد تقدم ذكر حال تفيؤها، وإنه منها رجوع

بالإضافة إلى نهاية سجودها، سبحانه وله الحمد، كل له قانتون، بديع السماوات والأرض، على ذلك فطرهن، وأنا على ذلك من الشاهدين، هذا ذكر سجودها الظلال، والخبر مع ذلك الكلام في ذلك لسجود الشمس؛ إذ هي دليل الظلال يسجد بسجودها، ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥] أي: تدل ظلال الموجودات بسجودها هي لبارئها، كذلك يفعل الدال بالمدلول به، يتبعه ويفعل كفعله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] لما أرانا سجود الظلال وسجود الشمس والقمر والنجوم أعلمنا بأن سجودها وغيرها من الموجودات التي هي تلك الظلال ظلالاً لها إنما هو لله جل ذكره لا لسواه، وإنه كما يسجد ظل الشخص كذلك يسجد الشخص، كيف لا وإنما يسجد الظلال لسجود ما هي ظلال لها؟ وكما تقدم أن سجود الظلال لسجود ضياء الشمس وسجود ضيائها لسجود حقيقتها فتقدير الكلام: ولله يسجد ما في السماوات من شمس ومن قمر وسحاب وهواء ورياح ومياه ورعد وبرق وأفلاك ومشارق ومغارب، والسماوات وما فيهن، والأرضون وما فيهن، وما بينهن من دابة، فنصَّ في هذه الآية على ما لا يوصف بعقل.

ونص في غير هذه على من يعقل وما لا يعقل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨].

وذكر في سورة الرعد من تعقل، والمراد به: العموم، رجع الكلام إلى تلاوة الآية الأولى قوله: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ ثم قطع فقال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٤٩] يعني: الملائكة وجميع الوجود؛ أي: يسجدون وهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون إلى قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] إذ أمره إياهم أمر كون فلذلك لا عصيان يؤخذ عنهم أو لا خلاف.

فصل

أعلمنا الله تعالى جل ذكره بما تلاه علينا أن السجود مقترن بالصغار والذل له والاضطرار، وأفهم بما نزله في سورة الرعد أن الزيادة من الظل على قدر القائم هو سجود، وكذلك النقصان، فقال: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:١٥] وإنما تكون زيادتها ونقصانها بكرة وعشية، فالمفهوم من هذا: إن الظل ما لم تغرب الشمس أو تقم قائمة في نحر الظهيرة، ولم يتناهى سجودها بعد ما لم يتناهَ ذلك منها، فهو منها ركوع؛ إذ هو بعض السجود.

فصل

فإذًا سجود الأشخاص كلها مضطرة ليست [كذلك سجود المكلف أن يكلف سائر عباداتهم كذلك سجود ظلالهم اضطرار وسائر عباداتها كذلك][1] عن ذواتها من أقدار وأحوال بتصرف وصور وأعراض تبدد ومنافع ومضار وصفات إلى غير ذلك من أنواع ما هي عليه مجبولة، وإليه مصرفة ومدبرة، وأبين ما يكون ذلك في الجماد والنبات، وعلى ما يأتي بيانه في الحيوان وما فوقه.

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النحل:٤٩] و﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الحج:١٨] فعم بحرف «ما» و«من» الدقيق من الموجودات والجليل، وما لا يوصف منها بعقل وما يوصف به.

وقال: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود:١٢٣] ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٤٢] وما هو ملك له ساجد له لا محالة، وفيما تقدم من ذكر الحق إن الدنيا نبذة من الآخرة خيرها وشرها سرابها وصرابها؛ فالجنة إذًا وموجوداتها أشرح سجودًا وأوضح تسبيحًا، وأعرق في صفة العبودية وجودًا وكذلك النار -

(١) ما بين [ ] هكذا في الأصل، وهو غريب.

أعاذنا الله الرحيم برحمته - منها.

ولما أذن الله جل ذكره لجهنم أن تتنفس نفسيها المعهودين المأذون لها فيهما أحقيتهما الفلك الدوار بأمره، وأجراهما في الرياح، وأشاعهما في الأجواء، وأسكنهما في الأرض، يبطن هذا بإظهار هذا، ويظهر هذا بإبطان هذا، وإدبارهما في إقبالهما، وإدبارهما في دوائر محكمة التدوار، وتولهما مبوأت هي مطالع الشمس في مواقع النجوم.

قال الله عز وجل﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥ - ٧٦] يعني: منازل الشمس والقمر.

قال رسول الله : ﷺ «ما تطلع من قصبة إلا فتح لها باب من النار» وفي أخرى: «باب من جهنم»[١] فهذا فتح جهنم من الدار الآخرة إلى دار الدنيا، ثم هو ﷻ يفتح برحمته إذا شاء فيرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته، فينزل الماء من السماء إلى الأرض، فيخرج به جنات معروشات وغير معروشات، أجرى الله جل وتعالى ذكره هذا الفتح على حكم مشيئته، وعلى حكم المعهود على مواقع النجوم؛ لذلك سميت أبواب، فهذا فتح الله برحمته من الدار الآخرة إلى الدار الدنيا.

أظهر الله بذلك قدرته ومشيئته وحكمته وقدره فيها، فهي تسبحه في خزائنها وغيابات غيبها، وتسبحه في مشاهدها، ثم أوجد عن ذلك فيما هنا الجنة رطوبة لمشاركة لها في البرودة أربع شعب: حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، لجهنم منهن الثلاث، ثم أوجد من امتزاجهن جملتهن ماء ونارًا وهواء وأرضًا، فألحق كل نوع بنوعه الذي هو أولى به، فهذا وما قبله اضطرار لازم وصغار محيط بهن استخلفهن من أجل ذلك للحاق بالساجدين، ثم مزج الممتزجات، وقارن بين المتباعدات، وألَّف بين المتنافرات، وجمع بين المتضادات، فظهر بذلك الصغار والقهر ظهورًا بيِّنًا.

ثم إنه لما أذن في جميع مواد الخلقة جمعها من مفترقات أماكنها ودعاها من المخلوق أتت إليه صاغرة، وأجابت الدعوة داخرة، فتبين السجود أكثر تبيانًا

(١) تقدم تخريجه.

وأوضح انشراحًا، فانظر - وفقك الله - لما كانت موجودات الآخرة مقربة فيما هنالك بالتسبيح والتحميد والذكر والتوحيد والسجود، معلنة بضروب العبارات جبلة وسجية، وقد وجهك إلى هذه الدار التي أساسها على الإيمان بالغيب وأوجدها للابتلاء، أسر تسبيحها وأخفى سجودها، وأعلمنا بما هي عليه من ذلك؛ لينظر كيف نعمل في التصديق لقيله والإيمان بإعلامه، والعمل بما كلفها وشرع لها من هدايته.

ثم هو الآن جل ذكره ينشئ إعلانها نشأً إلى أن يصيرها إلى حيث استخرجها، فيعيدها جل ذكره إلى حال إعلانها، وهو المبدئ المعيد، وقد أوجد ﷻ جملة الأصول الأربعة أمر الملائكة - عليهم السلام - بجمع المواد، ومزج ما هو من شأنه الامتزاج، وتفريق ما من شأنه التفريق، وتصعيد ما من شأنه التصعيد، وإمساك ما من شأنه الإمساك، وإنماء ما من شأنه الإنماء، وتصوير الصور وتخطيط الأشكال، وربط ما من شأنه الرباط، وحل مَن شأنه الحل، يعملون بأمره، ويشفعون عنده بإذنه، وهم يسبحون في ذلك يحمدون ويسجدون له.

فالأصول الأول تسجد لبارئها وتعبده في مستودعاتها من الخزائن، وجملتها قانتة لمضطرها، والمواد تسجد له داخرة حال ما تساق بدعوته إياها، والنازعات والجاذبات والناشرات والماسكات والدافعات والملقيات للأمر بمشيئة ربهم عز جلاله، والناشطات والفارقات والناميات والهاضمات والمغذيات، وجميع المدبرات للأمر يسبحون بحمد ربهم ويسجدون له ويفعلون ما يؤمرون.

والموجود بما هو مقهور قد أحاط به الاضطرار، ولذَّه عزم الاقتدار الممنح له إلى ما لا بد منه ولا محيص عنه ساجد لربه، داخر لبارئه، خاضع لعزته، يصرفه كيف شاء، ويقلبه إلى ما يريد، فهو - أعني: الموجود - ساجد بكليته، وعابد بجملته على كل أحواله وجميع جهات معانيه.

فصل

هذا من حيث هو نبات وشخص له ظل، وقد أخبر الله جل ذكره أن ظلال الأشخاص تسجد له، وأرانا كيفية سجودها في حال تفيؤها، ثم أخبر بصدق قيله إن الأشخاص تسجد له أيضًا، فمن الواجب الإيمان به وتحقيق الإيمان بوجودها

ساجدة مسبحة له، ألا ترى أن أحدنا إذا صلى صلاة صلى معه ظله، يقوم لقيامه ويسجد لسجوده ويركع بركوعه ويجلس بجلوسه، كذلك سوانا من الأشخاص، وإن كنا لا نرى سجودها ولا نسمع تسبيحها، فالإيمان يصدق كلام الله أنها تسجد وتسبح يوجب تحقيق ذلك، ويمكن أن يكون زائدًا إلى ما تقدم ذكره سجودها، تحركها بالرياح وتحريك ما يحركها، ونشيش ما له نشيش، وصرصرة ما له صرصرة وغير ذلك من أصوات تسبيح وصلوات؛ إذ لا حركة لها إلى هوى، ولا تصويت لمَلهى.

فصل

وأما كونه ساجدًا من حيث هو حيوان فقد تقدم في غير هذا الكتاب من شرح اسمه الجبار ﷻ وتعالى علاؤه الكلام على الحركة ومنبعثها، وإنها تنقسم - أعني: الحركة الظاهرة والباطنة - إلى نوعين

- **ضروري**: وهو الأصل فيها.
- **وكسبي**: وهو الفرع، وإلى الضروري يعود هذا النوع فاعلم ذلك.

وتقدم في ذلك أيضًا أن الاضطرار أيضًا على قسمين:

- **اضطرار قدرة وإرادة معًا**: وذلك كحركة النخل بالفالج والحمى وغير ذلك، وكحركة الشجر بالريح.
- **واضطرار إرادة فقط**: كحركة الذي تقدم إلى القتل فيفعل السعي إلى المكان الذي يقتل فيه بقدرته لا بإرادته.

وكذلك اضطرار القدرة هو عجزها عن مرادها، فهو عجز وصغار عما يريده المحل، وفيما تقدم أن التأثير لازم عن الحركة بإذن الله ﷻ كالألم عن الضرب، وقطع المسافة عن الانتقال، وتسويد الكاغظ بالمداد مع تحريك القلم عليه باليد، وكذلك الصورة لازمة عن التأثير بإذن الله، كتصوير الحروف على تسويد الورقة بالمداد حتى تكون الحروف على صورة يتميز بها المعنى [......][1] والحركة لازمة

(١) ما بين [ ] سقط في (غ) وطمس في (ف).

بإذن الله عن القدرة، والقدرة لازمة عن الإرادة، وبوجود إرادة المريد منقدح من خزائن الغيب موجودة عن المشيئة العالية والعلم السابق والتقدير الأول المشيئة في الذكر والقدرة المحيطة.

يقول الله جل ذكره: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] فإذا قد تمهد هذا فالجبر ظاهر، والاضطرار بيّن، وإن وجد الاختيار فالجبر أول له، وهو الأصل الذي يبعث عنه، فالحيوان إذًا ساجد لربه، صاغر لعزته، خانع لعلائه، لا يفعل فعله من ذاته، ولا يختار على الحقيقة إلا الذي قد شاء خالقه؛ ليتم لنفسه أو عليها ما تقدم فيه من أمره وتدبيره وتقديره.

فصل

ثم على هذا إن انبعث إلى ما هو خير ونفع لأهل الإيمان فهو مسخر، ومتى بدرت منه بادرة ضر فهو مسلط، وإن كان بعض ما يظهر منه لا يبدو منه الخير ولا الشر، كاللعب والمرح والإقبال والإدبار، فهو أيضًا سجود لبارئه؛ إذ يفعل ذلك لما قد قدره له ربه من إصلاح نفسه ومزج أخلاط تركيبه [......][1] وكلامنا هذا كلام على غير التكلف من الحيوان.

ولما كان جميع ما سخره لنا رب العالمين من سماوات وأرضين وجبال وشمس وقمر ونجوم ورياح وسحاب وغير ذلك مما هي داخرة إلى ربها، خاضعة ساجدة لعلائه، وهي نافعة لنا بإذن جاعلها، فهي لذلك مسخرة، فلم يكن لها غذاءً تحتاج لأجله إلى حركة تدير بها مقدار ما جعلت له، وكان الحيوان ذو الغذاء محتاجًا إلى هضم ما جمعه في جوفه واكتمل في أخلاطه أصبح له على سنن شرعة الفطرة المرح واللعب؛ ليصلح بذلك ما زاده به على غيره من المسخرات الغائبات.

فصل

فإن كان هذا الحيوان مما ليس ينبعث على خير على الأغلب ولا إلى نفع فهو ساجد لربه بما هو مضطر ومدبر، وهو مبعد عن التسخير رجيم مدحور عن منزلة

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

القرب، وقد سمى رسول الله ﷺ كثيرًا منها: «فواسق» [......][١] وإنها من الشياطين ونحو هذا، وأما الإنسان فعنده انتهى حقيقة السجود بالإضافة إلى ما تحته من العوالم؛ لظهور معاني الفطرة فيه بإسلام الوجهة، وتحقيق النية على سنن الشرعة، واتصل الذكر منه بالعمل لمن آمن به وأسلم له، وليس السجود الذي تقدم ذكره قبل هذا المقام الذي هو مقام الإنسان لمن اقتصر عليه من المتلقين بنافعه عند الله جل ذكره، ولا بمنجيه من عذابه.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: المؤمنين.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾ [الحج:١٨] من لم يسجد هذا السجود المقترن بالعلم والإيمان والإسلام، وحسن الاقتداء بالرسل - عليهم السلام - ثم يتفاضل هذا السجود بتفاضل الإيمان وتحقيق الإسلام، وتحسين الاقتداء وتحقيق المشاهدة والإخلاص والعلم واليقين والطهارة، وتسديد النية وتعظيم المعبود والإجلال له والخوف منه، والإعظام والمحبة والرضا إلى غير ذلك من جلي الإسلام وحقائق الإيمان، ثم سجود الملائكة أرفع مما تقدم؛ لتحققهم في هذه المعاني ودؤوبهم وكدهم.

قال الله ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] فوصفهم بالإخلاص والخوف والطاعة له في قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] وهم لا محالة يعلمون ما يفعلون؛ لبعدهم عن الغفلة.

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ من اتخذ إلهين أو أكثر فلم يعبد الله ولم يسجد له ولم يأتمر، والله لا يدخل في عبادة مع شريك ولا في عدد، بل هو الواحد الأحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

يقول عز من قائل: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٢] [النحل:٥١] هنا محذوف تقديره:

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

(٢) فيه التفات من الغيبة إلى التكلم على مذهب الجمهور أيضًا، والنكتة فيه بعد النكتة العامة؛ أعني: الإيقاظ وتطرية الإصغاء المبالغة في التخويف والترهيب، فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة =

وإياي وغير الإخلاص فاحذروا، أو ما يكون في معناه ﴿فَارْهَبُونِ﴾ وعيد منه على ذلك وتهديد، ومنه قول عمر بن الخطاب ﷺ للذي ولاه على الحمى: «ادخل رب الصريمة ورب الغنيمة، وإياي ونعم بن عوف ونعم بن عفان».

ثم سرد على هذا ما هو في معناه قوله ﷻ: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٢ - ٥٣] يقول جلَّ قوله: كيف لا ترهبون من له ما في السماوات وما في الأرض وله الدين واصبًا؛ أي: دائمًا يسجد له من في السماوات والأرض ويعبده، كل له قانتون، كيف يشركون به سواه؟ كيف لا تعبدون من هو الواحد الأحد؟ كيف تتقون غيره ومن سواه لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا؟ أو لا تتقون من لا يكون كائن إلا عن مشيئته، ولا يكون شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بإذنه، وقد علمتم أن كل نعمة بكم فمن الله، أقرت بذلك ألسنتكم وعرفته قلوبكم، وإذا مسكم الضر بدا ذلك منكم وجأرتم به، فظهر على أحوالكم بالجؤار إليه والتضرع؟.

﴿ثُمَّ﴾ أنتم ﴿إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤] يقول: ناقضتم ما تقررت به معرفته في قلوبكم، أنى تؤفكون عن حقيقتكم؟ إن هو إلا أمر من الله يشير به إلى ما سبق لكم من تصديق كلماته.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾ بالشركاء والمعاصي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٥٥] يوم الجزاء، كما يقولون في المحشر: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا

=

والقدرة التامة على الانتقام، والفاء في ﴿فَإِيَّايَ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر، و«إياي» مفعول لفعل محذوف يقدر مؤخرًا يدل عليه «وإياى فارهبون» أي: إن رهبتم شيئًا فإياي ارهبوا. وقول ابن عطية: إن «إياي» منصوب بفعل مضمر تقديره: فارهبوا إياي فارهبون، ذهول عن القاعدة النحوية، وهي أنه إذا كان المعمول ضميرًا منفصلاً والفعل متعدٍ إلى واحد هو الضمير وجب تأخر الفعل نحو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] ولا يجوز أن يتقدم إلا في ضرورة نحو قوله: «إليك حتى بلغت إياك» وعطف المفسر المذكور على المفسر المحذوف بالفاء؛ لأن المراد رهبة بعد رهبة، وقيل: لأن المفسر حقه أن يذكر بعد المفسر، ولا يخفى فصل الضمير وتقديمه من الحصر؛ أي: ارهبوني لا غير، فأنا ذلك الإله الواحد القادر على الانتقام. تفسير الألوسي (١٠/١٩٦).

بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:١٢٨] ظاهر هذا الخطاب التخيير، ومعناه الوعيد والتهديد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى
ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ
﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٥٦-٦٤].

أتبع ذلك قوله جل ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ [النحل:٥٦] مما رزقناهم ليس لهم معلم بما يعبدونه من دون الله، غير أنهم وجدوا آباءهم على ملة من ضلال فهم بعدهم على ظلال آثارهم مقتفون، وكيف يكون لهم بذلك علم وعالم الغيب والشهادة لا علم له بشريك في ملكه خلا إنها أسماء سموها هم وآباؤهم فهم يعلمونها؟.

ثم قال جل وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧] أي: يجعلون لأنفسهم البنين المذكورة.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾ نسبه إلى الرحمن جل وتعالى؛ أي: بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨] يكظم غيظه، ثم هو يقتلها دون أن يمسكها على هون ثم يدسها في التراب؛ يريد: ما كانوا يفعلونه من وأد البنات ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩] أن يصفوا الإله الحق بالولد، ثم لا يرضون له منه إلا الذي يكرهونه من ذلك، سبحانه وله الحمد.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ﴾ عما يصفون به ﴿الحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] في جعله غضبه وعقابه ولعنته على الظالمين ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] يشير وهو أعلم إلى المفهوم من قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١].

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد والله أعلم: الشركة، يقول جل وتعالى: هم يكرهونها في أموالهم وما ملكت أيمانهم، ويجعلونها لي ﴿وَ﴾ هم على ذلك لجهلهم بضلالتهم ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى﴾ يعني والله أعلم بما ينزل: المكانة لذلك، والرفعة عند الله جل ذكره، هذه هي الحسنى بالإضافة إليهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالجنة ولا بالنار ولا بالبعث إلى ذلك يقول جل من قائل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] بفتح الراء وتخفيفها؛ أي: مقدمون إليها معجل بهم، «مفرطون» بكسر الراء وتخفيفها بمعنى أنهم تجاوزوا القدر في الكفر والجهل والعناد.

«مفرطون» بكسر الراء وتثقيلها؛ أي: إنهم فرطوا في حظهم من رضوان الله والدار الآخرة، فأضاعوه فيما تلاه علينا ربنا جل ذكره البيان البيّن أن الكفار ينزلون في دار البرزخ جهنم أو ما يكون عنها فيما هنالك أو منها.

قوله تعالى: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ هذا منتظم بما تقدم ذكره من تحقيق نزول العذاب حال الموت وفي البرزخ، والوعيد للمكذبين، فقوله جلَّ قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ أي: في الدار الوسطى دار البرزخ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] في الدار الآخرة.

أتبع ذلك ما هو شرح له: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وبخاصة اختلافهم في وجود دار البرزخ، وهذا بما فيه من الإخبار عن ذلك، وبما فيه من الوجود الحق ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٦٤] بالله والدار الآخرة، فإن الله جل ذكره قد جعل الإيمان به وبرسله وكتبه وبالدار الآخرة مصباح

الباطن ونور البصيرة ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل:٦٥ – ٧١].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:٦٥] تظهر هذه الآية بما قبلها لتقارب معنييهما، يقول والله أعلم بما يقول: انظروا إلى إنزال الله الماء من السماء وإحياءه الأرض بعد موتها، كذلك ينزل الله العلم والكتاب من السماء فيحيي به القلوب بعد موتها بالجهل، ويحييها بالذكر بعد الغفلة كما أن في الأرض قطع متجاورات طيبة، فتشرب الماء وتنبت نباتها بإذن ربها، وأخر منهن يصير فيها الماء أجاجًا وزعاقًا، وأخر لا تنبت نبتًا ولا تحبس ماء.

كذلك في القلوب ما يتسع للعلم [.....] ويطلبه ويعمل بما فيه، وقلوب خبيثة تحيل الهداية في حقها إلى الضلالة، والعلم إلى الجهل، وقلوب غافلة لا تعمل بالعلم، ولا ترفع به رأسًا، إن في إنزال الماء إلى الأرض وتفصيله إلى ما تفصل إليه لآية على إنزال القرآن والعلم إلى القلوب، وعلى إحياء الله الموتى بعد الموت، وعلى وجود أنهار الماء في الجنة؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥] أي: بما في الجنة من موجوداتها، ولما كان أصل الإخبار عن العلم والقرآن عبرة بقوله: ﴿لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم﴾ نظم هذا بما تقدم، فأظهر

اسم العبرة وكان قد أبطنها قبل وإن كانت هي المقصود المطلوب، قرئت: «نسقيكم» برفع النون وفتحها من سقى وأسقى لغتان في ذلك[1] ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أتى بالضمير على المذكور؛ أي: على الجنس مذكرًا والأنعام مؤنثة، عساه رد الضمير على المذكور أو على الجنس أو على النعم، ذلك كله جائز سائغ ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦].

هذا وصف مشار به إلى موجود اللبن في الجنة، وإن ذلك على أكرم الوجود وأفخم الوصف، وأشار إليه بقوله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: سهلاً في الشرب إلى ما هنالك على شريطة التفضيل والكرم.

تنبيه: ليس بأنه يجري اللبن بين الفرث والدم، إنما معنى ذلك: إن الغذاء الذي يُكوّن الله منه لبنًا إذا بلغ تلك الأوراد وتحصل في العضو أحاله الله لبنًا، كذلك سبيل الدم إذا بلغ الغذاء الكبد وتقسمته العروق أحاله دمًا في الكبد.

وأما الفرث: هو نقل الغذاء، فإنه يذهب على سبيله، فالغذاء هو بين أن يكون منه فرث ودم ولبن، لكن اللبن والدم والفرث باطن في الغذاء المتغذي به، بل العروق والعظام والمخ واللحم والعضل والعصب والرباطات وجميع أجزاء الجسم باطن في الغذاء، بل الصفات والأخلاق والجبن والشجاعة والعلم والعقل والحلم والغضب والرضا والهوى والحمق إلى غير ذلك باطن في الغذاء، يخرجه القادر العليم الخبير، فيظهره عن باطن الأغذية.

يقول الله جل ذكره للأغذية المتغذى بها: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل:٦٩] يخرج عن ذلك بإذن الله اللحم والعضل والشعر والبشر وجميع أجزاء الجسم، ثم الصفات والأخلاق والأعراض الظاهرة والباطنة، وكذلك الأعمال كلها حسنها وسيئها، ثم الحفظ والذكر والوهم والفهم والميز والفكر والفطنة، وجميع توابع الوجود، والله ﷻ يأمر ويأذن للملائكة أن تكتب، ويخلق الله خلقه، ويوجد

(١) قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي: «نُسقيكم» بضم النون، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: «نَسقيكم» بفتح النون فيهما، وقرأ أبو جعفر: «تَسْقِيكم» بتاء مفتوحة [زاد المسير (٤/١٠٧)].

على إيجاده ذلك على ذلك بأن الله هو الحق، ومنزل الحق وجاعله ومحققه، وموجد الحق بالحق، لا إله إلا هو الحق المبين الخلاق العليم.

في هذا من آداب الاعتبار أن تنظر إلى الموجودات في ظواهرها، ثم اعبر به من ظاهر إلى باطن، ومن حال إلى مستقبل، وكما مر عليك في هذا الاعتبار كذلك لدينا ظاهر، فاعبر إلى باطنها وهو الدار الآخرة، كذلك الشهداء والأموات ظاهرهم الموت، واعبر من ظاهر ذلك إلى باطنه، وهو حال حياتهم حينئذٍ، فالحياة باطنة فيهم.

قد جاء أن شجرة طوبى تنفتق لأهل الجنة عن الحلل، وعن العرب الأتراب، وعن مراكب وملابس، وعما يشتهون، وإنما هي شجرة من كرائم الشجر في الآخرة، فأرجع وجه اعتبارك إلى شجر الدنيا وزروعها ونباتها وثمراتها وغير ذلك، وإن حلل الدنيا ومراكبها وولدانها ونساءها وكل شيء من مأكول وملبوس ومركوب عنها، فكذلك ما جاء من شجرة طوبى وغيرها من شجر الجنة وأرضها، وما يكون فيها وعنها، غير أن هذه بأنكاد ومعالجة وصبر إلى آجال مؤقتة ﴿**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [النحل:٧٧].

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة:٣٥-٣٨].

قيل أيضًا: إنهن يُنشأن في سواحل الكوثر والأنهار سواه، كذلك كانوا في الدنيا يأكلون من الأرض وحصادها لكن على مهل وتدرج، وإتمام كلمة بسنة، فهكذا استقر الموجودات، ثم اعبر مما ها هنا إلى ما هنالك يصح عندك وجود ما هنالك كأخذ باليد أو رؤية؛ أي: بالبصر، والله نسأله من فضله حسن المزيد وإتمام نعمته.

وبوجه آخر: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ**﴾ [النحل:٦٦] علم جل ذكره صفة الاعتبار بالقرآن وبالموجودات في دار الدنيا.

يقول وهو أعلم بما ينزل: خذوا علم القرآن من ظاهره وباطنه، واستخرجوا بالإيمان والهداية من الله من متشابه معاني الوحي نور الألباب، فشفى ما في

الصدور فيما بين هذا وهذا، ألم تر إلى ربك كيف شبه إنزال القرآن بإنزاله الماء من السماء؟ وفي أعلى الماء الزبد والطحلب؟ وفيه الحمأة الأرضية؟ وإنما الصافي الذي فيه الشفاء والعافية من ذلك، فألقن عن ربك، كذلك الموجودات في دار الدنيا قسمها خالقها إلى قسمين ذكر وفتنة، فاعبر من الفتنة إلى الذكر، ومن الشبه والضلال إلى خالص النور والذكر والهداية.

نظم ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] يقول والله أعلم بما ينزل: إن في ظاهر ما ترونه من ثمرات النخيل والأعناب باطنًا هو سقر وهو الخمر، ورزقًا حسنًا ما تسمونه وتدخرونه زبيبًا وتمرًا، وغير ذلك من المدخرات، كذلك في ظواهر الموجودات بواطن هي خلاف ما يبدو لكم منها معجبة كذلك في الوحي باطن يبدو مع الفكر، وترداد التدبر والمراقبة مع الصبر وطول المثابرة، وربما عرض بقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ إلى ترداد التفكر والتدبر والصبر، فالله أعلم.

فكما أن السكر والرزق الحسن المدخر من ثمرات النخيل والأعناب لا يتخيل إلا بمعاناة وصبر، وكذلك العلم لا يتخيل عن الوحي وظاهر الوجود إلا بالمعاناة ومقاساة الصبر، وتكرير الفكر على الذكر أو الذكر على الفكر؛ لذلك وهو أعلم بما ينزل قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] أي: يعقلون البواطن من الظواهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨] يريد: من بناء وبيوت وغير ذلك ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿فَاسْلُكِي﴾ مخاطبة النحل، ويمكن أن يكون المراد الثمرات المأكولات؛ أي: اسلكي سبل ربك في الخلقة، ثم أخبر عما يخرج من النحل بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1] [النحل:٦٩].

---

(١) شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون =

قال رسول الله ﷺ: «**الشفاء في ثلاث: شرطة محجم، أو لدغة بنار، أو شربة عسل**»[1].

وفي مفهوم هذا الخطاب العلم أيضًا بكيف يكون المؤمن في دنياه؟ وكيف يرتزق؟ ومن أين يتطلبه؟ وكيف يكون في اعتباره؟ وما يؤمله إلى المطلوب الأعلى والمنتهى الأرفع والنظر في الموجودات، فمثال المؤمن التقي مثال النحلة تأكل طيبًا وتضع طيبًا، وتسترزق من المباحات، وأوحى إليها ربها بإلهام الفطرة كالمؤمن سواء يسلكن سبل ربهن في معاملاتهن بحكمة في بنائهن وسيرهن كلها في معاملاتهن، فيأكلن من كل الثمرات فيصيره الله عسلاً مختلف الألوان.

كذلك المؤمن الناظر في مخلوقات ربه وكتابه المعتبر بآياته إلى ما هي عليه آيات يقع توهمه على جميع المعتبرات، ويشرح في المصنوعات، ويتقرَّأ آيات ربه في الأرض والسماوات محدس بفطنته من كل أزهارها الموجودات، ويأكل بالتذكار بها من كل الثمرات، ويتطعم بالعلم من كل المذاقات، فيعقل قلبه أنواع المعقولات من إثارات الأسماء والصفات في كل الموجودات، ويجمع في لبه من نوارها أنوار اليقين، فترجع إليه تلك الخطرات منزعة بالعلوم منشرحة بالنور مسرجة من النور المبين، فيخرجها الله على ألسنتهم أدوية يحيي بها الموتى ويشفي بها غليل

=

الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة، ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨١)، والبيهقي (٢٠٠٢٧).

الصدور، يسمع بها الصم، ويهدي بها العمي، ويشفي ببركتها المرضى، ويطلق بها الزمنى، ويصير بها الأعداء أولياء ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:٢١] هذا إخبار يعلم موجود ما هنا بموجودات ما هنالك من أرزاق ونعم وأنعام ومنافع ومساكن وغير ذلك.

وقد قيض أقوامًا سلكوا بعض هذا السبيل، واقتفوا طرفًا من هذا الدليل، فتعرفوا معاني بعض الموجودات في الهواء والمياه وأكثر المائعات، والأرض وبعض الجمادات والحيوان والنبات، وإن كانوا لم يبلغوا المطلوب الأكبر، ولم يصلوا إلى المبتغى الأعظم، لم يسعدوا بالصعود إلى السماوات العلا، ولا عرجوا إلى السدرة المنتهى، ولا ظهروا إلى المستوى، فيسمعون فيما هنالك صريف الأقلام، ويلهمون فصل الخطاب، لكن وصلوا بعون الله جل ذكره إلى حمل من علم الأدوية والأدواء، فوجدوا المعاني الموجودة في هذه المكونات على جري العوائد قسموها طبائع لما وجدوها موزونة بقسط معلوم على مقدار من له من المحفور فيها معلوم، فيعرفها الأهواء والبلدان وساكنيها وأحوالهم.

قسموا معمور الأرض وماهيتها إلى أقاليم سبعة على قدر مقادير الشمس والقمر والكواكب والمنازل، فاستقامت لهم على ذلك إلى ما قرب من مقاصدهم سبل واضحة أوائلها مسلوكة لائحة، وأعاليها مظنونة غائبة، لا قطع لهم بحقيقتها ولا تبيان على خفاياها [......] قطعت بهم الكلمة ورجمها غالب مضمونها التوكل، فانخرق لذلك عندهم الإجماع، ولم يقوَ قوة هذه في صدق ضمانها، وتحقق وجود مطلوبها [......][1].

فصل

في هذه الثلاث آيات علم غير ما تقدم، وهو أنه قال في الأولى: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ﴾ [النحل:٦٥] المعنى إلى آخره، وهو فعله في السماء والأرض، وقال في الآية الثانية ما هو فعله في الأنعام، وفي الثالثة ما هو فعل لنا في

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

النبات والغذاء، وفعلنا نحن كسب لنا وخلق له، فاعلم بذلك أنه يستعملنا ويستخرج بأفعالنا أعاجيبه كما يستخرج بأفعاله، وذلك منه إشعارًا لنا أن كلاً منه وبه وله، ودليله ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

وسبيل العزة من هذا أنه قد خلق الجنة والنار خلقًا، واستعمل العاملين بما يبلغ إلى منال موجوداتها على ما سبق في تقديره، فهو يستخرج بأعمالهم ثوابًا وعقابًا أعجب من موجودات ما هنالك.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم ليغدو إلى المسجد للصلاة ويروح فيهيئ الله له بذلك نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح**»[1].

فصل

في هذه الثلاث الآيات سبيل من الاعتبار سوى ما تقدم.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل:٦٦] الثلاث آيات إلى قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٩].

وقال الله ﷻ في غير هذه السورة: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد:١٥] فجعل ﷻ الأنعام في هذه الدار لقلتها وصغرها آية على إظهار اللبن فيما هنالك؛ لعظم تلك الدار وسعتها وفخامة شأنها، وكذلك فعل من ثمرات النخيل والأعناب آية بما يعالج وبما يستخرج منها من الانتباذ، والعصر من الخمر آية على أنهار الخمر فيما هنالك، كذلك جعل ما يحتوشه النحل من أزهار النبات وتأكله من الثمرات آية على أنهار العسل فيما هنالك.

وعبرة أخرى:

انظر إلى ما بين الأنهار من الماء واللبن والخمر والعسل فيما هنالك، وإلى ضعف منبعثها فيما ها هنا فاقضِ بفضل ما بين خمر وخمر ولبن ولبن وعسل

---

(١) أخرجه بنحوه ابن حبان (٢٠٧٣)، وابن خزيمة (١٤١٦).

وعسل، ثم كذلك فعم بهذا القضاء غيره من جميع موجودات ما هنا إلى موجودات ما هنالك.

ذكر عن كعب الأحبار أنه قال، وحكاه عن الكتاب الأول: «النيل نهر العسل في الجنة، والدجلة نهر اللبن في الجنة، وسيحان نهر الماء في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة، فأطفأ الله نورهن ليصيرهن إلى الجنة».

وصح عن رسول الله ﷺ قوله: «**إن النيل والفرات وسحيان وجيجان من أودية الجنة**»[1].

وهذا نص على أنهار هي الجنة في الأرض وما علا منها أعلى وأجل، وأما التأويل: فاللبن فيما ها هنا وفيما هنالك الفطرة على الإسلام، وعلى الإسلام فطر الله كل شيء، وهو الدين الحق، وتأويل الماء هو الحياة ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء:٣٠].

﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت:٦٤].

والخمر معناها وتأويلها: النعيم واللذة ﴿**وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ**﴾ [محمد:١٥].

ووفق رسول الله ﷺ في اختياره شرب اللبن في تأويل الفطرة، والخمر في تأويل النعيم واللذة، وليست هذه الدار لذلك معدة، ولذلك هي ما هنا على ما هي عليه بين سلب العقول وصدها عن سبيل الله وعن الصلاة، وكل ما يلهي هنا يصد عن سبيل ذكر الله وعن الصلاة.

قال جبريل ﷺ: «**هُديت الفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك**».

وتأويل العسل: العلم، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾ [النحل:٧٠] أعلم جل ذكره أن أمره قد أجراه على دوائر محكمة التدوار، فذكر الخلقة ثم التوفي، وأمسك عن ذكر الإعادة؛ إذ الوجود قد

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني (١٩)، وابن عدي (٥٩/٦) وقال: قال أحمد: منكر الحديث ليس بشيء. وابن عساكر (٣٤٦/٢).

كشف عن حقيقة علمه، وفي الكلام ما يدل على وجوبه، وذكر أنه يرده إلى أرذل العمر تعريضًا بأنه يعيده إلى عدم العلم والميز كما بدأه، ثم نص على ذلك بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وقد كشف عن معهود ذلك الوجود، وفي قوله: ﴿يُرَدُّ﴾ نص على معنى ذلك.

اتصف ﷻ بالاقتدار على الإيجاد الأول عن عدم، وهو الموت أيضًا، ثم على الإعادة بعد البداية، ليس كمن يدعونه ﴿مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢٠ - ٢١] وفيه أيضًا تعريض خفي بذكر الخلقة التي نص عليها بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١] وعرض بها في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن:٣] وبقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

ينتظم هذا من جهة المعنى بقوله في صدر السورة: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٣ - ٤].

يقول جلَّ قوله وهو أعلم بما ينزل: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل:٧٠] ثم كان التوفي على ما تقدم من معناه خاص بالذي يخترم فيموت غبطة، وفي حال استوائه منه قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥] ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، ثم لتكونوا شيوخًا، ومنكم من يتوفى من قبل ونحوه.

يقول: وربما إن لم يتوفاكم حال الاستواء وردكم إلى أرذل العمر؛ لكي لا تعلموا من بعد علم شيئًا؛ أي: وإنه إن كان قد صوركم أحسن تصوير فإنه يميتكم إذا شاء وكيف شاء، ويردكم من بعد حسن التصوير من العلم والحلم والذكر والفطنة وحسن التخطيط إلى أرذل العمر ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] لذلك وهو أعلم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ لا يستحيل علمه ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٠] لا تُعدم قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل:٧١] معنى هذه الآية والله

أعلم منتظم بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى...﴾ [النحل:٦٢].

كما أخبر عن بعضهم: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠].

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

ومعنى الآية معنى قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم:٢٨].

يقول وهو أعلم: من الذي خص أهل اليسار باليسار وأهل الفاقة بالفاقة في دار الدنيا حتى لا يستطيع هؤلاء أن ينالوا منزلة هؤلاء، ولا هؤلاء منزلة هؤلاء.

ثم قال: أنتم لا تسمحوا لأنفسكم بأن تشاركوا مماليككم في الرزق الذي رزقناكموه حتى تكونوا على السواء أنتم وشركاؤكم الذين مننتم عليهم بالملك والإعطاء، تخافونهم في الذي مننتم عليهم به كما يخافونكم، وفي ذلك يزعمون أن الله يفعل على عزته وقدرته ومضاء مشيئته وعظيم شأنه ذلك.

ثم قال عز من قائل: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾[1] [النحل:٧١] أجلُّ نعمة، وأعظم منة على العباد أن كان ربهم العلي الكبير ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا، الواحد الأحد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

---

(١) فيه وجهان: أحدهما: لا شبهة في أن المراد من قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ﴾ الإنكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم. الثاني: الباء في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ الله﴾ يجوز أن تكون زائدة؛ لأنَّ الجحود لا يتعدَّى بالباء؛ كما تقول: خُذِ الخِطامَ وبالخِطَام، وتعلَّقت زيدًا وبزَيْدٍ، ويجوز أن يراد بالجحود: الكفر، فعدي بالباء لكونه بمعنى الكفر. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «تَجْحَدُونَ» بالخطاب؛ لقوله: «بَعضَكُم» و«خَلقَكُمْ» والباقون بالغيبة؛ مراعاةً لقوله ﷻ: ﴿فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم؛ لقرب المخبر عنه، وأيضًا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين، والمسلمون لا يخاطبون بجحد النّعمة، وهذا إنكار على المشركين. تفسير اللباب لابن عادل (١٠/١٦٣).

هذه نعمة الله التي جحدوها، سبحانه وله الحمد النزيه عن أن يصيبه ذل الشركة وفاقة العجز والشركة، فيتخذ أولياء من أجل ذلك، أو يكون في ملكه ما لا يريد، عمدوا إلى أفضل نعمة أوتوها وأكرم منة مُنحوها فجحدوها، جعلوا رزقهم أنهم يكذبون [......][1] والمكانة عنده، فالحمد لله على النعمة به، والحمد لله على النعمة منه حمدًا لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه كما ينبغي لعز جلاله وكرم وجهه وسبحات قدسه.

ويمكن أن يحمل معنى قوله جل وعز: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...﴾ [النحل:٧١] إلى الفضل الذي هو الإيمان والعقل والمعرفة، والرزق: التوحيد والعمل بطاعة الله ﷻ، وهو الرزق الذي لا يستطيع أحد أن يرده على سواه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] ويهدي الكون، وعلى هذا يكون مثلاً لأهل الإيمان الذين رزقهم الله الإيمان به وبرسله، والعمل بطاعته في دار الدنيا، ثم ما للموحدين عند الله ﷻ من الحسنى وحسن المنقلب إن شاء الله ﷻ.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل: ٧٢-٧٧].

---

(١) ما بين [ ] قطع في (غ) وغير موجود في (ف).

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1] [النحل:٧٢] هذه إشارة إلى الوحدانية وما

(١) فيها مسائل:
المسألة الأولى: المراد بأنفسكم: الجنس؛ أي: جعل لكم من جنسكم أزواجًا آدميين، وفيه الرد على العرب، فإنها كانت تعتقد أنها تتزوج الجن وتباضعها وإلى أن هذا جائز في العقل. وأما الفلاسفة فينكرون الجن ويحلون طعامهم ونكاحهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. لا شك أن الولد متكون من الأب والأم، ولكنه نسب هنا إلى الزوجة؛ لأن وجود تصويره فيها وانفصاله عنها. تنبيه: قال القاضي أبو بكر: سمعت أبا الوفا إمام الحنابلة ببغداد يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية والرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له، ولا مالية فيه، ولا منفعة، وإنما اكتسب ذلك بها وفيها، فلذلك تبعها، كما لو أكل رجل ثمرة في أرض رجل، ولفظ نواتها في تلك الأرض، فأنبتت نخلة، فإنها لرب الأرض إجماعًا، لأنها انفصلت ولا قيمة لها. المسألة الثانية: الحفدة: أعوان الرجل وخدامه، وقيل: هم ولد الرجل وولد ولده. قال الأصمعي: الأختان: هم الرجال من قبل المرأة، والأصهار من قبل الزوجين جميعًا، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾. فالنسب ما دار بين الزوجين، والصهر ما يتعلق بهما، ويقال أختان المرأة وأصهار الرجل عرفًا ولغة، ويقال لولد الولد الحفيد، ويقال: حفد يحفد بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل. ويقال في الدعاء: «وإليك نسعى ونحفد» وظاهر الآية أن المراد ولد الصلب وولد الولد؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا. تنبيه: قال علماؤنا: يستخدم الرجل زوجته فيما خف من الخدمة ويعينها، وقالوا: ينفق على خادم واحدة من خدمها. وفي رواية على أكثر من واحدة، على قدر منزلتها. وهذا أمر دائر على العرف والعادة، الذي هو أصل من أصول الشريعة، فإن نساء الأعراب وسكان البوداي يخدمن أزواجهن، حتى في استعذاب الماء وسياسة الدواب. وأما نساء الحواضر فيستخدم المُقِلُّ زوجه ويعينها. وقال الخليل بن أحمد: الحفدة عند العرب، الخدم. وقاله مالك، وكفى به.
المسألة الثالثة: روى البخاري عن أبي أسيد الساعدي أنه دعا رسول الله، ﷺ لعرسه فكانت العروس تخدمهم؛ وفي الترمذي أنه ﷺ: «كان يعود المريض ويشهد الجنازة ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم». المسألة الرابعة: قال ابن عباس: بت ليلة عند النبي ﷺ في بيت خالتي ميمونة، فأوى رسول الله ﷺ إلى فراشها، فلما كان جوف الليل، قام فخرج إلى الحجرة، فقلب في أفق السماء وجهه. ثم قال: «نامت العيون، غارت النجوم، وأنت حي قيوم. ثم عمد إلى قربة في جانب الحجرة، فحل شِناقَها، ثم توضأ، فأسبغ الوضوء». ومن أفضل ما يخدم الرجل فيه نفسه، العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فليعملها، ويعمل شروطها وأسبابها. ويباشر جميع مقدماتها بنفسه، إن قدر، =

يفصل عنها من الكثرة، كقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] لكنه استاق ذكر البنين والحفدة سياق تعداد النعم، والحفدة: قيل: هم البنات والأصهار والأختان، وقيل: الخدمة والأعوان.

والحفدة أيضًا: بنو البنين، وكل من أسرع في حاجتك وشمر إليها فقد حفدك، والحفد: الإسراع في الحوائج معونة ونصرة، ومنه الدعاء إليك يسعى ويحفد يرجو رحمتك ويخشى عذابك الجد.

أعلم في هذه الآية أن الكثرة عن الوحدة كما المفعول عن الفاعل، كذلك الله الواحد خلق آدم واحدًا فردًا، وخلق منه زوجه، ثم بث منهما ومن ذريتهما ما بثه، كذلك أنزل من السماء ماءً واحدًا ظاهرًا خالصًا، فصَّله إلى ما فصَّله إليه، المواجه بالخطاب: المؤمنون؛ إذ كان معنى صدر الآية والمقصود بها: تعداد النعم بالواحدنية، ولما أكمل ذكر ما أراد ذكره وأتى بأخبارهم وذكر ضلالهم صرف وجه الخطاب عنهم.

يقول الله جل من قائل: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٢] الذي آمنوا به هنا هو جعلهم لله البنين والبنات والأنداد، وتكثير الآلهة بغير علم ولا هدى من الله سوى أنهم رأوا أنفسهم ذوي بنين وبنات وحفدة، فأضافوا إليه مثل ذلك، فهذا هو الباطل الذي آمنوا به وكفروا بنعمته بأنه الواحد الأحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وبأنه رزقهم الطيبات، وبأنه رزقهم البنين والحفدة والأموال التي هي زينة الحياة الدنيا، وآيات من عنده جعلها لهم معلمات على موجودات الجنة من طيباتها وولدانها ووصفاتها وغلمان لهم فيها [.....][1].

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣] هذا الذي آمنوا به لم ينفعهم بشيء وهذا تتميم للعبرة التي تقدمت، وكان سياق هذه الآية فيه تقديم وتأخير معناه على هذا، ولا يستطيعون لهم شيئًا، لكنه لما لم يكن لمعبوداتهم شرك

=

فهو أفضل. [الأحكام الصغرى ص٤١٠].

(١) ما بين [ ] قطع في (غ).

في السماوات ولا ملك وسَّط لفظة «شيء» ليكون لها وجه إلى عموم نفي الملك للرزق قليله وكثيره، ووجه إلى أنهم لا يستطيعون ذلك؛ إذ لا ملك لهم فيما هنالك، فعرض بذكر الاستطاعة إلى هذا المعنى، وقدم لفظ «الشيء» توسطًا بين المعنيين، وهذا من المطلع المذكور في القرآن العزيز.

ثم قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له مثلاً فإنه لا مثل له؛ لهذا قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤] وقد كانوا نحتوا معبوداتهم الأوثان والأصنام على صور الآدميين؛ لذلك قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢].

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ إلى آخر المثلين، لما نهاهم - جل ذكره وتعالى علاؤه وجده - عن أن يضربوا له الأمثال من أجل جهلهم أخذ هو جل وتعالى يضرب لهم الأمثال حيث تقف عليه علومهم؛ لأنه هو يعلم وهم لا يعلمون، فضرب مثلاً بعبد مملوك ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وهو الكافر الذي لا يقدر على العمل بطاعة الله، وهو فقير من الإيمان عديم من جميع ضروب الإحسان، ويصلح أن يكون مثلاً للمعبود من دون الله جل ذكره، ولعبد رزقه الله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني: الهدى والإيمان، والقوة على طاعة الله، والعلم واليقين والرزق والحلال ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ويصلح أن يكون مثلاً للإله الحق جل جلاله ولا مثل له كما ضرب لنوره مثلاً بالمصباح، ثم قال: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل:٧٥] فجاء بلفظ الجمع، وإنما ضرب مثلاً بعبدين يريد وهو أعلم المؤمنين والكافرين، ويمكن أن يكون المراد بذلك: الآلهة المتخذة من دون الله، وما سموها به من أسماء ووصفوها، هل يستوون مع من يهدي ويخلق ويرزق ويقدم ويؤخر؟.

قال رسول الله ﷺ: «**يمين الله سخاء لا يغيضها عطاء الليل والنهار**»[(١)] وفي أخرى: «**لا يغتضيها**»[(٢)].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٩٩٣)، وأحمد (٨١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٥٠٧)، والبخارى (٦٩٧٦)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥) وابن ماجة (١٩٧). وللحديث أطراف منها : «إن يمين الله»، «يمين الله».

أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده شيئًا؛ لهذا ونحوه قال جل من قائل: ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٧٥].

ثم ضرب المثل الآخر برجلين أحدهما أبكم عاجز ﴿**لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ**﴾ وكل معول فهو كَلّ ﴿**أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ**﴾(1) [النحل:٧٦] إن دعاه عابده لم يستجب له، وإن سأله لم يعطه، وإن استنصره لم ينصره، لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئًا.

وقرأها عبد الله والأعمش: «**أينما يوجه لا يأت**» بفتح الجيم وبهاء واحدة، فهذا مثل للصنم والوثن وجميع المعبودات من دون الله، ولما كان هذا المعهود أن يكون من الآلهة المتخذة من دونه ما هو موصوف بالحياة كفرعون والدجال، وكل داعٍ إلى نفسه فرض ضرب المثل برجلين: أحدهما: مثل لما يوصف بحياة، والآخر: بمن لا يوصف بها، وحدهما عند الإشارة إليهما بالضمير في قوله: «هو» إذ قد استويا في عدم الغنى.

ثم قال وقوله الحق: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل: ٧٦] هذا هو الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، الإله الحق الخالق الرزاق، والقريب المجيب، ولما جاء ما هو مثل له عز جلاله لم يجيء في ضميره تثنية ولا جمع، بل أبان وصفه الحق بقوله: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ**﴾ يعني: المعبود دونه ﴿**وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ والإشارة في سر المراد بهذا الخطاب منتظمة بقوله: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النحل:١].

---

(١) أي: حيثما يرسله مولاه في أمر لا يأتِ بنجح وكفاية مهم، بيان لعدم قدرته على مصالح مولاه. وقرأ عبد الله في رواية: «توجهه» على الخطاب، وقرأ علقمة وابن وثاب ومجاهد وطلحة، وهي رواية أخرى عن عبد الله: «يوجه» بالبناء للفاعل والجزم، وخرج على أن الفاعل يعود على المولى والمفعول محذوف، وهو ضمير «الأبكم» أي: يوجهه، ويجوز أن يكون ضمير الفاعل عائدًا على «الأبكم» ويكون الفعل لازم وجه بمعنى: توجه، وعلى ذلك جاء قول الأضبط بن قريع السعدي: «أينما أوجه ألقَ سعدًا».

وعن علقمة وطلحة وابن وثاب أيضًا: «يوجه» بالجزم والبناء للمفعول، وفي رواية أخرى عن علقمة وطلحة: إنهما قُرءا «يوجه» بكسر الجيم وضم الهاء. تفسير الألوسي (١٠/٢٤٧).

ثم كذلك إلى قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:٣] إلى قوله: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] فكل كافر يجادل في آيات الله فهو خصيم، والخصيم المبين منهم: هو الدجال كبته الله وقصر مدته.

قوله عز من قائل: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النحل:٧٧] الغيب في السماوات والأرض هو ما لم يكن بعد وسيكون، فهو إذًا ما يؤول الله ﷻ إليه السماوات والأرض وما بينهما ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] فذلك ما هو في ظاهر ما هو اليوم غيب، وهو أيضًا موجود الدار الآخرة بما فيه، والآخرة تغيب الدنيا والكائنات التي لم تكن بعد هن أيضًا غيب ما قد كان منهن، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بم يخرج منه»[(١)].

والله أصدق القائلين حيث يقول: ﴿فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] وما وصفه بالقلة فلا أقل منه.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ﴾[(٢)] [النحل:٧٧] شأن الآخرة كله على حكم الكلمة دون زمان محصل؛ إذ لمح البصر موصوف بقوله بأنه في زمان، فإن دق ذلك فأمر الآخرة أقرب من ذلك وأسرع قضاءً، ثم اتصف من أجل ذلك بالقدرة؛ يريد وهو أعلم: القدرة التي يكون مقدورها على حكم الكلمة وعلى حكم العموم بقوله: كل شيء يدخل في ذلك حكم السنة المتمم لحكم الكلمة، وأكثر أحكام الدنيا على حكم السنة، نعم هذا خطاب الدنيا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الساعة هي الوقت الذى تقوم فيه القيامة، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة، واللمح النظر بسرعة، يقال لمحه لمحًا ولمحانًا، ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت من القرب كلمح البصر، وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها؛ أي: يقول للشئ كن فيكون، وقيل: إنما مثل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هي عليه من البعد من الأرض، وقيل: هو تمثيل للقرب، كما يقول القائل: ما السنة إلا لحظة، وشبهه، وقيل: المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين، دليله قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

للإيمان بالغيب والشهادة، وهي قدرة واحدة؛ لأن الموصوف بها واحد أحد سبحانه وله الحمد.

فصل

في الكتاب الذي يذكر أنه «الإنجيل» قال: يُشَبَّهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ بِخَمِيرَةٍ أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَأَخْفَتْهَا فِي ثَلَاثَةِ مَقَادِيرَ مِنَ الدَّقِيقِ، حَتَّى اخْتَمَرَ الْعَجِينُ كُلُّهُ.

وقال: مثل ملكوت السماوات والأرض كمثل كنز قد أخفي في فدان فاطلع عليه شخص فأخفاه حتى يصرف ماله ويبتاع ذلك الفدان.

وقال: يشبه ملكوت السماوات والأرض بحبة من خردل ألقاها إنسان في فدانه وهي أصغر الحبوب وأدق الزريعة، فإذا نبتت استعلت على جميع البقول والزراريع نمت حتى ينزل طير السماء في أغصانها ويسكن إليها.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] المثلان الأولان ينبئان عن وجود الآخرة اليوم على حكم [.....][1]، والمثل الثالث ينبئ عما يؤول الله إليه الدنيا، وهو ظاهر من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] وكلاهما موجود حق، فافهم.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾
[النحل:٧٨ – ٨٥].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) [النحل:٧٨] أي: لعلكم تعقلون فتذكرون فتشكرون، هذا كله دعاء منه عباده عن ضلالهم إلى رشدهم.

وأنبأت السورة على مفهوم قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] إلى قوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٤] فهو يعدد عليهم نعمه بما خلقهم عليه وفطرهم من الأسماع والأبصار والعقول، وهو أول أنعمه على عباده؛ إذ أخرجهم من بطون أمهاتهم مسلمين في أعضائهم وأجسامهم وحواسهم، فهو يدعوهم منها إلى إتمام أنعمه عليهم بالإيمان بالله وحده، والإسلام له دون شرك ولا بدل، وإلى العمل بطاعته؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤].

والمراد: إنباؤه من هذا الخطاب أنه الخالق وحده، والمنشئ وحده، وواهب الكل، والمتمم أنعمه سواه، كأنه يقول لهم: فأين تذهبون؟ فمن خلق وفطر وأنشأ ورزق إلى أن سوى وأكمل، وهو الذي يديم لزوم صنعه المصنوع إدامة لا يقطعها مدة؛ لإبقائه على مقدار معلوم ورزق من الحق مقسوم على أبوابه، مرتب على فصوله وأعضائه وجملته.

أتبع ذلك ما هو بيان له قوله الحق: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ

(١) أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته.

السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ [النحل:٧٩] فأظهر بهذا الخطاب ما أشار إليه فيما قبله كما قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩] تثبت بذلك من حقيقة الوحدانية وظهور القيومية، وإن تحديد الصنع وتوالي الإمساك يجري إلى الموجود راتبًا أبدًا على الدوام ما شاء إمساكه، وقد تقدم الكلام في تبيانه لذلك، والله أعلم بما ينزل.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩] يقول: فأين أنتم من حقيقة عظيم هذا الشأن وصدق وجود توالي هذا القيام أفتتخذونه وليًّا كما قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف:٥٠] إلى قوله: ﴿عَضُدًا﴾ [الكهف:٥١].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠] السكن: موضع الود والحب؛ أي: حببها إليكم؛ يعني: المنازل والمساكن، حتى قال قائلهم:

أحب بلاد الله ما بين منعجٍ ... إلي وسلمى أن تصوب سحابها
بلادٌ بها نيطت علي تمائمي ... وأول أرضٍ مسَّ جلدي ترابها

يعرض بما قد أعد لأهل الإيمان والعمل بطاعته من بيوت فيما هنالك، وقصور تكون سكنًا حقًّا لساكنيها، وودًّا على سبيل النشء والبون كما بين دار الدنيا ودار القرار وبذلك يتم النعمة بها والسرور لأجلها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ عدد عليهم نعمه بما متعهم به وسخره لهم من الأنعام ومنافع بها، ومن بيوت معرشة وأخبأ هذه للسكنى وإقامتهم، وهذه للترحال والحفوف، والأثاث: متاع المنزل والبيت والكسوة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ [النحل:٨٠] أي: إلى الموت، فالمتاع بها هو في طول مدة بقائهم في الدنيا كل على مقدار توسعة الرزق، وتقديره كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] أي: إلى حين تخرجون منها إلى غيرها تستدفئون فيها من البرد، وتستدفعون بها وهج الحر، وغير ذلك من المكاره الواردة عليهم من فيح جهنم، أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

ويعرض بذكر البيوت والسكن إليها، والبيوت التي هي للظعن بقصور من

ذهب فيما هنالك أو فضة مِلاطُها المسك برزت بمقاصير وقباب من الدر والياقوت في رياض الجنات، أضواء أجوائها من نور العرش، أزواجهم فيها الحور الحسان، وزوارهم الملائكة الكرام، وخدمهم الوصائف والولدان، يحبرون فيها ويكرمون تحيتهم فيها ﴿**سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس:٥٨] فهذه نعم نفع ودفع يمتعون فيها وبها إلى حين ينقلبون إلى تلك أو بدار لا موت فيها ولا سكنًا ولا خير يلقونه، لا يستقرون فيها على أرض أبدًا ولا تظلهم سماء فيها أبدًا، ولا يذوقون لذيذ الشراب والطعام أبدًا، ولا تفارقهم آلام أنواع العذاب والجوع والعطش أبدًا لا إلى حين، بل إلى أبد الأبد.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جل وعز: ﴿**وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ**﴾ [النحل:٨١] السرابيل: اسم يقع على الملبس القميص والدروع ونحو ذلك، المراد الأول بهذا الخطاب وهو أعلم بما ينزل: الإعلام بأنه سخر لنا في هذه الحياة الدنيا جبالها وسماءها وأرضها وقمرها وأفلاكها ونجومها ورياحها وحيوانها ونباتها نعم نفع ودفع رحمة منه وفضلاً، ليس كذلك أهل النار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - لا يسخر لهم شيء مما فيها، ولا مما كان لهم قبل في الدنيا مسخر، بل يسلط عليهم أشد التسليط، وأبعده من الرفق والرحمة يأتيه الموت من كل موجود منها لو كان ميتًا.

يقول الله ﷻ لهم في الدنيا: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد ﴿**تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ**﴾ [إبراهيم:٣٠].

ثم قال عز من قائل: ﴿**كَذَلِكَ**﴾ الكاف للتشبيه، والمشبه به ما تقدم ذكره من النعم والإنعام بمنِّه؛ أي: كما أنعم عليكم يا أهل الإيمان بذلك في الدنيا كذلك ﴿**يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾ بالشكر له ﴿**لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ**﴾ [النحل:٨١] فإنكم إن أسلمتم تسلمون غدًا في الدار الآخرة من العذاب، قرأ بذلك ابن عباس - رضي الله عنهما - بفتح اللام والتاء[1] كذلك قال

---

(١) قرأ ابن عباس، وعكرمة «تسلمون» بفتح التاء واللام من السلامة من الجراح، وقرأ الباقون =

رسول الله ﷺ: «أسلم تسلم»[(١)].

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢] يقول عز من قائل: من تولى وكفر فلا يحزنك شأنه فإنه يحرم الجنة، ويكون مصيره إلى النار.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ إنها لله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] يضيعون شكرها وينسبونها إلى ما سواه، قد استقر في قلوبهم معرفة يجدونها في جُدر قلوبهم، لكن رازقهم من السماوات والأرض وخالقهم هو الله جل ذكره، وإن ما بهم من نعمة في أنفسهم وفي سواهم فمن الله، ثم عن هذه الحقيقة يؤفكون.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤] يقال: شاهد عدل وشاهد زور.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢].

وقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج:٤-٧].

وعطف بحرف الواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ أي: لعلكم تسلمون في الدنيا وتسلمون يوم نبعث ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وعلى القراءة المعهودة: لعلكم تسلمون في الدنيا وتسلمون يوم نبعث من كل أمة شهيدًا ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الهداية ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤] أي: يسترضون، وربما كان بمعنى: ولا هم يوفقون لاسترضاء ربهم.

= بضم التاء وكسر اللام من الإسلام. قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح. وقيل: الخطاب لأهل مكة أي: لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الربوبية، والأولى الحمل على العموم، وإفراد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر. [فتح القدير (٤/٢٥١)].

(١) أخرجه الطبراني (٢٣٨)، والحاكم (٤٣٦٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (٧٢٠٨)، وإسحاق بن راهويه (٢٧)، وابن سعد (٥/٤٥١).

قال رسول الله ﷺ: «**عشر آيات إذا جئن لا ينفع نفسًا إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ونزول عيسى ابن مريم، والدابة...**»(١).

ومصداق ذلك من القرآن: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ**﴾ أي: للموت ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ للفصل ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام:١٥٨] الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم... إلى آخر الآيات برزخ ظاهر بين يوم الدنيا وبين يوم الآخرة، فيه تبدو الآيات كما تبدو للمحتضر والميت.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ**﴾ [النحل:٦٣] فأخبرك أصدق القائلين الإله الحق المبين أن الشيطان وليهم اليوم حال موتهم.

وقال رسول الله ﷺ وذكر الدجال فقال: «**يبعث معه أمثال من مات من الرجال والنساء، فيقول أحدهم لقريبه، لابنه، لأخيه: آمن به إنه ربك، ألست تعرفني؟ ألست فلانًا؟**»(٢).

وقال رسول الله : ﷺ «**يجيء ومعه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء، فيلقى الرجل فيقول له: ألست بربكم؟ ألست أحيي وأميت؟ ألم أمطر السماء عليكم مدرارًا؟ ألم أرسل إليكم أنعامكم شاخصة ذراها دارة ضروعها وألبانها؟ فيقول له الملك الذي على يمينه: كذبت، فلا يسمعه أحد، ويقول الذي عن شماله: صدقت، فيسمعه الناس، وهو إنما صدق صاحبه في قوله: كذبت**»(٣).

وفي الكتاب الذي يذكر أنه «الإنجيل» قال: رسالة تلاميذه – عليهم السلام –

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٨)، والترمذي (٣٠٧٢) وأحمد (٩٧٥١)، وأبو يعلى (٦١٧٢)، وابن أبي شيبة (٣٧٥٩٦)، وأبو عوانة (٣١٨).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٣٠)، وإسحاق بن راهويه (٩).

(٣) تقدم تخريجه.

فقالوا: عرفنا بالوقت، وأمارة مجيئك وانقراض الدنيا، فقال بعد كلام طويل [...] إننا حين نكرم القديسين لا نكرمهم في ذواتهم، وتقل مودة أقوام بغلبة الشر، فمن صبر إلى الخاتمة فإن المعاني [.....] هذا الإنجيل وينصر بالملك، فيكون شاهدًا عليهم، وبعد ذلك ينقرض [.....] والانفراد الذي تنبأ به [.....][1] ثانيًا في موضع القدس، فمن كان قارئًا [كاتبا مطلعًا على كتب أهل الكتاب، ومن كان بأرض يهود فليلحق بالجبال، ومن كان على سقف ليس ينزل إلى بيته ليأخذ منه شيئًا، فالويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام، يومئذٍ حزن لم يكن من ابتداء الدنيا مثله ولا يكون، ولولا قصر تلك الأيام لم يسلم أحد من الناس، ولكن قللت تلك الأيام لأجل الصالحين، فمن قال لكم يومئذ: «هذا المسيح» ها هنا أو هناك فلا تصدقوه، فإنه سيأتي من يتشبه بالمسيح وبالأنبياء.

أما المسيح مسيح الهدى والأنبياء والملائكة - على جميعهم السلام - فلم تعط الشياطين التشبه بهم، لكن ذوات الكفار من كتب الله جل ذكره عليه أن يكون من الغاوين تتشبه بهم الشياطين، فيأتون في صور الأمهات والآباء والقرابات وأئمة الكفر كما قال الله جل ذكره: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] فهؤلاء هم شياطين الإنس، وهي ذواتهم التي آخى الله بينهم وبين شياطين الجن في الدنيا بالأعمال وفي الآخرة بالولاية.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] فيشهدون للدجال زورًا وكذبًا، وأما ذوات أئمة المتقين فلخلوصها وطهارتها، ولما في خلقه المؤمن من موجود الملك، تأتي تلك الذوات الملكية فيشهدون لله تعالى، ويثبتون أهل الإيمان.

قال الله ﷻ في المحتضرين منهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله ﷻ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] ولا يبعدن عليك هذا وقد

---

(١) ما بين [ ] بياض في (غ) وطمس في (ف)، ولم نقف على النص كاملاً في الإنجيل، ومتعلقاته، وانظر: إنجيل لوقا، الإصحاح:٢١، ٢٣، ٢٥. وإنجيل مرقس، الإصحاح (١٣).

جاء به النبأ.

ألا ترى إلى الغاضب كيف يثور غضبه واتصال ضلاله ونفوره عن الحق وإباؤه عن الرشد حتى لا يسمع الحق ولا يبصره ولا يتكلم ولا يتحرك إليه؟ وسماه الله: ميتًا؛ أي: عن الحق، وبالضد في أهل التقوى والهداية حتى يقول جل ذكره: «**أكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[1] وهذا وصف هو من الله ﷻ له في عبده أقل ما يعتقد فيه أنه ملكي، والوصف المذموم هو من الشيطان هو حامله فخاطره شيطاني، وهذه الذوات يبعثها الله ﷻ يوم الدجال ويوم عيسى ابن مريم، وهو بعث دال على البعث الأكبر وآيات عليه، فافهم.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ**﴾ أي: في عرضة المحشر ﴿**قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ**﴾ كما قالوا: ﴿**هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا**﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿ **وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾** ﴾ [النحل:٨٦ – ٩١].

يقول عز من قائل: ﴿**فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ [النحل:٨٦] لما كان اتباعهم الشركاء من دون الله خرصًا وظنًّا وظاهرًا من الأمر ألقوا إليهم القول؛ أي:

---

(١) تقدم تخريجه.

ظاهرًا من القول إنكم لكاذبون ما كنتم إيانا تعبدون.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾[١] أي: المعبودون والعابدون ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل:٨٧].

يقول الله جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] أبان الله ﷻ عذاب القاتلين الشهداء للدجال والطواغيت من عذاب الأتباع، فيعذبون - أعني: القاتلين - عذابًا لكفرهم وعذابًا لصدهم عن سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩] الواو للعطف، والمعطوف عليه - والله أعلم بما ينزل - قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النحل:٨٤] فهذا يوم الدجال، لعنه الله وكبته وأوهن كيده ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو يوم مسيح الهدى عيسى ابن مريم ﵇ يبعث من كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم والملائكة أجمعين بعد يوم الدجال [.....][٢] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من العرب عربيًا، ومن الروم منهم، ومن كل أمة وقبيلة شهيدًا من أنفسهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وهذا البعث هو من أشراط البعث الأكبر الذي ذكره رسول الله ﷺ في قوله لجبريل - عليهما السلام - يوم سأله عن الإيمان فقال: «الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث الآخر»[٣] وما من شيء يجب الإيمان به فيما هنالك إلا وله في هذه آيات دالات عليه، وأشراط متقدمة بين يديه، فافهم.

أشار إلى هذا وغيره بقوله الحق: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

---

(١) العامة على فتح السين واللام، وقرأ أبو عمرو في رواية بسكون اللام، ومجاهد بضمّ السين واللام، وكأنّه جمع: سلام؛ نحو: قُذال وقُذُل، والسَّلَمُ واحد. [اللباب لابن عادل (١٧٩/١٠)].

(٢) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وأحمد (٩٤٩٧)، وابن ماجة (٦٤).

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ﴾[١] أي: بذكره وأسمائه وحكمته وأفعاله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] في تلك المحنة، وترادف الفتنة بعد الفتنة، نعوذ بالله من جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال رسول الله ﷺ: «ووصف الدجال مكتوب بين عينيه: كفر - وفي أخرى: «كافر» - يقرأه كل مؤمن»[٢].

علامة ذلك في فعله: إنه يأمر بالفحشاء والمنكر والبغي، ولا فحش إلا دون فحشه، ولا منكر أعظم من منكر يجيء به، ولا بغي إلا وهو داخل في ضمن بغيه، وهو ينهى عن العدل والإحسان، وعن إيتاء ذي القربى، فهذا هو الكفر الظاهر في فعله ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧] فمن وقعت عينه عليه ظهر له بين عينيه ما يتبين به ما قاله رسول الله ﷺ وكما بيَّن الله ﷻ علامات الفتنة به إلى غاياتها فكذلك بيَّن علامات كذبه للمؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:٩١] انتظم هذا بقوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

---

(١) إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزَّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلَّاه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنائية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليفة.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٢٥١٣٣)، وإسحاق بن راهويه (١١٧٠).

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٢-٩٧].

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تكونوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] هذه من الموعظة يوصيهم بالتثبت عند الفتن والصبر عند المحن، ويذكرهم بالعهد والميثاق قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وإقرارهم بذلك في قولهم: ﴿بلَى﴾ [الأعراف:١٧٢] أقررنا.

قال: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] [أي: إنه لا يخفى عليه خافية، تذكير لهم وتوكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض].

قوله تعالى: ولا ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ يوصيهم بالمحافظة على الأيمان فيما بينهم، والتي قبلها في معنى التوصية بالأيمان والإسلام، والمحافظة على ذلك يحذرهم بذلك من أن يتبعوا الدجال - لعنه الله - بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾ أي: بنقض العهد ثم بالأيمان والأعذار فيما بينهم وفي جميع معاملاته ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:٩٢] تذكير منه ووعظ.

ثم عم بقوله: ﴿فتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا...﴾ [النحل:٩٤].

ثم زهدهم في الفاني ورغبهم في الباقي، وكل ذلك منتظم بمعنى الوعظ؛

ليتذكروا ذلك عند الابتلاء بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ يعني والله أعلم: [.....][1].

يقول عز من قائل: ﴿إِنَّمَا عِندَ الله هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ﴾ [النحل:٩٥ - ٩٦] إلى قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال رسول الله ﷺ: «**أكثر من يتبعه النساء والأعراب**»[2].

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ
هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ
إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ
﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى
ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ
مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل:٩٨ - ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:١٠١] تبديل الآية مكان الآية هو على وجهين: إما أن ترفع الآية خطًّا وحكمًا ويجعل مكانها آية أخرى، وهذا قد أمن بعد رسول الله ﷺ ولا سبيل إليه

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).
(٢) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

اليوم، والأوجه في معنى هذا الخطاب: أن يكون أبدل آية مكان آية والمعنى واحد في هذه الأمة والأمم الماضية، وإن كان اللفظ متغاير، فكانوا إذا رأوا هذا قالوا له: إنما أنت مفتر، والله أعلم بما ينزل على عبده، وهذه القصة كانت لموسى مع فرعون، ودل سياق الكلام على معنى ما، ثم يثني عليه سواه ويبطن المظهر، وقد يرجع المبطن بعد على مظهر، ويظهر معنى ما أبطنه، وربما بعد موضع أثناء توجه الخطاب فتداخلت المعاني لذلك، فاشتبهت المعاني لتشابهها، فكانوا يظنون لقلة فقه قلوبهم ووقر أسماعهم عن تفهم تناسق الخطاب مع مفترق المعاني أنه تناقض وتهاتر، ويقضون عليه بذلك أنه كذب وافتراء، وإنما هو كما قال جل من قائل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣].

أتبع ذلك قوله الحق ما هو نصر لرسول الله ﷺ، ورد عليهم بقوله الحق: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] أي: إنه محفوظ من لدن حافظ عليم، وفي قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ إيماء إلى معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥] نزله بما هو كلام لرب العالمين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى ما هو كلام لروح القدس، نزله كذلك بالحق إلى ما هو كلام للروح الأمين جبريل ﵇ إلى قلب الرسول إلى لسانه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - إلى ما هو كلام للبشر وتلاوة لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وآياته شمس الباطن، به يهتدي الساري والسارب في أسفار الأفكار، وبه يرى مثل مدارج الذر في خفي الإضمار، ومن عدم الإيمان عدم البصيرة، ومن عُدِم البصيرة لم ينفعه بصره، هذا عذابهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١٠٤] أي: في الدار الآخرة [.....][١].

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِالله مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾[٢] [النحل:١٠٦] هذا - والله أعلم

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) فيها مسائل: المسألة الأولى: نزلت الآية في المرتدين، واستثنى الله تعالى من تكلم بالكفر بلسانه عن إكراه، ولم ينو ذلك بقلبه، ثم الإكراه يكون بالقول والفعل، فالقول هو التهديد والفعل هو أخذ المال، أو الضرب أو السجن. وقد اختلف الناس في التهديد، هل هو إكراه =

بما ينزل - منتظم بالوصف، وهي الوفاء بالعهد والحفظ للميثاق، لا أن ينقضوا أيمانهم وينكثوا عقودهم ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] يقول: من كفر بالله من بعد إيمانه وشرح به صدره فعليه غضب من الله، ثم منهم من أظهر الكفر على ظاهره وقلبه مطمئن بالإيمان.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ عرَّض بشدة البأس يومئذٍ وإحاطة الامتحان، فإن خص في إعطاء الظاهر مع توجيه الباطن إلى الله ﷻ وإخلاص الإيمان له سبحانه حال الضرورة، فإنه - أعني: الدجال لعنه الله - لا يقبل يومئذٍ إلا الكفر بالله والإيمان به أو القتل والذبح، كذلك قال وهو أعلم: ذلك؛ أي: من غضب الله عليه، وألجأ به العذاب العظيم بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة، إنه من قتله الدجال أو قتله قاتله؛ لأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

=

أم لا؟ والصحيح أنه إكراه، فإن الظالم إذا قال لإنسان: إن لم تفعل كذا قتلتك، أو ضربتك، أو سجنتك، أو أخذت مالك، ولم يكن له من يحميه إلا الله، فله قدوم على الفعل، ويسقط عنه الإثم، إلا في القتل، فإنه لا يحل له الإقدام عليه، وإن أكره بالقتل بل يصير الأمر إليه تعالى، ولا يجوز له فداء نفسه بقتل غيره، وهذا مجمع عليه، بين الأمة، وأما الزنا، فالصحيح أنه يجوز له الإقدام عليه مع الإكراه، ولا يُحَد.

المسألة الثانية: هذا يدل على أن الكفر ليس قبيحًا لذاته، إذ لو كان كذلك لما حسنه الإكراه، ولكن الأمر كما قال أهل السنة: إن الأشياء لا تقبح ولا تحسن لذاتها، وإنما تحسن وتقبح بالشرع، فالحسن ما أمر الشرع به. والقبيح ما نهى الشرع عنه. المسألة الثالثة: نزلت الآية في قوم أسلموا بمكة، ففتنهم قوم عن دينهم فثبت بعضهم، وارتد الآخرون، فنزلت الآية، وقال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وعمار، وصهيب، وسمية، فأما رسول الله فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الباقون فعذبتهم قريش، وأتى أبو جهل بحربة إلى سمية فأدخلها في فرجها حتى خرجت من فمها، فهي أول شهيدة في الإسلام، وأما بلال فجعلوا حبلاً في عنقه، ودفعوه إلى صبيانهم يعذبونه، وهو يقال: أحد أحد، وهانت عليه نفسه، ولم يرجع إلى الكفر، وأما الباقون فعادوا إلى الكفر، فنزلت الآية. المسألة الرابعة: لما سمح الله في الكفر، ولم يؤاخذ به مع الإكراه. حمل العلماء عليه فروع الشريعة. فإذا وقع الإكراه عليها، لم يؤاخذ أحد بها، ولا يترتب عليه حكم، ولذلك قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». [الأحكام الصغرى ٤١٧].

فهو شهيد فله الآخرة لا محالة، فمحبته الدنيا وإيثاره إياها على الآخرة جهالة وضلالة؛ لذلك قال: ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧] يعني: الكافرين.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل:١٠٨– ١١٤].

﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [النحل:١٠٨ - ١٠٩].

ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ إلى حومة الحق، وهو الإيمان بعيسى ابن مريم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ثم هذا الحكم سائغ فيمن هو هكذا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ معه - عيسى عليه السلام - ومع المؤمنين ﴿وَصَبَرُوا﴾ على إذاية الدجال - لعنه الله - وأتباعه الفاتنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني وهو أعلم: بعد الهجرة إلى النبي والتوبة إلى الله، فهو أحد المرادين هنا ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] فتح باب التوبة لهم، وقد قرئ هذا الحرف: «فتنوا» بفتح الفاء، وهم الفاتنون، يقول: إذا تابوا من فتنتهم.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١] أي: إن ذلك اليوم - يعني: اليوم الآخر - يظهر له مغفرته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن

كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢].

المراد الأول بهذا المثل: مكة وأهلها، وأنعم الله قبلهم هي الرسالة والرسول وما جاء به، وما في ذلك من جزاء وثواب لو أنهم آمنوا واتقوا، وكونها مرزوقة مطمئنة ما عبر عنه قوله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧] ولما أخرجوا رسول الله ﷺ أصابهم الجوع والخوف.

والمراد الثاني: وهو أولى بمعنى المثل، وما ضربه مثلاً جملة الأمة كانت بعد فتح الله عليها ونصره إياها آمنة مطمئنة لنصر الله إياهم على عدوهم رغدًا من كل مكان يأتيها رزقها بما كان يفتحه الله لها من المغانم والأنفال والفيء وأنواع مال الله، فكفرت بأنعم الله بطرت وأشرت، ولم تشكر النعمة، وطال عليها الأمد فقست لذلك القلوب، ورانت عليها الغفلة، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف من جور ولاتها وغلبة عدوها إياها ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢] من ظلمهم وعداوتهم ونسيانهم كثيرًا مما ذكروا به.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ فهذا لمكة، ثم للأمة كذبوه بأفعالهم وإن صدقوه بإقرارهم ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٣] هذا للأمة.

ثم استمر على توجيه الخطاب إليها بقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ الله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤] أي: إنَّ ذلك الجوع بسبب كفرهم ، فاتركوا الكفر حتى تأكلوا.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ
بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١١٥ – ١٢٢].

ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦] أي: بغير أمر من الله، إلى قوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١١٧] ومن مفهوم هذا الخطاب وغيره من خطاب القرآن ونور الوحي الذي خصَّه الله به كان ﷺ ينذر ويبشر ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل:١١٨] يريد: ما قصه في سورة الأنعام، وهو أعلم بما ينزل.

ثم قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩] هذا خطاب مراد به الأمة في مصطحب حالها على العموم.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا، فكل إمام فهو أمة لمن تبعه ﴿قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢٠ - ١٢١] إلى تمام الآيتين وصف لهم خليله إبراهيم عليه السلام ليقتدوا به ويجعلوه أسوة، ويتخذوا مسلكه دلالة وهداية، وفي ذلك تعريض بأهل الكتاب وبخاصة بني إسرائيل الذين يستظهر الغوي - لعنة الله عليه - بهم وإنهم خالفوا إبراهيم عليه السلام فخولف بهم عن سواء سبيله.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٣ – ١٢٨].

أتبع ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣] أي: قائمًا على حقيقة الملة وسواء السبيل لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا.

ثم صرح بما كان عرض به بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾(١) [النحل:١٢٤] بواسطة عيسى ابن مريم، وهو من يوم القيامة، إلا أن الساعة الحاقة لم تجيء بعد، ويحكم بينهم أيضًا يوم الجمع الأكبر.

قال رسول الله ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة: «**إن هذا هو اليوم الذي كتبه الله علينا فاختلف فيه اليهود والنصارى، وهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهم لنا فيه تبع لليهود غد وللنصارى بعد غد**»(٢).

(١) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتَ﴾ بمعنى: إنما فرض تعظيمه والتخلي للعبادة وترك الصيد فيه؛ تحقيق لذلك النفي الكلي وتوضيح له بإبطال ما عسى يتوهم كونه قادحًا في الكلية، فإن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم ﷺ كان محافظًا عليه؛ أي: ليس السبت من شرائع إبراهيم وشعائر ملته ﷺ التي أمرت باتباعها حتى يكون بينه وبين بعض المشركين علاقة في الجملة، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة، وإيراد الفعل مبنيًا للمفعول جرى على سنن الكبرياء، وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل؛ لاستحالة الإسناد إلى الغير. وقرأ أبو حيوة «جَعَلَ» بالبناء للفاعل، وعن ابن مسعود والأعمش أنهما قرءا «إِنَّمَا أَنزَلْنَا السبت» وهو على ما قال أبو حيان: تفسير معنى لا قراءة لمخالفة ذلك سواد المصحف، والمستفيض عنهما أنهما قرءا كالجماعة «إنما جعل السبت». تفسير الألوسي (٣٣٧/١٠).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥)، وأحمد (٧٣٠٨)، والنسائي (١٣٦٧)، والشافعي (٦٠/١)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).

فصل

عدل بنا التبيان عن شأن الدجال - لعنه الله - ولما في ذلك من التذكير بالله والتشريد عنه والتحذير من فتنته، نعوذ بالله العظيم من فتنته وشر ما يجيء به من سوء كيده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤].

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن يوم الدجال آية على يوم هو كائن يوم البعث كما يوم المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله ﷺ آية على يوم حق يكون يوم البعث والجمع الأكبر، وهي مواطن، ففي هذا لا يؤذن للذين كفروا باعتذار ولا بنطق ولا يسترضون، كما قال عز من قائل: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل:٨٩] هذا ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١].

يقول الله جل وعز: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] ظاهر هذه خالص بمعنى النبوة والرسالة كما بشر لها خالص للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ قيل: هذه أحكم آية في القرآن، والقرآن كله محكم؛ لذلك وهو أعلم قال: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] أي: إلى أن الحكمة الكاملة والعدل كله لا يكون إلا لله، وطريق الله متميز من سواه لسواه الحيف والجور، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وتزيين الفحشاء والعدوان، وإيعاد بالشر والفقر ونحو هذا، وسبيل الله هو ما ذكره في كتابه، وما هو المعهود في أثناء الوجود؛ لذلك والله أعلم بما ينزل قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكرون حكمي وصراطي من سبل الغواة وصراطهم.

ثم زادهم في التوصية بالمعروف، وفي ذلك وصاهم به من قوله الحق: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢] النكث عند العرب هو أن تأتي المرأة إلى الشعر المغزول والصوف قد صنع منه [...][١] وبلي لطول العهد، فتفتله دبيرًا فينحل بذلك ما كان انبرم منه، فذلك من فعلها هو النكث، واسم المنكوث منه هو النكث، ثم تغزله بعد إن شاءت فتصنع صنيعًا غيره، وشبه الله جل ذكره بذلك الرجوع عن الإقرار الأول والإشهاد الأول، وخلف الوعد ونقض الأيمان من حلف عن يمين مُبرّ هو فيها كاذب، قال رسول الله ﷺ: «**إنه يلقى الله وهو عليه غضبان**»[٢].

يقول الله عز من قائل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ الدخل: الفساد؛ أي: لا تجعلوا أيمانكم سببًا إلى الفساد بينكم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [النحل:٩٤] خاطب الله جل ذكره بهذا المؤمنين، وهو أعلم بما ينزل، وإنما قلنا ذلك؛ لأن أقدام الكفار لا توصف بالثبوت، وأغلظ بالوعيد في ذلك جدًّا.

وقال في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَا خَلاقَ لَهُمْ...﴾ [آل عمران:٧٧] نسأل الله العفو ومعافاته ومغفرته.

وقال هنا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ زهَّد في هذه دل على ذلك قوله بعد هذا: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٩٥] فوصف الزاهدين في هذه الراغبين في تلك بالعلم.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] الحياة الطيبة في الدنيا

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧٥)، ومسلم (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (١٢٦٩) والنسائي في الكبرى (١١٠٦٢)، وابن ماجة (٢٣٢٣)، وأحمد (٣٥٩٧)، والطيالسي (٢٦٢)، وابن حبان (٥٠٨٨).

إنما تكون بالإيمان والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، وعبادة الله والعمل بطاعته، والرضا عن الله والمحبة له، والنصيحة بهذا طابت حياة الدنيا، وما عدا ذلك فهي المعيشة الضنك والعذاب بالأهل والمال.

يقول الله جل من قائل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] وأما الحياة الطيبة في الآخرة فهي بأن يوقى سوء الحساب، وييسر عليه جواز الصراط، ويدخله الله الجنة بسلام، والحياة الطيبة في الدار الوسطى دار البرزخ، وهي بأن يوقّى عذاب القبر، ويفتح أبواب السماء لروحه، ويسرح في جنة المأوى، ويقعد مع المقربين والمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وذكر [...][١].

لذلك قال رسول الله ﷺ ساعة خُيّر ورأسه في حجر عائشة وشَخُصَ بصره إلى السماء: «بل الرفيق الأعلى»[٢] والرفيق الأعلى هو الله جل ذكره وتعالى علاؤه وجدُّه، وفي أخرى: «بل الرفيق الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل»[٣].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم:٦] يجزي عبده المؤمن بأحسن عمله، ويتجاوز له عن سيئه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨] أمر الله سبحانه بهذا رسوله، وأوجب علينا اتباعه، فالواجب على من أراد قراءة القرآن التعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي حين [...][٤] التلاوة يخلص الدعاء والتضرع في ذلك إلى الله سبحانه.

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٦٤٥٠)، وأحمد (٢٥٣٢٠).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٤٤٦).

(٤) ما بين [ ] غير واضح في (غ)، وفي (ف): «اصطحاب».

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج:٥٢] وقد تقدم الكلام في سورة البقرة، فإذا كان الشيطان يصل من النبي والرسول إلى مثل هذا مع ضمان الله حفظ وحيه فكيف بمن بعده، وليس عنده ضمان بإصلاح ما يفسده الشيطان عليه.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] فالتعوذ بالله منه والتوكل عليه حرز منه، وقد أخبر الله وقوله الحق أن من عباده من ليس له عليهم سلطان، وهم المؤمنون بالله المتوكلون على الله، وعلى قدر النزول على تحقيق هذه المرتبة ينحل عنه ضمان العصمة حتى ينزل إلى الذين قال فيهم: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ وهم العصاة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١٠٠] عبدته.

قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ الحكمة هنا هي حديث رسول الله ﷺ، والحكمة أيضًا هو فهم القرآن، وكل كلام هو بحكم الظاهر بالباطن معبر عن الحق فهو حكمة ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] إن كان السيف مقدورًا عليه فهو أحسن، وإن لم يكن مقدورًا عليه فالحجة والكلام [...][1] الموعظة، وإن كانوا من أهل الكتاب فقل لهم: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦] هكذا إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم.

ثم قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦] أمر المؤمنين ألا يتعدوا في العقوبة بمقدار ما هو عقوبة ومن أجله، والصبر جميل وأحسن.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧] والصبر بالله ولله ومراتب عباد الله في الصبر ترجع إلى وجهين:

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

أحدهما: تكلف الصبر واحتمال المشقة وهذا هو الصبر.

والوجه الآخر: يكون من هذا الموصوف، فالصبر خلق وسجية، وهذا بعض وجوه الحكم، واسم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الصبور هو من هذا القسم والله أعلم؛ إذ لا يوصف صفاته بتنازع فيضطر لأجل ذلك إلى التصبر ومن المكابدة بالتكليف، وقد يكون هذا في ذي الكيس عن تفعل وتحمل للمشقة [...][1] الصبر حتى يألف ذلك فلا يجد له مشقة، بل روحًا وراحة، وقد يألف المرء المكروه بلزوم العادة.

وقد قيل: المحنة إذا لزمت ألفت، وإنما بتقوى على هذا بصحيح العزم وقوة العلم ووجود اليقين بما تؤول إليه العاقبة من المرغوب والمحبوب.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذ لم يستجيبوا لك لما تدعوهم إليه ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2] [النحل:١٢٧] يقال: «ضَيْق وضَيِّق» مثل: هَيْنٍ وَهَيِّنٍ.

فصل

القانت: العابد، والحنيف: اسم لمن استقام على المنهاج الحق والدين القيم، وكان إبراهيم ﷺ قد هدى إلى الصراط المستقيم الحسنة التي أوتي في الدنيا أن يوسع عليه في الحال، فكان يقري الضيفان.

وقال رسول الله ﷺ وقد سئل: أي الإسلام أفضل؟ فقال: «**إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام**»[3] هذا إلى ما أوتيه من النبوة والخلة، وإطلاعه على ملكوت السماوات والأرض، وجعله من الموقنين والصديقين، والرسالة فيه وفي ذريته، ومن ذلك أيضًا ما أوتيه من المقة في القلوب والإمامة

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (غ).

(٢) كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولَكِنَّ الله تعالى حذَّره ما هو موهوم في البشرية، وإِنْ كان هو منزَّهًا عنه. قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلَّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ.

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٨٤)، وعبد بن حميد (٦٨٢)، والترمذي (٣٢٣٤) وقال: حسن غريب.

والمحبة في الأمم، والثناء الحسن ولسان الصدق الذي جعله الله له في الآخرين.

يقول الله جل من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣] محمد ﷺ أشبه ولده به خلقًا وخلقًا.

تفسير سورة «الإسراء»[1]

هِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

[فيه من المنسوخ آيتان، واختلف في الثالثة][2]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)﴾ [الإسراء: ١-٤].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

---

(١) سبب نزول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ذكر رسول الله ﷺ لقريش الإسراء به وتكذيبهم له، فأنزل الله ذلك تصديقًا له، وهذه السورة مكية قال صاحب الغنيان بإجماع وقيل: إلا آيتين ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ وقيل: إلا أربع هاتان وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وزاد مقاتل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ...﴾ وقال قتادة: إلا ثماني آيات أنزلت بالمدينة وهي من قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخرهن، ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها أنه تعالى لمّا أمره بالصبر ونهاه عن الحزن عليهم وأن يضيق صدره من مكرهم، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والسعر وغير ذلك مما رموه به، أعقب تعالى ذلك بذكر شرفه وفضله واحتفائه به وعلو منزلته عنده، وتقدّم الكلام على سبحان في البقرة، وزعم الزمخشري أنه علم للتسبيح كعثمان للرجل، وقال ابن عطية: ولم ينصرف؛ لأن في آخره زائدتين وهو معرفة بالعلمية وإضافته لا تزيده تعريفًا.

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٣) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ للتعجب فيها يشير إلى أعجب أمرٍ من أموره جرى بينه وبين أفضل خلقه، وأخص عبيده، وأحبهم إليه، وأقربهم لديه، وأعظمهم قدرًا، وأكملهم =

﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] التسبيح: التنزيه لله ﷻ وهو إبعاد كل ما لا يجوز عليه من صفات المحدثين، ونقائص المخلوقين، وآفات المربوبين، سبحانه وله الحمد، لا إله إلا هو العَلي الكبير.

ومجيئه على وزن فُعلان؛ فذاك لأنها كلمة صدرت عن حقيقة باطنة، ومما فطر الله عليه العرب التي أنزل القرآن بلسانها: أن فرقوا بين بناء مصدر ما صدر عن فعل باطن، وبين بناء ما يأتي عن مصدر فعل ظاهر، يقال من ذلك: عدا فلان على فلان يعدو عدوانًا من الاعتداء، ليس كقولهم: عدا الفرس يعدو عدوًا، إذا أحضر، وهي أيضًا كقولهم: قرأت أقرأ قراءة، واسم المقروء: قرآن، وقربت [أُقرب][1]، واسم المقرب: قربان، وقطعت أقطع، واسم المقطع: قطعان، فواحد التسبيحات: سبحة، كخطوة وخطوات، وكقربة وقربات، وهو أيضًا كحُسبان من: حسبت أحسب تحسيبًا.

وأمّا نصبه فعلى المدح، وسبحات الله: مدائحه ومحامده وثناؤه العلي، وقد

مقامًا، وأرفعهم درجة، وأعلاهم رتبة، وأجلهم منصبًا، وأكرمهم مثوى، وأعزهم منزلة، وأوفاهم قربة، وأفناهم عن أنانيته، وأبقاهم بهويته، وأخلصهم لعبوديته، وأوحدهم بوحدانيته، وأفردهم بفردانيته، وأوليهم بتجلي جماله، وأعظميهم من كشف جلاله، وهو العبد المطلق من بين سائر عباده، والحبيب المختص المخلص من أحبابه، والنبي المفضل على أنبيائه، وهو الحر المعتق عن عبودية الموجودات ورق وجوده، فلهذا سماه الله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ عند فناء اسمه ورسمه اسمًا ما سُمي به أحد من خلقه إلا عند بقاء اسمه ورسمه، كما قال ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢] ومن هنا يقول كل نبي يوم القيامة: نفسي نفسي لبقاء وجودهم وهو ﷺ يقول: «أمتي أمتي» لفناء وجوده في وجوده. وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ إشارة إلى أن الحكمة في إسرائه إراءته آيات مخصوصة بذاته تعالى تقديرًا له ما شرف بما راءها أحدًا من الأولين والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين، فإنه تبارك وتعالى أرى خليله ﷺ وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه الملكوت كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] وأرى حبيبه آيات ربه الكبرى، كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] ليكون من المحبين المحبوبين.

(١) في النسخة (خ): «أقرت».

قيل: إنه من سبَّحت تسبيحًا [وقد تقدم][(١)] فاسم الكلام المسبح به سبحان، مثل: قربت أقرب، والاسم منه: قربان، والتسبيح - أعني: قولهم سبحان - يكون بمعنى الثناء والتنزيه كما تقدم، ويكون بمعنى التعجب، كما قال الشاعر:

سبحان من علقمة الفاجر

وتسبيح التعجب أصله التنزيه والثناء الحسن في حق الله سبحانه وله الحمد.

قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] إذا كان الفعل مُعدًّى كان أسرى، ومتى كان غير مُعدًّى [قيل][(٢)] فهو سرى، قال الشاعر:

سريت بهم حتى تكل مطيهم ... وحتى الجياد ما يقدن بأرسان

يقال من ذلك: سرى وحده وسرى ليلة، وكان هذا إسراءً برسول الله ﷺ انتظم أول هذه السورة بمعنى آخر: «النحل» من ذكر ملة إبراهيم، وذكر أصحاب السبت، وذكر نبوة محمد ﷺ، وأمره إياه بأن يدعو إلى سبيل ربه ﷻ، ثم تمدح بإسرائه بعبده، وإتيانه موسى الكتاب، وجعله هدى لبني إسرائيل، ثم قال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٢] [فحصر معنى الرسالة كلها إلى ما في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾][(٣)] من معنى التوحيد وخالص التعبد الذي حاله التوكل.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ذكَّر [بمنته][(٤)] القديمة؛ إذ لم يجعلهم من الهالكين بالكفر وعرض باقتضاء الشكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] والشكور: هو العبد الذي أدخل نفسه في السلم كافة، فهو لا يتبع خطوات الشيطان، ومن كانت حالته الشكر فهو يعمل الحسنات، فيكتب له في [التقبل][(٥)] الأعلى، ويكون كتابه في عليين، إن أذنب بادر بالتوبة [والإعمال][(٦)] في طاعة ربه، والسيئات ممحوَّة والحسنات مثبتة، ويصعد هذا إلى الذين يدخلون الجنة

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٣) ما بين [ ] ساقط من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «منته».

(٥) في النسخة (خ): «التعمل».

(٦) في النسخة (خ): «وإلا عمل».

بغير حساب.

قوله تعالى: ﴿لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] جاء باسم الليل هنا، والسرى معهود ألا يكون إلا ليلاً؛ وإنما ذلك لأنه الإسراء، وهو يكون بالليل ويكون بالنهار؛ إذ الإسراء ذهاب به عن هذه الدار وما فيها إلى ما قد [شاء][١] الله أن يظهره له فيما هنالك، فهو باطن في حق المسريّ به، ليس كذلك السرى الذي هو بالأجسام.

وقال: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١] أراد - وهو أعلم - تبيين بُعد المسافة مع [ذكر][٢] الليل، وعجب من ذلك وتمدح [به][٣]، وإنما معهود التعجيب [أبدًا][٤] بما [يُرى][٥] على المعهود من إظهار المقدور الغائب يخرق به العوائد، وسمي بيت المقدس: الأقصى، والمتكلم [فيه][٦] المنتقل عنه المسجد الحرام إنباءً منه - جلَّ ذكره - بأنه سيحدث للمسلمين مسجدًا ثالثًا، وهو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، فكان مسجد المدينة هو الأدنى؛ أي: إلى المسجد الحرام، وقال: إنه بارك فيما حوله؛ أي: بالثمار وتفجير الأنهار، وربما سميت تلك الأرض: مقدسة ومباركة؛ لتجلي المبارك القدوس - عزَّ جلاله - فيها لموسى عليه السلام وتكليمه إياه فيما هنالك.

قال الله ﷻ: ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] وقال: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] فليس يبعد مع هذا أن يكون الله - جلَّ ذكره - أبقى بركة تجليه فيما هنالك إلى يوم القيامة، ولعلمه في الأزل بما يكون من ذلك سماها في [الكتاب الأول][٧] بذلك، كما سمى يحيى ومحمدًا؛ لعلمه السابق فيهما

---

(١) في النسخة (خ): «شاءه».
(٢) في النسخة (خ): «ذكره».
(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «يربي».
(٦) في النسخة (خ): «منه».
(٧) في النسخة (خ): «الكتب الأولى».

وغير ذلك، وما من أحد إلا وهو معلوم عند الله ﷻ باسمه واسم أبيه، وإنما [سمي][١] كلاً بما هو عامله، وبما إليه أوجد، وما إليه مآله، فافهم.

فصل

جاء فيما صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه: «**ركب البراق وسار معه جبريل** - عليهما صلوات الله وسلامه - **إلى بيت المقدس، قال: فربطت البراق بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ودخلت المسجد فصليت فيه ركعتين**» إلى قوله: «**وأُتيت بالمعراج**»[٢] ووصفه وذكر أنه عرج به إلى السماوات سماءً سماءً إلى ما علا فوق ذلك.

تنبيه

قرن ﷻ [بين][٣] ذكر الإسراء بعبده بذكر الليل من **المسجد** الحرام إلى **المسجد** الأقصى، وذكر رسول الله اتصال الإسراء بالعروج إلى العُلا، ولم يصف بالإسراء إلا ما بين المسجدين، أرى ذلك - والله أعلم - لعدم الليل في السماوات العُلا، فوصف بالإسراء ما يسكن فيه الليل والنهار[٤].

---

(١) في النسخة (خ): «يسمى».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٥٧٠)، وأبو يعلى (١٩/٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٥).

(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٤) جمع الحافظ ابن كثير روايات أحاديث الإسراء في أول تفسير السورة:٣ / ٣ - ٢٤ وقال: «وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث، صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه؛ فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام، ومن جعل من الناس - كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل عل مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرر».

قلت: وقد اختص الله الفقير بجمعه جميع ما هو مطبوع ومخطوط من كتب ورسائل =

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١] يريد - وهو أعلم - الآيات التي أراه بين المسجدين «من مشية في أرض فيحاء طيبة، ثم في أرض غمة منتنة»، فقال له جبريل في الطيبة: «إنها أرض الجنة» وفي المنتنة: «إنها أرض جهنم»[(١)].

«وما أراه من داعي اليهود إياه ثم داعي النصارى، ونداء المرأة إياه ذات الزينة والحلي حتى كادت تغشاه، وإتيان جبريل ﷺ إليه بالإناءين: أحدهما: خمر، والآخر: لبن، وأوَّل إناء الخمر بالغواية، وإناء اللبن بالفطرة، والفطرة الإسلام، ولقاءه موسى قائمًا في قبره يصلي، وعيسى في موضع بين المسجدين يصلي، وتوصيتهما إياه بأمته، ولقاءه إبراهيم تحت الشجرة حوله أكثر صبيان رآهم قط، ورأى رجلاً [يحش][(٢)] النار وهو مالك خازن النار، ثم لقاؤه عيسى وموسى والأنبياء - عليهم السلام - في السماوات على منازلهم إلى غير ذلك مما أراه الله في

=

المعاريج، إلا ما كان عن سهو أو عجز، وذلك إما بتحقيقه، أو درجه في موسوعة البرنامج الجامع في معرفة الحبيب ﷺ الإصدار الثاني منها: نصرة رسول الله وآل البيت والأصحاب.

(١) إشارة إلى حديث: «أُتِيتُ بالبُرَاق فركبتُه أنا وجبريل فسار بنا، فكان إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه حتى صار إلى أرض غُمَّةٍ مُنْتِنَةٍ، ثم أفضينا إلى أرض فيحاء طيبة، قلت: يا جبريل كنا نسير في أرض غمة منتنة ثم إلى أرض فيحاء طيبة، فقال: تلك أرض النار وهذه أرض الجنة، فأتيت على رجل وهو قائم يصلي، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: أخوك محمد فرحب بي ودعا لي بالبركة، وقال: سل لأمتك اليسر، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك موسى، فقلت: على من كان صوته وتَذَمُّرُه أَعَلَى ربه؟ قال: نعم إنه يعرف ذلك منه وحِدَّته، ثم سرنا فرأيت مصابيح وضوءًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه شجرة أبيك إبراهيم، قلت: أدنو منها؟ قال: نعم، فدنونا منها، فدعا لي بالبركة ورحب بي، ثم مضينا إلى بيت المقدس، فربطت الدابة بالحَلْقَة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، ونشرت لي الأنبياء من سمى الله في كتابه ومن لم يسمّ، فصليت بهم إلا هؤلاء النفر الثلاث: إبراهيم وموسى وعيسى». أخرجه البزار (١٥٦٨)، وأبو يعلى (٥٠٣٦) والطبراني (٩٩٧٦) والحاكم (٨٧٩٣) والحارث كما في «بغية الباحث» (٢٢) وأبو نعيم في الحلية (٤/٢٣٤) وقال: غريب، ومن غريب الحديث: «غُمَّة»: ضَيِّقَة، «منتنة»: لها رائحة كريهة ومؤذية.

(٢) في النسخة (خ): «يحشي».

طريقهما إلى بيت المقدس»[١].

هذا إلى ركوبه البراق، ورؤيته الرجلين وهو [قائم][٢] عند الكعبة، فقال أحدهما للآخر: أحد الثلاثة بين الرجلين، قال: فأخذا بيده وشقًّا عن بطنه، وغسَّلاه بماء زمزم وملآه حكمة وإيمانًا، قال: «**ثم أتيت البراق** - وهو دابة [أبيض][٣] فوق الحمار ودون البغل - **مضطرب الأذنين، يضع حافره عند منتهى طرفه**»[٤] قال: «**فإذا صعد في جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط من جبل ارتفعت يداه**»[٥].

هذه كلها آيات أراه الله إياهن في الأرض، ثم إلى آياته في السماوات، ثم إلى العُلا من رؤية الأنبياء على منازلهم والبيت المعمور، والجنة والنار، والكوثر وما هنالك، والملكوت الأعلى، وإلى السدرة المنتهى وما غشيها، وما علمه وأوحى إليه ما أوحى.

واختلف في هذا الإسراء: أكان بجسمه أو بروحه ﷺ؟ وهل هي رؤيا صادقة أو هي [نقلة][٦] بجملته إلى ما أريه وشاهده؟.

واسم «العبد» يقع على الجملة، وعلى النسمة، والروح والباطن المكنى عنه بالمثال.

ولفظ «الرؤيا» التي ذكرها الله في قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**﴾ [الإسراء:٦٠] يقع على الرؤية مشاهدة، ويقع على رؤيا المنام.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ***

---

(١) إشارة إلى حديث مطول أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٦/٢٦٧)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (١/٢٩) وقال: هذا حديث مداره على أبي هارون العبدي، وهو ضعيف، وله شاهد من حديث أبي هريرة، ورواه البزار في مسنده مطولاً جدًّا.

(٢) في النسخة (خ): «نائم».

(٣) في النسخة (خ): «بيضاء».

(٤) أخرجه مسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٢٧)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٠) وأبو عوانة (٣٤٤).

(٥) تقدم آنفًا.

(٦) في النسخة (خ): «نقله».

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٣-١٧] فأخبر ﷺ نصًّا غير محتمل أنها كانت منه رؤية بصر، والرؤيا بما هي وحي «**وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[١] وقد يراها المؤمن والكافر والعالم والجاهل؛ إذ هي من النبوة [المبثوثة][٢] في العالم، الموجودة عن إثارة الحق المخلوق به العالم كله، وهذه تنشأ صعدًا إلى رؤيا النبوة المحجوبة الخاصة؛ كرؤيا إبراهيم ويوسف، وكثير من رؤيا محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وعلى الأغلب فما يقص نبي من رؤيا إلا قرن بها قرينة تدل بها على أنها رؤيا منام، يقول رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائم رأيت سيفي قد انقطع**»[٣] و«**بينا أنا نائم عرض علي الأنبياء**»[٤] و«**بينا أنا نائم أتيت بإناء لأشرب فناولت فضلي الأصغر، فقيل لي: كبّر كبر**»[٥] وقال إبراهيم عليه السلام: **﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾** [الصافات:١٠٢] وكذلك رؤيا يوسف عليه السلام وغيرها ذلك؛ لأنه لما كان المصاحب لأحوالهم الوحي ميزوا رؤياهم هذه بذكر المنام.

وسياق حديث الإسراء يعطي حال اليقظة لا حال المنام من لدن قوله ﷺ: «**بينا أنا نائم عند الحجر** - أو قال: «**عند الحطيم**»[٦] - **أتاني رجلان، فقال أحدهما للآخر: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأخذاني فشقًّا بطني ثم غسلاه....**»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٦٠)، وأحمد (١٢٠٥٦)، والترمذي (٢٢٧١) وقال: حديث صحيح، وفي الشمائل المحمدية (٤١٥)، والطيالسي (٥٧٥)، والدارمي (٢١٣٧)، وأبو داود (٥٠١٨)، وابن ماجة (٣٨٩٤)، والطبراني (١١٦٢٧)، وأبو يعلى (٢٣٦١)، وقال الهيثمي (١٧٢/٧): رجاله رجال الصحيح، ولفظ الحديث: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة».

(٢) في النسخة (خ): «المثبوتة».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٧)، والترمذي (٣٦٤٩) وابن حبان (٦٢٣٢) وأبو عوانة (٣٤٩) وأحمد (١٤٦٢٩)، وعبد بن حميد (١٠٤٥).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٦٦/٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٦٤)، والنسائي (٤٤٧)، وأحمد (١٨٣١٠)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٥١).

وقد كان من قريش إعظام لهذا الشأن وتكذيب، ويقول قائلهم: إن [ما][(١)] بيننا وبين بيت المقدس مسيرة ثلاثين يومًا، ويقول محمد: إنه قطعها من ليلته مارًّا ومقبلاً، وأتم ليلته في مضجعه، ولو كان إخباره إياهم بذلك على سبيل قصص الرؤيا لم يكن منهم ذلك، وقد قيل: إن كثيرًا منهم رجع عن رأيه في الإسلام يومئذٍ.

ولو كانت رؤيا منام لم يكن ذلك كذلك؛ إذ قد يرى غيره ممن ليس في منزلته أنه يُذهب به في الرؤيا مسيرة [الشهر][(٢)] وأكثر، ويصعد به إلى السماء ونحو هذا، وحمل اللفظ على ظاهره أولى؛ إذ هو الإسراء لا غير، وأمور النبوة خارجة عن [معهود][(٣)] العوائد، والإسراء في النبوة أصل لها، وهو معنى قول الملائكة والأنبياء في السماوات حين كان جبريل عليه السلام يستفتح له سماءً سماءً كلهم يقولون: «**وقد بعث إليه؟ فيقول: قد بعث إليه، فيقولون: مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء**»[(٤)].

فهذا إخبار منهم عن سُنة مسلوكة بهم معشر الأنبياء والرسل، وإعلام بتفاضل مجيئهم ختم الله جل جلاله الآية باسمين، ينبئ بذلك من فقه عنه أنه الإسراء ظاهر، الله أعلم بكيفيته وبما هو، ثم رسله - عليهم السلام - فإن ذلك مما ينشأ.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢] فإن الذي أنشأه من كونه نطفة مهينة، وجمع خلقته من أمشاج [أثاره لفتح][(٥)] والفيحين في طبقات الخلقة في خزائن السماوات والأرض إلى أن جعله سميعًا بصيرًا، قادرًا على أن ينشئه نشأ آخر إلى ما ذكرناه، إنما هو النوم وغايته التي يصير إليها الموت، وفي الموت الحياة، وينشأ ذلك منها إلى الرؤيا، والرؤيا تنشأ إلى الإسراء، كما الحياة حياتان:

---

(١) ما بين [ ] زيادةمن النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «أشهر».

(٣) في النسخة (خ): «مفهوم».

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (٤٣٤)، وأحمد (١٨٣١٠)، وابن حبان (٤٨)، والنسائي (٤٤٧)، والترمذي (٣٣٤٦)، والطبراني (١٥٩٤٢)، والبيهقي في الدلائل (٦٧١)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٥٢)، وابن خزيمة (٣٠٣).

(٥) في النسخة (خ): «إثارة الفيح».

- حياة الأجسام تنشأ إلى الحياة الكبرى في الدار الآخرة.

- والحياة حال الموت، وهي شبيه باليقظة حال النوم ينشأ ذلك إلى حياة الشهداء، والذين نهينا أن نسميهم أمواتًا، والتوفي ينشأ إلى الرفع.

هذه بواطن [غايات غابت علينا](١) إلا وجودًا يجدها العقل إيمانًا، وهن ظواهر لأهل الآخرة وأهل الأفق المبين، وفيما أومأنا إليه [من](٢) تدبره أعظم دليل على أن الأمر يسير غير عسير، وقد تقدم من الكلام في مثل هذا ما يشرف به ذوا اللبِّ على واضح السبيل.

قوله ﷻ: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٢] أخبر الله - جلَّ ذكره - أن كتاب موسى ﷺ هدى لبني إسرائيل، وأنه وإن كان قد قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] فإنا قد شركناهم أيضًا في [التزام](٣) إقامة الدين على سنن التوحيد، قال الله ﷻ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

ثم نحن وإياهم مشتركون فيما لم ينسخ منه بالقرآن، قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] وقد نزل القرآن منازله، وبيَّن ناسخه منسوخ ما قبله، ونحن القائلون [والحمد لله](٤): ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

ثم قال - عزَّ من قائل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] نصب ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ على المدح لهم، وهم المهتدون منهم، أشار بهذا - وهو أعلم - إلى معنى قوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨] ولما ذكر نوحًا أثنى عليه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] كما أمرنا أن نسلم عليه وعلى إخوانه وأبنائه من الأنبياء والمرسلين، يقول جلَّ [ذكره](٥): ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ

---

(١) هكذا في (خ) وهي غير واضحة في (غ).
(٢) في النسخة (خ): «لمن».
(٣) في النسخة (خ): «إلزام».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «من قائل».

﴿فِي الآخِرِينَ* سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ* إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:٧٨ - ٨٠] وقال مثل هذا في غيره منهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويمكن أن يكون نصبه على النداء، وذكر [رسوله] [1] نوحًا تذكيرًا به، ودعائه إلى ما جاء به من الإيمان بالله، والتقوى وطاعة الله، وشمل بذلك بني إسرائيل [والعرب][2] يقول على ذلك: اقتدوا بأبيكم نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

قوله ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[3] [الإسراء: ٤] إلى آخر القصة، «قضينا» هنا بمعنى: حتمنا؛ أي: ألزمنا، والقضاء وإن تصرف إلى وجوهه فمعناه التمام والفصل، يقول الله ﷻ: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًا﴾ [مريم:٧١] وقرأها ابن كثير: «في الكتب» على الجمع[4] ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وقرأها ابن عباس: «لَتُفسَدن في الأرض» بالتاء مضمومة وفتح السين، فمعنى هذه القراءة: إنه إخبار من الله - جلَّ ذكره - بما يصيبهم من جزاءٍ على فسادهم في الأرض مرتين فيفسدون؛ أي: يقتلون ويأسرون، ويسلط عليهم من يفعل ذلك بهم، وقد كان ذلك[5].

---

(١) في النسخة (خ): «رسول الله ﷺ».

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٣) قال الشيخ المصنف: أي: حتمنا وكتبنا، والقدر هو التقدم بالعلم في الأمور، وهو القدر مخفّف، وقد يكون القدر اسمًا لما تقدم فيه بالعلم، وهو: المقدار فعل ومفعال، كربع ومرباع، وقدّر وفعل من القدر، والتقدير تفعيل منه، ولمّا خلق ﷻ القلم واللوح، قال للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «اكتب المقدار». وفي أخرى: قال: «اكتب علمي في خلقي إلى يوم القيامة». وفي أخرى: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة» فمعنى قوله: «المقدار» والله أعلم: إنه مقدار لإخراج الأكوان، قال الله جلّ قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] انظر: شرح الأسماء (١٧٨/٢).

(٤) العامة على توحيد «الكِتابِ» مرادًا به الجنس، وابن جبيرٍ وأبو العالية «في الكُتُب» جمعًا، جَاءُوا به نصًّا في الجمع. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٣٧/١٠)].

(٥) قوله «لتفسدن»: اللام واقعة في جواب القسم، وفعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة =

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۝٧ ﴾ [الإسراء: ٥-٧].

نظم بذلك قوله - جلَّ من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم فارس مع بُخْتَنَصَّر ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ والجوسان هو: التردد مع فساد ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ [الإسراء: ٥] وفيما قيل: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى إرمياء ﷺ لما [جاءهم وكان][1] مضمون الكتاب بمواقعة الفساد المذكور منهم بعث إليهم رسوله إرمياء ﷺ وقال له: «من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك في الرحم قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ أشدك نبأتك، ولأمر عظيم اجتبيتك».

وبعد كلام قال له: «وأنا باعثك إلى خلق من خلقي؛ لتبلغهم رسالاتي، فتستحق بذلك أجر من أطاعك منهم، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، وإن قصرت عنها استحققت في ذلك وزر من تركت في عماه، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا، انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل: إن الله ذكركم بصلاح آبائكم، فحمله ذلك على أن [يستثيبكم][2] يا معشر أبناء الأنبياء، وسلهم كيف وجد آباؤهم غبَّ طاعتي؟ وكيف وجد هؤلاء غبَّ معصيتي؟ [هل علموا أن أحدًا أطاعني فشقي بطاعتي وأن أحدًا عصاني فسعد بمعصيتي؟!][3] فإن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها،

لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون للتوكيد، «مرتين» نائب مفعول مطلق، وقوله «ولتعلُنَّ» مثل «لتفسدن». [مشكل إعراب القرآن (١/٢٨٢)].

(١) في النسخة (خ): «جاء أجلهم وحان».

(٢) في النسخة (خ): «يستتيبكم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

وإن هؤلاء القوم تركوا ما أكرمت عليه آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها.

أمَّا أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي حولاً، فيعبدونهم من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وعروهم مني، فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي، ونسوا عهدي، وضيعوا أمري، حتى دان لهم العباد بالطاعة التي لا تنبغي لجبار غيري، وهم يحرفون [الكلم] (١) بذلك كتابي [ويفترون](٢) من أجله على رسلي جراءة وغرة وفرية علي وعلى رسلي، فتعالى جلالي وعلو مكاني وعظمة سلطاني، وهل ينبغي أن يكون لي شريك في أمري؟!».

إلى قوله: «وأمَّا قراؤهم وفقهاؤهم فينقادون للملوك يتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني، ويطيعونهم في معصيتي، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي، فهم جهلة فيما يعلمون، أميون فيما يتلون، لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي، وأمَّا أولاد الأنبياء فمقهورون [مغترون] (٣) يخوضون مع الخائضين، يتمنون علي مثل نصرة آبائهم والكرامة التي أكرمتهم بها، ويزعمون أنه لا أحد أحق بها، ولا أولى بذلك منهم بغير صدق ولا [نكير] (٤) ولا تغيير».

إلى قوله: «وإني تأنيت بهؤلاء القوم لعلهم [يرجعون](٥) فأطلت وصفحت لعلهم يستحيون، وأكثرت ومددت في العمر لعلهم يتذكرون، فأعذرت كل ذلك، أمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض، وألبسهم العافية، وأظهرهم على عدوهم، فلا يزدادون إلا طغيانًا وبعدًا مني، فحتى متى هذا؟ أَبِي يتمرسون؟ أو إياي يخادعون؟ إني أقسمت بعزتي لأتيحن لهم فتنة يعود الحليم فيها حيرانًا، ويضل رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم.

ثم لأسلطن عليهم جبارًا قاسيًا ملكًا عاتيًا، ألبسه الهيبة وأنزع من صدره

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «ويعترون».

(٣) في النسخة (خ): « معترون».

(٤) في النسخة (خ): «تنكير».

(٥) في النسخة (خ): «يرجون».

الرحمة والرأفة، يتبعه عدد كثير وسواد مثل سواد الليل [المظلم][(١)] له عساكر مثل قطع السحاب، ومواكب أمثال الجبال، كأن خفيق راياتهم طيران النسور، وكأن صهيل فرسانهم زئير الأسود، لا يعرفون وجوههم ولا يفهمون كلامهم ولا يرحمون بكاءهم، يعيدون العمران خرابًا والقرى وحشة، قلوبهم قاسية لا يفيقون ولا يستفيقون، ولا يراقبون ولا يرحمون، يجولون خلال الديار بأصوات مثل نهيت الأسد[(٢)] تقشعر من هيبته الجلود، وتطيش من سمعه الأحلام، وجوههم كريهة، ظاهر عليها المنكر.

وعزتي [وجلالي][(٣)] لأعطلنها من كتبي وقدسي، ولأخلين مجالسها من [أنسي][(٤)] ولأوحشن مسجدها من [عمارة][(٥)] الذين كانوا يتزينون بعمارته لغيري، ويتهجدون فيها، ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم، ويتعلمون لغير العمل، ثم لأبدلن ملوكها بالعزِّ الذل، وبالأمن الخوف، وبالنعمة الجوع، وبطول العافية ألوان البلاء، ولأعيدن فيها بعد [النحيب][(٦)] والأصوات صياح الهام، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد القصور الشامخات [أعصار][(٧)] العجاج، وبعد الأنس الوحشة.

ولأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال، وبنطق الحرير وقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد، وبألوان الطيب والدُّهن التفل والعَقار، وبالجلوس على الزرابي المشي في الأسواق وعبارة الأنهار، ثم لأدوسنهم بألوان العذاب حتى لو كان الكائن منهم جاثمًا لوصل إليه الخوف، وحفَّ به البلاء حتى يقتلعه من ذلك المكان، فإني إنما أكرم من أكرمني، وأهين من هان عليه أمري».

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) النَّهْت والنَّهيت: صوت شبيه بالزجر نَهَتَ الرجلُ بالرجل، إذا صاح به، وسمعت نَهيت الأسد ونَئيته، وهي همهمته. انظر: جمهرة اللغة (١/١٩٧).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «أنسها».

(٥) في النسخة (خ): «عماره».

(٦) في النسخة (خ): «النحب».

(٧) في النسخة (خ): «عصار».

وبعد كلام قال الله ﷻ: «إن من خلا قبل هؤلاء من العاصين من القرون كانوا يستخفون بمعصيتي فأسترها عليهم، وإن هؤلاء القوم إنما يتنازعون بمعصيتي، ويظهرونها في الأندية والأفنية وبطون الأودية وظلال الشجر ورؤوس [الجبال](١) لأخيارهم يقولون: اتقوا الله، ولا علماؤهم ينتفعون بما علموا، ولا ولاتهم ينتهون عن المنكر، حتى عجَّت الأرض منهم ومن أعمالهم، وبهتت منه السماء، وتثلمت منه الجبال، وذعرت منه الوحوش، وانقطع الحياء من النساء».

فلما فعلوا ذلك أمرت السماء فكانت عليهم طبقًا من حديد، وأمرت الأرض فكانت صفيحة من نُحاس، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت، فإن أمطرت خلال ذلك من شيء فبرحمتي للبهائم، وإن زرعوا عليها شيئًا نزعت منه البركة، يدعونني فلا أستجيب لهم، ويسألوني فلا أعطيهم، ويتضرعون إلي فلا أرحمهم، ويرفعون إلي أيديهم فأصرف رحمتي عنهم، يقولون: ربنا قد أحسنت إلينا وإلى آبائنا حفظتنا في أصلابهم وربيتنا في ضعفنا، فارجع إليهم إني أبتدئ [عبادي](٢) برحمتي، فإن قبلوها أتممت، وإن استزادوني زدت، وإن أبوا علي أبيت، وإن أدبروا غضبت، فإذا غضبت عاقبت، ولا يقوم شيء لعذابي، ولا يدوم شيء مع [غضبي](٣)».

قال: فلما قال لهم إرمياء ﵇ ما أمره [ربه](٤) من ذلك كذبوه، وقالوا: ما نعلم أحدًا أعظم على الله فرية منك، إنك تزعم أن الله مهلك أولياءه، ومخرب مسجده، ومن على الأرض من عباده وتوحيده وكتابه، حتى لا يعبد ولا يذكر ولا يسبح، ثم وقعوا به فضربوه وحبسوه، فلما فعلوا به ذلك أنجزهم الله ما [أوعدهم](٥) وسلط عليهم بُخْتَنَصَّر، فسار إليهم فيما لا يحصيه العاد ولا يعلمه إلا الله ﷻ، ثم حصرهم في بيت المقدس لا يملكون من الأرض شيئًا إلا بيت المقدس.

وبعد كلام وقصص قال: فحصرهم حتى ماتوا في الحصار، كل ذلك يعرض

(١) في النسخة (خ): «الرجال».
(٢) في النسخة (خ): «عبيدي».
(٣) في النسخة (خ): «سخطي».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «وعدهم».

عليهم أن ينزلوا على حكمه فيأبون، ثم لم يجدوا بدًّا من أن ينزلوا على حكمه، فقتل مقاتلتهم كل قتلة، ومثَّل بهم كل مثلة.

وفيما ذكر أنه مما تقدم ذكره قال: لما [خرج][١] بنو إسرائيل من بيت المقدس إلى العراق كان في حملة المأسورين نبي من [أنبيائهم][٢] فاحتاج بعضهم أن يسألوه عن مسألة، فأتى ذلك النبي ﷺ أناس منهم يسألونه عن مسألتهم، فخرج عليهم من المنزل الذي كان فيه، وكان عند عجوز يخدمها، فقاموا إليه وسألوه عن بعض ما هم فيه، فإذا هو بخرقة على رأسه، فسألوه: ما هذه الخرقة؟ قال: كنت أعجن بها فنعست فضربتني فشجتني، وكان على عنقه جرة.

وقال أشعياء ﷺ: إن الرحمن أوحى إليَّ أنه يوشك أن ترفع الكرامة من الأرض، فلا يكرم الصغير الكبير، فهذه أولاهما.

أتبع ذلك قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[٣] [الإسراء:٦] يريد - وهو أعلم: أكثر عددًا من أهل فارس لما استتابهم، وعاقبهم بما تقدم ذكره تاب عليهم، فردَّ لهم الكرة على عدوهم.

يقول الله، جلَّ ذكره: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يعني: في هذه التوبة ﴿أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧] فكان من ذلك ما شاء الله، ثم أفسدوا في الأرض المرة الثانية.

يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: على ذلك من إساءتكم ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

---

(١) في النسخة (خ): «أخرج».

(٢) في النسخة (خ): «الأنبياء».

(٣) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ﴾ أي: الدولة والغلبة، وأصل معنى الكر: العطف والرجوع، وإطلاق الكرة على ما ذكر مجاز شائع كما يقال: تراجع الأمر، ولام «لكم» للتعدية وقيل: للتعليل. وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذي فعلوا بكم ما فعلوا متعلق بالكرة؛ لما فيها من معنى الغلبة أو حال منها، وجوز تعلقه بـ«رددنا» وهذا على ما في البحر إخبار منه تعالى في التوراة لبني إسرائيل، إلا أنه جعل «رَدَدْنَا» موضع نرد؛ لتحقق الوقوع، وكان بين البعث والرد على ما قيل مائة سنة، وذلك بعد أن تابوا ورجعوا عما كانوا عليه. تفسير الألوسي (١٠/٣٧٣).

[الإسراء:٧] [يعني][(١)]: الدمار والهلاك، ذكر أنه سلط عليهم الروم، ففعلوا بهم ما ذكره من التبار والدمار، وذكر أنهم غلبوهم على أنفسهم، كما قال ﷻ: ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٧] وهذا على قراءة ابن عباس ﷺ: «لتُفسَدن في الأرض» وعلى قراءة الجماعة: فسادهم الذي من أجله أفسدوا.

أطلت في وصف حالهم وذكر مصابهم؛ لأعظ نفسي ومن بلغ، فإنه ما من شيء ذكره الله لرسوله إرمياء ﷺ [ومما][(٢)]عاتبهم به وعاقبهم عليه إلا قد تكامل فينا معشر هذه الأمة، وذُكر أنهم كان فيهم أبناء الأنبياء، وكان فيهم الأنبياء يوحى إليهم، فكيف بنا في الغيبة والغربة مع ظهور الفساد في الأرض، وبيع الدين بيسير الدنيا، وترك الحق لا لعوض ننال به بدلاً من ذلك؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله البر الرحيم أن يتداركنا برحمته إنه قريب مجيب.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:٨-١٢].

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨] [هم][(٣)] اليوم في هذه الفترة مضروب عليهم ذل الجزية يؤدونها ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] والرحمة المذكورة [هنا][(٤)] هي: رحمة الإمتاع

(١) في النسخة (خ): «التبار».
(٢) في النسخة (خ): «مما».
(٣) في النسخة (غ): «هو».
(٤) في النسخة (غ): «هذا».

[تنفع][1] في الدنيا ولا نفع لها في الآخرة، [والرحمة النافعة هي: الرحمة الموصلة إلى خير الآخرة][2] قوله ﷻ: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤] تارة ثالثة إذا أتى وعدها علوا علوًا كبيرًا، وقالوا قولاً عظيمًا، يخرج الدجال - لعنه الله - [فيهما فتكون][3] لهم معه سابقة إلى ضلالته، واستجابة منهم إلى كفره؛ فذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤] ثالثة من فسادهم.

ثم لا يمتعون بذلك إلا قليلاً، فينزل عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - فيهلكه، فهنا يكون على قراءة ابن عباس «تُفسَدن» [فالثالثة يعتلون ولا يجيرهم][4] شيء ولا [يخبؤهم][5]، قال رسول الله ﷺ: «**سوى شجر الغرقد فإنها من شجرهم**»[6] وإنما ذلك؛ لأنها أمة من الأمم فلا تستأصل، قال رسول الله ﷺ: «**لقد هممت بقتل الكلاب حتى ذكرت أنها أمة من الأمم، فاقتلوا منها ذا النقطتين، والأسود البهيم فإنه شيطان**»[7].

يقول الله - عزَّ من قائل - في هذه الثالثة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ [أي][8]: إلى الفساد ﴿عُدْنَا﴾ بالعذاب، ثم أخبر عن الانقراض، وقربه من يومئذٍ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨] أي: سجنًا وحبسًا، المحصر بعدو أو مرض أو فقر أو انقطاع حجة، محبوس عما يؤمله، ويقال للحبس: حصير، وللملك الطويل الحجاب: [الحصير][9].

---

(١) في النسخة (خ): «بنفع».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «فيكون».
(٤) في النسخة (خ): «ثالثة يقتلون فلا يجنهم».
(٥) في النسخة (خ): «يخبوهم».
(٦) أخرجه مسلم (٢٩٢٢)، وأحمد (٩٣٨٧).
(٧) أخرجه مسلم (١٥٧٢)، وابن حبان (٥٦٥١)، وأحمد (١٤٦١٥)، والبيهقي (١٠٨١٨)، والديلمي (٤٠٤٦).
(٨) ما بين [ ]سقط من النسخة (غ).
(٩) في النسخة (خ): «حصير».

فصل

قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه»[١].

وفي أخرى: «حتى لو كان منهم من أتى أمته جهارًا لكان منكم من يفعل ذلك»[٢].

فالعلم العلم - رحمكم الله - وأحسنوا العبرة، فلقد تجاوزنا أفعالهم وأفعال المهلكين من كفار الأمم سوانا وسواهم إلا الكفر الصراح، ولم يكن الله - جلَّ ثناؤه - ليقص علينا أنباءهم، ويخبرنا بأخبارهم [تعييرًا][٣] لهم، ولا خوضًا في ذكر معائبهم دون فائدة؛ بل ليذكرنا ويعظنا رحمةً منه بنا ونصيحةً لنا.

يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] [البلوغ][٤] على وجهين:

أحدهما: بلوغ الحلم.

والثاني: البلوغ إلى أن ينفع فيه النذارة و[التذكرة كقوله][٥]: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ [فاطر:١٨]، وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠]، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وهو أيضًا بمعنى التبليغ ﴿لأُنذِرَكُم﴾ يعني: العرب ومن بلغه القرآن، وهذا الذكر من الأمم عام، بل [كان ما][٦] قصَّه علينا من معائب من مضى، إشارة إلى ما يصيب هذه الأمة من فتن وبلايا، والمستدل به على ذلك هو ما أصاب من مضى من أهل الكتابين ومن غيرهم، وقد أصابنا في كثير من البلاد والأقطار وأكثر الأحوال ما أصاب بني إسرائيل، وإن كان وله الحمد لم يبلغ إلى الاستئصال كما وعد الله - جلَّ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٨)، والطبراني (١٣/١٧).

(٢) أخرجه الحاكم بنحوه (٨٤٠٤).

(٣) في النسخة (غ): «تغييرًا».

(٤) في النسخة (خ): «البلاغ».

(٥) في النسخة (خ): «التذكر بقوله».

(٦) في النسخة (خ): «كلما».

ثناؤه - رسوله ﷺ ونحن الآن وهم على حال [مودته بحالة][١] منتظرة، غير أنا ننتظر الفرح برضا من الله ﷻ، وهم ينتظرون ذلك بغضب من الله عليهم وسخطًا، نعوذ بالله من ذلك.

أعقب ذلك قوله الحق ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يهدي إلى سبل السلام، والصراط المستقيم: صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، نعم وهو يهدي إلى علم ما قد كان وما هو كائن، هذا لمن استرشده واستهداه ولقن عنه، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩] وبالضد للذين لا يؤمنون بالآخرة.

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾[٢] [الإسراء:١٢] ليس عند ربكم ليل ولا نهار، إنما هو الأفق المبين نور ساطع، وما تحت الأرضين ظلام مطبق، ولما كان ما ها هنا موضع الوسط أنهى إليه نورًا من ضياء ما هنالك، جعل الشمس عليه دليلاً سماه: نهارًا، وأصعد مما هو تحت الأرض ظلامًا جعله موضع المحو سماه: ليلاً، جعله آية على حقيقة الظلام، وكان ما ها هنا أقرب إلى النور؛ لغلبة النور على الظلام، فمحا منه موضع الليل، وجعله آية أخرى، وقد كانا معًا آية واحدة، [وصيرها][٣] بالتفصيل [آيتين][٤] وجعل كل واحد منهما خالقًا لقرينه، أجراهما معًا على دوائر محكمة التدوار تقدير من عزيز عليم.

وقد قيل: إن الخطوط التي في القمر هي موضع المحو، فإن كان ذلك عن وحي فهي حجة قاهرة، وإلا فذلك عن إفاضة حكم المحو.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) قال المصنف: إنه إنما ميز بينهما ليفصل أحدهما عن الآخر؛ ليبتغي عباده فيما فضله، وليعلموا بذلك السنين والحساب بمطالع الشمس والقمر ومغاربهما، كما يتعرفون في الجنة الغدو والعشي بتناوب ظهور نور الحق المبين وضيائه - عز جلاله - الله الحق المبين، كذلك يعلمون الحساب والسنين والشهور وإلى ما هو العلم والمعرفة أعلى من هذا وأسنا؛ انظر: شرح الأسماء (٢/٣٧٤).

(٣) في النسخة (خ): «فصيرهما».

(٤) في النسخة (خ): «اثنين».

فصل

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [ثم قال](١) ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] إلى آخر المعنى، فكون الشمس والقمر هنا نورًا وضياءً آيتان على وجود [ضياء](٢) الحق المبين ونوره في الجنة، وهما هناك آيتان على [معنى](٣) الليل والنهار فيما ها هنا، والمثل الأعلى لله - جلَّ ذكره - في السماوات والأرض هو التنزيه العلي عن نقائص المحدثات وآفات المكونات، لا أفول ولا محاق، ولا تحرك ولا انتقال، إنما هو الاحتجاب والتجلي لا يخلف ذلك الوجود ظلام، ولا ما هو الظلام آية عليه ولا شمس [ولا](٤)نهار، ولا ما هو ذلك آية عليه.

فجعل ﷻ الليل والنهار فيما ها هنا آيتين [اثنتين](٥) دالتين على ما هنالك، وجعل القمر إلى الليل، وإنما هو مادام قمرًا، وإلا فهو يطلع أول الشهر كالعرجون القديم، [ثم](٦) لا يزال يصعد ناشئًا إلى أربع عشرة ليلة بأربع عشرة منزلة، ثم هو بعد ينتقص بالمحاق إلى ثمانية وعشرين ليلة، ومثلها منازل، ثم يسرّه ليلة، وربما أسرَّه ليلتين، فإذا دار الدور فهو شهر إلى تمام اثنتي عشرة دورة فهو العام.

كذلك الشمس تنتقل في محالها من منازل البروج، فمتى طلعت من مشرقها جارية إلى مغربها؛ فذلك النهار، ثم ينسلخ النهار من الليل، فإذا [الجو](٧) مظلم [فإذا](٨) أصبح فذلك اليوم، فإذا قطعت الشمس

---

(١) ما بين [ ] زيادة في النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «معنيين».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة(خ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٦) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «هو».
(٨) في النسخة (خ): «ثم إذا».

[نازلة][(١)] إلى أقصى منازل البروج الجنوبية نازلة، وإلى أقصى [منازل][(٢)] البروج الشمالية صاعدة فهي السنة، وسنة الشمس ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يومًا وربع يوم وجزء من مائة وستين جزءًا، وكل هذا بالتقريب، وعام القمر ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يومًا وأحد عشر جزءًا من ثلاثين [يومًا][(٣)] بالتقريب [لقول][(٤)] الله، جلَّ من قائل: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في النهار وفي الليل ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ بالشمس ﴿وَالْحِسَابَ﴾ بالقمر ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: مما هنالك ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ [مما][(٥)] هنا ﴿تَفْصِيلاً﴾[(٦)]

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٤) في النسخة (خ): «يقول».

(٥) في النسخة (خ): «فيما».

(٦) قال الشيخ المصنف: قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي: على ما هو في الدار الآخرة، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: فيما هنا، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ثم قال عزّ من قائل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ معناه: أنه فصل أيام الدهر بأيام الزمان على ترتيب تغليب حكم العين والحكم ظاهرًا أو باطنًا، فتفهم ذلك وتثبت. وكذلك الكواكب التي ينسب إليها الأنواء لما كانت الرياح في الأكثر من مجرى العوائد تتحرك عند طلوع بعضها وغروب رقيب الطالع منها، وجعل الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - ذلك توفيةً لها بمشيئته يرسلها في جو السماء فتلقح السحاب ماء أضيف ذلك إلى المطالع منها أو الغارب تجوزًا واختصارًا لذكر الفاعل، وكثر ذلك وتداولته الأعصار حتى أعضل الداء بمعتقديه، فجاء الشرع فنهى عنه، ورد بذلك النعمة إلى وليها والفعل إلى فاعله.

وكذلك المد والجزر الجاريين على مساق الحركة الشرقية، والفيض والغيض الجاريين على مساق التقدير، وكذلك ما يكون من هذه المعاني في الأسابع وأسابع الأسابع وعشرات الأسابع وأسابع العشرات، ما صعدت الأعداد وكذلك في الخوامس والثوالث، وكل شفع ووتر، فإن هذه الأحكام وإن كانت فلكية جريها دائري، فكما تقدم في ذكر الليل والنهار ومن أمر الله جَلَّ ذِكْرُهُ في دورانها فإن وراء أفلاكها ودورانها من أمر الله الذي لا تكون هذه المشاهدات آيات عليه ودلائل إليه حكم يكون أحكام هذه عن ذلك الباطن، وكما تقدم أنه قد قدر عن حكم تقاطع الدوائر حكمًا ليس يدرك ببصر ولا يناله العقل فقط، بل بأنباء النبوءة وإعلام الوحي، ثم بآخره يدرك البصر الماهر المؤيد بنور الإيمان بعضه علمًا وجملته إيمانًا وتسليمًا.

=

[الإسراء:١٢] فصَّله ﷻ [ليُري][١] آثار قدرته القاهرة وعلمه السابق ومشيئته [العالية][٢] وليدل على وجوده الحق ولقائه الحق ورؤيته الحق - جلَّ ذكره وتعالى جدُّه - وليعلم [بما بين][٣] الآيتين عدد السنين والحساب وأوقات العبادات، وليدل بذلك على مدلولات كثيرة من موجودات الدنيا والآخرة، وقد تقدم بعض ذلك.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾
ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ
قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ
بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ
لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا
سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٩].

قوله جلَّ من قائل: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٤] [الإسراء:١٣]

=

وكما أن هذه العلوم المشار إليه بقولنا: هذا يُعلم منه بالأنبياء ما شاءه العليم الخبير فكذلك في بداياته من دقائقه ودقائق دقائقه إلى غاية نشوئه وكماله، فإني للعقل يدرك هذا كله وأمثال هذا مفردًا عن نور نبوة أو نبأ صادق ينبئه فينظر في معناه وحقيقته، فكل كائن ما كان ليل أو نهار أو غيض أو فيض أو طلوع كوكب أو غروب أو إشراق في الكواكب أو إظلام في الجو أو خسوف أو جلاء فكل ذلك عن معاني أسماء له ﷻ ولا تأت تدل على أمور غائبات يجب الإيمان بها مبشرات أو منذرات.. [شرح الأسماء ١/٣١٦].

(١) في النسخة (خ): «الترى».

(٢) في النسخة (خ): «الغالبة».

(٣) في النسخة (خ): «بهاتين».

(٤) قال الشيخ المصنف: الطائر - والله أعلم - هو ما طار لله من الحظ يوم القبضتين من عمل حسن أو قبيح أو رزق أو أجل، أو شقاوة أو سعادة؛ فينشر له كتابًا يسمع أيام عمره، فيملى على كاتبيه ما طار له من حظ يومئذٍ شيئًا بشيء على تفاصيل الأيام والليالي والساعات

=

الطائر: هو ما استحقه [بالقسم من مقتضى][(١)] الكلمة التامة [وهي][(٢)] قوله، جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون [وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون...]**[(٣)]»[(٤)] فلما أوجد كل واحد شملته الكلمة [فعمل][(٥)] عمله، وأكل رزقه، ووطئ أثره، وبلغ أجله الذي طار له يومئذٍ في الكلمة العلية، والقدر السابق ثم إذا كان يوم القيامة أخرج له نسخة ما عمله من عمل، حواه كتابه الأول؛ وهو: اللوح المحفوظ، فيصح هذا الكتاب الذي كتبه الحافظان [عليهما السلام][(٦)] على ما تقدم له [في][(٧)] كتاب بعضها يصحح بعضًا، وهو موضع الحجة على المكلف، [في الكتاب][(٨)] المنتسخ من عمله الذي أثبته عليه حافظاه.

والأنفاس، لا يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة، فإذا فرغ من إملائه حضر أجله، فمات وطوي إلى يوم بعثه، فيلقاه منشورًا يقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤] هذا أصل تلك الكتب؛ إنما هو نشرتان وطية تنشر في حياتك، فتملى على كاتبيك، ثم يطوى عند موتك، ثم ينشر بعد الموت، وقد ذكر الصادق الحق وأخبر به، فلا بد منه لا محالة الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠] انظر: شرح الأسماء (٧٤/٢).

(١) في النسخة (خ): «من مقتضى القسم».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، ومالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٢٥) وقال: في هذا إرسال مسلم بن يسار لم يدرك عمر بن الخطاب، والحاكم (٧٤) وقال: صحيح على شرطهما، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع، وابن جرير في تفسيره (١١٣/٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٦٣/٢)، وقال ابن كثير: مسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم، وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجرى (ص:١٧٠).
(٥) في النسخة (غ): «فجعل».
(٦) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «من».
(٨) في النسخة (خ): «والكتاب».

[﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ [الإسراء:١٣] قراءة مجاهد وابن محيصن والحسن ويعقوب: «ويَخرج» بفتح الياء «كتابًا» أي: ويخرج له الطائر كتابًا، وقراءة أُبي: «طائره في عنقه» يقرؤه يوم القيامة كتابًا](١).

يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] لله الحجة [البالغة](٢) بقدرته القاهرة في [سبق](٣) علمه، وسوقه العباد بإراداتهم إلى ما سبق في مشيئته ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] عمَّا أتوا [مما](٤) نهوا عنه بعد الإعذار والإنذار، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فآثروا أهواءهم، واستمروا على كفرانهم، مقرين بذلك على أنفسهم ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٤ - ١٥] أي: بما يجده من عزم نفسه على إنفاذ مراده، واستمراره على إنفاذ شهواته، حتى أنه ليكيد لذلك بغاية ما يستطيعه، وربما تحمل في ذلك سفك دمه وهلاك نفسه وولده، ولو ألقى معاذيره واحتجاجه بالعدل الأول الذي استأثر به ربه - جل ذكره - في الأزل [وقرأه مجاهد وابن المحيصن والحسن ويعقوب «ويخرج» بفتح الياء «كتابًا» أي: ويخرج له الطائر كتابًا](٥).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨] معنى هذه الآية والتي في سورة الشورى سواء، قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ...﴾ [الشورى:٢٠] غير أن هذه التي في هذه السورة أجلَى وأبْين.

وجاءت آية في سورة «هود» فيها بعض الإشكال؛ قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] وهي إخبار

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «الغالبة».
(٣) في النسخة (خ): «سابق».
(٤) في النسخة (خ): «ما».
(٥) في النسخة (خ): «ما».

لا يجوز عليها [النسخ](١) التوفية في هذه - والله أعلم - هو أن يطعم بعمله ويسقي، فتحسب عليه العوافي، ونعم السمع والبصر والحواس، فيكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء الله، وربما [زاده](٢) على مراده [هو، ثم](٣) يحسب له ذلك كله فيما ذكرناه.

دلَّ على هذا التأويل [قوله ﷺ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥] يعني: الدنيا والمؤمن ليس كذلك](٤) وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] فهو ما أصابه من مكروه يكفر به عنه سيئاته، فيرد [إلى الله تعالى](٥) مطهرًا؛ ليدخله الله الجنة بحسناته [موفورة](٦) والحمد لله رب العالمين.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء:٢٠-٢٥].

ثم قال - عز من قائل: ﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] أخبر - جلَّ ذكره - أنه يرزق الحرام كما يرزق الحلال، وأن الحسنات خلق له [واكتساب](٧) للعبد، لكن بقدره وإذنه

(١) في النسخة (خ): «المسخ».
(٢) في النسخة (خ): «زاد».
(٣) في النسخة (خ): «ثم هو».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «على الله جل ذكره طيبًا».
(٦) في النسخة (خ): «موفرة».
(٧) في النسخة (خ): «والسيئات».

[وإرادتـه][(١)] والسيئات كـذلك، غيـر أن الحـسنات [يرضـاها ولا][(٢)] يرضـى السيئات.

قوله ﷻ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] «قضى» ها هنا بمعنى: أمر، وهذا من بعض وجوهها، [وقرأ أبي بن كعب: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه»][(٣)] وكذلك ابن عباس قال: كانت «ووصى»؛ [فالتزقت][(٤)] الواو الثانية فقرأوها «وقضى»، وابن مسعود قرأها كذلك: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه»[(٥)] يقول الله تعالى، جلَّ من قائل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ...﴾ [الشورى:١٣].

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «برضاه وهو لا».

(٣) في النسخة (غ): «وقرأها أبو حيوة: ووصى».

(٤) في النسخة (خ): «فالتزمت».

(٥) أخرج أبو عبيد وابن منيع وابن المنذر وابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عنه أنه قال: أنزل الله تعالى هذا الحرف على لسان نبيكم ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، فلصقت إحدى الواوين بالصاد فقرأ الناس وقضى ربك. وقال الزرقاني في «مناهل العرفان» (١/٢٧٠): فلصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس وقضى ربك ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد، ونجيب عن ذلك كله: أولاً: بما أجاب به ابن الأنباري إذ يقول إن هذه الروايات ضعيفة.

ثانيًا: أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع وهو قراءة وقضى ومعارض القاطع ساقط.

ثالثًا: أن ابن عباس نفسه وقد استفاض عنه أنه قرأ وقضى.

قال أبو حيان في البحر والمتواتر هو وقضى وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر.

وقال ابن مسعود وأصحابه: بمعنى وصى، انتهى. إذًا رواية وقضى هي التي انعقد الإجماع عليها من ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. [مناهل العرفان (١/٢٧٠)].

ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا
﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا
﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا
تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ
فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ
رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى
جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٣٩].

ثم جعل يسرد وصاياه بالحكمة والموعظة الحسنة، وتفصيل البيان إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾(١) [الإسراء: ٣٩] [من معرفته وحكمته](٢) فافتتح التوصية بالتوحيد وختمها به.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟

---

(١) اعلم أن فيها إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان مركبًا من الدنيا والآخرة، ولكل جزء منهما ميل وإرادة إلى كله ليتغذى منه ويتقوى ويتكمل به، وإن في جزئه الدنيوي وهو النفس طريق إلى دركات النيران، وفي جزئه الأخروي وهو الروح طريق إلى درجات الجنان، وخلق القلب في هذين الجزءين، وله طريق إلى بين إصبعي الرحمن إصبع اللطف وإصبع القهر، فمن يرد الله أن يكون مظهر قهره أزاغ الله قلبه، وحول وجهه إلى الدنيا فيريد العاجلة ويربي بها نفسه إلى أن يبلغه إلى دركات جهنم البعد وتصلى نار القطعية، ومن يرد الله أن يكون مظهر لطفه أقام قلبه وحول وجهه إلى عالم العلو فيريد الآخرة.

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا
﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٠ – ٤٩].

ثم قال – عزَّ من قائل: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] انتظم هذا الخطاب بقوله في سورة «النحل» وغيرها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

يقول – جلَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: الحق [الكائن][1] **في** قلوبهم، الحاصل فيها من إثارة الفطرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تنويع التصريف وتكرار التبيان ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١] عن حقيقة ما يراد بهم من الهداية.

نظم بذلك قوله – عزَّ من قائل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[2] [الإسراء: ٤٢] سلَّم لهم جل وتعالى تجويز ضلالهم

---

(١) في النسخة (خ): «الكامن».

(٢) قال الشيخ المصنف: المعنى أن العرش العظيم وما تحته وما أحاط به من العلا إلى المنتهى كله مزموم في مسكه المقدار؛ لشمول القدر وعموم محكم التدبير وسلوك معاني الأسماء والصفات العلا في حلاله جريان الماء في العود الناضر، وحلول التدبير له بالأمر في محالة حلول الغذاء في جسم المنعم الناعم قد لزم الخلائق وضغط الأكوان من دقيق الموجودات، وجلبها ظاهرها وباطنها، فلو كان معه آلهة كما يقولون ما وسعها الخلاف، ولا وجدت ملجأ من أن تتخذ إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. [شرح الأسماء ١/ ٨٠].

تسليم جدل، وهذا من فرض ما لا يجوز كونه؛ [ليتبين][١] ما لا يجوز سواه.

يقول - وهو أعلم: لو كان معه آلهة كما زعمتم لم يكونوا إلا مخلوقين، ولا خالق إلا الله وحده لا شريك له؛ إذ لا يجوز أن يوجد شيء أوجد نفسه من غير موجد يوجده هو سواه، وإذا كان مخلوقًا فهو عبد لخالقه، ومن حيث هو عبد فهو عابدًا له قانت، وإذا كانوا كذلك فهم إذًا عباد له أمثالكم، لا يملكون لأنفسهم ولا لسواهم ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله تعالى.

وقد كان قوم من العرب يعبدون الملائكة، وهم صافون عند ربهم عابدون له، وكان [فيهم رجال][٢] يعبدون رجالاً من الجن، فأسلم أولئك النفر من الجن، وبقي الذين ضلوا بعبادتهم في ضلالهم، وقد اهتدوا أولئك بقول الله، جلَّ من قائل: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾ [الإسراء:٥٧] سبح العلي الأعلى نفسه [عن قبيح اقترابهم وكبير اجترامهم بقوله][٣]: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٤٣].

نظم بذلك قوله الحق - عزَّ جلاله: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يصح تصور جواز معبود سواه مع هذا، يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**﴾ [الإسراء:٤٤] عن ذنوب عباده، حليمًا عن غفلتهم، حليمًا عن معاجلتهم؛ لأجل قولهم: ﴿**اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا**﴾ [البقرة:١١٦] وجعلهم له شركاء وآلهة يعبدونها من دونه، غفورًا لذنوب عباده المؤمنين.

فصل

التسبيح يكون بمعنى: التنزيه، ويكون بمعنى: التحميد، ويكون بمعنى: التعجيب، وهو راجع إلى الأولين.

---

(١) في النسخة (خ): «لتبيين».

(٢) في النسخة (خ): «منهم قوم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

مثال تسبيح التنزيه:

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠].

[﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٥٩]](١).

﴿عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩٢].

[﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]](٢).

﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:١٠٠].

وأمَّا التسبيح بمعنى: التحميد:

فهو ما كان منه بمعنى التعجيب والتعظيم؛ لحسن ابتداعه وعجيب إتقانه، وعظيم اقتداره وإحاطة علمه، ومضاء مشيئته وعُليّ صفاته، والتعجيب من حسن ملكته مملوكاته، وقيام السماوات والأرض وجميع المخلوقات بأمره.

من ذلك: قوله – عزَّ من قائل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١] [فعجب](٣) ﷻ زائدًا على التعجيب من قهر اقتداره بكريم عنايته، وخفي رأفته بعبده المخلوق من الطين، الذي ازدراه عدوه إبليس – لعنه الله – يوم أمره الله – جلَّ ذكره – بالسجود لآدم الذي هو أب لمحمد – عليهما السلام – فاحتقره وفاخره بالخلقة وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١] ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦] لم أكن لأسجد لبشر خلقته ﴿مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨].

فأسري به ليلاً إلى المسجد الأقصى، ثم إلى السماوات العُلا، واخترق به السبع الطباق [مكرمًا](٤) ونوَّه به في نوادي المقربين من الملائكة والأنبياء

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «تعجب».

(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

والمرسلين [صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فتجلى فأمَّ النبيين والمرسلين][1] وصعد إلى البيت المعمور، ثم إلى السدرة المنتهى وجنة المأوى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ﴾ [بالقرب كـ][2] ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَو أَدْنَى﴾ [النجم:٨ – ٩] في الرفيع المستوى، ثم ﴿فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠] محكمًا مجملاً، كل ما إليه أوحى إلى أن فصله له على آياته كما شاء، فسبحانه وله الحمد في الآخرة والأولى.

ومنه: المعني بقوله: ﴿سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] يقول - عزَّ من قائل: سبحان الذي خلق الأزواج كلها من نبات الأرض، كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر:٦٧] ثم قال: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من ذكر وأنثى، وخلقهم أيضًا ﴿مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

ومنه: ما عبَّر عنه بقول أهل الجنة، ووصفه من حالهم بقوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾ [يونس:١٠] يلهمون ذلك كما يلهمون النفس؛ وذلك أن بقاءهم فيما هنالك مبني على تحديد ما هو معجب لهم أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا يرون [فيها أبدًا فيما يعرفونه][3] ولا ما لا يعرفونه إلا ما هو تحديد [تعجب][4] بإظهار المقدور الغائب عن ظاهر ما هنالك منه، فافهم، وفي أثناء ذلك يتذكرون ما حباهم به من ذلك ومنَّ عليهم، فيكون الآخر من دعواهم ذلك ما هو: الحمد لله رب العالمين.

كذلك التحميد منه: ما يكون بمعنى الحمد الجامع للمدائح كلها، كقوله - عزَّ من قائل: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] وبابه حيث جاء.

ومنه: ما هو بمعنى الغبطة والسرور بكريم الهبة، وسني العطية التي فات العقول تحصيل قدرها، وتقاصرت ذوات العباد، ولو صعدوا إلى أعلى درجاتهم عن تعمل الفرح بها، وهو قوله جل قوله: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «أبدًا فيما يعرفون».

(٤) في النسخة (خ): «تعجيب».

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[١] [الإسراء:١١١] وهذا المعنى يتردد [بين][٢] تعداد النعم، ولا نعمة أسنى منها، وبين الاتصاف مما هو له أهل.

ومنه قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] وبين التهنئة للمنعم عليه، والتنبيه له على أداء شكرها من نعمة، ولا شكر شاكر يبلغ واجبها سوى ما تفضل به من أنه جعل معرفة النعمة، والإقرار بالعجز عن أداء [واجبها][٣] شكرًا، وكان بعض الحامدين يقول: الحمد لله على النعمة به، والحمد لله على النعمة منه، والحمد لله رب العالمين.

وكما أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] فكذلك [النعمة به][٤] ليست [يشابهها][٥] نعمة، ولمشاركة التسبيح الحمد والحمد التسبيح كان تسبيح الخلائق بهما، قال رسول الله ﷺ للرجل الذي [شكا][٦] العيلة [إليه][٧]: «**أين أنت من تسبيح الخلائق وبها يرزقون: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[٨].

---

(١) قال الشيخ المصنف: فعدد له في هذا النص المبين نعم الإلهية والوحدانية، وأنه لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وأنه منيع عزيز وكبير له الكبرياء والعظمة، فله الحمد على ذلك كثيرًا حمدًا يوافي حمده هو نفسه ويربى على جميع حمد الحامدين له. [شرح الأسماء ١/٢٥٢].

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (خ): «وجهها».

(٤) في النسخة (خ): «هذه النعمة».

(٥) في النسخة (خ): «مثلها».

(٦) في النسخة (خ): «شكر».

(٧) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل (١/٣٤٣) بلفظ: جاء رجل الى رسول الله ﷺ فشكا إليه دينًا وفقرًا وحاجة، فقال: «أين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق، وبها ينزل الرزق من السماء من طلوع الفجر إلى صلاة الصبح: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وأستغفر الله».

فصل

موضوع التكليف الذي هو الشرع مخالفة الهوى، إلا ما استثنى من ذلك حكم التيسير والرحمة، ومعهود وجود الهوى منا نحن حيث [يصح][(١)] وجود العقل، فالملائكة - عليهم السلام - لهم العقل ولا هوى لهم، والثقلان - الإنس والجن - عقل وهوى، وحمدت العوالم دون هذه المرتبة على هاتين الصفتين العقل والهوى، فكانت الجبلة والفطرة المنتزع منها الهوى موجودة فيها لا محالة، وكان إمساك الله لها في إحراز وجودها عليها [عقلها][(٢)].

فإذًا شرع الجماد والنبات والحيوان مخالفة الجبلة، ولخلوها عن الهوى لم تخالف ما شرع عليها إليه، بل فطرت على وجودها، وإنما جبل الثقيل [ليهبط][(٣)] سفلاً، والخفيف ليصعد علوًّا، والمائع يجري صببًا لما فيه من [التوسط][(٤)] بين الهواء والأرض، والهواء متبدد متموج، وإمساك الله - جلَّ ذكره - هذه الموجودات على حكمه، ووقفها على مراده، وتسخيره إياها لما يريد منها لسواها هو تسبيحها؛ لأنه فطرها على طاعته، وأوجدها على معرفته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ [النحل:٧٩].

[وقال][(٥)]: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٤١].

فقيام الموجودات مقامها ومخالفتها ما جبلها [الله][(٦)] عليه طائعة له قانتة هو تسبيحها، فعلى هذا فليس من شيء في السماوات والأرض إلا يسبح له؛ لأنه غير

(١) في النسخة (خ): «يصبح».
(٢) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «ليهوي».
(٤) في النسخة (خ): «المتوسط».
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

خارج عن حكمه وإمساكه إياه، ولا يشذ شيء منه عن مراده به ومنه، هكذا هو من حيث الإيجاد والخلقة.

وأمَّا من حيث وجود الصفات فيها باطنًا كالعلم والإيمان والمعرفة والعقل ونحو هذا، فإنه أوجد فيها الخشية منه والخوف له، والإيمان به والشهادة، والدلالة عليه، كذلك أيضًا أوجد لها النفع لسواها هو زكاتها، وهو تسخيره إياها لمراده منها وبها وفيها، كذلك أوجد لها التسبيح والتكبير والسجود والقيام، وجماع هذا هو الصلاة.

ثم من عباده: من أخفى ذلك [عليه][١] منها في حقه، فهو مكذب به.

ومنهم: من رزقه الإيمان الجزم به والتصديق.

ومنهم: من أراه طرفًا منه من جهة [العبرة ومقايسة][٢] الأشباه، والإيمان [بعمله][٣] وقلة الفقه عنها [يزله][٤] عن التحقيق، فهذا يُرجى له الصعود إلى ما على من ذلك، كما يخاف عليه [من][٥] استصحاب الغفلة وترك التفقه في هذا الشأن.

ومنهم: من كشف الله له ذلك كالأنبياء والرسل - عليهم السلام - قال الله ﷻ في داود ﵇: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨ - ١٩] وقال سليمان ﵇: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦] وسخرت ﴿لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦] والجن والإنس [والطير][٦] وسلام الحجر على رسول الله ﷺ وكذلك الشجر، وحنين الجذع، وكلام الجمل، وإعلام الذراع المسموم له، ونحو هذا، ولأولياء الله ﷻ بين هذه وهذه [من ذلك][٧] درجات، جعلها لهم دلالات على

---

(١) في النسخة (خ): «عنه».

(٢) في النسخة (خ): «الغيرة ومعاينة».

(٣) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٤) ما بين [ ] غير واضح في النسخة (غ).

(٥) ما بين [ ] زيادة من النسخة (غ).

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٧) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

تكليم يكلمون وإلهام يلهمون، وأمور صادقة يطلعون عليها خارجة عن جريان العوائد.

فصل

فنشأت بحمد الله تعالى عبادات المكلفين، الموصوفين بالعقل ظاهرًا إلى مشاهدات ظاهرة لإتمام أفعال محدودة، واستعمال النيات، وترتيب الحركات على سنن معلومة كما بطن بعض هذا، أو [جُلّه][1] فيما دون ذلك من [العالم][2] كما تقدم من الترتيب من [إظهاره ما][3] بطن من ذلك لبعض دون بعض، وكما يظهر الله - جلَّ ذكره - هذا المقدار من العلم والمشاهدة بسجود الموجودات وتسبيحها، وكذلك يظهر ما أبطن عن المعتبرين من ذلك للصديقين، ثم الأنبياء والرسل يظهر لهم [أيضًا][4] ما أبطن عن الصديقين، ثم الملائكة - على جميعهم السلام - هم المشاهدون ذلك، الباعثون عليه، المسخرون من الله - جلَّ ذكره - لإتمام ذلك، ووجوده من الموجودات.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١] هذا الخطاب شارح لقوله الحق: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١] أنه ما [ذكرناه][5] وجوده باطنًا ما قصَّه الله علينا من وجود أنبيائه - عليهم السلام - ذلك، وما يخرقه على أيديهم من المعجزات، وما يظهره إلى الأولياء من الكرامات وخرق العادات، فاعلم ذلك.

والموجودات - فاعلم - ليس عندها [ولا فيها][6] وجود [مخالفة][7] من حيث مراده منها وفيها وبها؛ لعدم الهوى في جبلتها، وإنما رسوب الثقيل هويًا إلى أسفل،

---

(١) في النسخة (خ): «حله».
(٢) في النسخة (خ): «العوالم».
(٣) في النسخة (خ): «إظهارها».
(٤) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «ذكرنا».
(٦) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «بمخالفة».

وسائر صفات الجبلة في حق [إيجاده][(١)] أنفسها مع سواه، فقد حصل اليقين بأن لها التسبيح والكلام والخشية والخوف، وغير ذلك من الصفات والأعمال.

فافقه عن ربك - عزَّ جلاله - ولا تكن من الممترين، واعلم مع هذا أن كل طاعة لله فهي عبادة وقنوت، والصلاة بما هي جمعت جميع العبادات فيها؛ الذكر، والتلاوة، والصيام، والحج، والشهادة، والزكاة من حيث إن صاحبها يتزكى بها، وبما يدفع الله بالمصلين من عباده عمَّن لا يصلي، فهي أيضًا بهذا داخلة في الصدقة والزكاة، وفيها الرفع والخفض، وكل ذلك متصور في الجماد، ثم ظهر ذلك بالنشء كما تقدم ذكره.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤)﴾ [الإسراء: ٥٠ - ٥٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا * أو خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠ - ٥١] ذكروا أن هذا أمر تعجيز وليس به، وإنما هو جواب لقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] فقال لهم جلَّ قوله: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا * أو خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠ - ٥١] وإنما ذلك أن إعادة العظام والرفات أقرب إلى الخلقة في مستصحب الحال من الحجارة والحديد، ومن تناسخ الأجسام في الشجر والدواب والأنعام والسباع جيلاً بعد جيل، وخلقة بعد خلقة، والمحذوف من الخطاب: فإنا نعيدكم على ذلك.

أظهر ذلك في قوله حكاية عنهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ

(١) في النسخة (خ): «إيجاد».

يَدْعُوكُمْ﴾ [الإسراء:٥١ - ٥٢] المعنى: [«فالنغض»][(١)]: تحريك الرأس من أسفل إلى فوق ومن فوق إلى أسفل، وقيل للظليم ولد النعام: نغض؛ لأنه إذا مشى حرك رأسه كذلك، فكما خلقهم من التراب كذلك يعيدهم، والميت يموت فتأكله الطير والسباع والدود وغير ذلك من الحيوان، ويأكل ذلك الحيوان حيوان آخر، ثم كذلك إلى يوم القيامة، وقد تجاور مدفنه وموضع بلاه حجرًا ومعدن حديد أو نحاس أو فضة أو ذهب أو شجر أو نبات، ثم [يصرف][(٢)] ذلك في الوجود على [سنن][(٣)] تصرفه المقدر فيه، ثم كذلك بطول الآماد إلى يوم القيامة، ووجود كل ذي وجود محروس عليه، [مزموم][(٤)] له في الكتاب الأول، والتقدير الأول الذي أظهر بالفعل وإيجاد الخلقة.

وهذا تناسخ الأجسام، وهو الذي وجده الأولون في سبيل نظرهم، فإمَّا ضلوا عنه، وإمَّا أخطأ عليهم فطرتهم أنهم قائلون بتناسخ الدواب والنسم، وليس ذلك كذلك؛ بل النسم محفوظ عليها وجودها، وكذلك ما نقص من أجزاء الأجسام على ذوات وجودها محفوظ على كل ذلك وجوده كل صغير وكبير، ذلك كله مستطر في كتاب مبين، يعيد كل ذي وجود إلى وجوده كأينما كان، لا يخلو كل موجود دقَّ أو جلَّ أن يكون على صورة [يختص][(٥)] بها، وهو البارئ المصور المبدئ المعيد مع تصريف الله إياه في وجود الموجودات، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث قال الله لكل شيء أخذ من شيء شيئًا: «ردْ ما فيك» فيرجع على الطريق الذي منه ذهب إلى حيث منه تفرق، فافهم.

قال رسول الله ﷺ في حديث له: «**ثم تلبثون ما لبثتم، ثم يبعث الصيحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات، والملائكة الذين مع ربك ﷻ فحلت الأرض، فأرسل ربك بهضب من تحت العرش، ولعمر إلهك ما تدع على ظهرها**

---

(١) في النسخة (خ): «النغض».

(٢) في النسخة (خ): «تصرف».

(٣) في النسخة (خ): «سنين».

(٤) في النسخة (خ): «مرقوم».

(٥) في النسخة (خ): «مختص».

من مصرع قتيل، ولا مدفن إلا شقت القبر عنه حتى يخلقه من قبل رأسه، ويستوي جالسًا، فيقول ربك: مَهْيَمْ؟ فيقول: أي ربي، أمس لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهله»[(١)] فخلقه عما تقدم ذكره أبعد على الأفهام في مجرى العوائد من التراب، الذي منه خلقه ومنه رزقه ولباسه.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[(٢)] [الإسراء:٥٣] «التي هي أحسن»: [هي كلمة][(٣)] التقوى «لا إله إلا [الله»][(٤)] ثم سائر أنواع الذكر، وقد يكون المعنى الأخذ بالرفق، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] للمعهود من وجود استشاطة الشيطان عند استشاطة الغضب.

وقال رسول الله ﷺ: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه»[(٥)].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خير أدخل عليهم الرفق»[(٦)].

وقال ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[(٧)].

نظم ذلك بقوله الحق - عزَّ جلاله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٥٤] كان هذا الخطاب أمر

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٨٣٤)، وأحمد (١٦٦٣٥) وهو حديث طويل.

(٢) ﴿إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد ويهيج الشر بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة، فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد وتمادي الفساد، فالجملة تعليل للأمر السابق، وقرأ طلحة: «يَنزِغُ» بكسر الزاي، قال أبو حاتم: لعلها لغة، والقراءة بالفتح. وقال صاحب «اللوامح»: الفتح والكسر لغتان، نحو: يمنح ويمنح. تفسير الألوسي (٤٨٥/١٠).

(٣) في النسخة (خ): «كلمة».

(٤) في النسخة (خ): «هو».

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٩١/١)، ومسلم (٦٧٦٧)، وأحمد (٢٤٣٥٢)، وأبو داود (٢٤٧٨)، والطبراني في الأوسط (٢٢٦٩)، وابن أبي شيبة (٢٥٣٠٤)، والقضاعي (٧٣٨).

(٦) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤١٦/١)، وأحمد (٢٤٤٧١)، والبيهقي في الشعب (٦٥٦٠)، والبغوي في الجعديات (٣٤٥٣)، والبزار كما في كشف الأستار (١٩٦٥)، وقال الهيثمي (١٩/٨): رجاله رجال الصحيح.

(٧) البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢١٦٥)، والترمذي (٢٧٠١)، وابن ماجة (٣٦٨٩).

للعلماء بالرفق بالعوام، ولأهل الاستقامة بالتماس العذر لأهل [التخليط][1]، والأخذ على أيديهم بأحسن القول وأرفقه، و«الرحمة» ها هنا هي: التوبة، والله أعلم.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٥ – ٥٨].

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] هذا كله منتظم المعنى بعضه ببعض في الأمر بالرفق والأخذ بالأحسن، وذكر العلم هنا تعريض بأنه أعلم بمن سبق له كلمة السعادة، وبمن سبق له كلمة الشقاوة.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا...﴾ [الإسراء:٥٨] نزلت هذه الآية بمكة، فأبرز فيها بما يصيب به القرى في الأرض.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه جمع الناس في مسجده، ثم خرج عليهم، فصعد المنبر ثم قال: «**إني جمعتكم لأعلمكم مما علمني ربي في يومي هذا**» وذكر كلامًا فيه: «**وأن الله اطَّلع على أهل الأرض، فمقتهم كلهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[2] فكان ذلك ما فسره قوله ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى**»[3] فأظهر

(١) في النسخة (خ): «الخطأ».

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (٢٨٦٥)، والطبراني (٩٨٧)، والنسائي في الكبرى (٨٠٧٠)، والبزار (٣٤٩١)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٢)، ومسلم (١٣٨٢)، وأحمد (٧٢٣١)، وعبد الرزاق (١٧١٦٥)، ومالك (١٥٧١)، والحميدي (١١٥٢)، وأبو يعلى (٦٣٧٤)، وابن حبان (٣٧٢٣)، ولفظ الحديث: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يَثْرِب وهى المدينة تَنْفِى الناس كما يَنْفِى الْكِيرُ =

[دينه][1] الإسلام على الدين كله مع ما [سوف ينفذه][2] إلى يوم القيامة؛ ليتم ما قد سطره في اللوح المحفوظ من تفسير قوله في صدر السورة، وقد تقدم.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء:٥٩-٦١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩] المحذوف من الكلام: «فأهلكناهم» أو ما كان في معناه كل آية شرطية إذا أتت فقلَّما يمهل الله المكذبين بها، بل الإهلاك على ذلك سنته، ولن تجد لسُنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، وكانوا قد اشترطوا عليه ما يأتي ذكره في هذه السورة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ....﴾[3] [الإسراء:٩٠ - ٩١].

=

خَبَثَ الْحَدِيدِ».

(١) في النسخة (خ): «الله».

(٢) في النسخة (خ): «شرف بهذه».

(٣) الآية نزلت في رؤساء قريش مثل: عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبى سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف وأبي البختري، والوليد بن المغيرة وغيرهم، وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدو، وكان رسول الله ﷺ حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له، فإن كنت إنما جئت

=

=

بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًا - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً وأنزل على كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» أو كما قال ﷺ قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وأسأله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله: «ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثنى بشيرًا ونذيرًا - أو كما قال - فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله ﷻ إن شاء أن يفعله بكم فعل» قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألنا عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً، فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم

=

عرَّض بمعنى الإهلاك بقوله: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: آية مبصرة، يريد: مبينة، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩] أراه - وهو أعلم بما ينزل - أن المراد بهذه الآيات: هي الآيات من الرياح والصواعق والأمطار والقحوط والرعد والبرق، فيرسلها تخويفًا لعباده وتنبيهًا لهم، وتكون [أيضًا الآيات][١] التي هي الإهلاك للأمم، فإنها أيضًا تخويف للغير أن يصيبهم مثلما أصابهم، ثم أتبع ذلك ما هو في معناه.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ هذه - والله أعلم - مصداق قول رسول الله ﷺ: «إن الله اطلع على أهل الأرض، فمقتهم»[٢]، ثم نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ﴾ [الإسراء:٦٠] «الرؤيا» هي: الإسراء، و«الشجرة الملعونة» هي: إبليس، ولم يلعن الله شجرة في القرآن، وإنما لعن إبليس وهو شجرة؛ لما تفرع منه من نسله وضروب الكفر وفعال الخبائث، وأن جهنم وما فيها ليس بملعون، وما المعلون إلا من جعل فيها على وجه الجزاء لعملٍ منهي عنه - نعوذ بالله من ذلك - وهذا خطاب تعزية لرسول الله ﷺ عمَّا كان يهمه، وييئسه من تخلفهم عن الاستجابة لله - جلَّ ذكره - ولكتابه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ أي: اسجدوا له اقتداءً [به][٣]

=

سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، كله لفظ ابن إسحاق، وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾.

(١) في النسخة (خ): « الآيات أيضًا».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في النسخة (خ): «لله».

في سجوده لله وحده ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٢ – ٦٩].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢] «الاحتناك»: الاحتواء على الشيء والاستئصال له.

وأمَّا قوله: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] المعنى إلى آخره، فقال الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أصوات الملاهي والمعاصي؛ إذ هي برضاه ومحبته وتزيينه ووسوسته ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] هي كل خيل ورجل ليست في طاعة الله، ولا في طلب مرضاته، أو [للشر والبغي على](١) الناس، وعن الحلال بالحرام، بل فهي من حزب الشيطان.

ومشاركته في الأموال والأولاد هو تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله لأجل شهواتهم، ولشركائهم المتخذة من دون الله، ومشاركته في الأولاد؛ وهو الزنا

---

(١) في النسخة (خ): «للتستر والتغني عن».

[والنكاح][(١)] على غير كلمة الله وسنة رسول الله ﷺ وذكر اسمه على ما يكون من ذلك حال الوطء، وإلا سبقه الشيطان إلى ذلك منه، وهو أيضًا بأن يهوّدوهم أو ينصروهم أو يمجسوهم [فإضلاله][(٢)] إياهم، وتزيينه ذلك لهم.

و«الجلب» و«الجلبة» في الناس: الصياح وكثرة الضجيج وارتفاع الأصوات، وعدهم هذا كله من خطاب على صيغة «أفعل» الخارج مخرج الأمر، وهذا من المشتبه في القرآن؛ ولأنه ﷻ لا يأمر بالفحشاء [والمنكر][(٣)]، فليس إذًا بأمر منه إنما هو إيعاد وتهديد للمغرور والغار، والمزيّن والمزيَّن له، والمضل والضال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٦٥] عباد الله هم عباده على الخصوص، لم يجعل الله للشيطان عليهم سبيلاً، وهم في ذلك درجات:

فمنهم: من أسلم شيطانه، وصار تقيًا فلا يأمره إلا بالتقوى والعمل المرضي، منهم رسول الله ﷺ.

ومنهم: من أسلم شيطانه وبقي عليه تخليط.

ومنهم: الكافر والمنافق وقرينه مثله.

ومن توكل على الله وأسلم له نفسه، وأكرهها على لزوم طاعته كفاه ووقاه، وكفى بالله وكيلاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[(٤)] هذا كلام متصل المعنى بقوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

---

(١) في النسخة (خ): «والتناكح».

(٢) في النسخة (خ): «بإضلاله».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٤) فائدة في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] قال: فإذا بلغ الاضطرار من المضطر إلى إزالة الأغيار أجيب إن شاء الله ﷻ فموضع لفظ الإجابة في حق هؤلاء مأخوذ من القطع، كأن مجيب الدعوة قطع ما بينه وبين الداعي بالإجابة منه لهم، فاستاق الغياث إليه على ذلك البعد، انظر: شرح الأسماء (٢٧٥/٢).

الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٠ – ٧٨].

وقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(١) [الإسراء:٧٠] يعني –

(١) قال الشيخ المصنف: يريد وهو أعلم: على كثير مما تقدم ذكره في هذا الاعتبار من العوالم المذكورة، وبوجه آخر وهو المقصود باعتبارنا هذا فكل ما كان للمؤمنين قنية وعونًا على طاعة الله سبحانه من خيل وأنعام وحيوان على صنوفه وغير ذلك من القنيات كائنًا ما كان فهو بجملته منسوب إلى الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وما كان من ذلك للكافرين وللمشركين فهو منسوب إلى الشيطان والكفر، قال الله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ ولذلك أحل جميع ذلك للمؤمنين من حيث إن الدنيا كلها له ملك وللمؤمنين عبيده، وما كان من ذلك منسوبًا إليه فهو منسوب إليهم تبارك وتعالى، وإنما هو سبحانه وتعالى والمؤمنون عباده وسائر ذلك لا يعبأ الله بهم هم المؤمنون فداء وأموالهم وأولادهم نهب، ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليتلو بعضكم ببعض، فأعظم بقدر رجل مؤمن آتاه الله تعالى من علمه أو ملكه، وعوده النظر في مواطن الحروف تتم على يديه كلمته في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] ويكذب ظن إبليس لعنه الله في قوله: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى آخر المعنى فهو يسلب إبليس لعنه الله خيله ورجاله وأمواله ويسبي نساءه وأولاده وتردهم إلى ربهم، وتحقق الملك للملك الحق إن هذا لهو الفضل المبين وبالضد للضد. وقال أيضًا: أي: من العوالم التي دونه في المرتبة =

وهو أعلم: على غيرهم من عوالم دونهم كالجماد والنبات والحيوان والجن، وهذا التفضيل على الإطلاق إنما هو للمؤمنين من بني آدم، وأمَّا سوى المؤمنين فإكرام وراثة لفضل رحمته متعهم بها ها هنا لما أخرجهم من الجنة، وقضى عليهم بالسجن [فيما ها هنا](١) أخلف لهم هنا أنهارًا وعيونًا وزروعًا وجنات، ومن كل الثمرات؛ ليذكروا بها ما أخرجوا عنه، فيرجعوا إلى منزلهم الأول الذي هذا دليل عليه و[مشير](٢) إليه، ومن استحب هذه واطمأن إليها كانت جنته، ومن جعلها متاعًا وسجنًا ومجازًا إلى المحل الذي [أخرج](٣) عنه، وكان حسنه الكفاف أُعلي به إلى تلك، وألحق بأبيه آدم عليه السلام.

نظم بهذا قوله جل قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: إن رجوعهم إلى ما هنالك يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ [الإسراء:٧١] المعنى إلى آخره.

قرأ رسول الله الآيتين، فقال: «**يُدعى أحدهم فيُعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فيطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا**» قال: «**وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويلبس تاجًا من نار، فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم فيقولون: اللهم أخزه، فيقول:**

=

التي هي الجماد والنبات والحيوان البهيمي، فلما أوجد عزّ جلاله العقل واجهه بالشرع، وعاجله بالتكليف والأمر والنهي، فأنزل عليه بالروح الأمر الشراعي، كما كان ينزل على ما دونه أمر الكون، وضاعف يومئذٍ الرقبة والرقباء، فعظمت الممتحنات وكثرت المعقبات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب ورقب الرقباء من الملائكة الكرام الحفظة على جميع صلوات الله وسلامه. وانظر: شرح الأسماء (٣٤٤/١) (١٣٠/٢).

(١) في النسخة (خ): «في هذه الدار».

(٢) في النسخة (خ): «ميسر».

(٣) في النسخة (خ): «خرج».

أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا»(١).

فصل

قوله – عزَّ من قائل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢] إن الكافر والغافل في الدنيا أعمى عن الهداية وعن ذنوبه وحسناته وسيئاته، جاهل بالتمييز [بينها](٢) كل على درجات [في](٣) ذلك، فإذا كان يوم القيامة دفع إليه كتابه يقرؤه، فلا يرى فيه الكافر سوى سيئاته، وما كان له من حسنة فقد أطعم بها وعوفي.

يقول الله – جلَّ من قائل: ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: كتبًا وجزاء في الدنيا، ثم عطف على ذلك بالواو قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من سيئة أو حسنة حاضرًا، ثم قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] كما تقدم؛ إمَّا أن يجزيه بها في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما إن كان مؤمنًا.

وأمَّا المؤمن فكان بصيرًا بدينه، بصيرًا بما يقربه من ربه ويبعده يقظانًا، فهو هناك مبصر، وربما تمم للكافر العمى ظاهرًا وباطنًا، كما قال – عز من قائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤] إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧] وكقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

قوله – عزَّ من قائل: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ هذه صلاة الظهر إلى صلاة العشاء الآخرة، وبين ذلك العصر والمغرب؛ لذلك جعل بين الأمدين حرف انتهاء الغاية، ويدخل أيضًا بمعنى الحد في معنى الغاية ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ صلاة الفجر ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٣٦) وقال: حسن غريب، وأبو نعيم في الحلية (١٥/٩)، والحاكم (٢٩٠٩)، وأبو يعلى (٦١٤٤)، وابن حبان (٧٣٤٩).

(٢) في النسخة (خ): «بينهما».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا إذا ذهب من الليل ثلثه** - وفي أخرى: «**نصف الليل**»[١]، وفي أخرى: «**إذا بقي من الليل ثلثه**»[٢]. **فيقول: من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى ينفتل القارئ من صلاة الفجر**»[٣].

فصل

العرب تسمي الساعة السابعة [من النهار][٤]: «الظهيرة»، والعاشرة: «العصر» وعصر كل شيء ما قرب من آخره و[هي][٥] التي بعدها: «ساعة الأصيل»، ثم الثانية عشر: [الظفل][٦].

وكذلك تسمى أول ساعة من الليل: «الغسق» وهو الوقت الذي فيه ينقضي سلخ النهار من الليل، وهذه الساعة أشد الليل إظلامًا وإنما سميت بذلك؛ لخروجها من النهار، وهو استقبال ظلام الليل، وتسمى الثانية منه: «الفحمة»، قال رسول الله ﷺ: «**كفوا فواشيكم وصبيانكم حتى تذهب فحمة العشاء، فإن للشياطين انتشارًا حينئذٍ**»[٧].

وتسمى الثالثة: «العشوة»، والرابعة: [الهذأة][٨]، والخامسة: [الشواع][٩] وذلك

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٩٢)، وأحمد (١٦٢٦٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٠٩)، وابن حبان (٢١٢)، والدارمي (١٤٨١)، والطبراني (٤٥٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٠)، وقال الهيثمي (١٠/١٥٤): رجاله رجال الصحيح، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٠)، وابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (٢/٢٤٢، ترجمة ٤٦٨).

(٣) رواه البزار، وفيه عمرو بن خليف، وهو ضعيف كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١/١٨).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) في النسخة (خ): «على».

(٦) هكذا في (غ)، (خ).

(٧) أخرجه بنحوه مسلم (٢٠١٣)، وأبو داود (٢٦٠٤)، وأحمد (١٤٣٨١)، وأبو عوانة (٨١٦٢)، والبيهقي (١٠١٢٥) وفي الآداب (٣٥٩).

(٨) في النسخة (خ): «الهذا».

(٩) في النسخة (خ): «السواع».

[الشياع][(١)] ضياء السماء، وإنما هو عن إثارة تنزله - جَلَّ وتعالى علاؤه وشأنه - والسادسة: «الجنح» لجنوح الكواكب، وهي من الليل بمنزلة الظهيرة من النهار، [وفيها يقر الماء][(٢)] والسابعة: «الهزيع»، والثامنة: «القعس»، والتاسعة: «البهرة»، والعاشرة: «الهزيج»، والحادية عشر: «الزلفة» لقربها من آخره.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] يعني: صلاة السحر.

والثانية عشر: «السحر»، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ هذه صلاة الوتر في هذه الأوقات المذكورة لمن يسر لذلك، ولا يتصور وجود نافلة حتى تخلص الفريضة، وكان رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فلذلك ما نصَّ عليه بأنها له نافلة، وفي عباد الله - جل ذكره - من يكون له نافلة، يقول الله جلَّ من قائل: «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل**»[(٣)].

وذكر رسول الله ﷺ: «**المؤمن يتوضأ فتخرج خطاياه من جوارحه حتى يخرج نقيًّا من الذنوب**»[(٤)].

وقال: «**وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له**»[(٥)].

---

(١) في النسخة (خ): «السياع».

(٢) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وأحمد (٢٦٩٤٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والطبراني (٧٨٨٠)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٤) أخرجه مالك (٦١)، والدارمي (٧١٨)، ومسلم (٢٤٤)، والترمذي (٢) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (١٠٤٠)، وابن خزيمة (٤)، وأبو عوانة (٦٦٩)، والبيهقي (٣٨٦)، وعزاه البيهقي في المعرفة (٧٣٥) للشافعي، وذلك بلفظ: «إذا توضأ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ فغسل وجهَه، خرج من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينه مع الماءِ أو مع آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئةٍ كان بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مع الماءِ أو مع آخِرِ قَطْرِ الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مع الماءِ أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نَقِيًّا من الذنوب».

(٥) أخرجه أحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، ومالك (٦٠)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح، وقال الذهبي: لا؛ يعني: غير صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

ثم قال: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] هذه هي الدرجة الرفيعة: استفتاح الشفاعة، واستفتاح باب الجنة.

نظم بذلك قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] قال ابن عباس: نزلت حين أمرنا بالهجرة من مكة إلى المدينة، ومن الحسن أن يستفتح بها العبد دخوله وخروجه في كل وجه.

أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] لما ذكر ﷻ ما أوحى إليه من الحكمة من لدن قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فهذه هي الحكمة، ثم جعل يسرد [عليه][1] العلم ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء:٣٩].

إلى قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣].

إلى قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٧٩-٨١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾[2]

---

(١) في النسخة (خ): «عليها».

(٢) ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: زوالها واصفرارها وغروبها، قال في «القاموس»: دلكت الشمس: غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء. فحينئذٍ في هذه اللفظة دلالة على الظهر والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه، أما في الظهر والمغرب فواضح، وأما في العصر فلأن أول وقتها أول أخذ الشمس في الاصفرار، فقال تعالى: ﴿إِلَى﴾ حثًّا على نية أن يصلي كلما جاء الوقت؛ ليكون مصليًا دائمًا؛ لأن الإنسان في صلاة ما كان ينتظر =

[الإسراء:٧٨] إلى قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩].

إلى قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨٠ - ٨١] فكان فيما تقدم من لدن قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء:٧٨] إلى قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] تعريض بأن ما بين ذلك مع ما تقدم مجيء الحق وزهوق الباطل.

أمَّا الصلاة فإنها تذهب السيئات لا محالة، والتهجد مع أداء الفرائض [يسرع][(١)] في الصعود في درجات القرب، وقول العبد مع هذا ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] يذهب بالباطل ويحضر الحق - إن شاء الله - لذلك، وهو أعلم بما ينزل.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢- ٨٧].

نظم به قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: من الشك، وربما كان شفاء من السقم والغم ولمة العدو ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إزالة ذنوبهم، وحط خطاياهم، وتقريبهم من ربهم والتعرف به، وهو ﴿لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

=

الصلاة، فهو بيان لأن وقت المغرب من الدلوك الذي هو الغروب إلى أن يذهب الشفق ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ فالغسق: ظلمة أول الليل، وهو وقت النوم؛ وقال الرازي في «اللوامع»: وهو استحكام ظلمة الليل. وقال الرماني: ظهور ظلامه. نظم الدرر للبقاعي (٩٤/٥).

(١) في النسخة (خ): «شرع».

[الإسراء:٨٢] فدلَّ بهذا أنه من لم ينفعه هذا ولم ينفع به سواه [فيما][(١)] بقي عليه من ظلم نفسه.

ومعنى حرف «من» في هذه الآية قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ و[لتمييز][(٢)] الجنس كقولك: [لقيت][(٣)] من الناس خلقًا كثيرًا، فهي مخبرة عن ذات الشيء كقول رسول الله ﷺ: «**ما من أحد من الناس وصف لي بخير إلا وجدته دون ما وصف لي إلا ما كان من زيد الخير**»[(٤)]، [وأما اسم المنزل][(٥)]، والمنزل كله شفاء ورحمة [للمؤمنين][(٦)] لمن آمن بالله ورسوله، وأحسن الاقتداء.

لكن لبعض الكلام والتنزيل خواص قصد بها المنزل فيه ومن أجله، فربما أفاض الله من بركة القرآن إلى أن يكون شفاء من مرض الأجسام ومسّ الجن، وطوارق حدثان الأوجاع وسورات السموم ونحو هذا، دلَّ على هذا ما انتظم به من الدعاء كما تقدم، كما أن كل المنزل عمى وضلالة للمكذب به [ينظم][(٧)] به قوله عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء:٨٣].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ يعني: المؤمن والكافر؛ أي: على مثاله وخلقته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤] إذا رُفِّه على الإنسان في معيشته وصحته أدركه البطر، فوقع من أجل ذلك في المحظور، فبرحمة من الله - جل ذكره - أصار حور الحائرين وحيف المتسلطين وظلم الظالمين طُهرةً لهم - أعني المظلومين - بدلاً من الإهلاك على البطر، و[العلو][(٨)] والفساد في الأرض؛ إذ هو الاستئصال، نظم بذلك قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ

---

(١) في النسخة (خ): «فما».
(٢) في النسخة (خ): «لتميز».
(٣) في النسخة (خ): «لبيت».
(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل (٢٠٨٥).
(٥) في النسخة (خ): «وما اسم للمنزل».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «نظم».
(٨) في النسخة (خ): «الغلق».

﴿أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤].

قوله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾** [الإسراء:٨٥] البحث عن الشيء يكون بأحد أربع أدوات، لا يوصل إلى معرفة مطلوب من جهة البحث [عنه][1] إلا بأحدهن:

[الأول][2]: «هل» كقولك: هل من كذا وكذا؟ هل كان كذا؟ وهي باحثة عن حقيقة المطلوب وآنيته، هل له وجود أم لا؟ فجواب ذلك يقع بنعم أو لا.

الثاني: «ما» كقولك: ما هو كذا وكذا؟ وهي باحثة عن جوهرية المطلوب وطبيعته، وما هو عنه [وجوده][3] وبالإعلام بذلك يقع الجواب عنها.

الثالث: «كيف» كقولك: كيف كان كذا وكذا؟ وهي باحثة عن خواص الشيء المطلوب وأحواله، ولواحقه اللازمة له المعروفة [بهل وأي][4] منها هو، فللمسئول أن يقول: لواحق المطلوب كثيرة وأحواله جمة، فأيًّا منها أردت سؤالك؟ فإن أعلن بما أراد حسن [للمجيب][5] الجواب بنعم أو لا، [وتقول][6]: حالته كذا، وصفته كذا.

الرابع: قولك: لِمَ كان كذا هكذا؟ ولِمَ لم يكن كذا؟ وهي باحثة عن علة الشيء التمامية الموجبة لكونه لِمَ كان على هذا؟.

فقول الله ﷻ: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾** [الإسراء:٨٥] أي: ما هو الروح؟ فلذلك كان الجواب معبرًا عن حقيقة المسئول عنه، ومِمَ هو وجوده، والسؤال عن الأمر بما هو، فإن السائل عنه لا يخلو أن يكون سؤاله عن الأمر الذي هو الشأن، كقوله، جل ذكره: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [يس:٨٢] معناه: إنما شأنه أو ما يكون معبرًا عنه [أو معبرًا][7] له، ويجمع هذا الأمر على أمور.

---

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «وجود».
(٤) في النسخة (خ): «بها أي».
(٥) في النسخة (غ): «البحث».
(٦) في النسخة (خ): «أو يقول».
(٧) في النسخة (خ): «ومفسرًا».

وعلى هذا فيكون صفة من الصفات، وإن كان من الأمر الذي هو قوله، فهو إذًا ما يكون عن الكلام العلي، فهو روح وليس بمخلوق ولا محدث، ولا يفنى ﷺ عن ذلك، أو يكون هذا المشار إليه، المعبر عنه بالروح من الأمر محدثًا من الأمر، كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر:٦٧] فهذا محدث موجود من الأمر الذي هو الكلام، وهو المقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] روحًا على ما شاءه به وأوجده له.

ألا ترى أن الكلام منه جامع لكل مراد له مجملاً كان المراد أو مفصلاً، خلقًا كان أم أمرًا، روحًا أو جسمًا لكن على النحو الذي نشأوا منه وبه؟.

فصل

هذا هو الأمر الأرفع والوصف الأعلى للروح، ثم إلى هذا فقد أوجد لكل خلق أمرًا، فالسماوات لهن أمرهن، وكذلك الأفلاك والرياح والأمطار والأرضون والنبات، وكل موجود دقَّ أو جلَّ علا أو سفل، فكلما علا الموجود كان أمره عليًّا وبالضد.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

[وقال: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل:٢] [1].

وقال: ﴿تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤] والإذن هنا أمر وكلام عَلِيّ، والروح منه عَلِيّ، يقول - عزَّ من قائل: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ إذا علا الأمر احتملت فيه المرادات، [فروح كل امرئٍ][2] مصاحب له ملازم له على قدر نسبته وقدره.

جاء عن الإمام علي ﷺ أنه قال: «الروح ملك من الملائكة، له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، ينطق بكل لسان سبعين ألف لغة، يسبح الله بها كلها، يخلق الله - جل ثناؤه - من كل تسبيحة سبعين ألف ملك، يسبح مع

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «فروج كل أمر».

الملائكة إلى يوم القيامة» وهذا إن صحَّ وجوده وصدق الراوي له عن علي ﷺ فهو حجة، وما [ذلك][1] على الله بعزيز.

وكذلك روي عن ابن عباس: أنه ملك.

وروي عنه: أنهم أمر من أمر الله وخلق من خلق الله، صوَّرهم على صور بني آدم، ما ينزل من السماء من ملك إلا ومعه الروح.

وقيل: إن الخليقة كلهم عشرة أقسام؛ فتسعة أقسام منها الروح، وقسم واحد سائر ذلك.

فصل

الأمر الذي شاع وجوده أمران: أمر خلق، وأمر وحي، ولكل أمر روح يصحبه كما تقدم ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] فأمر الخلق له روحه على قدر قربه وبعده، علاء الخلق من علاء الروح الذي كان عنه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا سقطت النطفة في الرحم نزل إليها ملك الأرحام، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة**» وفيه: «**فينفخ الروح فيها**»[2].

فعلى هذا كل نفس منفوسة، فملك الأرحام ينفخ فيها الروح، وصعد الأمر بالروح بعيسى ابن مريم؛ لاختصاصه به ﷻ إلى ما عبَّر عنه بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧] وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١] وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

وذكر في آدم ﵇ من الاختصاص ما هو أظهر قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] فاتصف ﷻ بالنفخ فيه دون واسطة ذكرها، والنفخ وإن كان دون واسطة وصفًا على الذات العلي سبحانه وله الحمد.

فالقول الحق في ذلك: إن كل ما بان عن الله - جلَّ ذكره - فهو له عبد ومنه خلق، وإنما تفاضل العباد بقدر اجتبائه إياهم ومشيئته فيهم، فاعلم ذلك.

---

(١) في النسخة (خ): «هو».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢)، ومسلم (٢٦٤٦)، وأحمد (١٢٥٢١)، والطيالسي (٢٠٧٣)، وأبو عوانة كما في إتحاف المهرة للحافظ (١٣٨٦).

وأمَّا روح الوحي فهو - والله أعلم بما ينزل - من أمره الذي هو كلامه العلي في الأمر والنهي والقصص والحديث كله، كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وكقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] إلى جميع ما [يتفرع](١) إليه القرآن.

قال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

وقوله: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ١ - ٣].

ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فتبين من مجموع هذه الشواهد أن الروح يكون من أمره؛ أي: من كلامه، ومن أمره؛ أي: من شأنه في التكوين، ومن أمره؛ أي: من شأنه في الإفهام والهداية، ومن أمره الذي له في خلقه الذي هو الملك، وفي كل خلق أمره [ووحيه](٢).

فصل

المعهود في الوجود أنه - جلَّ ذكره - له بكل صفة اسم هو من أسمائه، وأن كل اسم له مسلكه في الوجود من ذلك أنه السميع البصير، فأوجد السمع والبصر، وكذلك هو القادر المريد والعالم، [فأوجد](٣) العلوم والإرادات والقدر، وهو الحي أوجد الحياة والإحياء وله الروح.

قال - عزَّ من قائل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩].

---

(١) في النسخة (خ): «تنوع».

(٢) في النسخة (خ): «وروحه».

(٣) في النسخة (خ): «وإذا وجد».

وقال في المسيح ﷺ: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

وقال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] كذلك خلق خلقًا هو الروح، تعرج الملائكة والروح إليه، ومنه روح القدس والروح الأمين جبريل ﷺ، والمؤمنون يتحابون بروح الله، وقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الريح فإنها من روح الرحمن**»(١) وكل روح اتصف به فهو صفة له وهو منه، وكل ما بان عنه فهو خلقه، ومنه تسبيح الملائكة ورسول الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»(٢).

ثم من هذا الروح ما هو منه قريب، كالروح الذي نفخ فيه في آدم ﷺ والروح الذي سمى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ فذلك تحقيق حقيقة لمن آثره به وخصَّه بخصوصيته، ثم إلى ما وراء ذلك درجات ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾(٣) [الإسراء:٨٦] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ما قال قط في شيء: «ولئن شئنا» إلا قضى من ذلك ما شاءه، قوله الحق وله الملك، نسأل الله العفو الغفور الرحيم معافاته ورحمته ومغفرته.

قال رسول الله ﷺ: «**يسري علي القرآن ليلاً، فيرفع حتى يمحى من الصحف رسمه، ومن القلوب حفظه، ذلك إذا ضيعت حدود الله، واستحلت محارمه وتليت**

---

(١) أخرجه النسائي (١٠٧٧٣)، وابن أبي شيبة (٢٩٢١٩)، والبيهقي (٥٢٣٤)، وأحمد (٢١١٧٧)، والحاكم (٣٠٧٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجة (٣٧٢٧)، وأبو الشيخ (٨١٠١٤)، والضياء (١٢٢٤) وقال: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٩)، وأحمد (٢٤١٠٩).

(٣) لما ذكر أنَّه ما آتاهم من العلم إلَّا قليلاً قال ها هنا: إنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل لقدر عليه، وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب، وكتابته من الكتب، والمراد بالذي أوحينا إليك: القرآن. واحتج الكعبي بهذه الآية الكريمة بأنَّ القرآن مخلوقٌ؛ فقال: الذي يقدر على إزالته والذَّهاب به يستحيل أن يكون قديمًا، بل يجب أن يكون محدثًا. وأجيب بأن يكون المراد بهذا الإذهاب: إزالة العلم به عن القلوب، وإزالة النَّقش الدَّال عليه من المصحف، وذلك لا يوجبُ كون ذلك المصكوكِ المدلول محدثًا. تفسير اللباب لابن عادل (١٠/٣٧٨).

حروفه لغير الله»[١].

وقد قالوا: إن أول ما يرفع من القرآن فهمه.

روي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنها ستكون فتن**» قال: فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله كتاب الله، فهو خير ما قبلكم وما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم**»[٢].

وروى رافع بن خديج قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترئ القرآن يُقرئ بعضنا بعضًا، فقال: «**الحمد لله كتاب الله واحد، فيكم الأخيار والأحمر والأسود، اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقرؤونه، ويقيمون حروف القرآن كما تقام السهم، لا يجاوز تراقيهم يتعجلون ثوابه ولا يتأجلونه**»[٣].

وروى زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: «**ذاك عند أوان ذهاب العلم**» قال: قلت: يا رسول الله، كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «**ثكلتك أمك زياد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا يعملون بشيء مما فيهما**»[٤] وهذه سبيل القرآن من هنا يأتيه ما أنذر به الله ﷻ ورسوله ﷺ.

نظم بذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يقول - عزَّ من قائل: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فيما قدره من الإمتاع به، وإلا

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩١٦)، وعبد بن حميد (٤٦٦)، وأبو داود (٨٣١)، وابن حبان (٧٦٠)، والطبراني (٦٠٢٤)، والبيهقي في الشعب (٢٦٤٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٩٩)، والطبراني (٥١٥٤)، وابن ماجة (٤١٨٤).

رحمة منه فيما عفا عنه من ذنوب عباده، الموجبة لرفعه من بينهم ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٨٧] في إنزاله عليك، وبما خصك به من النبوة والرسالة في تأخير ذلك، والعفو عن العباد.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨ - ٩٣].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] هذا خطاب متصل المعنى بخطاب، أخبر به عن طلبهم آية على رسالته، وصدق ما جاء به من قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥].

ثم قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦] إلى قوله: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٤٨].

ثم قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] فقال في هذه الآية، وهو أعلم: قد كان في آيات القرآن أعظم آية على صدق ما [جاءت][1] به، وهو القرآن ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء:٨٨].

---

(١) في النسخة (خ): «جئت».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء:٨٩] [يقول][(١)]: بيَّنا لهم سُبل الهدى، وأريناهم معالم العلم بضروب التبيان وأنواع الهدايات ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠].

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠] إلى آخر ما ذكروه من تشططهم، وما أبدوه من عتوهم ووصف ضلالهم.

نظم بذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٣] هذا تسبيح تعظيم [له][(٢)] - جل ذكره - أن يفعل فعله غيره، وهو [أيضًا][(٣)] تسبيح تعجيب من ضلالهم وجهلهم أن يسأل مثل هذا بشر.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤ – ٩٨].

ثم أتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٤] أوعجبوا أن جاءهم ذكر من ربهم على رجل منهم؛ لينذرهم أمر الله كله معجب عجيب؛ هو يعجب رسوله من إبعادهم أن

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «لله».

(٣) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).

يبعث الله بشرًا رسولاً، وهم يكثرون التعجب من أن بعث الله بشرًا رسولاً، ولو قدروا الله حق قدره لم يبعدوا ذلك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

نظم بذلك ما جلى [به][1] عن وجه الحق المتعجب منه بقوله الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾[2] [الإسراء:٩٥] ذلك أعرف في البيان وأبلغ في وصف الحكمة، لو كان الرسول إلى البشر ملكًا أو غيره مما ليس ببشر ما بلغ من [التبيين ما بلغه البشرى][3] فإنه يبين بقوله وبفعله وأكثر أحوال البشر ليست للملك؛ [أين][4] أكل الطعام وشرب الشراب وإخراجه والنكاح ولواحقه، إلى غير ذلك من أحواله وضروراته.

تمم ذلك بقوله الحق: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:٩٦] معنى ذلك: أن الله - جل ذكره - شهيد على ما فات من ذلك في هؤلاء وهؤلاء، إنه كان خبيرًا ببواطن عباده، بصيرًا بظواهرهم، يعلم ما يصلحهم وما يصلحون عليه.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: لو وجد وثبت أن في الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي الإنس مطمئنين مستقرين فيها ساكنين بها. قال الزجاج: «مطمئنين»: مستوطنين في الأرض، ومعنى الطمأنينة: السكون، فالمراد ها هنا: المقام والاستيطان، فإنه يقال: سكن البلد فلان: إذا أقام فيها وإن كان ماشيًا متقلبًا في حاجاته ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ حتى يكون من جنسهم، وفيه إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين:

الأوّل: كون سكان الأرض ملائكة.

الثاني: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء؛ إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه، فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة. فتح القدير (٣٥٥/٤).

(٣) في النسخة (خ): «النبيين».

(٤) في النسخة (خ): «من».

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ عطف بالواو في قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ﴾ [الإسراء:٩٧] تقدير انتظام الكلام بعضه ببعض، والله أعلم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥] [ويهدي][(١)] من يشاء ويضل من يشاء ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي...﴾ [الأعراف:١٧٨] فانتظم [بهذا معنى][(٢)] ما في الخطاب وما في العقول من الحكمة؛ لأجل الابتلاء، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠] أي: بمن يهتدي ومن لا يهتدي.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أمَّا الضالون ﴿نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

ثم ذكر أنهم استأهلوا ذلك منه بما اكتسبوا من ذنوبهم، وتكذيبهم الرسل، وردهم الكتب، وتكذيبهم بالدار الآخرة، وقولهم في ذلك: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨].

أخبر ﷻ أنه أضلهم عن هدايتهم، وأعماهم عن رؤية الحق، وأصمهم عن سماعه، وأبكمهم عن الشهادة به والنطق [بحقيقه][(٣)] لأنهم كفروا بآيات الله ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وأنبأنا به كذلك، فحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، لما تعاموا عن الهدى في هذه وبكموا وصموا، وتركوا النظر في آيات الله في السماوات والأرض، فأنشأهم على وجوههم لذلك كما كانوا في هذه مكبين على شهواتهم وضلالاتهم، ثم جعل مأواهم جهنم على ما هي عليه، نسأل الله العفو الغفور الرحيم معافاته ورحمته.

وإنما ورطهم في عمههم هذا كفرهم، ووصفهم الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

---

(١) في النسخة (خ): «يهدي الله».

(٢) في النسخة (خ): «هذا المعنى».

(٣) في النسخة (خ): «بحقيقته».

- بالعجز عن القدرة على إعادتهم، وعن العلم بتميزهم من سواهم في غيابات [الهدي][١] كقولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيقول الله، جلَّ من قائل: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

ثم قال قاطعًا بهم في شبهتهم بقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١] يقول - عزَّ من قائل: إنما هو ملك الموت يتوفاكم، وعلى نحو ما توفاكم، وحقيقة ما أماتكم عليه من صورة وعمل، وهداية أو ضلالة، أو أي ضرب من الوجود توفاكم عليه يعيدكم، وعلى ذلك منكم توقفون عند ربكم.

فصل

المعهود المعلوم يبدأ به الإيمان، والمعقول أن الله ﷻ لم يزل عالمًا بمن هو خالقه قبل أن يخلقه بصفته وصورته ونعوته كلها، وما يكون منه [بتوابع ذلك وشؤونه][٢] ثم فطره أولاً؛ ليقرره ويشهده، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية أمثال الذَّر**»[٣].

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] ولما قررهم فأقروا، وأشهدهم على أنفسهم وعلى ربوبيته ورسالاته فشهدوا.

كان ذلك منه ما عبَّر عنه لخليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٢٦٠] ولما كان ذلك جعل من كل واحد منهم جزءًا على ما هو أصل له في

---

(١) في النسخة (خ): «البلاء».

(٢) في النسخة (خ): «سواء مع ذلك وسواه».

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، ومالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، وابن حبان (٦١٦٦)، والآجرى (ص:١٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٢٥)، والضياء (٢٨٩) وقال: إسناده منقطع.

الوجود، فلما [دعاهم](١) إلى الكون، وهو إخراجهم إلى هذه الدار أسرعوا إليه بالإجابة.

ثم هو يميتهم على صورهم وقدورهم وأجسامهم وشأنهم كله، فعلى الحالة التي يتوفاهم عليها يجيبهم، غير أنهم مجمع لهم بين بدايتهم في تمام الخلقة وبديع الفطرة، ونهايتهم في كمال أبدانهم المقدرة لهم، وتوابع أعمالهم وأرزاقهم وآثارهم، وأن رؤيته إياهم في غيابات الغيب، وإحاطته بهم علمًا وقدرة ومشيئة، وتخصيصًا لكل ذات منهم بما خصَّه به [لأعرق](٢) في البعد عن التمييز بين أشكالهم وصورهم، وأجزائهم في أتربة الأرض، ومفترق أهوية الأجزاء، ومائعات المياه، وأبعاض غاذيات النبات والجمادات والحيوانات.

وقد أصار ذلك كله إلى نقص الخلقة، وذمَّه في الكتاب بعد الكتاب الأول، وإنما هو العدم الأول مع وجودهم في الوجود العلي؛ حيث لم يكونوا موجودين لأنفسهم، بل موجودين له في علمه المحيط وقدرته القاهرة، ومشيئته الغالبة بصفاتهم وأسمائهم وأنسابهم، وأسماء آبائهم وأمهاتهم، وبلدانهم وأرزاقهم وأعمالهم، وآثارهم وآجالهم على اختلاف أحوالهم في نموهم واضمحلالهم، و[تدرُّجهم](٣) في طبقات نشؤهم [ووجودهم وجميع توابع وجودهم](٤).

أحاط بذلك كله [قدرةً و](٥) علمًا ومشيئةً في أزل الأزل لا إلى أول، ثم كتبهم على ذلك في اللوح المحفوظ؛ إذ قال للقلم: «**اكتب ما هو كائن في الوجود**»(٦) فكتبه كذلك، ويوم [قضى القضية](٧) وأخذ المواثيق والإقرار والشهادة، ثم بث موجود

---

(١) في النسخة (خ): «دعا بهم».

(٢) في النسخة (خ): «لأعرف».

(٣) في النسخة (خ): «تدريجهم».

(٤) في النسخة (خ): «وعودهم من جميع توابع وجودهم».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)، وابن جرير في تفسيره (١٧/٢٩، ٩٨)، والضياء (٤٣١).

(٧) في النسخة (خ): «قضاء القبضة».

تلك الذوات في خزائن السماوات والأرض بتوابعه أجمع، ثم الخلقة لعمارة هذه الدار اليوم بذلك المكتوب، ثم الموت بما فيه، ثم الإحياء الآخر للجزاء.

يقول الله ﷻ لهم: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَو حَدِيدًا * أَو خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥٠ - ٥١] فهذه هي الفطرة الأولى [بعد][1] الموتة الأولى التي قال فيها أهل النار في النار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] الإماتة الأولى من ذلك الإحياء الأول، والإماتة الثانية من هذه الحياة اليوم.

قال الله - عزَّ من قائل - فيما نحن بسبيل تبيانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت:١٩] فأخبر أنهم قد رأوا ذلك، فهو إحياؤهم الأول ثم يعيده الآن.

ثم قال - عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ [العنكبوت:١٩ - ٢٠] [فأحالهم][2] في تعرف هذه البداءة على [التيسار][3] في الأرض؛ ليروا كيف بداية الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة هي تلك آخرة؛ إذ هذه نشأة أولى، فقد علم من له أدنى تمييز وأيسر حظ من عقل أنه مبتدئ لا محالة، وأن مبتدأه قد تقدم في شأنه كله قبل إبدائه، ثم أوجده بعد إعدامه بعدما سوى به الهواء والماء والأرض والفتح والفيح، فأوجده على سواء ما تقدم فيه قبل، وسبق به علمه.

أتراه - عفا الله عنا وعنك - وقد فطره أولاً، ثم أوجده بعد على علم به ومشيئته له، وقدرته محيطة به بعجزه في النشأة الآخرة، وإن سوى به الأرض والهواء والوجود، وهو يقول مجيبًا لهم عن قولهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾

(١) في النسخة (خ): «قبل».
(٢) في النسخة (خ): «اليوم فآجالهم».
(٣) في النسخة (خ): «التسيار».

[ق:٢ - ٤] كيف لا يكون كتابه حفيظًا وما من ذرة من ذرات العالم كيف تصرفت، ولا مثقال خردلة في السماوات والأرض تعزب عن علمه أو تسقط عن كتابه؟!.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١ - ٥٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٤ - ٥٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٩ - ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء:٩٩] يقول الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] بلى يعلمه على التفصيل، وتفصيل التفصيل على التفصيل الإلهي، وإحاطة العليم الخبير، وفي خلق السماوات والأرض، وجريان الأفلاك والشمس والقمر والنجوم، وتواتر الليل والنهار، ودوائر المد والجزر والغيض والفيض، وإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإحيائها بعد موتها، في ذلك كله إخبار بالعود بعد البدء، و[إنباء][1] بالإحياء من بعد الموت، ومشاهدات لتحصيله بالعلم لما خلقه.

(١) في النسخة (خ): «إيتاء».

وإن الإحياء بعد الموت يكون إلى أوقات معلومة، وآجال لا تتعداه مضروبة، وإعلام بأن الدار الآخرة خالفة لهذه الدار كما يخلف النهار الليل والليل النهار، وكما اقتدر على الخلق في البداية، فأولى وأحرى أن يوصف بالقدرة على الإعادة، بل من اقتدر على الخلق الكلي فالوصف له بالقدرة على خلق جزء من ذلك الكلي أولى وأحرى، والناس جزء من خلق السماوات والأرض وما بينهن ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] وقد وعد بذلك، ودلَّ على صدقه بتدوار الدوائر فيما بين السماء والأرض، وكذلك وعد الله [آتٍ][1] ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] الحق الذي [أنزل][2] به ﷻ كما قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

وقال: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧].

وما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عني**»[3] وقد وعيت عنه ما قال.

هذا إلى ما يصحبه من الحفظ والأمر والروح منه، وقد يكون المعنى زائدًا إلى ما تقدم من تنزيله إليه من لدن كلام رب العالمين إلى الروح القدس إلى الروح

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «أنزله».

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي (٩٣٤)، ومالك (٤٧٥)، وأحمد (٢٥٢٩١)، والحاكم (٥٢١٣)، والطبراني (٣٣٤٥)، والحميدي (٢٥٦)، وابن راهويه (٧٥٤)، وعبد بن حميد (١٤٩٠)، وابن خزيمة في التوحيد (ص:١٤٩)، وابن حبان (٣٨).

الأمين إلى قلب الرسول - عليهم السلام - فجعله قرآنًا عربيًا، إلى كلام المؤمنين وتلاوتهم، والروح العلي يصحبه في ذلك كله إلى تلاوة الرسول إياه، وإلى بعض تلاوة المؤمنين، وقد جاء: «**أنه كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع حول وجهه كدوي النحل**»[١].

وكل روح فهو من الأمر، ويكون نزول الأمر والروح عن المنزلة العليا على قدر البعد من المبدأ؛ مثال ذلك: آدم عليه السلام هو أول لبنيه، فإنه نفخ فيه ذو الجلال من روحه، فيبعد ذلك على قدر البعد من الأول، إلا ما استثنى من ذلك حكم المشيئة في الاختصاص [والاصطفاء][٢] كمحمد ﷺ ساد البرية، وهو آخر الرسل.

وأمَّا روح الوحي والإيمان، فقربه على منازل القرب والاختصاص والجاه، وعند رب العالمين [تجديده][٣] بقدر العناية.

وأمَّا الحق الذي نزل به - والله أعلم بما ينزل - فهو ذكر الأسماء والصفات والتعريف بنفسه وذكر التوحيد والإسلام والشرائع والقصص والإنباء كله، والقصص على [ضروبه][٤] ولواحقه من حفظ ورصد عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا.

[الهاء في][٥] قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ عائدة على أمر الله - جل ذكره - فهو الحق أنزله الحق المبين جل جلاله بالحق وللحق.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣)، والترمذي (٣١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١٤٣٩)، والعقيلي (٤/٤٦٠) والحاكم (٣٤٧٩) وصححه، والضياء (٢٣٤) وضعفه، وعبد بن حميد (١٥)، والبزار (٣٠١).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «يجود».

(٤) في النسخة (خ): «حروفه».

(٥) في النسخة (خ): «الثاني».

يَتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾
وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا
تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾
وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ
تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١٠٥ - ١١١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:١٠٥] هذه الآية التي تقدم [ذكرها][(١)] قبل هذا منتظم معناها بقوله: ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:٨٨] المعنى إلى آخره ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦] فرق [به][(٢)] بين الحلال والحرام والمواعظ والأحكام والهدى والضلال والوعد والوعيد، وقد كان مجملاً محكمًا في أم الكتاب، ففصله إلى ما فصله إليه؛ لذلك سماه فرقانًا.

ولما جعل فيه من معنى الفرقان الموجود عن الروح الموحى به مع الملك إلى قلب الرسول ﷺ وما جعله في قلوب أهل العلم والإيمان من الفرقان المذكور بقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] وهو تمييز صور المعاني في الباطن هو في الباطن كتصوير [الصور في][(٣)] الظاهر، فافهم.

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] إلى قوله ﷻ: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤] وقرأها ابن عباس وقتادة وعكرمة وابن محصن والشعبي: «فرّقناه» بالتشديد؛ أي: فرقنا تنزيله، قال: ومن خفف فمعناه: بيّناه، وفي قراءة أبي وابن مسعود: «فرقناه عليك لتقرأه على الناس».

---

(١) في النسخة (خ): «الكلام فيها».
(٢) في النسخة (خ): «فيه».
(٣) في النسخة (خ): «الصورة».

قال: فإذا كان فيه عليك فهو بالتشديد، فعلى القراءة بالتشديد والجمع بينها وبين قراءة التخفيف أنه أنزله إلى بيت العزة جملة بما فيه من الفروق، ثم فرق إنزاله بعد على نجومه ومنازله؛ ليقرأه على الناس على مكث يمكن أن يكون وصف المكث نعتًا للتفريق ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ قد تقدم شرحه، ويكون «نزلناه»: [رتبناه](١) فيكون على ذلك من البيان، فإن تفريقه و[ترتيبه](٢) تبيان له وتنزيل؛ إذ لو كان جملة واحدة لم يكن مفهومًا لنا، فنزوله على منازله أجدر لأن يفهم؛ لنزوله على أسبابه، [بيَّن](٣) هذا ما يأتي بعده.

قوله تعالى: **﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَو لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾** يعني: من قبل القرآن **﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾** أي: كتاب الله **﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾**(٤) [الإسراء:١٠٧] الذقن: مجتمع اللحيين.

مفهوم هذا الخطاب: أن كل كتاب أنزل قبل القرآن مثل القرآن، فكان أولوا العلم إذا يتلى عليهم كتاب الله [فيمر](٥) التالي على أسماء الله ﷻ وعلى ذكر سجود الملائكة والأنبياء والمرسلين وأولي العلم من قبلهم، وإذا مرَّ القارئ على وعد الله

---

(١) في النسخة (خ): «رتلناه».

(٢) في النسخة (خ): «ترتيله».

(٣) في النسخة (خ): «يتبين».

(٤) **﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾** أي: يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه، وإنما قيد الخرور - وهو السقوط - بكونه للأذقان؛ أي: عليها؛ لأن الذقن وهو مجتمع اللحيين أوّل ما يحاذي الأرض. قال الزجاج: لأن الذقن مجتمع اللحيين، وكما يبتدىء الإنسان بالخرور للسجود فأوّل ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن. وقيل: المراد تعفير اللحية في التراب، فإن ذلك غاية الخضوع، وإيثار اللام في الأذقان على «على» للدلالة على الاختصاص، فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور، أو خصوا الخرور بأذقانهم. وقيل: الضمير في قوله: **﴿مِن قَبْلِهِ﴾** راجع إلى النبي ﷺ والأولى ما ذكرناه من رجوعه إلى القرآن؛ لدلالة السياق على ذلك، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ.

وحاصلها: إنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه فلا تبالِ بذلك، فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعًا ظهر أثره البالغ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجدًا لله. فتح القدير (٣٦١/٤).

(٥) في النسخة (خ): «فيخر».

أو [وعيده][(١)] وذكر المكذبين الرادين على المبلغين إليهم عن الله - عزَّ جلاله - يخرون للأذقان سجدًا لأجل سجود الساجدين ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء:١٠٨] يتوبون ويتبرءون من فعل أولئك ويؤمنون به ويسبحون الله تعالى عما نسبه إليه أولئك وإلى كتابه وأنبيائه ورسله فيقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء:١٠٨] وأكثر ما يأتي السجود في القرآن فلمعنى الاقتداء.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] وقرأ طلحة: «أيًّا من تدعوا» مثقلة، كأنه قال: من دعوت بهذين الاسمين فهو الله - جلَّ ذكره - وكذلك إن دعوته بالكريم؛ أي: بالحليم والعالم والقادر، إلى غير ذلك من الأسماء، فهو هو له الأسماء الحسنى، وقال - عز من قائل: ﴿وَللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

---

(١) في النسخة (خ): «وعيد».

تفسير سورة الكهف

[مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف: ١-٨].

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ * وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾[2] [الكهف: ١ - ٢] قيل أن قوله: «قيمًا» مؤخر في التلاوة، قالوا: إنما معناه: «الذي أنزل على عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا» وهو وجه صحيح - إن

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده، فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم لعبادة أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

شاء الله - على أن يكون «قيمًا» نعتًا للكتاب.

ثم قال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: خاصة من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:٢] أي: حسن المنقلب في الآخرة والخلود، [فهذه أقوال](١) أهل التفسير في صدر هذه السورة.

فصل

قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أي: مباركًا شارعًا لصراطه المستقيم الذي هو الدين القيّم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَهُ﴾ في هذا الصراط ﴿عِوَجًا﴾ [الكهف:١].

﴿قَيِّمًا﴾ [الكهف:٢] فيكون قوله: «عوجًا» نعتًا لقوله: «قيمًا»؛ إذ أهل الكتابين قبلنا لما عتوا على رسلهم وعصوا فيما نهوا عنه ألزموا أغلالاً من الكلف، وحملوا أصار الأعمال، ومنعوا مع ذلك مواسم [الأرياح](٢) وكان ذلك منهم والرسول بين أظهرهم، والكتاب ينزل عليه والوحي يوحى إليه.

قال الله ﷻ لسلفنا ﷺ جميعهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة:١٠١ - ١٠٢].

قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر يخطب يوم جمعة: «**هذا يومنا الذي كتبه الله لنا، الناس فيه لنا، تبع اليوم لنا وغدًا لليهود وبعد غد للنصارى**»(٣).

وفي أخرى: «**نحن الآخرون السابقون، ونحن أول من يدخل الجنة، فهذا يومهم الذي فرضه الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له**»(٤).

ومصداق هذا من القرآن [قوله](٥): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

---

(١) في النسخة (خ): «هذا قول».
(٢) في النسخة (خ): «الأرباح».
(٣) أخرجه بنحوه أحمد (١٠٨٠٨)، وابن أبي شيبة (١٦٤).
(٤) أخرجه البخاري (٨٣٦) ومسلم (٨٥٥) والنسائي (١٣٦٧) وأحمد (٧٣٠٨) والشافعي (١/ ٦٠)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل:١٢٤].

وقال رسول الله ﷺ يوم الخندق وقد فاتته صلاة العصر؛ لشغله بقتال المشركين: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، ملأ الله قلوبهم** - أو قال: «**بيوتهم**»[(١)] - **نارًا، إن هذه الصلاة كتبت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن صلاها في وقتها فله أجره مرتين**»[(٢)] وذكر ﷺ ما فضلنا الله به من صوم شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، إلى ما قد تقدم ذكره من ردهم على أنبيائهم وعلى رسولهم الخاص بهم - على جميعهم السلام.

قال الله ﷻ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:١٦٠ - ١٦١].

وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦] وأمَّا النصارى فهم الضالون المضلون الشارعون لأتباعهم المطرودون عن الحق، فهذا المعنى هو المعبر عنه بالعوج؛ ولأنه من عند الله ملزمًا لهم مأمورًا به فيه النجاة لمن اتبعه منهم وفعله، وهو الهدى في ذلك الوقت لمن اهتدى به كان قيمًا، ولانحرافه عن الصراط المستقيم الدين القيم دين الإسلام [الذي هو الحقيقة السمحة][(٣)] بالإلزام، عقابًا لهم لما كان منهم، فكان لذلك ذا عوج، فافهم.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٨٩١)، والطبراني في الأوسط (١١١٨)، والبزار (٢٩٠٦)، وقال الهيثمي (٣٠٩/١): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٧٣) ومسلم (٦٢٧) وأبو داود (٤٠٩) والترمذي (٢٩٨٤) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٣٥٨) وابن ماجة (٦٨٤) وابن أبي شيبة (٨٥٩٦)، والبزار (٥٤٩) وأبو يعلى (٣٨٨) وابن حبان (١٧٤٥) والبيهقي (١٩٩٨) والطيالسي (٣٦٦).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

ثم لم يتركهم أتباعهم؛ ذلك لاختلافهم فيما شرعه لهم ورضيه لهم دينًا إلى أن [يشأ][١] ذلك [ليكون][٢] خروج الدجال فيهم، نظم ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:٢] واشترط العمل الصالح مع الإيمان كذلك الوجود، ألا ترى أن الله - جل ذكره - هو السلام المؤمن، له الأسماء الحسنى والصفات العلا بكل وجه وبكل معنى، ثم هو ﷻ أوجد العرش العظيم والكرسي الكريم، وخلق السماوات والأرض وما بين ذلك بالحق بحكمة بالغة وحجة للعقول قاهرة، ضمن ذلك كله شرعة الفطرة وكرم الخلقة، فهذا منبعث [اشتراط][٣] العمل مع الإيمان والإسلام، لقد [خاب][٤] من سنن الصواب من اعتقد قول القائلين الذين زعموا أنه كما لا ينفع مع الكفر عمل فكذلك لا يضر مع الإيمان عصيان.

نظم بذلك [قوله][٥] جلَّ من قائل: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبَائِهِمْ﴾ [الكهف:٤ - ٥] هم العرب والنصارى، فقد مضى وعيد النذارة للعرب وبقي الوعيد فيها للنصارى، ويمكن أن تكون النذارة بالبأس متوجهًا إلى بأسه بالدجال - لعنه الله - وهو الأظهر لإضافة البأس إلى أنه من لدنه، فإنه - جل ذكره - هو الذي يقدره على ما يكون في أيامه من ظهور القدرة، وكون المقدور الغائب فتنة لكل مفتون - نعوذ بالله من فتنته وشره.

وكذلك هو الأظهر في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:٢ - ٣] أنهم الصابرون من عباد الله يومئذٍ [القائمون][٦] على أمره، حتى يأتي [الله][٧] بأمره هذا على الخصوص، ويدخل

(١) في النسخة (خ): «أنشأ».
(٢) في النسخة (خ): «لكون».
(٣) في النسخة (خ): «أشراط».
(٤) في النسخة (خ): «جاءت».
(٥) في النسخة (خ): «قول».
(٦) في النسخة (خ): «المقيمون».
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الكل ممن آمن بالله وعمل الصالحات في ذلك بحكم العموم.

وفقه هذا الخطاب هو المعني بقول رسول الله ﷺ: «**من قرأ العشر الآيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[١] فإنه إذا كان في ذلك الوقت وخرج قصَّر الله مدته وأوهن كيده، قرأ المؤمن هذه الآيات فعقل عن الله ما عناه بالبشارة، وعلم مَن المؤمنون يومئذٍ، الذين يعملون الصالحات على حين [القربة والإخافة][٢] والنذارة لمن يتوجه يومئذٍ، وفهم بقوله بالإضافة إلى يومئذٍ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[٣] [الكهف: ٧ - ٨].

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٨٧)، وأحمد (٢١٧٦٠)، والحاكم (٣٣٩١) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (٥٧٩٣).

(٢) في النسخة (خ): «الغربة والإحاقة».

(٣) قال الزمخشري: ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعني: مثل أرض بيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته وإماطة حسنة، وإبطال ما به كان زينة من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ونحو ذلك. انتهى.

قيل: والصعيد ما تصاعد على وجه الأرض. وقال مجاهد: الأرض التي لا نبات بها. وقال السدّي: الأملس المستوي. وقيل: الطريق. وفي الحديث: «إياكم والقعود على الصعدات». تفسير البحر المحيط (٧/٤١٧).

مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ٩ - ١٦].

ووقف يومئذٍ على ما جعل أصحاب الكهف [والرقيم آية][(١)] عليه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧] فإنه إذا كان يومئذٍ أظهر الله لأصحاب الكهف ما عناه رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ومتى ينجزهم وعده باستجابته لهم [لدعائه][(٢)] الذي حكاه عنهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] حرف «أم» لا يجيء إلا استفهامًا بعد [تقدم كلام][(٣)] إلا ما ذكر أنها قد تجيء ابتداء، حكي ذلك عن بعضهم، قيل: هي لغة هذيل، يقولون: أم عندك طعام أم نحن خيار الناس أم نحن نطعم الطعام، [والأولى][(٤)] أن يكون مرجوعها على ما في حرف «لعل» من معنى الاستفهام في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] فإنه جائز أن يقول الرجل لمخاطبه: «لعلك تقول كذا أم تقول كذا وكذا؟» وهو ضرب من الاستفهام ممتزج بمعنى الترجي والتوقع، ثم يخلص لمحض الاستفهام بضرب من التقدير أو الترجي أو التوقع.

وقد يكون قوله: ﴿أَمْ﴾ مرجوعًا على قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ التي هي بمعنى: بل، فيكون معنى الكلام: فلعلك مهلك نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا، بل ﴿حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] أي: إنها من بعض الآيات وليست بأعجب من آياتنا الدالة على صدق ما جئتهم به، فتحرص لذلك على أن تعلمهم بها.

وقيل: إن قريشًا لما جاءهم رسول الله ﷺ بما جاءهم به من النبوة والرسالة

(١) في النسخة (خ): «وأنه».
(٢) في النسخة (خ): «لدعائهم».
(٣) في النسخة (خ): «تقدير».
(٤) في النسخة (خ): «في الأولى».

وسب آلهتهم وسفه أحلامهم اجتمعوا على أن يرسلوا إلى يهود خيبر يسألونهم عن شأنه وعن مثله، وهل [يجدونهم][١] فيما علموه، وقالوا لهم: أنتم أهل كتاب وعلم فأخبرونا عن شأنه وعن مثله، فنفس عليهم أهل خيبر بالعلم الذين كانوا يعرفونه من أمره حسدًا منهم إن كان من غيرهم، وقالوا لهم: سلوه عن أمرين، فإن أخبركم بهما فهو نبي، أحد الأمرين: فتية ذهبوا في الدهر كان لهم قصة عجب، وعن فتى جاب الأرضين وسلكها، فإن أخبركم [بها][٢] فهو نبي.

ولما رجع إليهم رسولهم بالخبر سألوه عن المسألتين، فقال [لهم][٣]: سأخبركم عن ذلك غدًا، فلما أصبح غدوا عليه يستنجزون وعده، فاستلبث الوحي عليه إلى خمسة عشر يومًا حتى أكثرت قريش في ذلك [من القال، فأنزل الله إلى تمام خمسة عشر يومًا][٤] ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ﴾ [الكهف:١] إلى آخر السورة، فالله أعلم أكان هذا هكذا أم لا.

وفي السورة معاتبته إياه على شدة اهتمامه بتأخرهم عنه وخلافهم لله - جل ذكره - وترك الاستجابة له وتركه الاستثناء بمشيئة الله - تبارك وتعالى - عندما هو قائل [فيما][٥] لم يكن بعد أنه [سيكون][٦] على ما زعمه أكثر الشارحين، وإنما معنى قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف:٢٣ - ٢٤] يقول: لا تعد عني أحدًا فيما تستقبله إلا أن أشاء لك ذلك؛ يعني: إلا أن آذن لك في ذلك، فتعد على ثقة منك بوعدي، إلى غير ذلك من علمه الذي أنزلها به.

فصل

وإن كان المعتمد في «أم» أن يكون مبتدأ بها على ما جاءت في لغة هذيل فالمعني بها - والله أعلم: أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا

---

(١) في النسخة (خ): «يجدونه».
(٢) في النسخة (خ): «بهما».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «مما».
(٦) في النسخة (خ): «سكون».

عجبًا؟ كما يقول: أعلمت أن كذا هو كذا وكذا في باب العلم، وهذا في [باطن][(١)] الظن والحسبان، نقول: أظننت هذا: [أحسبته][(٢)].

ثم أنشأ بعلمه مما لم يكن علمه قبل بقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٠] «الكهف»: المغارة في الجبل، إلا أنه أوسع من الغار وأكبر، إن كان صغيرًا فهو غار، وإن كان كبيرًا فهو كهف، «الرقيم»: كثر الاختلاف [فيه من][(٣)] علماء السلف - رحمة الله عليهم - ما هو، فمن قائل يقول: الرقيم: الكهف [نفسه][(٤)]، ومن قائل يقول: هو الوادي الذي فيه الكهف، ومن قائل يقول: الرقيم: القرية التي خرجوا عنها حتى أووا إلى الكهف.

قال ابن عباس ﷺ: لا أدري أهو كتاب أم هو تبيان، وروي عنه أنه قال: هو الكتاب، وهو أولى الوجوه به إن شاء الله ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قال رسول الله ﷺ في ابن عباس: «اللهم حفظه الكتاب وعلمه التأويل»[(٥)].

الرقيم: هو المكتوب فيه الأعمال، قال الله - عزَّ من قائل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢١] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٧-٩] وسمي ذلك الغار الذي ذكره رسول الله ﷺ بالرقيم؛ لرحمة الله - جل ذكره - الثلاثة نفر الذين أووا إليه بأعمالهم المكتوبة لهم فيما هنالك.

خرَّج أحمد بن عبد الله بن صالح في كتابه «المسند» بسند له إلى النعمان بن بشير الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يذكر الرقيم فقال: «إن ثلاثة نفر كانوا في

---

(١) في النسخة (خ): «باب».

(٢) في النسخة (خ): «حسبته».

(٣) في النسخة (خ): «بين».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٢٢)، والطبراني (١١٥٣١)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٦)، وابن سعد (٢/ ٣٦٥)، والحاكم (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد.

كهف - وقال غيره: «إن ثلاثة نفر كانوا يمشون في الطريق فآواهم المطر إلى غار» - قال: «فوقع عليهم كسف من الجبل على باب الكهف فأوصده عليهم، فقال قائل منهم: تذكروا أيكم عمل حسنة.

وفي أخرى: «قال قائل منهم: والله ما ينجيكم من هذا إلا عمل صالح عملتموه لله خالصًا، فادعوا الله أن يفرج عنكم ما نزل بكم».

وقال في هذه: «لعل الله برحمته أن يرحمنا، فقال أحدهم: قد عملت حسنة مرة، كان لي أجراء يعملون لي عملاً استأجرت كل واحد منهم في نهاره كله بأجرٍ معلوم، فجاءني رجل منهم ذات يوم وسط النهار، فاستأجرته بشرط أصحابه، فعمل في بقية نهاره كما عمل كل رجل منهم في نهاره كله، فرأيت علي في الذمام ألا أنقصه مما استأجرت به أصحابه؛ لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: أتعطي هذا مثلما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف [نهاره][(١)]؟ فقلت: يا عبد الله، لم أبخسك شيئًا من شرطك، وإنما هو مالي أحكم فيه ما شئت، فغضب وذهب وترك أجره، فوضعت حقه في جانب من البيت ما شاء الله.

ثم مرت بي بعد ذلك بقر فاشتريت منها فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء الله، فمر بي بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه، فقال لي: إن لي عندك حقًّا تعرفه، فذكره حتى [عرفه][(٢)] فقلت: إياك أبغي هذا حقك، فعرضتها عليه جميعًا فقال: يا عبد الله، إن لم تصدق علي فلا تسخر بي، فقلت: والله ما أسخر بك، إنها لحقك ما لي منها شيء، فدفعتها إليه جميعًا، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا، قال: فانصدع الجبل حتى رأوا وأبصروا.

قال الآخر: قد عملت حسنة مرة، كان لي فضل وأصابت الناس شدة، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفًا، فقلت لها: والله ما هو دون نفسك، فأبت علي فذهبت، ثم رجعت فذكرتني بالله فأبيت عليها، وقلت لها: والله ما هو دون نفسك، فأبت علي فذهبت، فذكرت ذلك لزوجها، فقال: أعطه نفسك وأغيثي عيالك، فرجعت إلي

---

(١) في النسخة (خ): «نهار».

(٢) في النسخة (خ): «عرفته».

فنشدتني بالله، فأبيت عليها وقلت لها: والله ما هو دون نفسك، فلما رأت ذلك أسلمت إلي نفسها، فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين، قلت لها: خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فتركتها وأعطيتها ما يحق علي لما تكشفتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا، فانصدع حتى عرفوا وتبين.

قال الآخر: قد عملت حسنة مرة، كان لي أبوان شيخان كبيران، وساق باقي الحديث على نحو ما خرجه الغير، [غير أنه قال النعمان: لكأني أسمع هذه من رسول الله ﷺ قال: «**قال الجبل: طاق**»][١] ففرج الله عنهم فخرجوا»[٢] فهذا هو الرقيم، يقول رسول الله ﷺ: «**سمي رقيمًا لمرقوم أعمالهم الصالحة في عليين بشهادة المقربين إياها**»[٣].

وكونهم من الآيات؛ أي: على ما ينفع الله به من الأعمال الصالحة، قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣ – ١٤٤] وهم من الآيات أيضًا على ما يدعو الله به عيسى والمؤمنون، وقد أخرج [الله][٤] يأجوج ومأجوج إلى الأرض، وهم من البأس على ما لا قبل [لأحد بهم][٥] ككسف الجبل الواقع على باب الغار، لم ينزله إلا صالح العمل المتقدم، وسيكون في المؤمنين يومئذٍ من يكون برًا بوالديه، ومن ترك الدنيا بعد تمكنه منها على [حب له][٦] منه لها هذا [إلى][٧] ما ينفع الله [بالأعمال][٨] الصالحة في الدنيا وفي الآخرة وفي القبر.

وأمَّا أصحاب الكهف فكونهم سبعة وثامنهم كلبهم، عدد السبعة آخر العدد

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٤١)، وأبو عوانة (٤٥١٩)، والبزار (٩٠٦).
(٣) لم أقف عليه.
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «لأحدهم».
(٦) في النسخة (خ): «محبة».
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٨) في النسخة (خ): «به من الأعمال».

والكلب الحافظ الحارس وهو عالم القوم، فمثلهم أمة يبلغ من حالها في الهداية، ويبلغ من خمولها ونومتها مثل ذلك، حتى أنهم ليحسبون أيقاظًا وهم رقود، وفي أثناء ذلك يبلوهم الله [بالحسنات والسيئات][١] والله متعاهدهم ومقلبهم حتى يأتي أمره فيهم، [يوقظهم][٢] الله من نومتهم، ويبعثهم من [حالهم][٣] تلك.

قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم عند البيت؛ إذ أنا برجل آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، يقطر ماء أو يهراق ماء، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، قلت: من هذا؟ قيل لي: هو المسيح ابن مريم، وإذا أنا برجل جعد قطط أعور عين اليمنى، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، [يطوف بالبيت، قلت: من هذا؟ قيل لي: هذا المسيح الدجال»[٤] فتثبت في كونهما على عواتق رجلين أو على رجلين][٥].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا

(١) في النسخة (خ): «بالسيئات والحسنات».

(٢) في النسخة (خ): «فيوقظهم».

(٣) في النسخة (خ): «حالتهم».

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٦٢)، ومسلم (١٦٩)، ومالك (١٦٤٠)، وأحمد (٦٣١٢)، وأبو عوانة (٣٨٨).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ١٧ - ٢١].

فإن هذا كله مما لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يعلمون منه ما علموه، وأن أصحاب الكهف أحياء، أخبر الله ﷻ في كتابه أنه بعثهم من نومتهم تلك بعد لبثهم ما لبثوه من السنين العديدة، ولم يخبر بأنه أماتهم، بل أخبر بأن أمرهم غيب في حق المدركين لهم يقول بعضهم: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ يعني: من كان له الأمر حينئذٍ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1] [الكهف: ٢١].

وقد جاء أن أصحاب الكهف يبعثون مع عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وإذا كان عند آخر الزمان أظهر الله من سر أمرهم ما تبين به كفر الدجال [لعنه الله][2] وكذبه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ العشر الآيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[3] والله ورسوله أعلم.

وفيهم من الآيات آية على بعث الله الموتى بعد موتهم، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ أي: ليعلم العاثرون عليهم ﴿أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ﴾ في بعث

---

(١) وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدًا؛ ليكون إكرامًا لهم، ويدوم تعهد الناس كهفهم، وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى، ونهى عنه النبي ﷺ كما في الحديث يوم وفاة رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: «ولولا ذلك لأبرز قبرُه» أي: لأبرز في المسجد النبوي، ولم يجعل وراء جدار الحجرة واتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها منهي عنه؛ لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبية بفعل من يعبدون صالحي ملتهم، وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات؛ لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميّت، وكان بناء المساجد على القبور سنة لأهل النصرانية، فإن كان شرعًا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر. التحرير والتنوير (٣٥٣/٨).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) تقدم تخريجه.

الموتى إلى الأجل المسمى حق ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:٢١] إذا جاء [أجلها فلا تستأخر ساعة ولا تستقدم](١) [﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾](٢) [يونس:٤٩].

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ [الكهف:١١] يعني: بالنوم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من النوم ﴿لِنَعْلَمَ أي الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢] وقرأ الزهري «لِيُعْلَم أَيُّ الحزبين» بالياء(٣)، وبعثهم ذلك [آية](٤) على بعث مستقبل، إن شاء الله يوجده لهم بحكمة له في ذلك.

قوله – عزَّ من قائل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي وبأنه كلام الله وحديثه، يقول الله، جلَّ من قائل: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣].

الفتى: هو الذي ارتفع عن حد الصبا ولم يلحق بالكهولة، هذا في درجات السن، فأمَّا في مراتب درجات أولياء الله، فكل من تحقق في درجة ما فهو فيها إمام وشيخ، وهو يعد فتى إلى درجة أعلى منها يطلبها، كان يوشع فتى موسى – عليهما السلام – وفتية يوسف القائمون بأوامره، وكان أصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم إيمان المؤمنين، ثم زادهم [الله](٥) إيمانًا، فهم بذلك أولياء، فكانت الحالة الأولى بالإضافة إلى الحالة التي بلغهم إياها بزيادة الإيمان فتوة، وهم أيضًا فتية بالإضافة إلى ما ينهضهم إليه بعد هذا.

كذلك ذو القرنين ﷺ فتى في كونه نبيًا ملكًا، وحاله تلك فتوة بالإضافة إلى مستقبله، ووصف الفتوة وحليتها هو حسن التعبد لله العظيم على المروءة، فمتى عظم قدر الرب في قلب العبد لم يبق له سوء خلق؛ إذ الذكر النافع الذي هو ذكر

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) قرأ الزهري بالياء، وفي كتاب ابن خالوية ليعلم {أي الحزبين} حكاه الأخفش. وانظر: معاني القرآن للأخفش (١ /٥١)، [تفسير البحر المحيط ٤٢١/٧].

(٤) في النسخة (خ): «أنه».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

المشاهدة والمكاشفة يطهر العبد من كل دناءة، ومتى كان كذلك فهو فتى؛ لأنه إذا غلب الذكر الهوى فقد جمع أخلاق الفتوة وصفات العبودية، والفتوة مبنية على المروءة والصيانة.

جمع ذلك قول الله ﷻ في وصفه للأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ هذه هي المروءة ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩] هذه هي الصيانة.

وللفتوة ثلاث شعب: الصدق والصبر والشجاعة، [وتجمعت هذه في أصحاب الكهف، وآية واحدة من القرآن جمعت أخلاق الفتوة](١) قوله - جلَّ من قائل: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ونقيض الفتوة سوء الخلق، وهو مطالبتك غيرك أن يوافقك دون أن تطالب نفسك بموافقته، وقد قالوا: من سوء الخلق ألا يحتمل معاملة سيئ الخلق، ومن أخلاق الفتيان كف الأذى [واحتمالهم](٢) من غيرهم،[قال الله - عزَّ من قائل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦] السمة.

وقال](٣): ﴿وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وكمال الفتوة في كمال المروءة، وكمال المروءة عبارة عن كمال العبودية، والسامع إنما يرد التأويل إلى مقدار [إيماء](٤) المفهوم عنده من المعنى المتكلم فيه، وقد كانت للأنبياء والرسل والأولياء أخلاق [وحدة](٥) لكنها كلها معلقة بما يعلمه الله من قلب عبده، فمن كانت محبة الله الغالبة على قلبه كانت أخلاقه تابعة لمحبة الله - جل ذكره - إذ الله عاصمهم في متقلبهم ومثواهم، فإن غضبوا فلله وإن رضوا فلله؛ كغضب موسى على هارون - عليهما السلام - يوم أخذ برأسه وجره

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «احتماله».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

إليه، وكفعله مع الخضر - عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ [الكهف:١٤] يريد لأمرهم هذا المحكي عنه ربط على قلوبهم بالصبر على مخالفة الهوى ومفارقة الوطن والأصحاب، ونبذ ترف الدعة وخلاف قومهم وملكهم، كما قال ﷻ في أم موسى: ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:١٠] ربط أيضًا على قلوب هؤلاء بصفاء اليقين وعزم الإيمان ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤] الشطط: مجاوزة القدر والحد، وصفهم الله - جل ذكره - بأنهم أوتوا الإيمان بوجود البرهان في قولهم: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الكهف:١٥].

قوله تعالى فيما حكاه عنهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ [الكهف:١٦] كما قال إبراهيم ﵇: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦ - ٢٧] فاستثنى المعبود الحق من معبوداتهم الباطلة، وذكر قتادة أنها في مصحف أبي: «وما يعبدون من دون الله».

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢] ربما كانت هذه المقولات لها في علم الله حقائق تكون في المستقبل لما لم يقفوا على علمها لم [يحمد][١] لهم قولهم، وقد قيل: إنها كهوف فيهن أمثلة هؤلاء - والله أعلم - فربما خص [بالإخبار][٢] عن قوم في كهف، وعم بالحكم حيثما كان من أمثالهم ﴿وَللهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [هود:١٢٣].

وقد كثرت أخبار المخبرين عن وجود أمثالهم في كهوف، فربما كان اختلاف الأقوال في القرآن إشعارًا بذلك ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٣] [الكهف:٢٢].

---

(١) في النسخة (خ): «يجهد».

(٢) في النسخة (خ): «بالإخبارات».

(٣) لما شاعت قصة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي ، فكانت مثار تخرصات في معرفة عددهم، وحصر مدة مكثهم في كهفهم، وربما أملى عليهم المتنصرة من العرب في ذلك قصصًا، وقد نبههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم الناس الإعلام =

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾ [الكهف: ٢٢ - ٢٧].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] هذا هو عددهم - إن شاء الله ﷻ - في هذا الكهف، وقد قال في القولين الأولين: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولم يقل ذلك في شأن هؤلاء، وعطف بالواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ ولم يعطف بها في القولين، وفي السبعة [ثم][1] العدد سبعة ووتره، وهي إشارة إلى مراد له هو أعلم به، هؤلاء آية على ما عرض إليه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩] والعطف بالواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] عطف على محذوف أراه قولاً يحقق أنهم سبعة.

قال ابن عباس ﷺ في قوله ﷻ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢]: أنا من أولئك القليل، هم سبعة وثامنهم كلبهم.

نظم بذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢] أي: تبليغًا وإعلامًا بما أتاكه الله لا في غالب ما هم آيات عليه في مستقبله، فذلك باطن ظاهرهم، نهى الله تعالى - جل ذكره - رسوله عن مماراتهم فيه، إلا من آمن وصدق

=

بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للناس، ودل عَلَم الاستقبال على أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك. التحرير والتنوير (٨/٣٥٤).

(١) في النسخة (خ): «تم».

بقول ما هم عليه آية، وذلك خاص من قليل، فمتى كان منهم مراء فامسك عنهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢] يريد من أهل الكتابين، قد أعلمه أنه لا علم عندهم، فكيف يصح استفتاؤهم عن ذلك؟.

قوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥] قيل: إن هذا متصل بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] إلى قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] ثم قال: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢].

[فاتصل][1] بذلك إلى قوله: ﴿هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:٢٤] فكان معناه ويقولون: لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وأراه - والله أعلم - أخبر بعدد ما لبثوا في الكهف إلى أن أعثر عليهم أهل ذلك الزمان.

قال قتادة في حرف عبد الله بن مسعود: وقالوا: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:٢٥] يعني: أهل الكتاب.

ثم قال: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف:٢٦] يمكن أن تكون في [المرة][2] الأولى حتى أعثر عليهم، ويمكن أن يكون المراد من بعدما أعثر عليهم إلى وقت نزول القرآن.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف:٢٦] تعظيمًا لعظمته وإكبارًا لشأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ﴿مَا لَهُم﴾ يريد الكافرين ﴿مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ إذا جاء معلومه في الغيب ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦] وقال في موضع آخر: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧].

نظم بذلك قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ عليهم ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف:٢٧] من كلماته: فتية [أهل][3] الكهف وذو القرنين وعيسى ابن

---

(١) في النسخة (خ): «واتصل».

(٢) في النسخة (خ): «المدة».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

مريم - عليهم السلام، والدجال - لعنه الله - وأصحاب الرقيم، وكل ما كان له مبدأ لم يتم بعد وينتظر إتمامه، فهو كلمة من كلماته ﷻ.

قوله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف:٢٣ - ٢٤] نهى الله - جل ذكره - رسوله ﷺ أن يعد عن ربه بوعد إلا أن يشاء الله ذلك، فيأذن له فيه فيعد عن الله بأمره، وليس قوله هنا: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف:٢٤] استثناء، إنما يستثنى من الجمل والعموم، فيخرج الاستثناء من الجملة ما لم [تتناوله][(١)] الإرادة، وكم له ﷺ من عدة عن ربه ﷻ في بشاراته وإنذاراته عما يكون في المستقبل لا يستثنى في شيء من ذلك؛ لأن الله - جل ذكره - أذن له في ذلك وشاء.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٢٨– ٣١].

قوله ﷻ: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ﴾ [الكهف:٢٩] هذا منتظم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] وارتفع الحق بإضمار المبتدأ، تقديره: وقل هو الحق من ربكم، يقول: فإذا بلغت فقد أعذرت ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] ولا [يهمنك][(٢)] شأنهم ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩].

---

(١) في النسخة (خ): «يشاركه».

(٢) في النسخة (خ): «يهمك».

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٨].

ثم ذكر الجزاءين في دار القرار ثم استمر على ضرب الأمثال [لهم][1] والوعظ والتذكير بقوله ﷻ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف:٣٢] المعنى إلى آخره، مثل ضربه الله برجلين أعطى أحدهما مالاً وولدًا ومن ضروب المال، فأطغاه المال وأنساه شكر المنعم، والرجل الآخر جعله فقيرًا لا مال له ولا منعة ولا جاه.

فجعل أحدهما يحاور صاحبه، فقال الكافر الكثير المال والولد: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤] ونظر إلى ماله فأطغاه، وإلى حالته فاطمأن إليها، ووثق بما أوتي من دنياه، فقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف:٣٥ - ٣٦] وشك في الإرجاع إلى ربه ﷻ فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾[2] [الكهف:٣٦].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قرأ ابن الزبير وزيد بن علي وأبو بحرية وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد وابن مناذر ونافع وابن كثير وابن عامر: «مِنْهُمَا» بضمير التثنية، وكذا في مصاحف مكة والمدينة والشام؛ أي: من الجنتين ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي: مرجعًا وعاقبة لفناء الأولى وبقاء الأخرى على زعمك، وهو تمييز محول من المبتدأ على ما نص عليه أبو حيان، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا؛ لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى حكاية: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ولم يدرِ أن ذلك استدراج، وكأنه لسبق ما يشق عليه فراقه وهي الجنة التي ظن أنها لا تبيد جاء هنا =

قال له صاحبه المؤمن القليل المال والغاشية: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:٣٧] وقرأ ثابت البناني: «ويلك أكفرت [بالذي خلقك»][(١)] فردَّه على أوليته، وأراه سبيل الاعتبار ببدايته.

يقول المؤمن: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٨] وروي عن أبي عمرو: «ولكنه هو الله ربي» بالهاء المثقلة النون.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف:٣٩ – ٤٥].

يقول له: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [الكهف:٣٩] معنى ذلك: ما شاءه الله بي من فقرٍ أو غنىً أو عسر أو يسر لا قوة على الصبر إلا بالله، ولا قوة على الشكر إلا بالله ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف:٣٩] أي: في الدنيا.

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ﴾ على جنتك هذه ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فيهلكها بالأمطار الغزيرة أو بالجدب وعدم الماء ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠] بكثرة المياه.

=

﴿رُدِدتُّ﴾ ولعدمه فيما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى من آية «حم» المذكورة جاء ﴿رُّجِعْتُ﴾ [فصلت:٥٠] فليتأمل! تفسير الألوسي (٢٥٢/١١).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ بتتابع القحط والجدب ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف:٤١].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي: أهلكت ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢] عبَّر بهذا الخطاب عن زوالها عنه [و زواله][١] عنها بالموت، وعن ندمه على الركون إليها والعمل لها.

﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لله الْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤] يريد بعد الموت في دار البقاء، وقرأها أبي: «هنالك الولاية الحق لله» وقرأها عبد الله بن مسعود: «هنالك الولاية لله وهو الحق».

وضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا ووشيك انقطاعها بقوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ نزل الماء من السماء في الخريف، فيخرج به نبات [من][٢] كل شيء، فـ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس:٢٤] كرَّ عليها حر الصيف ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥] شبَّه الله - جل ذكره - الدنيا كلها بسنة واحدة منها، بل بشتاء منها ومصيف، ثم شبه المال والبنين بذلك؛ لأنهم هم الدنيا وبالدنيا.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٤٦ - ٥٠] ثم قال، وقوله الحق: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [أي: بعد الموت وفي الدار

(١) في النسخة (خ): «أو زواله».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الآخرة](١) ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦] كل ما عمل لوجه الله خالصًا فهو من الباقيات الصالحات، وإنما يتصور أن يكون بهذه الصفة من الأعمال ما بقي بعد كفارة الذنوب، وهذا على قدر [قلة](٢) الذنوب وكثرتها(٣).

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)﴾ [الكهف:٥١ – ٥٥].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٤] جدله أن يقول: ليس من الأمر شيء إنما أنا مدبر، والحول والقوة لله ليست إلي، وشبه هذا دون توبة، والشفاء هذا من المرض الرغبة

---

(١) نا بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) **فائدة**: قال المصنف في قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] وكان هذا الوجود الجني قبل خلق آدم ﷺ وقبل إعلان إبليس بفسقه موجود في الثلاث عوالم قبله كما تقدم، فلما أوجد الله عبده وصفيه آدم ﷺ حق إليه منها البعض وسخر له وبان البعض منها عنه، وشرد فسلط عليه، ثم هذا النوع من الجن يشرح في النوع الإنساني، ويعرب عن نفسه فيكون وسواسًا، وقد نزل فيه قرآن وأمرنا بالتعوذ منه، أعني: وجوده عن استقرائه والكلام فيه، وأما سائر الجن من خارج الذين هم عن إبليس – لعنهم الله – فهم والله أعلم ثلاثة أصناف: جزء في الهواء، ومنهم المسترقون للسمع على تفاضل بينهم في ذلك ودرجات ومصافات يصفون فيها فالمسترق الأعلى الأقرب إلى موضع السمع يلقي الكلمة التي يسترقها إلى وليه في مقامه تحته والثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع هكذا حتى تبلغ إلى الكاهن، هكذا إن أدرك الشهاب الأول، وقد ألقاها فإن أدركه قبل ذلك بطلت وفي حين إلقائها إلى وليه يكذب كل ملقى كذبه هكذا إلى الكاهن. [شرح الأسماء ١/٣٤٢].

إلى الله - جل ذكره - والعزم على ما أمر به، فإنما يأتيه من العون والعصمة بقدر ما أوغل في العزم والشروع في تنفيذ المأمور به، فهو العزيز لا ينال ما عنده إلا بالتعبد له والتضرع، وإعمال النفس في طلب مرضاته.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الكهف:٥٦-٦٣].

نظم بذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧] من سننه - تبارك وتعالى - ألا يوجب العقوبة بعد البيان إلا بعد الإعراض عن المبين له، لكن عفوه أوسع من ذنوب عباده، لذلك أتبع [ذلك][(١)] قوله: ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ومن عفوه ومغفرته ما هو للدنيا وما هو للآخرة وما هو لهما معًا، وهذا الخطاب معني به الظالمون؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

نظم بذلك ما هو في معناه قوله: ﴿وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩] أحال السامعين بخطابه هذا على التسيار في

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

الأرض والعبرة، ثم النظر لأنفسهم والأخذ لها بالوثيقة.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[1] [الكهف:٦٠] يقول :ﷺ لا أنفك أسير لا أتثنى أطوي المراحل إلى أن أبلغ مجمع البحرين، رأى ﷺ أنه أوتي العلم دون أهل الأرض؛ إذ لم يعلم في الأرض رسولاً غيره، فأراد الله أن يكشف له عن علم، هو أرفع من علم الرسالة التي هي للبشر، فأعلمه بصاحبه وعناه بالترحال إلى مجمع البحرين، وجعل ذلك له اسمًا للميعاد موافقًا للمجتمعين؛ إذ كان هو عالم أهل الأرض يومئذٍ والخضر كذلك.

والمراد من الله - جل ذكره - أن [يجتمعا][2] كان ذلك [في مجمع][3] البحرين، وجعل له آية على وجوده ما هو مستخرج من البحر، يعلم بذلك أن كل ما هو آية على مطلوب ما فهو من المطلوب بسبب؛ ليكون ذلك منه دلالة على ما هو دال عليه، ومشيرًا بما هو فيه عليه.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ

---

(١) اعلم أن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى ...﴾ [الكهف:٦٠] إشارات: منها: أن شرط المسافر أن يطلب الرفيق، ثم يأخذ الطريق.
ومنها: أن من شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا.
ومنها: أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبره عن مدة مكثه في سفره ليكون الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا يرافقه في ذلك. ومنها: أن من شرط الطالب الصادق أن تكون نيته في طلب شيخ يقتدي به وألا يبرح حتى يبلغ مقصوده ويظفر به، وإلا سيكون بقية عمره طالبًا له فإن طلب الشيخ طلب الحق تعالى على الحقيقة.

(٢) في النسخة (خ): «يجمعهما».

(٣) في النسخة (خ): «لمجمع».

أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٦٤-٧٩].

ولما بلغا مجمع ما بين البحرين بلغا مطلوبهما، وأعجزهما العلم به والتمييز له، فلزمت الآية ما هي عليه آية، [وجعل][(١)] الحوت في البحر، وجمد الماء عليه حبسًا له؛ ليدلهما به على ما جعله الله دليلاً عليه، وسارا بقية يومهما وليلتهما، فوجدا نصبًا وألمًا لتعبهما، وتذكر الفتى مضي الحوت فأخبره بذلك ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

قال الله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥] [العلم الذي][(٢)] هو خاص الخاص من العلم، ولما سأله الصحبة وأعلمه بسبب رحلته إليه قال له: يا موسى أنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، فأنت لا تستطيع معي صبرًا[(٣)]

(١) في النسخة (خ): «وخلق».

(٢) في النسخة (خ): «العلم اللدني».

(٣) قال المصنف: هذه منزلة وسطى بين وصف القادر بالقدرة، ووصف العاجز بالعجز عن الفعل لا يصح تكليفه إياه، ويصح تكليف الموصوف بالقدرة؛ بما جعل الله فيه من القوة.
وقال أيضًا: أي: لأجل شغلك بعلمك الذي علمك الله عن علمي الذي علمني، وقد يعبر بعدم الاستطاعة عن الإباء والإعراض فعل المقدور، فيكون تركًا له. [شرح الأسماء ١٤٢/٢، ١٥٨].

أي: أنك جعلت لإنكار ما قد جعل عندك أنه منكر وأمر بمعروف جعل عندك أنه المعروف، وفي فحوى هذا الخطاب، وسترى في صحبتي من ذلك ما تنكره، فكيف تصبر على هذين وأنت لم تتصور حقيقة علمي، فتقدم عزيمة الصبر على حقيقة ذلك.

ولما وعده موسى عليه السلام [من نفسه][١] الصبر واشترط في ذلك مشيئة الله - جل ذكره - مشيًا على [سيف][٢] البحر، فجاءت سفينة سبقت لها من الله مشيئة في خلاصهما من الملك الغاصب فاستحملاهما أنفسهما، فعرفوا الخضر وحملوهما - عليهما السلام - بغير نول إحسانًا منهم إليهما، فأخذ الخضر عليه السلام القدوم واقتلع من السفينة بعض ألواحها مما يلي الماء وأغرقها، فتأكد على موسى عليه السلام إنكار ذلك على سبيله المسنون له، فقال قوم: أحسنوا إلينا وحملونا بغير نول، جازيتهم على ذلك بأن أغرقت سفينتهم [ليغرقوا][٣] على ذلك.

فأجابه عليه السلام بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[٤] [الكهف:٧٢] إلى قوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٨ - ٧٩].

وقرأ ابن عباس: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا» فكان ذلك آية لمن عمل صالحًا، فوافقه من القدر مكروه له، فليقوِّ رجاؤه في أن ذلك خير له وحرز من هلاك، هو [أكبر][٥] مما أصابه أضعافًا، وربما أصاب عامل الخير المكروه

---

(١) مابين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «ريف».

(٣) في النسخة (خ): «ليعرفوا».

(٤) أفاد المصنف بقوله: «منه قول موسى للخضر عليه السلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف:٧٣] أي: عنتًا ومشقة، وقيل للرجل الذي كثر ما يتّهم بالسوء: مرهق من ذلك أيضًا، وكذلك الرجل الذي ينزل به الضيفان كثيرًا: مرهق، وأرهقنا الصلاة: أخرناها إلى آخر وقتها، والرهق: العظمة أيضًا» [شرح الأسماء ١٦٧/٢].

(٥) في النسخة (خ): «أكثر».

من نحو [المسند][(١)] إليه الخير، فيكون الجناية عليه من عند المحسن إليه؛ لتعظم البلية وتظهر المصيبة، فذلك أقرب إلى كرم الجزاء و[حسن] [(٢)] العقبى.

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨٦].

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] وقرأ ابن عباس وأبي - رحمة الله عليهما: «وأمَّا الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين».

وقرأ الخدري: «وأمَّا الغلام فكان فاجرًا وكان أبواه مؤمنين».

وقرأ عبد الله بن مسعود: «فخاف ربك» أي: علم هذه القراءة تقرب من قراءة الجماعة ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] الخشية: دقة الخوف؛ والخوف عند العلماء: اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة.

من أعطي حقيقة علم وصدق يقين سموه: خائفًا، قد كان رسول الله ﷺ من أخوف الخلق، وكان المعهود منه الوقار والسكينة والتمكين والتثبت في الأحوال، ولم يكن وصفه القلق والانزعاج ولا الوله والاستهتار، وكان قد [وسع قلبه لرفيع][(٣)] الصفات وشرح صدره لعظائم الأحوال، وكان مع الصبي بمعناه، ومع الأعرابي بوصفه، ومع المرأة بنحوها؛ لحكمة الله - جل ذكره - فيهم؛ ليعلمهم مما

---

(١) في النسخة (خ): «المسدى».
(٢) في النسخة (خ): «أحسن في».
(٣) في النسخة (خ): «رفع قلبه برفيع».

عنده، ويخاطبهم في عقولهم، ويظهر لهم منه مثل وصفهم؛ ليوصل إليهم من الأنس نصيبهم ويوفيهم من الدرك منه حقوقهم؛ لئلا تعظم هيبته في صدروهم فينقطعون لذلك عن سؤالهم، والأنس [به][1] جبلة جبل عليها تعلم ذلك من العليم الحكيم؛ لذلك قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

يقول: على خلق الربوبية والعلم أصل للخوف والرجاء، وهما حالان في العلم والرجاء، والخوف كالليل والنهار يكوران هذا على هذا وهذا على هذا، وكما جاء بأن يغير على المدة لأحدهما فيقال: ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ لأن أحدهما [لبسه][2] الآخر، كذلك جاز أن يعبر عن أحدهما بالآخر، وجاز هذا بذكر الخوف والخشية في خطاب القرآن بمعنى التنزل المعهود منه ﷻ عن عظمة جبروته وعلى كبريائه إلى خطاب عباده، ولضرب من الابتلاء لبعضهم في ذلك، وكان ذلك آية لنا على أن من أصابه مكروه في مال أو ولد أو نفس ما كان مؤمنًا، فليختر إرادة الله به وإن كان هو لا يعلم ما هو ذلك الخير، فقد أبدل الله - جل ذكره - من الأبوين ذلك الغلام ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:٨١].

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢] وقرأ ابن عباس: «فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه» وفي قراءة أبي: «لو شئت لأوتيت عليه أجرًا» وكان ما قضاه الله - جل ذكره - على [يد][3] الخضر عليه السلام آية على أن العبد الصالح يحفظ في عقبه من بعده، وكان الجدار قائمًا مقام الوصي الأمين النصيح للأيتام، وأن الله يعينه ويحميه ما كان في نصيحة الأيتام وحياطتهم.

ولذلك قال - والله أعلم - قال في قصة السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] وقال في قصة الغلام: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:٨٠] وقال في قصة حائط الأيتام ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف:٨٢] [وتعاهدهم

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «ليسه».

(٣) في النسخة (خ): «يدي».

والحكم في والإحساس: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف:٨٢] قضايا لا يتركها قضاة العدل لمن دونهم][١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧] المعنى إلى آخره.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[٢] [الكهف:٨٣] الذكر ما ذكر بالله - جل ذكره - وبأنبيائه ورسله وبأسماء الله وصفاته وحكمته وعدله في حكمه في الأولى والآخرة وما بين ذلك، والقرآن نفسه ذكر وهو أرفع الذكر، وذكر ما تلاه في قصة ذي القرنين ﷺ يجتمع بذكر ما في قصص أصحاب الكهف والخضر وأمثالهم، والله أعلم بما يدل.

قال رسول الله ﷺ: «**يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة**»[٣] وإنك لذو قرينها.

هذا مثل ضربه له رسول الله ﷺ أدخله مدخل الوعظ، ومفهومه يردُّ ما قاله فيه القائلون برجعته؛ وإنما يعني: أنه في أول الأمة إمامًا وولده في آخرها؛ ولذلك قال

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) أخبر سبحانه عن ذي القرنين ﷺ أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان مجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٠٧١)، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧) وقال: حسن غريب، والروياني (٢٢)، والحاكم (٢٧٨٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي (١٣٢٩٣)، وابن أبي شيبة (١٧٢١٨)، والطحاوي (١٥/٣)، والدارمي (٢٧٦٥)، وابن حبان (٥٥٦٨).

له: «**لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى**» يعني: الولاية الأولى، ولغيرك «**الآخرة**» ولما كانت الآخرة لولده كان لذلك ذا قرين الأمة.

وجاء عن أسماء بنت يزيد بن السكن من تخريج أبي عبد الله بن أبي مسرة - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال فقال: «**أنذرتكم المسيح الدجال وأنذرتكموه وكل نبي قبلي قد أنذره أمته وهو فيكم، أيتها الأمة يكون قبل خروجه سنون خمس حتى يهلك كل ذي حافر**» قال رجل: فما يعيش المؤمنون منه يا رسول الله؟ قال: «**مما يعيش منه الملائكة، ثم يخرج وهو أعور وليس الله بأعور، مكتوب بين عيني الدجال: كافر، يقرؤه كل أمي وكاتب، وأكثر ما يتبعه النساء والأعراب واليهود، يرون السماء تمطر وهي لا تمطر، ويرون الأرض تنبت وهي لا تنبت، ويبعث معه من الشياطين على صور من مات من الآباء والأمهات، فيأتي أحدهم إلى أبيه أو إلى أخيه أو ذي رحمه فيقول: تعرفني؟ ألست بفلان؟ اتبعه هو ربك**»[(١)].

وفي قول رسول الله ﷺ: «**من قرأ أواخر سورة الكهف عصم من الدجال**»[(٢)] ولذلك - والله أعلم - سمي ذا القرنين بهذا الاسم، ويقال: إنما قيل له ذو القرنين؛ لأنه سار ما بين مطلع الشمس ومغربها، وهي تطلع بين قرني الشيطان إذا طلعت قارنها وإذا غربت قارنها.

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف:٨٤] السبب هو ما أوصل إلى المطلوب، قال الله ﷻ: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ [الحج:١٥] وقد تقدم الكلام في هذا المسمى سببًا ما هو، وأسباب السماوات معالمها وأفلاكها بقوله وهو أعلم: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف:٨٤] أي: أنبأناه بحقائق [الأسباب][(٣)]

---

(١) أخرجه ابن راهويه (١٦٩/٥)، والطبراني (٤٣٠)، وقال الهيثمي (٣٤٧/٧): فيه شهر بن حوشب، ولا يحتمل مخالفته للأحاديث الصحيحة أنه يلبث في الأرض أربعين يومًا، وفي هذا أربعين سنة، وبقية رجاله ثقات.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (خ): «الأشياء».

وعلومها من كل مطلوب، والقدرة عليه والإرادة منه.

فيه جاء أن رهطًا من يهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن شأن ذي القرنين، فاستأذنوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**فيم تسألوني وإنما أنا أعبد الله لا أعلم إلا ما علمني ربي؟**» ثم قام فتوضأ وصلى، وقال لخادمهم: «**ائذن لهم**» فلما دخلوا قال لهم: «**إن شئتم سألتم وإن شئتم أخبرتكم فيم جئتم**» قالوا: أخبرنا، قال: «**جئتم تسألوني عن ذي القرنين، وكيف كان بدأ أمره؟ إنه كان غلامًا من الروم، وابتنى مدينة على ساحل البحر، فبعث الله ملكًا فرفعه إلى السماء، فقال له: انظر ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي وأرى مدائن كثيرة، ثم رفعه فقال: ما ترى؟ قال: أرى مدينتي قد اختلطت بالمدائن، ثم رفعه فقال له: ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي وحدها ولا أرى غيرها، فقال له: إن الذي تراه هي الدنيا، والمحيط بها هو البحر، اذهب فثبت العالم وعلم الجاهل، فقد جعلنا لك على ما ترى سلطانًا**»[1].

ثم قال، جل ذكره: ﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾ [الكهف:٨٥] أي: مطلوبًا له ومرادًا ما بوحي أوحي إليه؛ لأن الله - جلَّ ذكره - يقول: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [الكهف:٨٤] وهذا هو المعنى بذلك.

يقول جلَّ من قائل: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾ [الكهف:٨٦] أي: سوداء، وقرئ «حامئة»[2] أي: كثيرة الحركة، وهو البحر الغربي المظلم ﴿**وَوَجَدَ عِندَهَا**﴾ يعني: العين ﴿**قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾ [الكهف:٨٦] وهذا هو السلطان الذي جعل له على أهل الأرض.

فمفهوم قوله - جل ذكره - هذا ﴿**إِمَّا أَن تُعَذِّبَ**﴾ أي: فإنهم كافرون ﴿**وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾ [الكهف:٨٦] أي: فإنهم سنخرج من أصلابهم أو يجاورونهم قوم يعبدون الله لا يشركون به شيئًا.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٥٥٤)، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٩٣٨).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر «حَامِئَةٍ» بالألف، وقرأ الباقون «عَيْنٍ حَمِئَةٍ» بغير ألف، فمن قرأ «حَامِئَةٍ» يعني: جائرة، ومن قرأ بغير ألف يعني: من طينة سوداء منتنة. [بحر العلوم للسمرقندي (٥٩/٣)].

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧- ٩٨].

فأجاب عليه السلام بمقتضى ما أوحي إليه قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ إشارة إلى المستقبل من شأنهم، والله أعلم ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٨٧].

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾ [الكهف:٨٨] الحسنى هنا: هو الإيمان والعمل الصالح يقول: ﴿فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾ يعني: من الله - جل ذكره - العافية في الدنيا، والأمن والثواب في الآخرة، [والحسنى: الجنة][1] ثم قال: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٨] يعني، والله أعلم: يوم جيئته الآخرة، فإن الذي أبيح له عذابهم كانوا فيما هنالك يومئذٍ، والذين أتي بهم في المستقبل وأنه يتخذ فيهم حسنًا يومئذٍ عدم لم يأتوا بعد، وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٨] يخلص فعله ذلك للمستقبل.

أتبع ذلك قوله - عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أتبع سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٩] يعني: المطالبة لأهل الكفر والطغيان بالسلطان الذي جعل الله له على أهل الأرض.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] يعني، وهو أعلم بما ينزل: كاشفهم بها فتنة ولم يترق بعقولهم صعدًا كما فعل تعالى بإبراهيم عليه السلام في صعوده بالنظر من الكوكب إلى القمر إلى الشمس، ثم إلى الذي فطر السماوات والأرض حنيفًا، لم يحجبهم عنها بإيمان ويقين.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ «الكاف» للتشبيه؛ و«ذلك» مشار إليه، وهو السبب المتبع بالوحي والسلطان الذي أوتيه على ما هنالك، ويكون المشار إليه أيضًا أنه وجد الشمس تطلع من عين حمئة وحامئة، كما وجدها في المغرب غاربة فيه كما قيل له في إسرائه، والمحيط بها هو البحر.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: [بما لم][(١)] يبلغه ﴿خُبْرًا﴾ [الكهف:٩١] الخبر: هو العلم ببواطن الموجودات، وقد يكون، وقد أحطنا بما بلغه [وبما][(٢)] لم يبلغه خبرًا، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد يكون المشار إليه بقوله «كذلك»: ما يكون من شأنه في المستقبل.

﴿ثُمَّ أتبع سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٢ - ٩٣] قرئت بنصب الياء وفتح القاف وبرفع الياء وخفض القاف[(٣)].

تنبيه:

يقول الله - جلَّ من قائل - في هؤلاء القوم: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٣] ولا يكادون يفقهون، أمَّا «يفقهون»: فلبعد لسانهم عن المعهود من الألسنة، وقيل: إن الألسنة افترقت [على][(٤)] نيف وسبعين لسانًا؛ فلعل لسان هؤلاء كان آخرًا لجميعها، وأمَّا على قراءة من قرأ «يفقهون» بفتح الياء والقاف: فهو

(١) في النسخة (خ): «عالم».
(٢) في النسخة (خ): «وما».
(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر يفقهون قولا بفتح الياء، وقرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء. [السبعة في القراءات (٣٩٩/١)].
(٤) في النسخة (خ): «إلى».

وصف؛ لجهلهم [بتصيرف][(١)] معاني الخطاب، وقلة الفقه في ذلك، وهم [في][(٢)] ذلك استنصروه على يأجوج ومأجوج، وعرفوا فسادهم في الأرض فبلغوه إليه.

أراه - والله أعلم - أنه لما بلغ إليهم بث فيهم المعلمين فبصروهم ما لهم وما عليهم، كما قيل له في إسرائه: ثبت العالم وبصر الجاهل، فبصرهم ذلك، فعند ذلك ميزوا فساد أولئك، ولعلمه هو بما أنبأه الله - جل ذكره - أنه لا مطمع في هدايتهم أجابهم إلى ما أرشدوه إليه من قولهم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤] فتورع - سلام الله عليه - عن أخذ خراج منهم على ذلك؛ بل أمرهم بمعونته وأن يكونوا كأحد الناس.

في ذلك يقول ﷺ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف:٩٥ - ٩٦] فكان يصورها صور اللبن وينضدها وينفخ النار عليها، حتى إذا جعلها نارًا أفرغ النحاس على ذلك، فانذاب [ودحل][(٣)] اللبن، وساوى بذلك ما بين الصدفين؛ يعني: الجبلين، فلم يستطيعوا لعلوه ظهورًا عليه ولا ﴿لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧] لحسن الصنعة وشد العقد، وإنما ذلك لأجل السلطان الذي جعل له على ما في الأرض.

والسبب الذي جعل [الله][(٤)] له من كل شيء والحديد والقطر مما في الأرض والنار كذلك، والجبلان والسد، وكل ذلك داخل في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٤] ومما جعل له عليه سلطان، وإلا فقد خلفه من وراء السد من أهمه شأنه، ومن يومئذٍ جعلوا البقية عملاً من أعمالهم وعماله لا شك من أموالهم.

يقول الله، جلَّ من قائل: [﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[(٥)]

(١) في النسخة (خ): «بتصرف».
(٢) في النسخة (خ): «مع».
(٣) في النسخة (خ): «داخل».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذرًا عن تلاقي المتقاربين في المخرج، وهما الطاء والتاء، وقرأ حمزة وطلحة بإدغام التاء في الطاء، وفيه جمع بين الساكنين على غير حدة، ولم يجوّزه أبو علي وجوَّزه جماعة، وقرأ الأعشى عن أبي بكر: «فَمَا اصطَاعُوا» بقلب السين صادًا لمجاورة الطاء، وقرأ الأعمش «فَمَا استطاعوا» بالتاء من غير حذف، والفاء =

[الكهف:٩٧][(١)] ﴿اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: لم يكن لهم بذلك قبل ولا حاولوه؛ لبعد ذلك عليهم، بل عجزت قدرهم وهمتهم عن [التعريض][(٢)] لذلك، وربما منعوا [من][(٣)] ذلك بمنع ظاهر من الله - جل ذكره - ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ هذا - أعني: نقبه - مما تعرضوا له، وكلفوا أنفسهم ذلك فلم يستطيعوه.

من تخريج الترمذي: أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في السد: «**يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فتخرقونه غدًا، قال: فيعيده الله كأشد مما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله واستثنى، قال: فتجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرقونه ويخرجون على الناس فيستفون المياه، فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع مختضبة دمًا، فيقولون: قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسرة**

=

فصيحة؛ أي: ففعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان فأفرغ عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلدًا، فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما اسطاعوا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه ويرقوا فيه؛ لارتفاعه وملاسته. قيل: كان ارتفاعه مائتي ذراع. وقيل: ألف وثمانمائة ذراع ﴿وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْبًا﴾ لصلابته وثخانته. قيل: وكان عرضه خمسين ذراعًا، وكان أساسه قد بلغ الماء، وقد جعل فيه الصخر والنحاس المذاب، وكانت زبر الحديد للبناء فوق الأرض، ولا يخفى أن إفراغ القطر عليها بعد أن أثرت فيها حرارة النار حتى صارت كالنار مع ما ذكروا من أن امتداد السد في الأرض مائة فرسخ لا يتم إلا بأمر إلهي خارج عن العادة، كصرف تأثير حرارة النار العظيمة عن أبدان المباشرين للأعمال، وإلا فمثل تلك الحرارة عادة مما لا يقدر حيوان على أن يحوم حولها، ومثل ذلك النفخ في هاتيك الزبر العظيمة الكثيرة حتى تكون نارًا، ويجوز أن يكون كل من الأمرين بواسطة آلات غريبة أو أعمال أوتيها هو أو أحد ممن معه لا يكاد أحد يعرفها اليوم، وللحكماء المتقدمين بل والمتأخرين أعمال عجيبة يتوصلون إليها بآلات غريبة تكاد تخرج عن طور العقل، وهذا مما لا شبهة فيه، فليكن ما وقع لذي القرنين من ذلك القبيل، وقيل: كان بناؤه من الصخور مرتبطًا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها بحيث لم يبقَ هناك فجوة أصلاً. تفسير الألوسي (٤١١/١١).

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) في النسخة (خ): «التعرض».

(٣) في النسخة (خ): «عن».

وعلوًا، فيبعث الله عليهم نغفًا في أقْفَائِهِمْ فيهلكون، والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَبْطَرُ وتشكر شكرًا من لحومهم»[(١)] فانظر إلى عمله ﷺ وما وصفه الله ورسوله به من الحفظ [له][(٢)] والمحافظة عليه والمنع، حتى أتى أمر الله الذي نبأ عليه ذو القرنين ﵇ وكذلك نبأ عليه أشعيا، على جميعهم صلوات الله وسلامه.

يقول ذو القرنين ﵇: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨] اقترن الوعد عنده ﵇ بالإراحة منهم مع عيسى ﵇ والإنذار بهم فغلب سياق الوعد.

قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم عند الكعبة؛ إذ أنا برجل أحمر كأنما خرج من ديماس، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم تنظف ماء، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قيل لي: هذا المسيح ابن مريم»[(٣)] وذكر الدجال.

ولما كان ذو القرنين - على رسل الله وأنبيائه السلام - هو المجعول له السلطان عليهم، والذي قهرهم الله به وعلى يديه، قال ﵇: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ وقال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٥٣) وقال: حسن غريب، وأحمد (١٠٦٤٠)، وابن ماجة (٤٠٨٠)، وقال البوصيري (٤/٢٠١): إسناده صحيح ورجاله ثقات، والحاكم (٨٥٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والطبري في التفسير (٢١/١٦)، وأبو يعلى (٦٤٣٦)، وابن حبان (٦٨٢٩)، وقال ابن كثير في تفسيره (١٠٦/٣): إسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه، ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كان كثيرًا ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه، والله أعلم.

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) تقدم تخريجه.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ٩٩ - ١١٠].

يقول الله - جل ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] يريد، وهو أعلم: وقت قيام الساعة، وذلك أن اليوم الذي [ينزل][١] فيه عيسى ابن مريم ويبعث فيه الصالحون؛ لشهود الفتوح هو من يوم القيامة، لكن الساعة منه لم تأت بعد، فإذا جاءت الساعة من ذلك اليوم فهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] المعنى إلى آخره، ولذلك - وهو أعلم - سماها ساعة [لأنها ساعة][٢] من يوم.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] فهذا حاله آخر في الجيئة الأولى، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وهذا لم يكن بعد وسيكون - إن شاء الله - كما قال.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَنُفِخَ﴾ [الكهف: ٩٩] أي: النفخة الآخرة تجاوز ذكر النفخة الأولى والصعق، وما في ذلك إلى الإخبار عن النفخة الآخرة يوم الجمع.

نظم ذلك قوله الحق: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠٠ - ١٠١] وذكر الأعين، وإنما الذكر

---

(١) في النسخة (خ): «نزل».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

بالألسنة وبالقلوب لما لم يروا [آيات][(١)] الله لم يؤمنوا، ولما لم يؤمنوا لم يسمعوا الرسل والدعاة إليه، فطمس أعين القلوب منهم، وأخرس الألسن، وأصم الأسماع، وهم العبيد المفتقرون إلى معبود، فعبدوا ما اقتصرت عليه عقولهم [القاصرة][(٢)] الشمس و[الميرات][(٣)] والعباد أمثالهم.

يقول، جلَّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف:١٠٢] وجه الخطاب لليهود والدهرية الذين يتخذون [الدجال][(٤)] ربًّا من دون الله، ثم إلى جميع الكفار المتخذين من دونه أربابًا آلهة.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣ - ١٠٤] هم اليهود وأهل الكتاب، وكل من زعم منهم أنه على هدى.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ لما لم يعملوا لله ولا وجهوا نياتهم إليه - أعني: جميع الكفار - أحبط أعمالهم التي كانوا يظنون أنها حسنات ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥] أي: لا ينظر إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم، كما كانوا في الدنيا لا ينظرون في آيات الله ومصنوعاته، ولا صدقوا رسله وكتبه ولم يتركوا جازاهم بذلك يوم القيامة، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟!.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[(٥)] [الكهف:١٠٩] فتية الكهف ونظراؤهم وذو

---

(١) في النسخة (خ): «آثار».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) في النسخة (خ): «التراب».

(٤) في النسخة (خ): «الرجال».

(٥) قيل: سبب نزولها: أن اليهود قالوا للرسول ﷺ: كيف تزعم أنك نبي الأمم كلها ومبعوث إليها، وأنك أعطيت ما يحتاجه الناس من العلم وأنت مقصر، قد سُئلت عن الروح فلم تجب فيه؟ فنزلت معلمة باتساع معلومات الله، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكر، فعبر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه، وهو قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ﴾. وقيل: قال حيي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] ثم تقرؤون ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ فنزلت؛ يعني: إن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر =

القرنين ونظراؤه وعيسى - على جميعهم السلام - من كلماته، والدجال - لعنه الله - [وكتبه من كلماته][1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] جمعت هذه الآية معاني التكليف مجملة التوحيد، وذكر الألوهية والنبوة، ولقاء الله والعمل الصالح، والإخلاص في ذلك وهو المطلوب.

أعلم ﷺ أن في لقائه الفرح وبه الفرح وفيه الرجاء، وهو المأمول عند أهل اليقين، والمحبوب لقلوب العابدين، وقد قيل: إن معنى الرجاء الخوف في هذه الآية، وهذا [أعني: الأول][2] أولى الوجهين، والرجاء والخوف طريقان إليه، غير أن لقاء الله ﷻ بما هو لقاؤه لا يبلغه شيء، وهو المأمول كله ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

=

كلمات الله.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: ماء البحر ﴿مِدَادًا﴾ وهو ما يمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من السليط. ويقال: السماء مداد الأرض ﴿لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: معد الكتب كلمات ربي، وهو علمه وحكمته، وكتب بذلك المداد ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أي: فني ماؤه الذي هو المداد قبل أن تنفد الكلمات؛ لأن كلماته تعالى لا يمكن نفادها؛ لأنها لا تتناهى، والبحر ينفد؛ لأنه متناهٍ ضرورة. وقرأ الجمهور: «مدادًا لكلمات ربي» وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش ومجاهد والأعرج والحسن والمنقري عن أبي عمرو: «مددًا لكلمات ربي» وقرأ الجمهور: «تنفد» بالتاء من فوق، وقرأ حمزة والكسائي وعمرو بن عبيد والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى بالياء، وقرأ السلمي «أن تنفد» بالتشديد على «تفعل» على المضي، وجاء كذلك عن عاصم وأبي عمرو، فهو: مطاوع، من «نفد» مشددًا، نحو: كسرته فتكسر. وفي قراءة الجماعة: مطاوع لأنفد، وجواب «لو» محذوف لدلالة المعنى عليه تقديره: لنفد. وقرأ الجمهور بمثله «مددًا» بفتح الميم والدال بغير ألف، والأعرج بكسر الميم، وانتصب «مددًا» على التمييز عن مثل كقوله: «فإن الهوى يكفيكه مثله صبرًا» وقرأ ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والأعمش بخلاف والتيمي وابن محيصن وحميد والحسن في رواية، وأبو عمرو في رواية وحفص في رواية بمثله «مدادًا» بألف بين الدالين وكسر الميم. قال أبو الفضل الرازي: ويجوز أن يكون نصبه على المصدر بمعنى: ولو أمددناه بمثله إمدادًا، ثم ناب المدد مناب الإمداد، مثل أنبتكم نباتًا. تفسير البحر المحيط (٤٩٩/٧).

(١) ما بين [ ] غير واضح من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] والرجاء خلق من أخلاق الإيمان ووصف من أوصاف الموقنين، وهوجند من جنود الله جل ذكره، يستخرج الله به من بعض عباده ما لا يستخرج بغيره، وطرفه الأعلى منه متصل بالحب كما طرفه الأدنى متصل بالخوف؛ لأنه من رجا شيئًا أحبه، وكما يرجو دركه يخاف قوته، ولهذه المقاربة ظن أكثر الناس أنه الخوف، وعبر باسم الرجاء عن معنى الخوف فقال في قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ﴾ [العنكبوت:٥] من كان يخاف لقاء الله.

يقول جل ذكره: «**إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره عبدي لقائي كرهت لقاءه**»[1] ومن كره الله لقائه لم يلقه اللقاء المرجو منه، بل يكون العرض والتوقيف ونحو هذا فإنه لا ينكره مكره له - نعوذ بالله من كراهة لقاء الله - وإنما كره أكثر أهل الإيمان لقاء الله؛ لكون الموت في طريق ذلك، والموت مكره بما هو كما الحياة محبوبة بما هي، وحبذا بالموت إذا كان سببًا للقاء الله، ومن رجا شيئًا عمل له، والعمل للقاء الله هو ابتغاء مرضاته، ومجانبة جميع مناهيه ومكارهه طمعًا في البشارة باللقاء والإكرام والبشر منه والضحك لعبده جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وهربًا من الحجب والتوقيف والبعد.

ولأهل الرجاء حال من مقامهم، ولأحوالهم علامات من درجاتهم، فمن يحمل أحكام الرجاء ويحقق في أوصاف الراجين جميعًا استحق أوصاف الرجاء، وهو عند الله ﷻ من المقربين إن شاء الله، فمن الواجب على المؤمن أن يتحبب إلى الله بحب الموت والتشوق إلى اللقاء، ويعمل على ذلك ويستعد له ويتدرس ذلك جدًّا، فإنه من أشد الشدائد على العبد أن يخرج من الدنيا وهو يحبها، ويدخل الآخرة وهو يكرهها، ويلقى الله وهو غير محب له ولا مستعد لذلك فيخلف ما جمعه لمن لا يحمده، ويقدم على رب لا يعذره، والله جل ذكره يقول: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٧ - ١٥٨] وهو يقول جل من قائل: «**أنا عند ظن عبدي**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٥)، مالك (٥٦٩)، والنسائي (١٨٣٥).

بي، فليظن بي ما شاء»[١].

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) أخرجه ابن حبان (٦٣٣)، وابن عدي (٦/٣٢٦)، والطبراني (٢١٠)، والحاكم (٧٦٠٣) وقال: صحيح الإسناد. وأحمد (١٦٠٥٩)، والدارمي (٢٧٣١).

تفسير سورة مريم

[مكية فيها من المنسوخ أربع آيات][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا
٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا
٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ
يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم: ١ - ٧].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿كهيعص﴾[2] [مريم: ١].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قال البقلي في العرائس: أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرِّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قبل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصَّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نوز كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل =

قال ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ١ - ٢] فذكر ما فصله إليه إلى قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] ثم إلى ما فصل إليه هذه الجمل أيضًا.

كذلك قال، وقوله الحق: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣] فـ«الكاف» لما أفهمت كانت متقدمة أو متأخرة أو متوسطة، كذلك الهاء والياء والعين والصاد، وهذه الحروف كتاب محكم فصل إلى ما يفصل إليه القرآن من ذكر أسماء وصفات وأفعال وأحكام وأمر ونهي ووعد ووعيد وقصص، إلى غير هذا مما يفصل إليه القرآن.

=

بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي. ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي «الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني. قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين. قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره. قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق المحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله، وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢] [الأعمش: ذكر رحمة ربك بفتح الذال وكسر الكاف مشددة وجزم الراء ونصب الرحمة على الأمر][١] إلى قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ [مريم:٥] الموالي: هم بنو العم والقرابات، وكل من والاه في الله ﷻ، يقول - والله أعلم بما ينزل: إني خفت من أجل ذهابي أن ينسى الموالي بعض ما أذكرهم به من أمرك وأبلغه إليهم عنك.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥] لك ﴿يَرِثُنِي﴾ في النبوة والحكمة ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] علمهم ونبوتهم وما خصصتهم به.

قال رسول الله ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة»[٢] ابن عباس ويحيى بن يعمر وغيرهما قرءا: «يرثني وارث من آل يعقوب»[٣].

قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧] السمي: الموافق في الاسم؛ كرجل اسمه محمد وآخر اسمه محمد، فهذا سمي [لهذا][٤] فهذا يحيى لم يوافقه أحد قبله في اسمه يحيى، وحقيقة السمي: [هو][٥] من السمة التي هي العلامة، ويحيى فلم يسم بما يسمه من غيره فقط؛ بل سمي به معنى اسمه إلى أسمَى السمو، فحيى حياة جسمانية وحيى حياةً دينية، وهو يحيى في المستقبل، كذلك قال الله - جلَّ من قائل - فأنه يحيى إن شاء الله.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٣)، والترمذي (١٦١٠) والنسائي في الكبرى (٦٣٠٧)، وأحمد (١٧٢)، ومالك (١٨٠٢).

(٣) عن ابن عباس والجحدري: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال. وعن الجحدري: أو يرث على تصغير وارث، وقال: غليم صغير. وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب: أي يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم لأن الأنبياء لا تورث المال. وقيل: يرثني الحبورة وكان حبرًا ويرث من آل يعقوب الملك. يقال: ورثته وورثت منه لغتان. وقيل: "من" للتبعيض لا للتعدية؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق. وقيل: هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا. وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود. [الكشاف ٧٢٥/١].

(٤) في النسخة (خ): «وهذا».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾ الكلمة هي عيسى عليه السلام ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران:٣٩] أي: موطوء العقب بعيسى والمصدقون بعيسى عليه السلام كثير، وإنما وقع مصداق قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾ [آل عمران:٣٩] حين الجيئة الأخرى، فبذلك لم يجعل [الله](١) له من قبل سميًّا، وكثير أيضًا من المصدقين به يكونون معه كالحواريين ونظرائهم وليسوا بيحيى، وإنما هو يحيى مصدقًا يومئذٍ به يحيى بن زكريا، فهذا من معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧] إلى ما في علم الله - جل ذكره - من شأنه.

العتي: الكبر، وكذلك العسي، يقال: عتى الرجل، كبر، وعسى بمعنى سواء [والعاسي والعاتي: هو القاسي، يقول: يبس جلدي وعظمي ولم يبقَ لي من نضرة الصبا والشباب ما يكون معه الولد، وإنما قيل للجبار عاتيًا لقساوة قلبه.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:٨ – ١٥].

قوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠] نصب سويًا على الحال، يقول وهو أعلم: ﴿آيَتُكَ﴾ على حين تجمع حلقة أن تمنع الكلام وأنت سويٌّ صحيح، فاستثنى الزمن من الكلام](٢).

قوله جلَّ من قائل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] لما أوجده ناداه يا

(١) مابين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

يحيى، وأخذ الكتاب بقوة هو أخذه بعلم وفهم وعمل على ذلك، كما قال لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

يقول - وهو أعلم بما ينزل: ﴿فَخُذْهَا﴾ بأرفع علمها والعمل لها وبها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] العمل بأحسنها؛ أي: بأوسط ذلك، لا [غلو][١] ولا تقصير بل برفق وتؤدة، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن المنبت لا أرض قطع ولا ظهر أبقى**»[٢].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًا﴾ [مريم:١٢] الحكم هنا بمعنى العقل [وكف][٣] النفس عن شهواتها ومنعها مالها؛ لتعطي ما عليها، وكان قوله هذا إعلامًا بأنه كان مجبولاً على ذلك من غير مجاهدة.

عبر عن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن يحيى بن زكريا ما عصى الله قط ولا هم بمعصية**»[٤] وذكر أنه كان ابن ثمان سنين، فدخل بيت المقدس، ورأى عبّاد بني إسرائيل قد نقبوا التراقي، وجعلوا فيها السلاسل وعلقوها في سقف [بيت المقدس][٥] ورأى غير ذلك من أنواع اجتهادهم في العبادة، فهاله ذلك ورجع إلى منزله، فمرَّ بصبيان يلعبون فدعوه للعب، فقال: ما للعب خلقت، وذهب إلى أمه فسألها مسوحًا وهيئة التعبد [ثم][٦] أقبل على العبادة، ولما بلغ خمسة عشر عامًا

---

(١) في النسخة (خ): «علو».

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٨٦)، والبزار كما في مجمع الزوائد (٦٢/١)، وقال الهيثمي: فيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب، والحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ٩٥) وقال: غريب الإسناد والمتن، والقضاعي (١١٤٧).

(٣) في النسخة (خ): «بإلف».

(٤) أخرجه بنحوه الطبراني (١٢٩٣٣)، والحاكم (٤١٤٩)، وأبو يعلى (٢٥٤٤)، وأحمد (٢٦٨٩)، وقال الهيثمي (٢٠٩/٨): فيه علي بن زيد، وضعفه الجمهور، وقد وثق، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، ولفظه: «ما أحد من بني آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا».

(٥) في النسخة (خ): «المسجد».

(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

أخذ في السياحة.

فهذا وما أشبهه عبارة عن شرح قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] إذ الصبا كما قالوا: قطعة من الجنون، فمن كان معه ما يحكمه ويمنعه عن ذلك، ويقيده عن ملاعب ديدن الصبا فقد أوتي الحكم، والعرب تقول: احكموا عنا سفهاءكم أي: امنعوا، وجاء: «**أن الله - جل ذكره - ليعجب للشاب ليست له صبوة**»(١).

وفي أخرى: «**ليضحك**»(٢).

قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾(٣) [مريم:١٣] أي: محبة جعلها فيه من لدنه [له](٤) والحنان أيضًا الرحمة والرأفة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم:١٣ - ١٤] وهذه صفة لأحد أصحاب الرقيم، كما كانت صفة الآخر منهم أنه تمكن من الدنيا على أحب ما كان إليها فتركها لله، وقد تقدم وصفه في قوله: «اللهم إني كانت لي ابنة عم وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء» إلى آخر قصته، وقد تقدم ذكره.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ قُتل يحيى بن زكريا - صلوات الله وسلامه عليهما - شهيدًا، وقد نهينا أن نقول في غيره أمواتًا فكيف به؟! ثم قال ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ ولم يقل: يوم مات، كما قال: يوم وُلِدَ، بلفظ الماضي ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:١٥].

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩)، والطبراني (٨٥٣) وأبو يعلى (١٧٤٩)، وقال الهيثمي (١٠/٢٧٠): إسناده حسن، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧١).

(٢) لم أقف على هذه الرواية.

(٣) قال المصنف: ﴿وَحَنَانًا﴾ قد يكون رقة الشوق وهو راجع إلى ما تقدم من الود، ومن ذلك قيل: امرأة حنانة، وناقة حنانة، وعود حنان يحن إلى وطنه والقريب، كذلك يحن إلى أرضه حنينًا، وقيل لامرأة الرجل: حنته؛ لأنه يحن إليها، ومنه قيل: عود حنان لتحريكه ما في النفس، فتشتاق إلى ما تحركت إليه وتشوق إلى ما ذكرته، وقالوا فيما قارب هذا البناء لقبيل من الحن حن وكلب حني للبهيم منها وكلاب حنية. [٢/٣١٨].

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا
﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً
لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾
[مريم:١٦ - ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا﴾ اعتزلت من أهلها ﴿مَكَانًا﴾ [مريم:١٦] إلى [جهة][1] المشرق.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] كناية عن الاغتسال من المحيض ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يمكن أن يكون جبريل أو ملكًا من ملائكة الأرحام، على جميعهم السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًا﴾ [مريم:١٧] كان من الحكمة في [التمثيل][2] لها بالبشر أن يكون المراد بنفخته فيها شبيهًا به حين النفخ صورة بشر، أو شبيهًا به في أنه ينفخ في الطين كهيئة الطير، فيكون طائرًا بإذن الله، ويكون روحًا تجري عليه، وفيه اسمه ومعناه.

وكان وجه الحكمة في أن يكون ذلك على أثر الطهر من [الحيض][3] وفراغ من الغسل؛ ليصل النفخ من الروح عليه السلام إلى الرحم طاهرًا من أذى الحيض وهي طاهرة شرعًا؛ ليكون المراد من ذلك طاهرًا مطهرًا طيبًا قابلاً للكتاب والحكمة مباركًا.

[قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًا﴾ [مريم:١٧ - ١٨] إنما يتذكر من يخشى وإنما يتعظ

---

(١) في النسخة (خ): «ناحية».
(٢) في النسخة (خ): «التمثل».
(٣) في النسخة (خ): «المحيض».

المتقون][1].

قوله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - فيما حكاه عنها من قولها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠] والبغي أبدًا إنما تبغي مع بشر مثلها كما قال - عز من قائل: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] فما معنى قولها - عليها السلام - ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والحلال يكون مع البشر والبغاء كذلك.

إنما ذلك - والله أعلم بما ينزل - وأنبياؤه ويعلمون بما أوحي إليهم ما شاء، إن الحلال وإن كان مسيسه من البشر ومع البشر لما كان بكلمة الله وسنة رسول الله، وبما جعله الله بينهما من [الصدق][2] والأمر منه، كان ذلك باكتساب من المؤمن [وبواسطة من][3] الملائكة حركة وشهوة وما يدعو إلى ذلك، وسقوط نطفة على رضا من الله - جل ذكره - ولما كان الزاني والزانية شهوتهما وحركتهما وفعلهما ذلك والداعي إليه منهما وبكسب جعل [منهما][4] ولهما، [وبواسطة][5] الشيطان وأمره، وسقوط النطفة في الرحم على ذلك لم يدخل هذا القسم في الفعل البشري خالصًا، وجعلت له قسمًا آخر وكنت عنه بالبغاء.

ألا ترى أن العبد المؤمن إذا لم يسم الله ﷻ حين الجماع وإتيانه أهله سبقه الشيطان إلى ذلك منه فتولاه، وإذا سمى الله عصمه، قال رسول الله ﷺ: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، وكان منهما ولد لم يضره الشيطان**»[6].

وجاء في معاريض الشرع: ولد الزنا ما جاء لهذا وما نحى نحو هذا من معلوم

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «الصدقة».
(٣) في النسخة (خ): «بوساطة».
(٤) في النسخة (خ): «بينهما».
(٥) في النسخة (خ): «وبوساطة».
(٦) أخرجه البخاري (٣١٠٩)، ومسلم (١٤٣٤)، وأبو داود (٢١٦١)، والترمذي (١٠٩٢) وابن ماجة (١٩١٩)، وابن حبان (٩٨٣)، والطيالسي (٢٧٠٥)، وأحمد (٢٥٩٧).

خطاب النبوة، ومعهود تحقيق الوحي جعلت في نفسها أن يكون لها ولد على المعهود المتعارف، في الخطاب قسمين: مرضي وغير مرضي، ونسبت المرضي إلى البشر والآخر إلى البغاء.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١] أي: نصرًا لهذه الأمة من فظيع شأن الدجال ويأجوج ومأجوج، وبركة تصيبها الدنيا والمؤمنون يومئذٍ، وكان رحمة وبركة على من تبعه وآمن به، قيل: وآية للناس على قرب الساعة من جيئته يومئذٍ.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١] وذلك أنه يأتي قبيل الساعة من اليوم الآخر، وهو أيضًا آية للناس على أن الله يخلق من أنثى دون ذكر، ويخلق من دون أنثى ولا ذكر، ويفعل ما يشاء كيف شاء، وهو أيضًا آية على المعنى، يقول الله - جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] ومن أجله قبل هذا.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف:٥٧] وهو المضروب به المثل ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] معنى المثل هنا أنه سيجعل من عباده خلائف يستخلفهم في الأرض هداة مهتدين.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨] هذا في الملك المنزل من السماء، ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] وما قال قط: ولو شئنا ولو شاء إلا كان من ذلك ما يشاء.

قال رسول الله ﷺ وقد ذكر الدجال قال: «**يكون سنون خمس يهلك فيها كل ذي حافر**» قال رجل: يا رسول الله، [فبم][1] يعيش منه المؤمنون [يومئذٍ][2]؟ قال: «**مما يعيش به الملائكة**»[3].

---

(١) في النسخة (خ): «فمم».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

وقال ﷺ: «**إن الله يقول للشاب ليست له صبوة: يا عبدي، أنت عبدي كبعض ملائكتي، وأنه ليعجب للشاب ليست له صبوة**»(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال، وقد سئل عن ذي القرنين عليه السلام: «**هو ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب**»(٢).

وسمع عمر رجلاً يصيح: يا ذا القرنين، فقال: «اللهم غفرًا، أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى سميتم بأسماء الملائكة».

وذكر عن علي أنه قال فيه: ليس بملك ولا نبي، ولكنه كان عبدًا صالحًا، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذا القرنين، وفيكم مثله.

وقال فيه أيضًا: سخرت له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له النور.

ومعنى قوله: «لم يكن بملك ولا نبي» أي: بملك نزل من السماء ولا بنبي مرسل، وكل بني آدم مخلوقون من معنى ملكي هو منه ذات اليمين، ومن معنى شيطاني أو جني هو منه ذات الشمال، وكما أن من بني آدم شياطين الإنس فلا يبعد أن يكون منهم ملائكة الإنس.

﴿**لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً**﴾ [الإسراء:٩٥] أي: من جنسهم وعلى صورتهم ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً**﴾ [الفرقان:٢٠] وقال في بني آدم: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ**﴾ [الأنعام:٩].

ومن هنا وقعت الحيرة في عيسى عليه السلام للنصارى، ولقوم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإنما هو الملك الروح نفخ في مريم - عليها السلام - وكان إذ ذاك على صورة البشر، ومريم - عليها السلام - من البشر، فيرفع لأنه من الملك الروح، ويموت لأنه من البشر عبد الله وابن أمته ﴿**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾ [النساء:١٧١] وقد تقدم أنه ثابت في الوجود نشوء الأمر كما ينشأ الإنسان إلى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٩٤٧)، وابن هشام في سيرته (١/٣٠٦).

كماله، فكذلك نشأ هذا الأمر؛ أعني: في العالم من جماد إلى نبات إلى حيوان إلى إنس وجن إلى مؤمن إلى صديق إلى نبي إلى ملك ومن استقرأ الوجود ألفاه على ما ذكرنا، ومن هذا المقام قال بعض القائلين في بعضهم [و قد ذكر][1] النشء:

قد استقام على المنهاج يسلكه ... ولم يرع حائلاً عنه ولا عدلا

فجسمه يعمر الدنيا بظاهره ... وقلبه في أعالي الخلد قد نزلا

وأبصر الأمر يجري في مسالكه ... من أول النشء حتى تم واكتملا

وناطقته البرايا وهي صامتة ... وميز الضد والأزواج والعللا

وأظهر السيرة العليا بصورتها الحسـ ... ـنى ومن قبل كانت ألبست طللا

قال رسول الله ﷺ: «**وددت أني رأيت إخواني**» قالوا: يا رسول الله، أولسنا إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**»[2].

ولما ختم الله النبوة والرسالة بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - بشره بإخوان يكونون له من أمته، يهدون بهديه ويقتدون بأمره، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وأمره المعني هنا هو عيسى عليه السلام ومن معه.

وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[3].

وفي أخرى: «**يقاتلون على الحق وهم الرجل الصالح ومن معه**»[4].

قال الله - عزَّ من قائل - في عيسى عليه السلام: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الزخرف:٥٩] أي: أنه فرط لهذا الضرب من عباد الله، ومثل

---

(١) في النسخة (خ): «فمم».

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجة (٤٣٠٦)، ومالك (٥٨)، وأحمد (٧٩٨٠)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦) وأحمد (٢٢٤٤٨)، وابن ماجة (٣٩٥٢)، وأبو عوانة (٧٥٠٩)، وابن حبان (٧٢٣٨)، وابن أبي شيبة (٣١٦٩٤).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٩٣٤)، وأبو داود (٢٤٨٤)، والحاكم (٢٣٩٢) وقال: صحيح على شرط مسلم، والطبراني (٢٢٨).

مضروب لبني إسرائيل [بمن][(١)] يجيء في أمة محمد ﷺ منهم.

ذكر أن الأرض لا تخلو من ثلاثمائة، وربما زاد القائل على هذا، لكني لست أقف على الزيادة، ومنهم خيرتهم أربعون، وخيرة الأربعين سبعة، وخيرة السبعة ثلاثة، وخيرة الثلاثة واحد، يقال له: الغوث، ويقال له أيضًا: الوتد، فمتى مات الواحد أنهض إلى مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أنهض إلى مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أنهض إلى مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أنهض إلى مكانه من العدد الأكثر، وإذا مات من العدد الأكثر أنهض إلى مكانه من العامة.

ويقال: إن منهم من قلبه على قلوب الأنبياء، أشبهت قلوبهم قلوب الأنبياء، ومنهم من أشبهت قلوبهم قلوب الملائكة، ومنهم أشبه قلبه قلب جبريل وميكائيل وإسرافيل، وما قال الله - جلَّ من قائل - [قط][(٢)] شيئًا إلا كان من معنى ذلك أو ما قاله ما شاء، وقد قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠].

وقال في عيسى ما تقدم ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩] [ولو نشأ المعنى ومن تفهم][(٣)] مثل هذه الآية في الإنجيل في آخر سورة الفتح وقف على صحة هذا المعنى، وعظم في نفسه قدر الدين، [كان][(٤)] عيسى عليه السلام لهم مثلاً وفرطًا لهم، وأنهم ملائكة الإنس كما أضدادهم الذين هم الفاسقون شياطين الإنس، وقد استخلفهم في الأرض، والحمد لله رب العالمين، فهو لا يخلي في الأرض من موجود منهم حتى يأتي أمر الله، يجاهدون في الله [بأموالهم وأنفسهم أو يقتلونهم][(٥)] يبعثهم الله على ثوبهم هكذا، فافهم.

وأن المثل الأول في سورة الفتح المنسوب إلى التوراة هو لأول هذه الأمة،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «فإن».
(٥) في النسخة (خ): «بأيديهم وألسنتهم أو بقلوبهم».

والمنسوب إلى الإنجيل لآخرها، ولمعهود هذا قال رسول الله ﷺ لرجل من بني إسرائيل ما سنذكره.

روى الفَلْتَانِ بن عاصم قال: كنا قعودًا مع النبي ﷺ في المسجد فشخص بصره إلى رجل يمشي في المسجد فقال: لبيك يا رسول الله، ولا ينازعه الكلام إلا قال: يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله؟**» قال: لا، قال: «**أتقرأ التوراة؟**» قال: نعم، قال: «**والإنجيل؟**» قال: نعم «**والقرآن والذي نفسي بيده لو تشاء لقرأته**» قال: ثم ناشده «**هل تجدني نبيًا في التوراة والإنجيل؟**» قال: سأحدثك نجد مثلك ومثل هيئتك ومثل مخرجك، وكنا نرجو أن تكون فينا، فلما خرجت تخوفنا فرقنا أن يكون أنت هو، فنظرنا فإذا ليس أنت هو، قال: «**والذي نفسي بيده لأنا هو، وأنهم لأكثر من سبعين ألفًا وسبعمائة ألف**»(١) فانظر إلى معهود هذا في الكتاب قبله، وأنه المثل المضروب بعيسى - صلوات الله وسلامه عليه - لبني إسرائيل، بل بمن يأتي من هذا الضرب من عباد الله في هذه الأمة.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**»(٢).

وقال: «**إن الله ﷻ يقول للشاب ليست له صبوة: أنت عندي كبعض ملائكتي**»(٣).

قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بلا حساب عليهم، أو سبعمائة ألف مع كل ألف سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف**»(٤).

قال الله ﷻ: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً**﴾ [المؤمنون:٥٠].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٥٢٤٨)، والبيهقي في الدلائل (٢٥٣٢)، وابن حبان (٦٧٠٠)، وأبو نعيم في المعرفة (٥١٠٠)، والبزار (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، وعبد الرزاق (٤١٩٤)، وابن ماجة (٣٧٧٩)، وأحمد (٢٤٧١١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود في الزهد (٤٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٨/٤) وقال: غريب، والديلمي (٨٠٨١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٣٧) وقال: حسن غريب، والطبراني (٧٥٢٠)، وأحمد (٢٢٣٥٧)، وابن حبان (٧٢٤٦)، والدارقطني في الصفات (٥٠)، وابن ماجة (٤٢٨٦)، والديلمي (٧١١٣).

وقال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًا﴾ [مريم:٢١] أي: خلقة وجملة.

يقول الله - جل ثناؤه: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًا﴾ [مريم:٢٢] يعني: أبعدت.

﴿فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ﴾ أي: ساقها واضطرها ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ معروف مكانه اليوم يقوم عليه، ولهذا استاقه بالتعريف، والله أعلم.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًا﴾ [مريم:٢٣] تقول: ليتني لم أعرف، ولم يدرِ من أنا، النسي المنسي: هو الذي لا يذكر، والنسي: المجهول، تمنت - عليها السلام - أن يُقضى قضاء ربها ولا تُذكر.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٢٤ – ٣٢].

قوله ﷻ: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾[1] [مريم:٢٤] [بالخفض وبالنفخ قيل ناداها جبريل من تحتها] وقيل: المنادي لها عيسى ﷺ وهو الأظهر، قام لها نداؤه إياها مقام إعلام الفطرة للعبد؛ ولذلك قالت لما بهتوها بما قالوا أشارت إليه عن علم منها بذلك.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص «مِنْ» بالكسر؛ يعني: الملك، وهكذا قرأ مجاهد والحسن، والباقون «مِنْ» بالنصب؛ يعني به: عيسى ﷺ وقال أبو عبيد: بالأولى نقرأ؛ يعني: بالكسر؛ لأن قراءتها أكثر، والمعنى فيها أعمّ؛ لأنه إذا قال: «مِن تَحْتِهَا» فإنما هو عيسى خاصة. بحر العلوم للسمرقندي (٧١/٣).

قوله ﷻ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤] هو النهر الصغير، ويمكن أن يكون بشَّرها بما ولدته على لسان المولود أو الملك السري كبير القوم وعميدهم، ومنه: سراة الناس: كبارهم وعظماؤهم، وفيما حكي عن ذلك الموضع أن الجذع المبارك على قرب من ماء جارٍ، والله أعلم.

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] وكان الصيام يومئذٍ يصحبه الصمت، وفي قراءة أُبي وابن عباس: «إني نذرت للرحمن صومًا صمتًا» وروي عنهما [وعن أنس][١]: «صومًا وصمتًا» بزيادة الواو[٢] وقد تقدم في سورة «آل عمران» بعض البيان، والله الموفق وهو المستعان.

والصيام في اللغة: الإمساك والكون على حالة واحدة، والصيام الشرعي: الإمساك عن الطعام والشراب، والنكاح وهي معاني [الجسد][٣] ويتبع ذلك الإمساك عن قول الخَنَى والزور والكذب، وهي من معاني النفس بأمر العدو، ويصلح ذلك طاعة الله - جل ذكره - والذكر الكثير، والمتحقق في سنن هذا الصوم هو سابق الصائمين، وصومه هو [المقول][٤] فيه: «**عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به**»[٥].

قوله عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] معلمًا للخير كان في الجيئة الأولى، ثم رفع إلى السماء طيبًا مباركًا، ثم ينزل إلى الأرض [طاهر][٦] الطيب ظاهر البركة، رحمة من الله - جل ذكره - للعباد والبلاد والدين والدنيا،

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) الذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا: الصمت، ويدل عليه (فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيًّا) وقراءة أبيّ تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت؛ لأنه تفسير للصوم. وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو. [فتح القدير ٤/٤٥٠].

(٣) في النسخة (غ): «النفس».

(٤) في النسخة (خ): «المنقول».

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١)، والنسائي (٢٢١٨)، وأحمد (١٠١٧٨)، وابن ماجة (١٦٣٨)، والبيهقي (٣٤٢٤) وفي السنن الكبرى (٢٧٤/٤)، والطبراني (٨٣٠٣)، وأبو عوانة (٢١٦٣)، وابن حبان (٣٤٩٣).

(٦) في النسخة (خ): «ظاهر».

صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين والأولياء أجمعين.

قوله ﷺ حين أجابها من تحتها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] وكان هذا الكلام منه لها إثر وضعها إياه، والنساء لا يجوز لهن الصوم على ذلك، وقوله ﷺ هو الصدق؛ إذ الله ﷻ جعل كلامه على فمه، لا سيما في ذلك الحين.

وشرع موسى أشد تحرجًا عن ملامسة النساء في دمهن، فإنهم كانوا لا يجتمعون معهن في البيوت ولا يؤاكلوهن، والله أعلم بما ينزل، إنه - صلوات الله وسلامه عليه - روح من الله عز جلاله وكلمته، فلم يكن منها حال ولادتها إياه دم ينجس كالنساء، بل كانت مع ذلك طاهرة تصوم إن شاءت، وكما تصوم تصلي ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] كأن ولادتها إياه كانت متصلة بحملها به.

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًا * فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم:٢١-٢٣] إلى قوله: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم:٢٤] فعطف بعض هذا الخطاب على بعض بالفاء عبارة عن معنى المتابعة والنسق، سبحان الذي جعله آية للناس ورحمة منه.

قوله ﷺ: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًا﴾ [مريم:٣١] لا تسقط العبودية عن عبد حتى يموت، وإن بلغ أقصى الغايات، واعتلى إلى أعلى النهايات، بل كلما رفع درجة وأعلي به إلى عليا توجه عليه تحقق التعبد، ويضاعف في حقه الشكر، وما تركهم في الجنة حتى جعل عيشهم في ذكره، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وقرأ أبو مجلز: «وأوصاني بالبر».

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم: ٣٣- ٤٢].

نظم بذلك قوله عليه السلام: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًا * ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٣ - ٣٤] في قراءة عبد الله: «ذلك عيسى ابن مريم وهو قول الحق» وقرأ أبي: «ذلك قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون».

﴿مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم:٣٥ - ٣٦] قرأها هكذا أبي: «إن الله» بغير واو، وهذا يبين أنه عليه السلام على ما هو [عليه][1] من خلقته التي خلقه الله عليها آية على قضاء الله - جل ذكره - الأمر من فوق العرش، وإنزاله إياه بالروح، وقيام الجملة به طبقًا بعد طبق إلى تمامه، وظهوره بالحق المخلوق به السماوات والأرض، بما في ذلك من [حكمته][2] وإعلام بالغائبات عنه، والمعارف الموجودة فيه، ومسالك الأسماء والصفات، وإلى هذا الإشارة بقوله: «إن الله خلق آدم على صورته»[3] ذلك من قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١].

[انتظام هذا الخطاب بعضه ببعض من لدن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بدل دلالة إشارة إلى قوله الحق: لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه؛ أي: معنى الولادة والأبوة، وكل ما خلقه وهو عبده وكل ما كان عن أمره واستدارت به الدوائر

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «حكمة».

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٧٣) وفي الأدب المفرد (٩٧٨)، ومسلم (٢٨٤١)، وأحمد (٨١٥٦)، وابن حبان (٦١٦٢)، وعبد الرزاق (١٩٤٣٥)، والدارقطني في الصفات (٤٨)، وأبو عوانة (٣٤٧)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٩٨)، واللالكائي (٧١٦)، والديلمي (٧٣٠٩).

فهو له عبد؛ لذلك أعقب الخطاب بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وبإسقاط الواو تقدير محذوف وإنه قال: كل ما أنبأتكم به من شأني وتكويني عن أمر الله دلالة ينبئ أن لله عبد ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾](١).

قوله ﷻ: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢) [مريم:٣٧] اختلفوا فيه ؈ فمن مفرط في شأنه غالى وهم النصارى، ضلوا به ضلالاً بعيدًا، ومن مفرط في حقه وهم اليهود، كذبت رسالته وردت ما جاء به وكادت عليه، فرفعه الله من بينهم وطهره من رجسهم و[جرمهم](٣) بركته،

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف، فإن ما حكى من مقالات عيسى ؈ مع كونها نصوصًا قاطعة في كونه عبد الله تعالى ورسوله قد اختلف اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، فالمراد بالأحزاب: اليهود والنصارى، وهو المروى عن الكلبي، ومعنى ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾: إن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين، و«بَيْنَ» ظرف استعمل اسمًا بدخول «من» عليه. ونقل في «البحر» القول بزيادة «من». وحكى أيضًا القول بأن البين هنا بمعنى: البعد؛ أي: اختلفوا فيه؛ لبعدهم عن الحق، فتكون سببية ولا يخفى بعده، وقيل: المراد بالأحزاب: فرق النصارى، فإنهم اختلفوا بعد رفعه ؈ فيه، فقال نسطور: هو ابن الله تعالى عن ذلك أظهره ثم رفعه، وقال يعقوب: هو الله تعالى هبط ثم صعد، وقال ملكًا: هو عبد الله تعالى ونبيه. وفي «الملل والنحل»: إن الملكانية قالوا: إن الكلمة - يعني: أقنوم العلم - اتحدت بالمسيح ؈ وتدرعت بناسوته. وقال أيضًا: إن المسيح ؈ ناسوت كلي لا جزئي، وهو قديم، وقد ولدت مريم إلهًا قديمًا أزليًا، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معًا، وقد قدمنا من أمر النصارى ما فيه كفاية فليتذكر. وقيل: المراد بهم: المسلمون واليهود والنصارى . وعن الحسن: إنهم الذين تحزبوا على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لما قص عليهم قصة عيسى ؈ اختلفوا فيه من بين الناس، قيل: إنهم مطلق الكفار، فيشمل اليهود والنصارى والمشركين الذين كانوا في زمن نبينا ﷺ وغيرهم، ورجحه الإمام بأنه لا مخصص فيه، ورجح القول بأنهم أهل الكتاب بأن ذكر الاختلاف عقيب قصة عيسى ؈ يقتضي ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالمراد بهم: الأحزاب المختلفون، وعبر عنهم بذلك إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلة الحكم. تفسير الألوسي (١١/٤٩١).

(٣) في النسخة (خ): «وحرمهم من».

و[شد][١] عنهم كريم عائدته، ولزم المسلمون في شأنه طريق السواء والعدل، والحمد لله رب العالمين.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨] أعظم - جل ذكره - فظاعة ما يلقونه وأكبر بسوء منقلبهم، كما قال في وصفه نفسه إكبارًا وإعظامًا: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: رضا وسخطًا ثوابًا وعقابًا ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦].

قوله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًا﴾ [مريم:٤١] هذا منتظم بذكر زكريا ويحيى ومريم وعيسى - عليهم السلام - والصديق من [كثر][٢] صدق خطراته، والصديقية نفث حق في [الروح ومحادثة][٣] حق في النفس وفراسة صائبة وظن مصيب، يقوم على الأغلب مقام اليقين وصدر منور وقلب سليم ونفس طيبة، وعلم واسع وحلم كامل وصبر جميل، وعمل بطاعة الله وخلق كريم ونصيحة صحيحة، تحبه الأرض والسماء، وتحبه الحفظة وتتولاه الملائكة - عليهم السلام.

وكما ليس للجماد أن يكون من النبات، ولا النبات أن يكون من الحيوان، ولا الحيوان أن يكون بشريًا، كذلك ليس للبشري أن يكون وليًا لله ولا صديقًا، ولا للصديق أن يكون نبيًا، وإنما هي مقامات ومنازل ينزلونها ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] والبشري الصديق واسطة بين من هو نبي وبين من ليس بنبي ولا صديق، لله الأمر كله وهو بكل خلق عليم.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ

(١) في النسخة (خ): «سد».

(٢) في النسخة (خ): «كثرت».

(٣) في النسخة (خ): «الروع ومجاذبة».

لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾
فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا
وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ
نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٤٣- ٥٣].

قوله ﷻ حاكيًا عن خليله - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣] الذي أتاه من العلم هو معرفة الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما، والعارفون فيه متفاضلون، [فربما أتاه الله أرفعه، ثم ما خصه به من الصديقية والنبوة، والناس في الصديقية متفاضلون][(١)] فأول أهل الإيمان درجة قد صدق الله ورسوله وإبراهيم عليه السلام في أرفعها [درجة و][(٢)] منزلة.

يقول رسول الله ﷺ: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم**»[(٣)].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

أتبع ذلك بما هو بيان له قوله: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣] والصراط السوي هو: ألا يعبد إلا الله ولا يشرك به شيء سواه، وأخبر الله [عز][(٤)] ذكره أن بالعزلة لمن ضل عن الصراط المستقيم يكون النجاح، وفيه رضا الله، كما قال رسول الله ﷺ: «**واعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى**

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٣)، ومسلم (١٥١)، والنسائي (١١٠٥٠)، وأحمد (٨٣١١)، وابن ماجة (٤٠٢٦)، وابن حبان (٦٢٠٨)، وأبو عوانة (٢٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٤٧٣).

(٤) في النسخة (خ): «عن».

يأتيك الموت وأنت على ذلك»[1].

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًا﴾ [مريم:٤٩ - ٥٠] ثم ذكر ﷻ موسى وهارون وإسماعيل وإدريس - عليهم السلام.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا (٥٥) وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠)﴾ [مريم: ٥٤ - ٦٠].

يقول الله - جل ذكره: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ كإدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كهود وصالح وغيرهما ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم:٥٨] أي: خُشعًا خُضعًا، ثم يخرون سُجدًا ثانية راهبين راغبين، ثم عطف بالواو على معنى ما تقدم [بقوله][2]: ﴿وَبُكِيًا﴾.

كذلك قال - عز من قائل - فيما حكى عن إخوانهم على جميعهم السلام: [﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أو لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء:١٠٧ - ١٠٨] فهذا منهم مقام خشوع وإيمان وتصديق][3].

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧)، وأبو عوانة (٧١٦٦)، والحاكم (٣٨٦)، وابن ماجة (٣٩٧٩)، والبيهقي (١٥٦/٨) وفي الدلائل (٤١٢/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٢/١).

(٢) في النسخة (خ): «يقول».

(٣) من بعد قوله تعالى: ﴿أو لَا تُؤْمِنُوا﴾ ساقط من النسخة (غ).

ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩] والمراد بهذا الذكر من اجتلاب أسمائهم والإعلام بأحوالهم: توجيه الأمر إلى النبي وإلى من تبعه باتباعهم، وحسن الاقتداء [بأفعالهم](١)، وأن يكونوا في مستقبل أمرهم أحسن حالاً منهم في ماضيه.

قوله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [مريم:٥٩] خلف الخلق الدون ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾(٢) [مريم:٥٩ - ٦٠] هذا وعيد للموحدين غير [التائبين](٣)، قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا * إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم:٥٩ - ٦٠] فلا بد للمؤمن من التوبة بعد إيمانه، ثم لا بد له إذًا من تجديد التوبة مادام حيًا.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] هذا أمر لمن آمن بأن يتذكر إيمانه ويتعرف إيمانه بالله ورسوله والكتاب الأول والقرآن، يتعرف ذلك بالبراهين والدلائل، [لم](٤) يجدد ذلك بالتذكار أبدًا، و[إنما](٥) التوبة في الإيمان فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى الله تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] وضرب لذلك مثلاً بامرأة فرعون وبمريم - عليهما السلام - وقوله: ﴿وَتُوبُوا إلى الله جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] وهو كبير.

نظم ذلك بقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم:٦٠ - ٦١] قد يأتي الفاعل بمعنى المفعول وهو قليل، وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ أي: آتيًا. قاله القنيني.

---

(١) في النسخة (خ): «بفعالهم».

(٢) الغيّ: هو الشرّ عند أهل اللغة، كما أن الخير هو الرشاد، والمعنى: إنهم سيلقون شرًا لا خيرًا. وقيل: الغيّ الضلال، وقيل: الخيبة. وقيل: هو اسم وادٍ في جهنم، وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: سيلقون جزاء الغيّ. كذا قال الزجاج. فتح القدير (٤/٤٦٤).

(٣) في النسخة (خ): «الناسين».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٥) في النسخة (خ): «أما».

وقال غيره: هو هنا على أصله، معناه: أن الناس يأتون [على][1] ما وعد الله لهم في الآخرة و[الوعد منتظم][2] لهم.

قال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[3] وهذه - والله أعلم - الجنة [التي][4] هي المأتية لنا بالغيب وكذلك النار، ألا ترى أن النار تكون معدومة فتورى بالزناد وبغيره، فتظهر من غيبها وتكون موجودة بعد عدمها، ثم يورى [ويقدح][5] إلى ما شاء قادحها، وربما غلبت على [إراءته منها][6]، وكذلك الجنة تكون عدمًا فينزل الله الماء من السماء ﴿**فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [الروم:٢٤] ويخرج على ذلك منها كل نبات ومرعى وكل شيء حي، ويخرج منها الحب والزرع [والزيتون][7] والرمان، ومن كل الجنات معروشات وغير معروشات.

فهذه [جنات][8] غيب، وجهنم غيب سعيرها وزمهريرها، وهذا [من الخب][9] الذي له في السماوات والأرض، والسر الذي له [فيها يظهره][10] إذا جاء أجل ذلك، ثم لهذه الدار التي أفاض الله علينا منها هذه؛ لتمتعنا في هذه الدار إلى الحين المقدر عنده دار متصلة بها هي غيب [عن غيب][11] إذا كان يوم القيامة ألحقت هذه بتلك، فلا يدخل إلا بعد استفتاح بابها ولا ينالها إلا المتقون.

نظم بذلك من وصفها قوله الحق: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا**﴾ اللغو من الكلام:

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «الوعيد منه».
(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٣)، والبزار (١٦٦٣)، وأبو يعلى (٥٢١١)، وأحمد (٣٦٦٧)، وابن حبان (٦٦١)، والبيهقي (٦٢٩٦)، والديلمي (٢٦١٣)، وذلك بلفظ: «من شراك نعله».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٦) في النسخة (خ): «إرادته فيها».
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٨) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٩) في النسخة (خ): «سر الغيب».
(١٠) في النسخة (خ): «فيهما يظهر».
(١١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الباطل، ليس في الجنة باطل ألبتة، إنما هي مبنية على التوحيد والتنعيم به وبما يفضل عنه، ثم قال: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٥] هذا أبعد في وجود ذلك فيها ﴿إِلا سَلامًا﴾ [مريم:٦٢] السلام: ما سلم من المكروه والباطل، والسلام اسم من أسماء الله، وبأسمائه قامت الدنيا سماواتها وأرضوها وما بين ذلك، إلى ما علا وسفل إلى [قرارها][(١)] المنتهى، وذلك في الآخرة أظهر جدًّا.

فذكر الله وما يؤول إلى ذلك [مجدد][(٢)] فيه دون فتور أبدًا، حتى أنهم ليلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ يعني: [هجيراهم][(٣)] فيها لعظيم ما يعجبهم به من ذلك ويحدد لهم من أمره ﴿سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾ [يونس:١٠] يجيبهم الله - جل ذكره - بالسلام وتجيبهم الملائكة وسكان الجنان وجميع ما فيها من موجوداتها.

قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] [ثم][(٤)] يعجبهم بما لم يعجبهم به [قيل][(٥)] هكذا [فهم][(٦)] أبدًا ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] آية ذلك ما خلق الله [عليه][(٧)] السماوات والأرض وما بينهما من [معاني][(٨)] أسمائه ومعالي صفاته، يجد ذلك المعتبرون علمًا و[عبرة ويجدون][(٩)]، ذلك فيما هنالك مشاهدة لظهور الحق المبين كالشمس الصاحية والقمر في الكمال، فافهم وآمن إن وعد الله حق.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا

---

(١) في النسخة (خ): «قرار».
(٢) في النسخة (خ): «مجرد».
(٣) في النسخة (خ): «هجراهم».
(٤) في النسخة (خ): «لم».
(٥) في النسخة (خ): «قبل».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٧) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٨) في النسخة (خ): «معالي».
(٩) في النسخة (خ): «غيرهم».

سَلَٰمًاۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦١ – ٦٧].

نظم ذلك من وصفها بقوله الحق: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ [مريم: ٦٢] آية ذلك صلاتهم هنا بالغداة [والعشي][(١)]، وصلاتهم بالعشي العصر، قال رسول الله ﷺ: «**العبد يروح إلى المسجد ويغدو، والله يهيئ له نزله في الجنة كلما غدا أو راح**»[(٢)] ويعرف [فيما][(٣)] هنالك الغدايا والعشايا بالضياء [الحق][(٤)] ضياء الحق المبين، والنور نور الحق المبين من غير أفول ولا غروب، إنما هو تجلي وظهور يجلي هذا تارة ويظهر هذا تارة.

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فضياء الشمس ونور القمر آيتان على ما هنالك من الضياء العلي والنور النزيه الرفيع - ﷻ ربنا وتعالى علاؤه وشأنه - ألم تر فيما ها هنا أن الشمس لا تغرب إلا والقمر قد طلع، ولا يغرب القمر إلا والشمس قد طلعت، هذا على الأغلب، فالله هو الحق المبين، لا أفول هنالك ولا غروب، وهو أعظم لذلك وهو أعلم.

قال إعظامًا لما جاد به [عليهم][(٥)] وأورثه إياهم: ﴿تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ

---

(١) في النسخة (خ): «الصبح».

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٦٩)، وابن حبان (٢٠٣٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٦١١)، وأحمد (١٠٦١٦)، وابن خزيمة (١٤٩٦)، وأبو عوانة (١١٢١).

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) في النسخة (خ): «العلي».

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًا﴾[1] [مريم:٦٣].

قوله ﷻ حاكيًا عن الملائكة - عليهم السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًا﴾ [مريم:٦٤] جاء أن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ استبطأ جبريل عليه السلام في بعض الأحايين لأمر كان بينه وبينه، فلما جاءه ذكر له ذلك فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ....﴾ وفي قراءة عبد الله: «وما نتنزل إلا بقول ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وَمَا [نَسِيَكَ][2] رَبُّكَ».

وهذا وإن كان منتظمًا بذكر السبب فإنه أيضًا منتظم بالمجاورة، لما ذكر في الجنة ووصفها بما تقدم ذكره وما هو أكثر وأسنى، وآية فيما هنالك لا شمس فيها

---

(١) استئناف جيء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، فاسم الإشارة مبتدأ و«الجنة»خبر له، والموصول صفة لها، والجملة بعده صلته، والعائد محذوف؛ أي: نورثها، وبذلك قرأ الأعمش. وقرأ الحسن والأعرج وقتادة ورويس وحميد وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو «التى نُورِثُ» بفتح الواو وتشديد الراء، والمراد: نبقيها على من كان تقيًّا من ثمرة تقواه، ونمتعه بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به، فالإيراث مستعار للإبقاء، وإيثاره على سائر ما يدل على ذلك كالبيع والهبة؛ لأنه أتم أنواع التمليك من حيث أنه لا يعقب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال، وقيل: يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: ليس من أحد إلا وله في الجنة منزل وأزواج، فإذا كان يوم القيامة ورث الله تعالى المؤمن كذا وكذا منزلاً من منازل الكفار، وذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ...﴾ ولا يخفى أن هذا إن صح فيه أثر عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، وإلا فقد قيل عليه: إنه ضعيف؛ لأنه يدل على أن بعض الجنة موروث والنظم الجليل يدل على أنها كلها كذلك ولأن الايراث ينبئ عن ملك سابق لا على فرضه مع أنه لا داعي للفرض هنا، لكن تعقب بأنه يكفي في الإيراث كون الموروث كان موجودًا، لكن بشرط التقوى بناء على ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ [مريم:٦١] حيث قال: المراد من العباد ما يعم المؤمن التقي وغيره، ووعد غير المؤمن التقي مشروط بالإيمان والتوقي، نعم اختار الأكثرون أن المراد من العباد هناك: المتقون، والمراد منهم هنا: الأعم، والمراد من التقي من آمن وعمل صالحاً على ما قيل، ولا دلالة في الآية على أن غيره لا يدخل الجنة مطلقًا، وأخرج ابن أبي حاتم عن داود بن أبي هند: إنه الموحد، فتذكر ولا تغفل. تفسير الألوسي (٢٦/١٢).

(٢) في النسخة (ف): «ينساك» وانظر: الكشاف للزمخشري (١٠٣/٤) والجواهر للثعلبي (٤٦٥/٢).

ولا قمر ولا زمهرير ولا ليل ولا نهار إنما هو ضياء الحق المبين ونوره ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ معناه: وما ها هنا آية على ما هنالك، وإنا معشر الملائكة لا ننزل بالليل والنهار إلا بإذن ربك.

فهم - أعني: الملائكة عليهم السلام - يتعاقبون دار الدنيا بالليل والنهار الحفظة والكتبة و[الفعلة][١] في المخلوقات، فإن آثار حر الشمس ويبسها بالنهار خلاف لبرد الليل والقمر ورطوبتهما، وبهما صلح ما طلعا عليه بإذن الله، وكذلك في الأنواء والصحو، وتحرك الرياح وسكونها وجميع الأمر، ولله - جل ذكره - في ذلك أمر لطيف على قدر تنويع ذلك كله وبواسطة الملائكة - عليهم السلام - فهم يتعاقبون التنزل على ذلك بتعاقب حدوث الحوادث والأمر، وهذا كله مجموع في تلك الدار لضياء الحق المبين ونوره العلي.

يقول - والله أعلم بما ينزل: وما هنا آية على ما هنالك ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] أي: كل ذلك في كتاب وهو لم يكتب الكتاب لأنه يضل ولا لأنه ينسى، وقد تقدم أن إعلام كتبه في الكتاب المبين يصعد إلى نفس المشاهدة والعيان. فافهم.

نظم بذلك قوله الحق: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: أن حكمه في الأرض [كما هو في السماء، و][٢] كما هو رب السماء والأرض كذلك هو رب الدنيا والآخرة، فتنتظم هذه الآية بالتي قبلها على هذا ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:٦٥] أي: أنك لا ترى اليوم ثواب عملك، فعند المعاينة تنكشف لك الحقيقة [ثم][٣] فيما بعد الموت، وللآخرة أعظم وأفخم دون نسبة تنحصر.

نظم بذلك قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] هل تعلم أحدًا يسمي الله أو الرحمن على حقيقة؟ هل تعلم أحدًا خلق السماوات والأرض وما بين ذلك فيكون ربًّا لذلك كله؟ هل تعلم [له][٤] خالقًا خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ثم أخرج ما قدره

---

(١) في النسخة (خ): «العملة».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] زيادةمن النسخة (خ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

خلقه على سواء ما قدره دون خلاف عن ذلك ولا نقصان ولا زيادة؟ هل تعلم أحدًا خلق الأرزاق والمرتزقين، فجعل للأجسام غذاءً وأرزاقًا، [وجعل للقلوب والبواطن أغذية وأرزاقًا؟][١] هل تعرف حكيمًا أحكم كإحكامه وأتقن كإتقانه؟ هل تعلم جوادًا جاد كجوده وأجاد في تدبيره وحكمه وإعطائه كهو؟ هل تعلم عالمًا علم المعلومات بعلم واحد، فعلم ما كان [وما هو كائن][٢] وما لا يكون كيف كان يكون [لو][٣] كان؟ وفي أي وقت؟ ولِمَ لا يكون ولِمَ يكون إذا كان؟ ومتى؟ وكيف؟.

هل تعلم قديرًا اقتدر على ما اقتدر عليه [فقدر][٤] بإبداع المبدعات اختراعًا دون ظهير ولا معين [له و][٥] لا على مثال سبق ولا من شيء خلق ما خلق؟ هل تعلم موجودًا عليًا، واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا، لا والد له ولا ولد، ليس له ند، ولم يكن له كفوًا أحد؟ هل تعلم موجودًا ليس كمثله شيء، هو الأول في كل شيء والآخر في كل شيء، والظاهر في كل شيء والباطن في كل شيء؟.

هل تعلم ملكًا غنيًا عن كل موجود وكل موجود فقير إليه، له إيجاده وخلقه وإظهاره وإعدامه وإمساكه وإماتته وإحياؤه، لا يستغني عنه شيء في العلا أو فيما تحت الثرى ولا فيما بين ذلك لا في ذاته ولا في صفاته ولا في جميع وجوده، كل بقاء فبإبقائه، وكل إعدام فبإعدامه، وجود كل ذي وجود منه أو عنه، فكل شيء مملوك له في ذاته وصفاته، وهو المستغني عن كل شيء بكل وجه وبكل معنى؟.

هل تعلم ملكًا قدوسًا سبوحًا منزهًا عن كل وصف يدركه حس أو يتوهمه وهم أو يتخيله تصور أو يختلج به ضمير، ثم هكذا إلى آخر الأسماء كلها والصفات العليا أجمعها ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:٦٥] أي: اصبر على ما يرد عليك من قضائه وأحكامه حلوها ومرها فلن تجد من دونه ملتحدًا ولا منه نصير.

نظم بذلك - جل ذكره وتعالى علاؤه وجده ﴿ويقول الإنسان أَئِذَا مَا مِتُّ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) ما بيم [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «أو».
(٤) في النسخة (خ): «فتفرد».
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ): «العلي».

لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] انتظم وصف [قلة][1] تحصيل الإنسان وقصور عقله على سبيل المقابلة وإثبات الحجة [على ما][2] تقدم [ذكره][3] من قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

يقول - جلَّ من قائل - وهو أعلم بما ينزل: وعلى تبيان سلطان الحجة وظهور هذا الحق الذي لا خفاء به ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾ [مريم:٦٦ - ٦٧] وفي أخرى: «أولا يذكَّر» [بالتشديد][4] في قراءة أُبيٍّ؛ أي: «أولا يتذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا»[5].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾ [مريم:٦٨-٧٦].

ثم أقسم الحق - جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه - وقوله الحق على تحقيق ما أخبر به بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «بما».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٥) قرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب وجماعة «يَذْكُرُ» مخففًا مضارعَ «ذكر»، والباقون بالتشديد مضارعَ تَذَكَّر، والأصل «يتذكَّر» فأُدْغِمَتْ التاءُ في الذال. وقد قرأ بهذا الأصلِ وهو يَتَذَكَّر: أُبَيّ. الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١/٤٠٠٧).

[مريم:٦٨] الجاثي: القائم على ركبتيه ووجهه إلى الأرض، وهو مقام الخصومة وإقامة الحجة، ولا حجة [لها][١] ولا خصومة، كقوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية:٢٨] المعنى.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾[٢] [مريم:٦٩] كما قال رسول الله ﷺ: «**فتخرج عنقًا من النار يقول بلسان طلق ذلق: أمرت بكل جبار عنيد إلى ثلاثة أصناف**»[٣].

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾[٤] يدخلون النار بأعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

نظم بذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] وقرأ ابن عباس وعكرمة: «**وإن منهم إلا واردها**» بالهاء، وكذلك روي عن ابن كثير قال: ولا يردها مؤمن إن شاء الله، فعلى هذه القراءة فالمراد بعموم المواجهة بالكاف [هو][٥] المؤمن والكافر، وأن الورود منه ما هو ها هنا - أعني: في دار الدنيا - مما [نبهت][٦] عليه من إثارة الفيحين - أعني: نفسي جهنم سعيرها وزمهريرها - يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ اليوم ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] فهلا قضيتم بالمشاهدة على الغائب فآمنتم به

---

(١) في النسخة (خ): «لهؤلاء».

(٢) حال منه مؤكدة للاستبعاد إثر تأكيد، ومن للابتداء العلي، والعتي من عتى يعتو اليبس والقحول في المفاصل والعظام. وقال الراغب: هو حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها. [تفسير الألوسي (١١ /٤٥٠)].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤١٤١)، والبزار وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/٣٩٢)، والطبراني في الأوسط (٣١٨)، وقال الهيثمي (١٠/٣٩٢): أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح.

(٤) المراد بالذين هم أولى المنتزعون باعتبار الترتيب، وقد يراد بهم أولئك باعتبار المجموع فكأنه قيل: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ودركاتهم أسفل وعذابهم أشد، ففي الكلام إقامة المظهر مقام المضمر. انظر [تفسير الألوسي (١٢/٣٨)].

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٦) في النسخة (خ): «انبنت».

وأيقنتم أن ما ها هنا من حرور وصرور آيتان على ما انبعثا منه؟[١].

---

(١) قال المصنف في هذه الآية: «آية الصراط في الدنيا الحال الموجود بين الزمنين: الماضي والمستقبل، فمتى رام المتحقق في تحقيق الزمان الماضي والمستقبل، وتخليص الحال بينهما؛ عسر ذلك عليه جدًّا لا يكاد يدركه إلا وهمًا، وهو معنى الدنيا وحقيقتها وما بين ذلك وما خلفه، ليس من الدنيا وما ليس من الدنيا فهو من الآخرة، فمثال جواز العبد على الصراط في الآخرة قطعة أيام حياته في الدنيا من أول عمره إلى آخره فمثال جواز العبد على الصراط، ألا تراه أنه إنما جاء من عند ربه، وهو في سيره ذلك إلى ربه يرجع وهو مصيره، وعلى جنبي حد الصراط لازمًا به في عمره أعداؤه من الجن والإنس، ومصائب تطرأ عليه وأكداد وأحزان وغموم وهموم، وغير ذلك مما لا يكاد يخلو غالبًا من فقد المحبوبات وفوت المطلوبات، وقد عبر عن ذلك الفصحاء والبلغاء بغير ما عبارة، فهذا مثال في الوجود لما هنالك من خطاطيف وكلاليب وحسك، ومثال في الوجود الشرعي كون المكلف سالكًا بين الوعد والوعيد، وبين الشرك والإخلاص، وبين الطاعة والمعصية، والرضا والسخط، والأمر والنهي، فإنك إذا أردت أيضًا أن تحقق الزوجين من صاحبه؛ خلصت في صراط بينهما أحد من السيف وأرق من الشعرة، قال رسول الله : ﷺ «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا» وقال أيضًا ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما مشتبهات تخفى على كثير من الناس». وهذا يئول عند تحصيل التحقيق فيه أيضًا إلى ما تقدم ذكره من الخفاء؛ ولذلك قال: «ومن رتع حول الحمى يوشك أن يواقعه» وإنما حذَّر من ذلك؛ لدقته ورقته عند البداية في استقصاء معرفة حد كل واحد منهما من صاحبه، وهذا هو معنى الصراط في الدنيا، والذين يتركون ما أشبه عليهم في هذا الصراط العاجل؛ هم الذين يتوسع لهم الصراط في الأجل. وبالجملة في اعتبار الوجودين، قال الله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، فمعرفة كل واحد من الزوجين يئول إلى ما تقدم ذكره أيضًا، وذلك آية على الصراط في الأجل، وفي الآخرة أيضًا صراط آخر؛ وهي قنطرة بين الجنة والنار، قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا» فالصراط الأكبر منصوب لجملة العباد، حاشى الثلاثة الأصناف من أهل الكفر الذين اقتطعتهم عنق النار في عرصة المحشر، أولئك يدخلون النار دون سؤال ولا صراط، وهم المعنون بقوله جل قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وإلى هذا ثلاثة طوائف في مقابلة أولئك يدخلون الجنة بغير حساب، ثم الموازين لمن بقي من أهل المحشر، ثم تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيكون ذلك، فيقعون في النار حتى لا يبقى إلا المؤمنون، ثم بعد ذلك الصراط مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، فإذا خلص من خلص من هذا الصراط، ولا تخلص من هذا الصراط ولا تخلص منه إلا المؤمنون، الذين علم الله ﷻ عنهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم، حُبسوا على صراط خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد - إن شاء الله تعالى - إنما هي =

وهذا هو الظاهر [لشواهد](١) القرآن التي جاءت كقوله ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠] أي: قربت ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩١] وأنه كما جاء أن ثلاثة أصناف يعجل بهم إلى النار وأن ثلاثة أصناف يعجل بهم إلى الجنة أيضًا، وفي هؤلاء - والله أعلم - يقول جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] وقال رسول الله ﷺ: «**من صام يومًا في سبيل الله بعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا**»(٢) ولهذا نظائر.

ثم ينتظم ما بقي من الخطاب بما تقدم من قوله - جل قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ

الحسنات والسيئات، قال رسول الله : ﷺ «فإذا خلصوا وهذبوا أدخلوا الجنة» وهذا الصراط منصوب لأهل العدل الثالث، والصراط الأكبر منصوب لأهل العدل الثاني، وأما أهل العدل الأول: فهم الذين اقتطعتهم عنق النار في المحشر، والذين دخلوها قبل جواز الصراط، ومثاله في الوجود توبة الاستواء عند الأربعين، وأن نزول قوة المعراج على المرء؛ وهي التوبة الثانية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الحق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥] المعنى: فمن خلص من الفتنة الأولى قوي الرجاء في التخلص من الصراط الأول وهلاك من هلك قبل ذلك، ومن خلص من فتنة الاستواء خلص من الصراط الثاني ودخل الجنة بسلام، إن شاء الله ﷻ. ومثال ما على جنبتي الصراط على اعتبار الوجود الشرعي ما تحتوش المؤمن زائدًا على ما تقدم ذكره في الاعتبار بالوجود الدنيوي نفس أمارة بالسوء بين جنبتيه، وشهوة وهوى وخلق لا يرضاه، وأهل وولد يجذبونه إلى هلكته، ويثبطونه ويبطئون به، وخطايا لا يعرى عنها تأخذ من دينه ما أخذت، وتترك ما تركت، وكل ما وجب عليه المجاهدة والمثابرة والمرابطة من أجله فهو مثال لخطاطيف النار وكلاليبها وحسك ما هنالك. فالثبات على التوبة النصوح هو مثال الثبات على الصراط، وتيسير أعمال الطاعات فيها مثال الإسراع عليه، وخفة الظهر من الأوزار أعظم العون وروح الإيمان والعلم يعليه ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١] فاعلم - رحمك الله - أنك في الدنيا ماشٍ على الصراط، وقد اكتنفتك أهواله ومحنه، فسابق أو مسبوق وناجٍ أو مخردل أو مكدوش في نار العظائم والكبائر، فأيقن بذلك وانظر لنفسك، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. [شرح الأسماء ٢/٦٩].

(١) في النسخة (خ): «بشواهد».

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٥)، ومسلم (١١٥٣)، والترمذي (١٦٢٣) والطيالسي (٢١٨٦)، وأحمد (١١٥٧٧)، والنسائي (٢٢٤٥)، والبيهقي (٨٢٣٥).

بالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًا﴾ [مريم:٧٠] ينجو المتقون المبعدون عنها لا يسمعون حسيسها، ويبقى سائر الخليقة من بر وفاجر يمرون على الصراط، تفاوتهم في نجاتهم على تفاوتهم في أعمالهم، و[الورود][1] يقال على معنيين: بمعنى البلوغ وبمعنى الدخول.

الأول: قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٣].

الثاني: قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

فورود سائر المؤمنين بعد السابقين جواز ونجاة، وورود الكفار وبعض العصاة بلوغ وولوج فيها، كما قال - عز من قائل: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:٤٩].

قوله ﷻ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعني: العمل بذكر الله وبطاعته ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم:٧٦] هذا منتظم بما في قوله من ذكر جهنم وورودها على ما هو عليه، وبما فيما حكاه عنهم من قولهم: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم:٥٨] أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا؟ خلافًا للمجتبين الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨].

فقال - عز من قائل - في مقابلة هذا: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم:٧٦] ولا تتصور الباقيات الصالحات إلا مع التوبة والطهارة من الأرجاس والمعاصي، [بل][2] إن الأعمال الصالحة للمتلوثين بالمعاصي يكفر عنهم بها من سيئاتهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[3]

---

(١) في النسخة (خ): «الورد».

(٢) في النسخة (خ): «بلي».

(٣) قال المصنف: أي: يوجد في قلوبهم ودًّا فيودونه لذلك، ويوجد لهم أيضًا ودًّا في قلوب الخليقة، وربما رفعه إلى الحب، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عبدًا قال لجبريل: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل ﵇ ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب =

[مريم:٩٦] هذا منتظمٌ بمعنى المقابلة والإخبار عن مراتب العباد على مراتب أعمالهم لما ذكر الكافرين و[مآلهم] (١) وجهلهم وعتوهم.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٧٧ – ٨٩].

[ثم](٢) قال على أثر ذلك – عزَّ من قائل: لا يهمنك سيئاتهم، فإنا هكذا إرادتنا منهم؛ ليتم كلمتنا بهم وفيهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًا﴾ [مريم:٨٣] الأز: الإزعاج بالتزيين والتدريج، ومن زين لإنسان معصية وحمله عليها بالتحيل والتزيين فقد أزه؛ أي: أزعجه إليها إزعاجًا.

يقول – عزَّ من قائل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًا﴾ [مريم:٨٤] أي: أنفاسهم وأعمالهم التي سبق التقدير بها عدًا، إلى قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا

فلانًا فأحبوه، فيا أهل السماء..» ثم يجعل له القبول في الأرض، وفي أخرى: «المقه تنزل من السماء» ونزولها من السماء هو نزولها في الماء، فلا يشرب أحد من الماء، ولا يأكل مما تنبته الأرض إلا أحبه فذلك قوله: ثم يجعل له القبول في الأرض. وقد أتى من ذكر المحب في القرآن والحديث أكثر مما أتى أكثر من ذكر الود، لكنه لم يأت من الحب اسم ظاهر كما جاء من الود، والحب والود والرضا خاص من الله ﷻ يختص به من يشاء من عباده، وهو كثيرًا ما يعبر عنه بالفضل ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد:٢١] وإنه ليبلغ الحب والود بحامليه أن المحبوب ربما فعل القبيح، فيحسن عند المحب ذلك ويجمل. [٣١٣/٢].

(١) في النسخة (خ): «حالهم».

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:٨٨ - ٨٩] الإد: العظيم المهيب.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم:٩٠ - ٩٨].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠ - ٩١] لما قالوا ذلك كذبهم كل شيء، [وأبغضهم كل شيء][(١)]، ولعنهم كل شيء، حتى أن كادت السماوات أن تنشق من فوقهم، والجبال أن تنهد، والأرض أن تمور مورًا؛ استعجالاً بهم إلى جزاء ما هم ملاقون من جزاء ذلك، لولا حلم الله - جل ذكره - فهو يمسكها أن تزول من حيث هي ومن حيث حلمه وكريم عفوه، ويمسكها إنه كان حليمًا غفورًا.

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] وقد مضى الكلام [فيه][(٢)].

ثم نظم ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالحق المخلوق به السماوات والأرض وبما حواه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًا﴾ [مريم:٩٦] أي: أنه يجعل لهم ودًا في قلوبهم يحبونه به ويودهم هو ﷻ [ويودهم كل شيء][(٣)] ويحبهم كل شيء، ويصلي عليهم كل شيء، ويشهد لهم كل شيء؛ لأنهم رأوا الموجودات على ما جعلها الله عليه، وصدقوها في شهادتها فصدقهم كل شيء وودهم.

وفي ضد هذا قال - عز من قائل: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

[الدخان:٢٩] فمفهوم هذا الخطاب أن كل شيء يبكي عليهم إذا فقدوا، وكما امتلأ العالم تصديقًا لهؤلاء وودًا كذلك امتلأ العالم سفله وعلوه إنكارًا لقولهم وردًا عليهم، ولما لم يكن ما قالوه صدقًا رجع كذب ذلك كله عليهم، فامتلأ العالم في حقهم كذبًا و[فجورًا](١)، وشهدت هي شهادتها الحقية، ولزمت معالمها الفطرية، فشهدت لأهل الإيمان بما شهدوا [به](٢) واتصلت الشهادات بعضها ببعض، فامتلأ العالم كله عدلاً وقسطًا في السماوات السبع والعرش والكرسي وإلى أقصى [العالم](٣).

ختم ذلك بما هو بشارة لهم، قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: يود الله – جل ذكره – إياهم، ويود كل شيء لهم ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] أي: ببغض الله لهم ولعنه إياهم، وبغض كل شيء [لهم](٤) ولعن كل شيء لهم ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩] الألد: هو الخصم الذي لا يرجع إلى حقيقة؛ لأخذه بجنبتي الحق هنا وهنا، لا يجده على العدل ولا سواء الصراط، وخصم كل شيء: نواحيه وجوانبه.

ثم قال – عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨] الركز: الحس، والصوت وعيد وتهديد بالأخذ عاجلاً قبل الآجل، وهو نكال الآخرة والأولى؛ لاتصال أحدهما [بالأخرى](٥)، لا ترجى بعده إقالة، ولا تقبل في أثنائه توبة، نسأل الله [الثواب الحق](٦) التوبة وتعجيل الأوبة بما يرضيه ويزلف [عبده](٧).

---

(١) في النسخة (خ): «فجرًا».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «العلم».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) في النسخة (خ): «بالآخر».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٧) في النسخة (خ): «عنده».

تفسير سورة طه[1]

[مكية فيها من المنسوخ ثلاث آيات]

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) قوله: ﴿طه﴾ قرأ بإمالة الهاء وفتح الطاء أبو عمرو وابن أبي إسحاق، وأمالهما جميعًا أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش، وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وقرأ الباقون بالتفخيم، قال الثعلبي: وهي كلها لغات صحيحة فصيحة، وقال النحاس: لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين: الأولى: أنه ليس هاهنا ياء ولا كسرة حتى تكون الإمالة، والعلة الثانية: أن الطاء من موانع الإمالة، وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال: الأوّل: أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به، والثاني: أنها بمعنى: يا رجل في لغة عكل، وفي لغة عكّ، قال الكلبي: لو قلت لرجل من عك: يا رجل لم يجب حتى تقول: طه، ويروى مزايلاً وقيل: إنها في لغة عكّ بمعنى: يا حبيبي، وقال قطرب: هي كذلك في لغة طيّ أي بمعنى: يا رجل، وكذلك قال الحسن وعكرمة وقيل: هي كذلك في اللغة السريانية، حكاه المهدوي، وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية، وبه قال السديّ وسعيد بن جبير، وحكى الثعلبي: عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة، ورواه عن عكرمة، ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل، القول الثالث: أنها اسم من أسماء الله سبحانه. والقول الرابع: أنها اسم للنبيّ ﷺ، القول الخامس: أنها اسم للسورة، القول السادس: أنها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى، ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة، القول السابع: أن معناها: طوبى لمن اهتدى، القول الثامن: أن معناها: طأ الأرض يا محمد، قال ابن الأنباري: وذلك أن النبيّ ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج إلى التروّح، فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب حتى تحتاج إلى التروّح، وحكى القاضي عياض في «الشفا» عن الربيع بن أنس قال: كان النبيّ ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله: ﴿طه﴾ يعني: طأ الأرض يا محمد، وحكي عن الحسن البصري أنه قرأ: « طه » على وزن دع، أمر بالوطء، والأصل: طأ، فقلبت الهمزة هاء، وقد حكى الواحدي عن أكثر المفسرين أن هذه الكلمة معناها: يا رجل، يريد النبي ﷺ قال: وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد ابن جبير والضحّاك، وقتادة ومجاهد وابن عباس في رواية عطاء والكلبي غير أن بعضهم يقول: هي بلسان الحبشة والنبطية والسريانية، ويقول الكلبي: هي بلغة عك. انظر [فتح القدير (٤/٤٨٦)].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: ١ – ١٢].

قد قيل في [معنى] «طه» غير ما وجه، والأوجه في ذلك - والله أعلم بما ينزل: أن ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿الر﴾ و﴿المر﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿طه﴾ و﴿طس﴾ و﴿طسم﴾ و﴿حم﴾ و﴿حم * عسق﴾ و﴿يس﴾ و﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ واسطة بين حروف الكتاب المبين وبين حروف القرآن الكريم الذي هو كتب البشر، وهي آيات محكمات فصلها منزلها إلى ما شاء تفصيله، وكما لا يستطيع البشري أن يرفع الجبال بقوته ولا أن يصعد [إلى](١) السماء بأيده فكذلك لا يستطيع أن يعبر عنها بعبارة، لكن الإيمان يشير إلى تأويلها، والعقل يومئ إلى أممها بفضل الله وهدايته، والوجه فيها أنها معبرة عن أسماء الله تعالى نزلها منزلها - جل ذكره - إلى أسماء معبر عنها بكلام البشر ولغات الألسنة، ثم نزلها من كونها أسماء إلى مقتضياتها في موجودات العالم، وما عبر عنه القرآن الكريم ويفصل إليه.

قال الله ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود: ١ – ٢] إلى قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

وقال: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١-٣] إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًا﴾ [الشورى: ٧].

وقال: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤].

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

وقال في هذه: ﴿طه﴾ [طه:١] فهو - والله أعلم بما ينزل - اسم عبر عنه قوله - جلَّ من قائل - [إلى قوله][١] ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٨] ومثل هذه الأسماء المعلقة في أوائل هذه السور في عمومها وتفصيلها إلى ما يتفصل إليه ما نطق به القرآن ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣].

﴿قُلْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [آل عمران:٨٤] إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤] وقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] فهذه هي الآيات المحكمات، ثم كل محكم في القرآن بعد هذا فيتصف بمحكم بحكم التبعية، وبإضافة ذلك إلى أفهامنا نحن ثم قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧] فهو كل متشابه في القرآن، وقد تقدم الكلام فيه، وربما قيل في هذه: «متشابهات» بالإضافة إلى علومنا بحكم التبعية، وعلى هذا الوصف الذي تقدم وإلا فقد وصفها منزلها بأنها ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] و[الإحكام يتعرف على طرق][٢] الإحكام بمعنى الإثبات واستحالة التبديل والتغيير في حقها، و[محكم][٣] ذكره الفقهاء بمعنى ليس بمنسوخ وهو راجع إلى الأول، وقد تقدم الكلام في الناسخ والمنسوخ، وما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز.

قوله - جل ذكره: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] يمكن أن يكون قوله: «طه» قسمًا أقسم به؛ إذ معتمد القول [فيه][٤] أنها أسماء أو صفات وهو الذكر اللدني، وسيأتي ذكر هذا بعد - إن شاء الله - وعلى الجملة فإنها بشارة من الله ﷻ لرسوله المنزل عليه القرآن، ثم لعباده المؤمنين العاملين به المتذكرين به مآلهم، وأن المراد بإنزاله الحجة على من كذب وبتنزيله تذكير من تذكر، وهم أهل الخشية لله،

(١) ما بين [ ] زيادة من النسخة (خ).
(٢) في النسخة (خ): «والأحكام تتعرف على طريق».
(٣) في النسخة (خ): «بحكم».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

وهم أهل العلم بالله، وأهل العلم بالله هم أولوا العمل بما في كتاب الله، أولئك هم المفلحون.

وفيه فحوى [خطابه][١] أن المراد منهم الرفق [بهم][٢] لا الإجحاف بالنفوس ولا الحمل عليها كل الحمل، إنما الطريق المستقيم في سلوك هذا الشأن طلب العلم طلبًا لا يضر بالعبادة، وطلب العبادة طلبًا لا يضر بالعلم، وقد أمر رسول الله ﷺ بالتوغل في الدين بالرفق والتيسير، وبشر بالوصول والبلوغ إلى المأمول مع القصد، ثم تفصيل ذلك أن يضر بالهوى بتوسط الصبر، ويبقي على العقل بتوسط الرفق مع العلم.

وكذلك صفة الخوف؛ إذ التوغل فيه دون رفق غير محمود الحملة؛ إذ مطالبته أقصاه إضرار بصفة الحب، فإنه وإن كان من سنة الله في عباده المؤمنين من جعله إياهم بين الخوف والرجاء، فإن زيادة الخوف [تكسب النفس نفورًا في الأغلب عمن كان الخوف][٣] من أجله، فمن الأدب في تناول هذه الدرجة الرفق، وحسب العبد من الخوف ما يكسبه الخشية في المواطن وما فرق بينه وبين شهواته وأضر بهواه.

وليحب الله ﷻ الحب كله، وليفرح بفضل ربه، وما أظهر وأبطن من رحمته، وليتذكر نعمه وأياديه وعظيم إحسانه وقديم امتنانه، وليغيظ نفسه جدًّا؛ لأنه عبد لمن لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] واحد أحد صمد، له المجد كله والثناء الحسن أجمع، وليصعد في حبه إلى [الله][٤]؛ لأنه الله لا إله إلا هو العلي الكبير، لا كفؤ له ولا [شبه][٥] في وجه من الوجوه ولا بمعنى من المعاني، له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وله الخلق و[له][٦] الأمر، وليستعن على الوصول

---

(١) في النسخة (خ): «خطاب».
(٢) في النسخة (خ): «منهم».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «مشبه».
(٦) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

إلى هذه المنزلة بكل سبيل أمكنه سلوكها وكل عمل ييسر له.

قوله ﷻ: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى﴾ [طه:٤] تعظيم لقدر القرآن، وقدر من أنزله، ومن [نزل][(١)] عليه، وقدر من أنزل إليه.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٥ - ٦] ذكر السماوات العلا، وفي ذلك دليل خطاب أن في الوجود سماوات دنى وهي التي بين السماء الدنيا والأرض أعلم باستوائه على العرش، وهو الحي القيوم أن قد حييت به الجملة، أنه في كل مكان منها لا في مكان، ومع كل أحد بما هو وأينما كان، فهو مستوي على العرش؛ لشمول معنى العرش جميع كل مذكور من المحدثات، وأعلم بذلك أنه لا يعزب عنه من الجملة مثقال ذرة في [العلو][(٢)] ولا فيما تحت الثرى إلى حيث المنتهى.

و﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي: [ما][(٣)] لم يجهر به ﴿وَأَخْفَى﴾[(٤)] [طه:٧] من السر؛ [أي][(٥)]: ما لم يبدُ بعد في خزانة القلب من غيابات الغيب.

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٨] هذا - والله أعلم بما ينزل - وما قبله مما هو تذكير به أو يؤول إليه من الذكر الذي يفصل إليه قوله: «طه».

نظم بذلك قوله الحق: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا﴾ [طه: ٩ - ١٠]

---

(١) في النسخة (خ): «أنزل».

(٢) في النسخة (خ): «العالم».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) الجهر بالقول: هو رفع الصوت به، والسرّ: ما حدّث به الإنسان غيره وأسرّه إليه، والأخفى من السرّ: هو ما حدّث به الإنسان نفسه وأخطره بباله. والمعنى: إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنيّ عن ذلك، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى من السرّ، فلا حاجة لك إلى الجهر بالقول، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف:٢٠٥]. وقيل: السر ما أسرّ الإنسان في نفسه، والأخفى منه: هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه. وقيل: السرّ: ما أضمره الإنسان في نفسه، والأخفى منه: ما لم يكن ولا أضمره أحد. وقيل: السرّ سرّ الخلائق، والأخفى منه: سرّ الله ﷻ. وأنكر ذلك ابن جرير وقال: إن الأخفى: ما ليس في سرّ الإنسان وسيكون في نفسه. فتح القدير (٤/٤٨٨).

(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

المعنى إلى آخره أعم [كلمته بفضل][(١)] من الذكر اللدني، [قوله][(٢)]: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» مع إضافة ذكر الرسالة والنبوة إلى ذلك؛ كقولك: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فظاهر انتظام هذا بما تقدم من ذلك، وفيه تأنيس ونص تعريض إلى مفهوم المعنى المتقدم ذكره.

قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] لما أتى النار رآها على ما تقرر في نفسه [أولاً][(٣)] فأعلم الله - جل ذكره - أنها ليست بنار بل ذاك نور، وأن مكلمه هو رب العالمين، وقال له: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره بذلك - وهو أعلم - إكرامًا للحضرة المقدسة، وربما كان فيها ما لا تجوز الصلاة به، وقيل: إنها كانت من جلد حمار ميت، وربما كان ذلك مثلاً ضربه لرسوله لمعنى أراده منه، فهو أعلم ﷻ[(٤)].

---

(١) في النسخة (خ): «كلمة فصل».

(٢) في النسخة (خ): «قولك».

(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٤) فائدة مهمة: ۞ النعلان في الاصطلاح الصوفي، والمراد بقوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: لهما من الاصطلاحات الباطنة المعاني المتنوعة: المراد بخلع النعلين، تفريغ القلب من حديث الدارين، والتجرد للحق بنعت الإفراد. المراد تبرأ عن نوعى أفعالك وامح عن الشهود جنسي أحوالك، من قرب وبعد، ووصل وفصل، وارتياح واجتياح وفناء وبقاء، وكن بوصفنا، فإنما أنت بحقنا، تجرد عن جماتك واصطلم عن شواهدك. والنعلان هما الوصفان المتضادان، كالرحمة والنعمة، والغضب والرضا وأمثال ذلك وهما يرتبطان بالقدمين، فيذكر الشيخ الجيلي أن القدمين عبارة عن حكمين ذاتيين متضادين، وهما من جملة الذات، بل هما عين الذات. وأما النعلان فالوصفان المتضادان، كالرحمة والنعمة، والغضب والرضا وأمثال ذلك. والفرق بين القدمين والنعلين، أن القدمين عبارة عن المتضادات المخصوصة بالذات، والنعلان عبارة عن المتضادات المتعدية إلى المخلوقات، يعنى أنها تطلب الأثر فى المخلوقات، فهى نعلان تحت القدمين؛ لأن الصفات العقلية تحت الصفات الذاتية.

- والنعلان يذكر القاشاني فى تفسيرهما: أن الله لما خاطب موسى (إني أنا ربك) محتجبًا بالصورة النارية، التى هى أحد أستار جلالي متجليًا فيها أمره بقوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي: نفسك وبدنك أو الكونين؛ لأنه إذا تجرد عنهما، فقد تجرد عن الكونين، أي كما تجردت بروحك وسرك عن صفاتهما، وهيأتها حتى اتصلت بروح القدس، تجرد بقلبك وصدرك =

=

عنهما بقطع العلاقة الكلية، ومحو الآثار والفناء عن الصفات والأفعال، وإنما سماها نعلين، ولم يسمهما ثوبين؛ لأنه لو لم يتجرد عن الملابس، لم يتصل بعالم القدس، والحال حال الاتصال، وإنما أمره بالانقطاع إليه بالكلية، كما قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾ [المزمل:٨].

قال الشيخ روزبهان البقلي: قال ابن عطاء ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: أعرض بقلبك عن الكون، فلا تنظر إليه بعد هذا. وقال نجم الدين كبرى: أي: انزع تعلقات الكونين عن شرك الأقدس، وعن لوث التعلقات، وأرى شرك المطهر، فتارة: بقطع تعلق الدنيا الدنية الخسيسة الفانية، ومرة: بنزع تعلق الآخرة الشريفة العلية الباقية؛ فالمعنى: أنك يا موسى القلب إذا خلعت نعلي الكونين على قدمي همتك وبهمتك المتعلقة أحدهما: بالدنيا، والأخرى: بالآخرة، فقد طهرت وادي شركك عن لوث الالتفات بهما. وقال أبو سعيد النيسابوري: أي اترك الالتفات إلى الزوجة والولد، فإن النعل يعبر في الرؤيا بهما، أو اترك الالتفات إلى الكونين إنك واصل الى جناب القدس ، أو هما المقدمتان في نحو قولنا « العالم محدث وكل محدث فله محدث وموجد » وذلك أنه إذا غرق في لجة العرفان بقيت المقدمات على ساحل الوسائل.

وقال: يعني المقدمتين اللتين وصلت بهما إلى النتيجة وهو وادي قدس الوحدانية. وإنما وقع الاقتصار على الدلائل السماوية لأنها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال النفس منها إلى عظمة الله أيسر. وقال ابن عجيبة: لأنه أليق بحسن الأدب، ومنه أخذ الصوفية – رضي الله عنهم – خلع نعالهم بين يدي المشايخ والأكابر، وقيل: ليباشر الوادي المقدس بقدميه، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد، بخلعها ولو طاهرة، وقيل: إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: النعلين: الكونين، أي: فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا.

وقال أيضًا: أي: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون. وقال الفخر الرازي: والنعلان هما المقدمتان اللتان بهما يتوصل العقل إلى المعرفة فلما وصل إلى المعرفة أمر بخلعهما، وقيل له: إنك تريد أن تضع قدميك في وادي قدس الوحدانية فاترك الاشتغال بالدلائل. وقال أيضًا: الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور فعل. وقال: هو إشارة إلى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة : علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد ، فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى.

وقال حقي: وهما الطبيعة والنفس امر بتركهما. وقال: يعنى همك بامرأتك وغنمك. وقال حضرة الشيخ الشهير بافتاده – قدس سره – يعنى الطبيعة والنفس.

يقول الفقير: لا شك أن المرأة صورة الطبيعة والولد صورة النفس لأن حبه من هواها غالبًا وأيضًا أن المرأة فى حكم الرجل نفسه لأنها جزء منه فى الأصل والغنم ونحوه إنما هو من المعاش التابع للوجود، فكأنه قيل: فاخلع فكر النفس وما يتبعها أيًا كان وتعال.

وقال بعضهم: المراد بالنعلين الدنيا والآخرة كأنه أمره بالاستغراق فى معرفة الله ومشاهدته

=

ثم قال له: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ لزمت البركة والقدس ذلك الوادي وما حوله؛ لينزل الله – جل ذكره – إليه وتكليمه عنده منه وتجليه [عليه][(١)].

فصل

[ذكر][(٢)] في تفسير ﴿طه﴾ أيضًا: «طه» أي: اطمئن، قرأها كذلك الحسن وعكرمة: كان الأصل «طأ»؛ أي: طأ الأرض بقدميك، ثم تبدل الهمزة هاء، وروي أن ابن مسعود قرأها: «طه» بكسر الهاء، وروي عن ابن عباس أنه قال: [كان النبي][(٣)]

=

والوادي المقدس قُدس جلال الله وطهارة عزته.

• **قلت:** سيدنا موسى امتثل الأمر ظاهرًا بخلع النعلين، وباطنًا بخلع الكونين.

قال الهروي: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: التجريد انخلاع عن شهود الشواهد وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: تجريد عين الكشف عن كسب اليقين. والدرجة الثانية: تجريد عين الجمع عن درك العلم.

والدرجة الثالثة: تجريد الخلاص من شهود التجريد.

قال الشيخ القاشاني: «خَلْعُ النَّعْلَيْنِ»: في مصطلح القوم، يعني به ما يفهم من باب الإشارة من قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ فتارة يكنى بخلع النعلين عن خلع الوصفين بالنفس الشهوانية والغضبية، وتارة يعني بالخلع الترقي عن كدور الحس والخيال، وتارة يعني به خلع التقييد بأحكام الحس والعقل، فإن العقل ما دام متقيدًا بالحس فهو منحجب عن الحق، وما دام الحس غير مستعد للاستضاءة بنور العقل فالنفس في حجاب عن الحقائق وبالجملة فكما أن الحس حجاب العقل عن إدراك الحقائق، فكذا العقل حجاب القلب عن كشف الحقائق، وتارة يعني بخلع النعلين إطراح الكونين أعني الدنيا والآخرة. قال الإمام الغزالي في كتاب «المشكاة»: «أول منازل الترقي إلى عالم القُدس خلع النفس كدورة الخيال والحس، ثم اطراح الكونين، أعني الدنيا والآخرة، والتوجه إلى الواحد الحق». وقال سيدي أبو بكر سالم في «معراج الأرواح»: ثبت وصح عند أهل الله خلع النعلين عبارة عن التجريد الحقيقي، وهو تجريد الحقيقة عن الكونين؛ لأن الإنسان هو حقيقة الحق متنزلاً بالتعينات إلى عالم الروح والجسم. واخلع النعلين في التجريد عنهما لتبقى الحقيقة بانفرادها مجردة عن رسوم الغيرية. [انظر: مقدمتنا لكتاب خلع النعلين لابن قسي] بتحقيقنا، ط. مصر.

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٣) في النسخة (غ): «كالنبي».

ﷺ أول ما أنزل عليه القرآن يقوم على صدور قدميه، وقيل: إن موسى عليه السلام لما سمع كلام الله ﷻ استحقه الخوف حتى قام على أطراف قدميه، فقال الله - جل ذكره - له: ﴿طه﴾ أي: اطمئن وطأ قدميك، فربما - والله أعلم - أنزل الله عليه هذا القرآن في موطن من مواطنه الرفيعة، فكان مما أوحى إليه [قوله][1]: ﴿طه﴾ فتكون الطاء قد أفهمت ما أفهمته في سبيل الوحي والموحى به، ومما أفهمته «طوى» والهاء عائدة على النبوة أو الرسالة أو نفس الرسول عليه السلام؛ أي: هذا [أطواك][2] أنت يا محمد كما فعلنا بموسى عليه السلام.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:٢] كما قال لموسى: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ إنك من الآمنين، [ولا تخف][3] ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه:١٣-٢٣].

نظم بذلك قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٣ - ١٤] هذا هو الذكر اللدني وما هو في بابه، الذي أعلم به في قوله [الحق جل قوله][4]: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «طواك».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ﴾ [طه:٩٩ - ١٠١] وأمر بالاستماع إلى هذا الوحي لما فيه من العظمة.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] أي: لتذكرني بذلك، وفي ذلك مفهوم خطاب بوعد حق لا مرية فيه معناه: لذكري لك؛ أي: اذكرني لأذكرك، كما قال - عز من قائل: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] يقول الله: حمدني عبدي....**»(١).

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥] من تعرف إليه في الرخاء عرفه في الشدة، أعلم بذلك أن ذكر الله - جل ذكره - هو المراد في كل وجه وعلى كل حال، وإنما أرخص في البعض من ترك إقامة الذكر؛ لإقامة حاجة البدن من أكل وشرب ونوم ونكاح ونحو ذلك، وأوجب على ذلك تسميته في أوائل هذه الأفعال وغيرها بأن يقول: «بسم الله» وعند فراغها: «**الحمد لله**» وندبه [إلى](٢) استصحاب الذكر، وأكثر التوصية جدًّا باستصحاب الذكر على كل حال بقوله لرسوليه موسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:٤٢] وقال لهذه الأمة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣] وقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧] قرره على ما هو الذي في يمينه، وهو أعلم منه بذلك لما [أراه](٣) من قلبها حية تسعى، فلما تقرر عند موسى أنها عصا أنفذ فيها جل ذكره حكمه.

وقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه:١٨] يقول: أخبط بها الورق ليقع فتأكله الغنم، وقرأ مجاهد: «**وأهُس بها على غنمي**» بالسين غير منقطة مع سكون الهاء، وهو صوت يسوق به الراعي الغنم.

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣) وقال: حسن، والنسائي (٩٠٩)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) في النسخة (خ): «على».

(٣) في النسخة (خ): «أراده».

آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى﴾ [طه:٢٢ - ٢٣] هاتان الآيتان وإن كانتا في الآيات التسع التي تحدى بها موسى عليه السلام فرعون وقومه، فإنهما من آيات الله سبحانه [على][1] الحق، والله أعلم أن الآيات هن أكثر من التسع، فإن التسع قد نص عليهن العليم القدير أنهن إلى فرعون وقومه، وأن هاتين الآيتين وإن كان قد نزع بهما عند التبليغ إلى فرعون فإنهما آيتان أيضًا من الله - جل ذكره - إن الله هو مكلمه، ولو شاء لاكتفى بما جعل في قلبه [من اليقين والمشاهدة، لكنها سنته لموسى على أنه هو مكلمه ومخاطبه][2].

ولو شاء لجعل في قلبه][3] العلم الجزم [فإنه][4] هو المكلم له، وقد كان ذلك [لا محالة لكن][5] أجرى في ذلك سنته المعهودة، كما قال لهما - جلَّ من قائل: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] لما كان من قضائه أن يكون [من][6] شأن الرفق تليين الأخلاق وتسهيل الجانب، وأن المعهود: «**متى استشاط الشيطان استشاط السلطان، وإذا استشاط السلطان استشاط الشيطان**»[7] كذلك قال رسول الله ﷺ أمره بالتلين أمرًا بالسنة على معهودها؛ ليصل إليه التبيين وتثبت عليه الحجة.

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «بأنه».
(٥) في النسخة (خ): «لإيحاء له لكنه».
(٦) في النسخة (خ): «ما».
(٧) أخرجه أحمد (١٨٠١٣)، والطبراني (٤٤٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد (١٢٦٦)، والقضاعي (١٣٩٩)، والديلمي (١٢٩٧)، وقال الهيثمي (١٩٤/٤): في إسناده من لم أعرفه، وقال في (٧١/٨): رجاله ثقات.

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٢٤ – ٣٩].

﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أو أَن يَطْغَى﴾[1] [طه:٤٥] يريدان – والله أعلم – قبل أن نبلغ رسالتك، وهذا أولى بهما، وأنه من أوصله الله – جل ثناؤه – إلى رسالته وأهله إلى أن يكون سفيرًا بينه وبين عباده لا يوصف بأنه يخاف غير الله، وإنما خافا أن يعاجلهما قبل التبليغ ألا [تسمعه يقول][2] قبل هذا، لما أعلمه بأنه مرسله سأله أن ييسره لذلك، وأن يعينه على ما أمره، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:٢٥-٢٩].

[قال][3] المفسرون أن عقدة لسانه هذه كانت لأجل جمرة جعلها في فيه، لقصة ذكروها كانت بين فرعون وامرأته في شأن موسى عليه السلام امتحناه بها، والصحيح – والله أعلم بما ينزل – أنه كان رجلاً عبرانيًا في مجاورة القبط، [رُبِّيَ][4] في حجورهم، فكان ظاهر لسانه لغة القبط، ثم [تغرب][5] إلى أرض مدين، وجاور العرب فتعرب من أجل ذلك مدة سنين كان فيما هنالك.

قال الله – عزَّ من قائل: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه:٤٠] فكانت لأجل

---

(١) قال ابن عباس: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ يعجل علينا بالقتل والعقوبة. يقال: فَرَطَ عَلَيْنَا فلان: إذا عجل بمكروه، وفَرَط منه؛ أي: بدر وسبق ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ يجاوز الحد بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي؛ لجرأته عليك. واعلم أن من أمر بشيء فحاول دفعه لأعذار يذكرها فلا بد أن يختم كلامه بما هو الأقوى، كما أن الهُدْهُدَ ختم عذره بقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ﴾ [النمل:٢٤] فكذا ها هنا بدأ موسى بقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ وختم بقوله: ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾ لما كان طغيانه في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون. تفسير اللباب لابن عادل (١١/١٧٠).

(٢) في النسخة (خ): «يسمعه».

(٣) في النسخة (خ): «ذكر».

(٤) في النسخة (خ): «ربيًا».

(٥) في النسخة (خ): «تعرب».

ذلك [الكنة][(١)] في لسانه؛ [أي][(٢)]: لم يكن فصيحًا في لسانهم كأخيه هارون - عليهما السلام - لأنه لم [يتقرب][(٣)] منهم؛ لذلك قال ﷺ: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص:٣٤] وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

ولما أكمل سؤاله من مراده قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:٣٦] ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:٣٧] سمى - جل ذكره - ما وهبه في الأولى وفي الثانية مَنًّا؛ إذ لم يكن ما أتاه من النبوة والرسالة والكرامة عنده والجاه جزاءً لعمل وبأي عمل يستوجب استئهال ذلك.

ثم جعل يعدد عليه منته في الأولى بقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:٣٨] فجعل يعدد عليه حفظه له حال غيبته عن علم ذلك منه، ودلَّ بذلك على أن وحيه إلى أم موسى كان وحيًا كاملاً رؤيا أو غير ذلك، أوحى إلى قلبها العزم في ذلك أنه الحق، والأوجه أنه الوحي المعهود لقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:٣٨] فأحال على معهود الأنبياء والوحي كما قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [يوسف:٣] وكذلك في سورة يوسف ﷺ.

قوله ﷻ: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه:٣٩] اللام: لام أمر كون؛ أي: إنَّا سنأمر اليم أن يلقيه بالساحل حيث يناله آل فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩] [أي][(٤)]: لتُربى وتُلاطف في حجر عدوك يسلمك بذلك من الذبح، ثم عطف على ذلك بالواو في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩] أي: على رضا مني فتذكر اسمي [على][(٥)] إطعامك وسقيك ونومك وإرضاعك وتناولك، وسلك بك سبيل مرضاتي في جميع شأنك، رددناك إلى أمك وعلى إرادة امرأة فرعون فيك وإرادة أمك.

---

(١) في النسخة (خ): «لكنه».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٣) في النسخة (خ): «يتعرب».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٥) في النسخة (خ): «عند».

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٠- ٤٦].

علق هذا [كله][١] بقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:٤٠] وذِكر العين هنا يشير إلى المحبة منه له، ولا تكون هذه العبارة إلا لولي ومحبوب، وإلا فالكفار أيضًا [يصنعون على مرأى][٢] منه، ومثل هذا قوله في قصص السفينة، وكيف نجا فيها نوحًا ومن معه برحمة منه، فقال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٣ - ١٤] أي: بأوليائنا وبحفظنا كما يقال: فلان عين الملك بموضع.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه:٤٧ - ٥٦].

كذا قوله تعالى فيما حكاه من قول فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) في النسخة (خ): «يضعون على مراء».

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٤٩ - ٥٠] كقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٣] خلق الجميع على فطرة الإسلام، وأتم خلقته على ما أراده، ثم هداه إلى ما فطره عليه إلى أن أضله أبواه والشياطين والكافلون والخليط.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:٥١] سؤال فرعون هذا يدل على محذوف كان موسى عليه السلام أجرى في المحاورة أن الله يبعث الموتى ليجزيهم بأعمالهم، فقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:٥١] أي: إن كان حقًّا ما تقول فلِمَ لم يحييهم، كذلك قال المكذبون سؤله: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦] ثم بعد هذا محذوف في المحاورة كان موسى عليه السلام قال في محاجته: إنما يحييهم ويجمعهم ليوم القيامة.

فأجابه موسى - صلوات الله وسلامه عليه - بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] وقيل: هذا من جواب موسى عليه السلام محذوف مقدر، وكان فرعون - لعنه الله - قال لموسى جوابًا عن قوله: الله يجمعهم ويحييهم، وأجل ذلك إلى يوم القيامة، قال له: وقد ضلوا في التراب وعادوا غبارًا وأرضًا، وتصرفت الأرض بهم نباتًا وحيوانًا، وانتقل النبات والحيوان غذاء [للمغذين][1] بذلك، ثم عاد ذلك ترابًا في التراب، ثم كذلك أيضًا تتناسخ الأبدان نباتًا وحيوانًا وأرضًا، [وحيوانًا وأرضًا][2] وحجارةً وحديدًا إلى غير ذلك.

أجابه موسى عليه السلام عن ذلك كله بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ و[عن][3] تمييز الذوات ووجود الموجودات وسبلها في مسالكها، كيف لا وهو الذي أسلكها في سبلها [تلك][4] كذلك يسلكها [أيضًا][5] مرة أخرى في إعادتها، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟.

(١) في النسخة (خ): «المقتدين».
(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٣) في النسخة (خ): «ولا عن».
(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).
(٥) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

جمع ذلك كله قوله: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ عن سبلها التي أسلكها عليها [أولاً][1] ﴿وَلَا يَنسَى﴾ صورها التي أحالها عنها في تصريفه إياها إلى سواها، كالماء أحاله إلى نبات، والنبات أحاله إلى حيوان بواسطة الغذاء، والحيوان أحاله إلى حيوان غيره، فهو لا ينسى صور [الموجودات التي][2] أحالها إلى ما أحالها إليه، وإن طال ذلك وكثر تناسخ الأجسام وإحالة الصور لا يضل في تداخل سبل ذلك وطول آمادها. فافهم.

كما قال الله - جلَّ من قائل - حين قالوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦] فأجابهم: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦] [ثم استمر على تبليغ ما أرسل به والنبيين عن ربه ﷻ بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه:٥٣] هذه آية على إثبات النبوة والرسالة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [طه:٥٣ - ٥٤] فكان في هذا جوابه عما استعظمه من إعادة من صار ترابًا، ثم حول إلى خلق بعد خلق إلى يوم القيامة][3].

ثم قال ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] هذه دلالة على الإحياء من بعد الموت.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه:٥٤] هذا إخبار عن جمعهم في إخراجهم إلى هذه الدار من خزائن السماوات والأرض في الأجواء والهواء بالرياح والماء إلى الأرض، ثم من الأرض في النبات والحيوان، وهذه أوائل النشأة الأولى، وآية على [النشأة الأخرى][4]، أفمن اقتدر على جمعهم بعدما قد كان أماتهم [وبثهم][5] في غيابات السماوات والأرض والهواء والأرض فجمعهم جمعًا وأوجدهم أجسامًا

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «موجودات».
(٣) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٤) في النسخة (خ): «الإنشاء الآخر».
(٥) في النسخة (خ): «وهم».

وذواتًا يعجز عن إعادتهم وتمييزهم بعدما قد ضلوا في الأجواء والهواء وغيابات السماوات والأرض وموجودات الدنيا من حيواناتها ونباتها، وهو الذي أضلهم فجمع ذلك كله ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى﴾ وهو الآن الخلاق أبدًا على الدوام يعدم ويخلف إبقاءً وإعدامًا ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ﴾ [يس:٨١] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ثم عبر عن كونهم قد ضلوا في غيابات السماوات والأرض بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾(١) [طه:٥٦] يعني - وهو أعلم: التسع الآيات، وعطف بالواو على ما تقدم وصفه من تبيين الآيات بالمحاجة، قوله: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:٥٦] كذب؛ أي: لم يؤمن، وأبى من أن يطيع.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ

---

(١) هذا إخبار من الله تعالى لمحمد ﷺ وهذا يدل على أن قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إنما هو خطاب له ﷺ ﴿أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ هي المنقولة من «رأى» البصرية، ولذلك تعدت إلى اثنين بهمزة النقل و«آياتنا» ليس عامًّا؛ إذ لم يُره تعالى جميع الآيات، وإنما المعنى آياتنا التي رآها، فكانت الإضافة تفيد ما تفيده الألف واللام من العهد. وإنما رأى العصا واليد والطمسة وغير ذلك مما رآه فجاء التوكيد بالنسبة لهذه الآيات المعهودة. وقيل: المعنى: آيات بكمالها، وأضاف الآيات إليه على حسب التشريف، كأنه قال: آيات لنا. وقيل: يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به. تفسير البحر المحيط (٨٧/٨).

أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ
أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ
﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ
وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ
لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٥٧ - ٧١].

ولما انقطع عن جداله نكس على رأسه فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧ - ٥٨].

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ
﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ
جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا
تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن
يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٧٢ - ٨١].

ثم كذلك من قصصه الحق - جل وتعالى علاؤه وشأنه - كما تقدم في غير هذه السورة، إلى قوله: [﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ثم كقوله][1]: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨٠ - ٨١].

[يقول - جلَّ من قائل: واشكروا لي فتصيروا إلى حياة هي أفضل، ورزق هو أكرم وحال عليه ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨١][(١)] ما قال شيئًا قط إلا هو كائن لا بد ولا محالة وإن تراخت المدة وبعد الأمر.

لذلك قال موسى عليه السلام يوم اتخذوا العجل إلهًا من دون الله ﷻ ورجع إليهم ﴿غَضْبَانَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًا﴾ حزينًا [لهم][(٢)] من تأخرهم وحلول المحذور المنذور به بساحتهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠] أي: فيما أنذركم به من غضبه عليكم.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾ [طه:٨٢ - ٨٧].

وقال في هذه: يا قوم ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:٨٦] إلى آخر القصة، وقد تقدمت إشارات إلى معانيها قبل هذا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾
قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ
قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ
فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى
ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه:٨٨ – ٩٧].

ثم ذكر قصة السامري إلى قوله: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[١] [طه:٩٧] قيل في ذلك: إن موسى عليه السلام نهى بني إسرائيل ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه، فإن كان موسى عليه السلام قد فعل ذلك فليس الإخبار عن هذا هو مقصود الآية، وأيضًا فإنه قال له: «اذهب فإن لك» وهذا لا يقال إلا لمن أعطي ما هو مرغوب له، وقيل أيضًا: إنه عنى بذلك حوشية تجعل فيه، فلا يصحبه أحد؛ لأنه لا تطيب له صحبته، بل ينكره ويتقزز منه.

وفي هذه [الأمة من][٢] هو في سبل هذا يدعون بـ«النكارية»، وقيل: إنه له نسلاً على مثل ذلك من حاله، وهذا أيضًا [يوضح][٣] أنه ونسله كذلك، فهو ليس بمقصود [الأنبياء][٤] – والله أعلم بما ينزله – وأرى والله أعلم أنها من الله نظرة في

---

(١) وقرأ الجمهور: «لا مِسَاس» بفتح السين والميم المكسورة، و«مساس» مصدر ماس، كقتال من قاتل، وهو منفي بـ«لا» التي لنفي الجنس، وهو نفي أريد به النهي؛ أي: لا تمسني ولا أمسك. وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعنب بفتح الميم وكسر السين. فقال صاحب «اللوامح»: هو على صورة نزال ونظار من أسماء الأفعال، بمعنى: أنزل وأنظر، فهذه الأسماء التي بهذه الصيغة معارف، ولا تدخل عليها «لا» النافية التي تنصب النكرات، نحو: «لا مال لك» لكنه فيه نفي الفعل، فتقديره: لا يكون منك مساس، ولا أقول: مساس، ومعناه: النهي؛ أي: لا تمسني. انتهى. وظاهر هذا أن مساس اسم فعل. تفسير البحر المحيط (٨/ ١١٤).

(٢) في النسخة (خ): «الآية ممن».

(٣) في النسخة (خ): «واضح».

(٤) في النسخة (خ): «الأبناء».

[حال][١] الدجالية أنظره فيها إلى يوم يأذن الله في خروج الدَّجال - لعنه الله - لذلك، وهو أعلم.

قال - عز من قائل: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه:٩٧] وقد تقدم ذكره قبل هذا.

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا
صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ
ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:٩٨-١١١].

قوله - جلَّ من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩] وكان الذي قص عليه نبأ موسى وفرعون؛ أي: كما نقص عليك نبأ موسى وفرعون بالحق كذلك غيره، والخطاب على [عمومه][٢]، قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] هذا - والله أعلم - منتظم بما في صدر السورة من الذكر اللدني، وقوله قبل هذا: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:١١١] وكذلك ما كان من قبل هذا من الذكر اللدني، وانتظم المعنيان في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ

(١) في النسخة (خ): «حاله وهي حالة».

(٢) في النسخة (خ): «عمومية».

عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩] [بالمعنى][(١)] الذي في صدر السورة في تأويل طه، ومعنى الذكر اللدني بالوجه الأول في تأويلها.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه:١١٢-١١٦].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه:١١٣] منتظمًا بما في المعنى الذي هو أحد الوجهين، يقول - وهو أعلم: كما أنزلنا على موسى التوراة والهدى والنور والفرقان ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه:١١٣] [هي الدرجة الرفيعة][(٢)] من الإيمان والعمل بها أو يحدث لهم ذكرًا [للدرجة][(٣)] التي لعموم المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه:١١٤] عما قاله فرعون وأتباعه وما قاله السامري وأشياعه، وعز أن يبخس أحدًا من حقه أو يخلف من وعده، ثم قال - عز من قائل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه:١١٤] هذا متصل بما جاء من حرصه على تلقي القرآن واستعجاله ذلك وتحمله المشقة، حتى قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة:١٦] وقيل له: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه:١ - ٢].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] أمر الله عباده أن يسألوه المزيد من نعمته، ولا نعمة أفضل من العلم ولو بلغ منه ما عسى [أن يبلغ][(٤)]، وأين يقع علم ذي علم

---

(١) في النسخة (خ): «فالمعنى».

(٢) في النسخة (خ): «يعني الدرجة العليا».

(٣) في النسخة (خ): «الدرجة الدنيا».

(٤) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

من العباد من علم سيد البشر، وقد أمره بذلك، ولقد جاء عن عيسى ﵇ أن فيما أوحى الله إليه [به: يا عيسى](١) إن بين يديك لمفاوز من معرفتي ما قطعتها بعد.

فصل

الذكر اللدني يعلم فيما ها هنا بالإضافة إلى ما سواه، فما كان من وصف الألوهية والوحدانية والربوبية، وذكر الأسماء الحسنى والصفات العلا وأوصاف النبوة والرسالة، فهذا مع الإضافة إلى ذكر الأحكام والقصص هو الذكر اللدني، كما أن علم الخضر ﵇ هو العلم اللدني بالإضافة إلى علم الشرائع، وتمييز الحلال [من الحرام](٢)، يقول الله - جلَّ من قائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] فمواقع اختياره في المخلوقات [وأثارات الخيرات](٣) في عواقب تدبيره هو العلم اللدني، بالإضافة إلى ما دونه لذلك، وهو أعلم.

قال - عز من قائل: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ﴾ [طه:١٠٠ - ١٠١] وقرأ داود بن رفيع: «يحمل يوم القيامة وزرًا».

قوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣ - ١٠٤] التخافت بالقول: الإخفاء به، يسرونه في أنفسهم ويقولونه فيما بينهم.

فصل

قال الله - عزَّ من قائل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥١ - ٥٢] وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَو ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦] وقال في هذه السورة: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٤] فقرب من الصواب من قال: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وغلب قوله هذا على قول من قال: «إن لبثتم إلا عشرًا».

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).
(٢) في النسخة (خ): «والحرام».
(٣) في النسخة (خ): «وأمارات الخير».

وجاء: «**أن آل فرعون يعرضون على النار بكرة وعشية، فإذا رأوها قالوا: ربنا لا تقوم الساعة**»[1] وكذلك غيرهم يعرضون على منازلهم من النار، وقال الله ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمون إليها.

ثم استمر على ذلك بقوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: في دار البرزخ، ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] يعني: في الآخرة، والحديث الذي جاء فيه: «**أن رسول الله ﷺ مرَّ فيما أريه بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقال: من هؤلاء؟ قيل: هؤلاء خطباء أمتك، ومر على من يشرشر شدقاه، وآخر يثلغ رأسه، فقال في الذي يثلغ رأسه: إنه كان ينام عن القرآن بالليل ولا يعمل به بالنهار...**»[2].

وقال رسول الله ﷺ في حديث لقيط بن عامر وذكر البعث: «**فخلت الأرض فأرسل ربك بهضب من تحت العرش، ولعمر إلهك ما يدع على ظهرها من مدفن أو مصرع قتيل إلا شقت القبر عنه، حتى يخلقه من قبل رأسه ويستوي جالسًا، يقول ربك تعالى: مهيم، فيقول: أي رب بالأمس لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهله**»[3] فمن يكون في عذاب وروعات، وعرض على منزله من النار بكرة وعشية، كيف يقول حين يسأل حال بعثه من تلك الحال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩] وقرب الله سبحانه من الصواب قول من قال: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٤] الله الحق ووعده الحق وقوله الحق، وهو أعلم بما قال.

أرى - والله أعلم بما ينزل - أن للموتى حقيقة يحسون بها بما هم فيه من عذاب وخزي وهون؛ لينالوا بذلك ما هم بصدده طول مدة البرزخ، آية ذلك كونهم

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٣٧/١).

(٢) لم أقف عليه هكذا، وإنما أخرجه بنحوه الطيالسي (٢٠٦٠)، وأحمد (١٢٢٣٢)، وعبد بن حميد (١٢٢)، وأبو يعلى (٣٩٩٦)، والطبراني في الأوسط (٨٢٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨٦/٢)، والضياء (٢٦٤٦) وقال: إسناده صحيح، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٦)، والبيهقي (٤٩٦٧)، قال الهيثمي (٢٧٦/٧): أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الحاكم (٨٨٣٤)، وأحمد بنحوه مطولاً (١٦٦٣٥)، وابن خزيمة في التوحيد (٢٤١)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٥٧/٣).

حال حياتهم الدنيا أمواتًا عن حقيقة الحق المخلوق به السماوات والأرض، حتى جهلوا خلقتهم وجبلتهم وما فطروا عليه مع كونهم أحياء مكلفين، وأنهم ليرجعون إلى بعض تلك الحقيقة عند [اضطرارهم][1]، ثم إذا رفه عنهم لا يستفيقون، فهم على ذلك أموات لا يرون الآيات، ولا يشاهدون ولا يشهدون مع الشاهدين، ولا يتكلمون بالحق ولا يعقلونه ولا يتحركون إليه.

ولهم أيضًا في البرزخ حقيقة يكونون بها أمواتًا، فلا يعقلون ما هم فيه، فبحقيقة ما هم [به][2] يحسون ويعقلون ما يصيبهم يقولون: «**ربنا لا تقوم الساعة**»[3] آية ذلك رجوعهم في الدنيا حال اضطرارهم إلى ربهم الحق، وبحقيقة ما هم بها أموات لا يعقلون ما هم فيه، ولا يذكرون طول الأمد، كالذي جاء عن بعض الأنبياء - على جميعهم السلام - الذي جعله الله للناس آية ﴿**فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ قال الله له - عزَّ من قائل: ﴿**بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**﴾ [البقرة:٢٥٩].

فلأنهم كانوا في الدنيا لا يذكرون الرجعة والبعث ولا ما هنالك، ينسون ذلك ولا يذكرون طول مدة البرزخ ولا شدة ما أصابهم، كما أعماهم بجهلهم عن رؤية اقتدار الله - جل ثناؤه - على إعادتهم وجمعهم من غيابات البلاء، كما كان قد جمعهم من غيابات خزائن السماوات والأرض أول مرة، ولذلك أضلهم ما هم عليه يوم يسألهم عما كانوا به يشركون بقولهم: ﴿**وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:٢٣].

وعن هاتين الحالتين عبَّر ﷻ بقوله: ﴿**سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ**﴾ [الجاثية:٢١] وبقوله: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء:٧٢] ويوم البرزخ من يوم الآخرة فهو فيهما أعمى، وهو في الدار الآخرة أضل سبيلاً بقولهم: ﴿**وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:٢٣] وهاتان الحالتان من

(١) في النسخة (خ): «اضطراراتهم».
(٢) في النسخة (خ): «بها».
(٣) تقدم تخريجه.

عجيب أمر الله ﷻ.

يقول الله - عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ يقول الله - جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] أي: في الدنيا عن هديتهم، فجعل تأفيكهم هنا آية على تأفيكهم فيما هنالك، فتفهَّم فسبحان العليم القدير مصرفهم ومدبرهم كيف يشاء لما كذبوا الحق الواضح في الدنيا، وكفروا به وانتحلوا الإشراك ملة، ولم يقولوا الحق ولا شهدوا به مع تبين الآيات، وشهادة أشهاد جميع الخليقة وماتوا على ذلك حيوا إلى الآخرة على ذلك من كذبهم مع حقيقة المعاينة.

لذلك عجَّب الله [رسوله][1] ﷺ والمؤمنين من عظيم اقتداره على حقيقة الإماتة والإحياء، وإدخال الحياة في الموت وإدخال الموت في الحياة، كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأوجد اليقظة حال النوم والنوم حال اليقظة، فقال - عز من قائل: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤] ثم يجتمع الوجهان المذكوران أنهم يقولون ذلك بحقيقة الموت، ويحسون ما يحسونه بحقيقة الحياة.

وأمَّا قوله في سورة المؤمنين: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤] فإن اليوم في هذه [الحياة][2] مركب من سنين، وقد تقدم فيما مضى أن اليوم قد يكون سنة، ويكون سبع سنين، ويكون تسعًا وأربعين سنة، ويكون ثلاثة وثمانين سنة وثلاث سنين، وهي ألف شهر، ويكون خمسمائة سنة، ويكون سبعة آلاف سنة، ويكون كألف سنة، ويكون خمسين ألف سنة.

وأمَّا المؤمنون أهل العلم فهم الصادقون الذاكرون، الأحياء حقيقة في الدنيا وفي الآخرة وفيما بينهما، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا

---

(١) في النسخة (خ): «ورسوله».

(٢) في النسخة (خ): «الآية».

غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] كما قال: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية:٢١].

ثم قال - عز من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] فأعلمنا نصًّا [صريحًا][1] بأنهم كانوا في حال لبثهم في البرزخ لا يعلمون كما قد أعلمنا بحقيقتهم الأخرى في قوله الحق، وقد ذكر اليوم الآخر: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور:٤٦] ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧].

قوله - جل ثناؤه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا....﴾ [طه:١٠٥ - ١٠٦] نسفها يومئذٍ تسييرها، يجعلها كالعهن المنفوش وكالكثيب المهيل، ثم يسلط عليها الرياح فينسفها بها، ويستوي بما ينسف منها أودية الأرض وبطونها وكل مطمئن منها ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: مستويًا، فتكون بذلك بارزة، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، والهمس: هو الصوت الخفي.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: التقوى الأعلى ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[2] [طه:١١٣] التوبة الأدنى التي يتخللها السقوط في الذنوب ثم التوبة.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ [طه:١١٤] منتظم بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢] يقول - جلَّ من قائل: ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ [طه:١١٤] عن الحيف والظلم، ويكون أيضًا مع

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (خ).

(٢) ﴿يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: عظة وفكرًا واعتبارًا. وقال قتادة: ورعًا. وقيل: أنزل القرآن ليصيروا محترزين عما لا ينبغي ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يدعوهم إلى الطاعات، وأسند ترجي التقوى إليهم وترجي إحداث الذكر للقرآن؛ لأن التقوى عبارة عن انتفاء فعل القبيح، وذلك استمرار على العدم الأصلي، فلم يسند القرآن، وأسند إحداث الذكر إلى القرآن؛ لأنه أمر حدث بعد أن لم يكن، والظاهر أن «أو» هنا لأحد الشيئين. قيل: أو كهي في جالس أو ابن سيرين؛ أي: لا تكن خاليًا منهما. وقرأ الحسن: «أو يحدث» ساكنة الثاء. وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة والحسن في رواية والجحدري وسلام: «أو نحدث» بالنون وجزم الثاء، وذلك حمل وصل على وقف أو تسكين حرف الإعراب استثقالاً لحركته. تفسير البحر المحيط (١٢٢/٨).

هذا راجعًا إلى ما نسبه إليه السامري وفرعون وأتباعهم.

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه:١١٧-١٢٥].

قوله - عزَّ من قائل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] لا يضل من اتبع الكتاب والرسل، وما جاء من عند الله - جل ذكره - ولا يشقى في الآخرة، وربما نظم الله له العافية من الشقاء في الدنيا مع الآخرة، ويدخل في الآخرة يوم البرزخ.

عطف على ذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] أي: في الدنيا بعدم الهداية، وهذا أكثر ما يتصور في العصاة المليين، كما قال الحسن: إنهم وإن دقدقت بهم الهماليج، ووطئ الناس أعقابهم أن ذل المعصية لفي رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، ثم المعيشة الضنك للعصاة والكفار معًا في دار البرزخ.

ثم قال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤] أي: لا حجة له ولا علم عنده، وربما أتم عليه العمى ظاهرًا كما أعماه في الدنيا باطنًا، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى

مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [طه:١٢٦-١٣٥].

نص على الوجهين بقوله الحق: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي: في العصيان ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ هذا للكافر هذا في البرزخ، ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧] [ثم على حكم التدريج من مسرف أكبر ومسرف أصغر إلا ما شاء من عفو عن الملأ][١].

قوله - جل ذكره: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي: لكان العذاب لزامًا، تقدير الكلام: ولولا كلمة سبقت من ربك ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:١٢٩] لكان العذاب الآن لزامًا ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ في هذا تعريض لصلاة الليل وصلاة الضحى، دلَّ على ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:١٣٠] وقرئ: «لعلك تُرضى»[٢] من أرضى ربه أرضاه.

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (غ).

(٢) قرأ الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (ترضى) بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله، والباقون بالنصب يعني: ترضى أنت؛ وقال أبو عبيدة: وبالقراءة الأولى نقرأ بالضم؛ لأن فيها معنيين أحدهما ترضى أي: تعطى الرضا، والأخرى ترضى أي يرضاك الله. [بحر العلوم للسمرقندي (١١٧/٣)].

نظم ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نصب زهرة على الذم، دلَّ على ذلك قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١] هو ما ذكره في صدر السورة ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:٢ - ٣] إلى آخر المعنى، فما رزقه من القرآن والعلم به والمعرفة والعمل بطاعته خير له وأبقى.

ويكون أيضًا انتظامه بما يقابل قول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:٧١] نظم بذلك قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾ [طه:١٣٢] أمره ﷻ رسوله ﷺ بأن يأمر أهله بالصلاة أمره لمن تبعه، قال رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...**»[(١)].

وضمن الله - جل ذكره - رزق عبده على العمل بطاعته، ووعد على التقوى بالعاقبة، فمفهوم هذا الخطاب أنه من شغل نفسه بطاعة ربه فعلى ربه رزقه، قال الله - جلَّ من قائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ - ٣] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] واعلم مع ذلك أن هذا أمره؛ أي: شأنه أنزله إلينا وأعلمنا به بقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق:٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ [طه:١٣٣] روى ورش عن يعقوب أنه قرأها: «**أو لم يأتهم بينة ما في الصحف الأولى**» بالياء؛ يعني: القرآن، وهو أعلم.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا تأويله ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:١٣٥] السوي: المستقيم، وهو صراط الإسلام، وهو الحق المخلوق به السماوات والأرض، فافهم.

وقرأ ابن عباس: «**الصراط السَّوْء**» وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم: «**الصراط السُّواء**» بضم السين وإسكان الواو والمد والهمز على تأنيث الصراط، وقد روي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٨) ومسلم (١٨٢٩) وأبو داود (٢٩٢٨) وأحمد (٤٤٩٥) والترمذي (١٧٠٥).

عنهما: «السوّي» بغير همزٍ وتشديد الواو، فعلى هذا فمعناه: [وستعلمون][1] من أصحاب الضلال، ومن أصحاب الهدى[2].

---

(١) في النسخة (خ): «سيعلمون».

(٢) حكى عن الفراء الصراط السوي فيه خمس قراءآت الأولى: على فعيل أي المستوى، والثانية: السواء أي الوسط، والثالثة: السوء بفتح السين بمعنى النشر، والرابعة: السوءى وهو تأنيث الأسوأ وأنث على معنى الصراط، أي: الطريقة كقوله تعالى: (استقاموا على الطريقة) والخامسة: السوي على تصغير السوء. [التبيان في إعراب القرآن للعكبري (١٢٩/٢)].

فهرس المحتويات